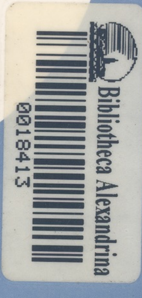
جورجي كنعان

مَفهُوم الألوهَة

في الذهن العربي القديم



مَفهُوم الألوهَة

في الذهن العربي القديم

الطبعة الثانية ١٩٩٦

مَفهُوم الألوهَة

في الذهن العربي القديم

جورجي كنعان

بيسان للنشر والتوزيع
ص. ب. ٥٢٦١ - ١٣ بيروت
هـ ٣٥١٢٦٩

عرضحال

الكاتب يعي أنه يغنّي في وادٍ، والعالم يحتفل في وادٍ آخر. ومن يصدّق أن كاتباً يستطيع أن يمسح الغشاوة عن بصائر شعوب نصف الكرة الغربي، ضحية وعي زائف، تعتقد أن يهوه هو الله؟.

سيعتبر المؤلف أي كتاب من مؤلفاته قد كُوفيء بسخاء إذا ما استرعى انتباه فضلاء الناس إلى موضوع مهم، ومهمل بشكل يثير الدهشة والاستغراب. وإذا ما دفع أحداً بينهم إلى تطوير عمله هذا، أو إلى رعايته : إعادة طبع مثلاً، أو ترجمة ونشراً في وجوه العقول المعطّلة التي تدبّ في مستنقعات من التخلّف، وتسرح في فراغ ذهني مريع. ففي اعتقاد المؤلف أن استئصال فكرة خاطئة من رأس إنسان لأجدى كثيراً من استئصال ورم في الجسد، كما يقول لوسيان السميساطي (ابن بلدنا) .

عمد المؤلف إلى تكرار بعض العبارات والأفكار والنصوص، في محاولة لتحرير الأدمغة المغسولة من الأحكام المقرّرة، ومن دوائر التصديق التي تدور في متاهاتها على غير برهان. وفي رغبة لتلقيح الوعي الذي ما يزال أرضاً بكراً، تمطرها سحب الوقائع الشائهة وتجتاحها رياح الدعاية المخادعة وتهوّم في أجوائها غيوم التضليل المتعمّد .

وأرجو أن يعذرني الذين ينسبون إليّ التكرار والترداد. فالأذهان المخصيّة كثيرة. وما التكرار إلاّ تعبير عن رغبتي الجامحة في إخصاب ما يمكن إخصابه من أذهان خصاها كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) فاستعبدها. وجعل عقول مئات الملايين في نصف الكرة الغربي كالصفحة البيضاء، تتقبّل ما يُكتب فيها وما يُرسم عليها دون تأفّف أو تذمّر. وجعل أشداقها كأشداق الوديان تردّد أصداء ما يصطدم فيها من أصوات دون تغيير أو تبديل. ودون أي محاولة، على الأقل، في التفكير بما سمعته، والتبصّر في ما أُلقي إليها .

تقدير

للعطاء مفهوم أخلاقي من حيث هو فعل محبة، ومفهوم إنساني من حيث هو تعاون، ومفهوم حضاري من حيث هو تفوّق. المتفوّق وحده يعطي، ويعرف أنه يعطي. وأعتقد أن الذي يساهم في دفع كتاب إلى مسيرة تاريخ الحضارة هو صاحب رسالة إنسانية، أخلاقية، وحضارية.

بارك الله الصيدوني الطيّب النبيل محمد علي الشمّاع، الحائز على الميدالية الذهبية الكبرى من لجنة المكافآت الدولية للعمل الإنساني (باريس). والصيدوني المستنير خلدون البابا نجل الكريم النجل صلاح طه البابا. والسيدة الفاضلة فضيلة فتّال نجل حامل مشعل النهضة واصف سعد الله فتّال. وشيخ مزيارة الجليل المنعم جوزيف توفيق نعمان. فقد أعطوا بمحبة، وبشعور المغتبط بإنارة الضالّين والمضلّلين.

كلمة من القلب

إلى الأستاذ محمد السماك(*) المحترم :

بلغني قولك إن جورجي كنعان صاحب رسالة. بوركت. وبورك وعيك المعرفي في مجتمعات من الأدمغة المغسولة والعقول المعطّلة .

وبما أنك من حملة الهموم الذين وحدهم يفهمون الرسالة، ويحسّون في نفوسهم طموحها البعيد، أرجو وآمل أن تقدم كتابي هذا إلى دولة الرئيس رفيق الحريري، أو إلى من تعرف ممن أنعم الله عليه بالثراء الفكري والمادي، فيساعدني على طبع ما أكتب .

وأرجو يا أستاذ محمد أن تلمّح في حديثك مع الرئيس الحريري، أو مع معارفك المستنيرين، إلى خلاصة القول في كتابي الأخير «الأصولية المسيحية» :

إن الكاتب يعي أنه يناضل في ميدان مهجور ـ ميدان الوعي المعرفي، لأنه يدرك أن المجتمع وعي معرفي، والمعرفة الواعية أم الفضائل جميعها. ويدرك أن النضال بالبندقية وبالسياسة والاقتصاد لا يغني عن الوعي المعرفي شيئاً. ويؤمن بأن في الرأي العام العالمي حدّاً أدنى من الفهم، وقدراً كافياً من المنطق والعدل، لا يمكن للديماغوجية الصهيونية أو للزعامة الأصولية أن تستمر في تعطيله أو اغراقه في بحرانها الفاجع .

ويعي أن أهم عامل من عوامل التخلّف الذي نعاني هو عزوفنا عن قراءة الكتاب المقدس. وليس أدلّ على خطورة هذا الغلط من أن الباحثين جميعهم، دع عنك الساسة وعامة الناس، يعتقدون أن يهوه هو الله .

ومن هنا تشتد الحاجة إلى وعي معرفي قوي، عميق، وشامل، ينتشلنا من الركود

(*) محمدالسماك مفكر عربي مستنير (فليس المفكرون جميعاً مستنيرين. أو قل إن لدى قلة نادرة منهم قدرة أو عزيمة على الاصغاء لصوت العقل). له دراسات مختلفة وترجمات. من مؤلفاته : الإرهاب والعنف السياسي ١٩٨٦ ، تأملات في الدين والإنسان والسياسة ١٩٩٠، الصهيونية المسيحية ١٩٩٣ .

الأخلاقي وينفح صدورنا بإيمان متقد .

إلى ثورة فكرية شاملة تتناول بالنقد والتمحيص جميع مفاهيمنا وقيمنا الموروثة. فتنفي منها ما لم يعد صالحاً لأوضاعنا الراهنة، وتحلّ محله من المفاهيم والقيم ما ينسجم مع تحوّلنا الكبير الذي نسعى إلى تحقيقه.

إلى إيقاظ الوعي الغافل في أذهان جماهير عريضة من المؤمنين، اجتاحها التيار الأُصولي فآمنت بتاريخ حروب بني إسرائيل الذي تحوّل بالمسيحية من قصص بدائية إلى «مسلّمات» و«حقائق مطلقة». وبالمسيحية أيضاً ارتفع من الأرض إلى السماء، فأضحى مقدساً، وبالتالي ديناً وإيماناً .

والكاتب يرمي إلى فتح نافذة من التعارف بين الكتاب المقدس وبين الجماهير التي تقدّس هذا الكتاب .

صحيح أن النافذة ضيّقة، يطلّ الكاتب منها على ثلاثة آلاف وجه (على عدد النسخ المطبوعة من هذا الكتاب). وصحيح أن بعض هذه الوجوه فارغ (لا يعي ولا يريد أن يعي . لا يعرف ولا يريد أن يعرف). والقليل منها يعي ويعرف فيكون من حملة الهموم الذين وحدهم يفهمون الرسالة ويحسّون في نفوسهم طموحها البعيد .

وصحيح أن الجماهير التي تقدّس هذا الكتاب، أو تمحضه الاحترام، تربو على ملياري بشري .

ولهذا سيعتبر المؤلف أي كتاب من مؤلفاته قد كُوفيء بسخاء إذا ما استرعى انتباه فضلاء الناس إلى موضوع مهم، ومهمل بشكل يثير الدهشة والاستغراب. وإذا ما دفع أحداً بينهم إلى تطوير عمله هذا، أو إلى رعايته: إعادة طبع مثلاً، أو ترجمة ونشراً في وجوه الأدمغة المغسولة والعقول المعطّلة التي تدبّ في مستنقعات من التخلّف، وتسرح في فراغ ذهني مريع .

ولكم يرجو المؤلف ويأمل أن تبلغ دعوته سمع مستنير، أنعم الله عليه بالثراء الفكري والمادي، فيأمر بترجمة هذا الكتاب إلى بعض اللغات الغربية لينير الضالّين والمضلّلين . وبورك بمن استنار فأنار .

وإذا ما أدرك المؤلفَ الموتُ قبل أن يدركه هذا الأمل أو الرجاء، فسيبقى كتابه على رفوف المكتبات ينتظر اليد التي تمسح عنه غبار السنين، وتجمع بعض ما فيه إلى بعض ما في غيره، في دعوة لاعتاق المخصيين ذهنياً من أُطر (المقدسات) ومن قيود (الحقائق الثابتة) .

مقدمة

ينطلق الباحث من إيمانه بأن المعرفة الإنسانية الحق تصدر عن قراءة ذكية لتراث الشعوب ، وعن فهم خلّاق للماضي في علاقته بالحاضر . ومن هنا كانت رغبته في العودة إلى المراحل الأولى في حياة الإنسان المشرقي القديم ، مراحل العفوية البدائية والصفاء الطبيعي ، قبل أن يعكّره تعقّد الحضارات وتشوّهه التأثيرات المعقّدة وتتراكم فوق جوهره . في محاولة لفهم ذلك الإنسان في وجه من جوهره الثابت ، أو في ما ثبت منه على مرّ العصور . ولاستشفاف فكرة الألوهة في مفهومه التي كانت في أول نظرة ألقاها على كونه وعالمه . وبقيت حيّة فاعلة في نفسه وفي مجتمعه . وبقي بدوره محافظاً على خصائصها الجوهرية .

ومحاولة الباحث في هذا الموضوع تعتمد على مكاسب المكتشفات الآثارية وعلى تطوّر الفكر . فقد ثبت له بعد مطالعات تاريخية كثيرة وتأمّلات عميقة في خطوط الفكر القديم وأبعاده ، أن مفهوم «العالي» - (ايل - إله - الله) هو من ابداع الشعوب التي ظهرت مع بداية التاريخ المدوّن (أواسط الألف الرابع ق.م.) متوطنة في الشرق المتوسطي ، وبالتحديد في المنطقة الممتدة بين هضاب وادي النهرين الشرقية وبين البحر الأبيض المتوسط . ومن جبال طوروس في الشمال حتى آخر حبة رمل في سيناء جنوباً . والتي اصطلح على تسميتها منذ أواسط الألف الأول ق.م. باسم سوريا . والتي تشكّل وحدة تاريخية وجغرافية وحضارية .

كأني بالقارىء وقد سرحت في وجهه مسحة من الدهشة الغامضة ، وانداح في خاطره سؤال بسيط ، لكنه عميق كالفكر . واضح ، لكنه معقّد كالغباء : وهل لمفهوم العالي (ايل - الله) تاريخ ؟ .

مهلاً ، ففي الأزمات المصيرية تبدو العودة إلى بعض الخطى المنسية أو المهملة أو الغامضة في مسيرة التاريخ ، نوعاً من الكشف عن المجهول . ويبدو تثبيت بعض القيم

والمفاهيم قريباً من الخطر والشأن من إخراج المعجزة ومن الحاح الخبز اليومي . بلى ، إن لمفهوم العالي (ايل ـ الله) تاريخاً ، وتاريخ العالي (الله) هو القضية .

خاطران في الذهن ، هما باعتباري معقدا الأهمية والطرافة . الأول : قد يكون أحدنا من الصارخين مع بعض الفلاسفة : «إن إله الكتب المقدسة قد قتلنا» . أو من القائلين مع بعضهم الآخر : «إن حضور الإله الديني في الوجود الإنساني آخذ في التقلّص أو الاختفاء يوماً اثر يوم» . أو من العلمانيين الذين فقدوا الإيمان بالغيبيّات ، فهم يعتبرون الوجود طبيعياً ، ويفسّرون الحياة تفسيراً علمياً . فمن المسلّم به أن العقلية الغالبة في العصر الحديث تنزع إلى الاهتمام بهذا العالم الأرضي ، وبالعوامل البشرية ، والطبيعية المسيّرة للأحداث . وبالعقل المنطلق إلى استكشاف الحقيقة بالملاحظة والتجربة ، فيخضع كل شيء مهما قدم عهده أو عظمت حرمته لمحك الامتحان الدقيق والنقد المحكم المتزن . ومن المسلّم به أيضاً أن الإنسان أضحى بعد قيام ثورة العلم والصناعة ، واستتباب حرية الفكر في كثير من المجتمعات ، لا دينياً . وأحياناً عدواً لدوداً للدين . ومن المسلّم به أيضاً لدى جانب كبير من المجتمعات في أيامنا الحاضرة أن ما يسيّر العالم اليوم ليس الله بنظامه أو مخططه ، وإنما هو الإنسان بعقله وديناميته . ومن المسلّم به أيضاً وأيضاً أن علامات الارتياب والشك والإلحاد بالدين ، أو اللامبالاة واللاكتراث بمقولات رجال الدين والكتب المقدسة ، أضحت هي الميزات الأكثر بروزاً في مجتمعنا العلمي والصناعي ، رغم أن المرتابين واللامبالين والملحدين لا يعلنون عن أنفسهم ولا يجاهرون بمفاهيمهم العلمية أو بمقولاتهم المنطقية .

وقد يكون إله الكتب الدينية قد غاب أو اختفى حسّياً وتاريخياً في كثير من المجتمعات العلمية والصناعية . وقد يكون مطارداً أو ملاحقاً بالانتقاد البيولوجي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو النفسي أو التاريخي .

ولكن مفهوم «العالي» ـ (ايل ـ إله ـ اللهَ) السوري المولد والنشأة ، الذي هو محبة ومساعدة وتضحية ، كامن في أعماق الضمير الإنساني . ولن تستطيع أي ثورة علمية أو صناعية أن تحذفه من الضمير الإنساني ، لأنه هو الضمير الإنساني في محبته ومساعدته وتضحيته .

الخاطر الثاني : وقد يكون من الضروري استجلاء الملامح المختلفة التي أعطتها المجتمعات القديمة لمفهوم «العالي» ـ (ايل ـ الله) . والقاء بقعة من الضوء على الأقنعة التي ألبسته إياها ورأته من خلالها . والتفرّس في الأصنام التي نحتتها له ، وجعلته بها موضوعياً . والتأمّل في الصيغ المختلفة التي حاولت أن تحصره ، تدلّ عليه ، تلمّح إليه .

لأن هذا المفهوم هو الأساس والجذر المشترك للمعتقدات سائرها . ولأنه من القضايا أو المشكلات الكبرى التي شغلت العقل الإنساني مذ بدأ يعرف ذاته ويعي وجوده . ولأن وعي هذا المفهوم (الله) هو وعي الإنسان لذاته . ولأن تاريخ الإنسان هو تاريخ الإله الذي افترض وجوده ونسب إليه مجريات الطبيعة والحياة كلها . ولأنك إذا أردت أن تعرف حضارة ما ، فعليك أن تكون على علم بآلهتها[1] .

ولكن الضروري هو وضع مفهوم الألوهة في إطاره التاريخي والحضاري . وابراز مدلولاته في ذهنية الإنسان القديم في الشرق المتوسطي . وتكثيف الأضواء على القيم التي تضمّنتها معتقدات الشعوب القديمة في الشرق المتوسطي ، وعلى أخلاقها ، وما يتصل بوجودها الإنسان والحضاري .

والحقيقة أن البحث في مفهوم الألوهة في الذهن المشرقي القديم ، دقيق وجليل . أو قل هو من الدقّة والجلال بحيث لا يوازيه موضوع ، خاصة في القرن الذي نعيش (العشرين بعد المسيح) . هذا القرن الذي شهد طرد شعب (الفلسطيني) من وطنه ، ظل متجذّراً في ترابه لأكثر من خمسة آلاف سنة . واستولى عليه مجموعات بشرية (بنو إسرائيل) اقتُلعت أو اقتَلَعت نفسها ، من أوطانها ، وهاجرت إلى الوطن المستولى عليه (فلسطين) باسم ربّها (يهوه) الذي يعترف به أتباع الديانتين المسيحية والمحمدية على أنه هو الله .

ولعل أهم الدواعي والضرورات التي اقتضت دراسة مفهوم الألوهة في الذهن المشرقي القديم ، هو أن جماعة بني إسرائيل الذين لم تُعرف لهم جذور في أرض معيّنة ، تجمّعوا في وقت ما (هو باتفاق المؤرخين القرن العاشر ق.م.) في بعض مرتفعات فلسطين ، وأقاموا نوعاً من الكيان المزعزع القلق المفكك المتنازع ، ظل محصوراً في رقعة لا تتجاوز عشرة أميال مربعة ، ولم يعمّر أكثر من ثمانية وسبعين عاماً ، وهي المدة التي حكم فيها داود وسليمان . ثم سباهم البابليون والأشوريون إلى بلاد ما بين النهرين . وهناك وضع أحبارهم وكهّانهم تاريخهم (التوراة) . وفي تدوينهم ذلك التاريخ وضعوا على لسان إلههم (يهوه) وعده لهم باعطائهم أرض فلسطين «ميراثاً أبدياً . سفر التكوين ١٧ : ٨» ، في ما عقد من عهد أو حلف مع آبائهم الأولين . وانتحلوا تراث بابل وكنعان وادّعوه تراثاً يهودياً . وأخذوا بلسان أو شفة كنعان وادّعوها لغة عبرية . وتبنّوا إله سوريا الطبيعية «ايل» ـ (الله) ، ودمجوه بإلههم (يهوه) الذي صار إله الشعوب المؤمنة بما يسمى الديانات السماوية ، خاصة شعوب نصف الكرة الغربي .

ومع الخاطرين في الذهن ثمّة فكرة تحاصر عقلي وتلقي بظلها الكثيف على

وجـودي ، وهي أني نشأت في عصـر يتميّز بـالانحلال الخلقي وبـازدراء التفكيـر . عصـر تـدهورت فيـه موازين القيم في العـالم ، واضطربت مفـاهيم الحياة وأعـراف المجتمـع ، وتبلبلت المقولات العقائـدية والتـاريخية والسلوكيـة . وعشت بين أقوام متفسّخـة حضاريـاً وخلقياً ، تدبّ في مستنقعات من ضحالة الوعي القومي والاجتماعي والسيـاسي والديني . وخاطبت جماهير من الوجوه الفارغة والأدمغة المغسولة ، تتخبّط في أوحـال من التخلّف ، وتسرح في فراغ ذهني مريع .

والمشكلة في هذا العصر وهـذه المجتمعات ليست في حـرية التفكيـر : من تشكيل لـلأفكار أو تـأليف للقناعـات أو صيـاغـة للمفـاهيم . وإنمـا هي في التنـظيمـات الـدينيـة والاجتمـاعية والسيـاسية التي تـرفع شعـارات أيديـولوجيـة تبريـرية مـزيّفة ، تهمـل الفكـر وتزدريه ، وتزعزع ثقة الفرد في تفكيره المستقل . وتنكـر عليه قنـاعاتـه الخاصـة ومفاهيمـه الذاتية . تريده أن يأخذ بالاقتناعات التي أعدتهـا له وبـالأفكار التي ركّبتهـا من أجله . وكل إنسان يجاهر بتفكيره أو يجادل بمفهومـه ، على اعتبار أن العصـر والمجتمع يـوفّران لـه جو الحرية الفكرية ، هو في نظر التنظيمات خارج على المفاهيم المجتمعية ، غير ملائم ومثير للارتياب ، مصيره الإهمال والنبذ والإبعاد .

إني أُعـاني من الشعور بـالغربـة وسط حياة اجتمـاعية هي في الـدرجات الـدنيـا من التخلّف الفكـري والانحـطاط الاجتمـاعي والأدبي . تـدرج فـوق أرضهـا ظلمـة المعـاني والتواؤها . وتسودها المواربة في التفكير والتعبير . وتقودها قوى قادرة متسلّطة نـافذة القـول تعمـل على ترويـج الشعارات الجـوفاء التي تُبقي الجمـاهير في جـوٍ من الخبل الفكـري . وعلى تنظيم الجهل في دوائر قبلية أو طائفية صغيرة ومقزّمـة ، تعشّش فيها أمـراض التفسّخ والانحلال الاجتماعي والأخلاقي .

وأُعاني أيضاً من انهيار القيم والفضائل في شعوب متخلّفة ، تجهل المثـل الأخلاقيـة العليا والمفاهيم الإنسانية السامية التي كانت لها في تاريخ القديم .

لقد انحط التفكير السيـاسي والاجتماعي والتـاريخي والديني إلى الـدرك الأسفل في دوائـر كثيرة من مجتمعـات هذه الشعـوب . وبات الانحـطاط الأخـلاقي والفسـاد الفكـري والاجتماعي والسياسي سيّد القوم .

إنّ تخلّف المفاهيم السياسية والاجتماعية والدينية يؤدي حتماً إلى تخلّف المؤسسات والأنظمة التي تعمل بهدي تعاليمها . والأنظمة المتخلّفة تعمل على تنظيم مظاهـر التخلّف في جمعيـات أو أحزاب أو كيـانات تُعـاني أمراض الـطائفية والعـرقيـة والإقليميـة ، فتـأتي الروابط التي تجمع بين إنسان وآخر في كثير من مجتمعاتنـا روابط دينية طـائفية ، لا روابط

اجتماعية وإنسانية . وهذه الأنظمة تعمد إلى تعطيل العقل أو تعويده على الكسل ، وإلى إخفاء الحقائق والخلط بين الصحيح والمزيّف ، فيتسلّل الظلام إلى العقول وتطمس الوقائع ويزيّف التاريخ . وعندما تتخبط العقول في مهاوي الشدّة واليأس تنمو في حياة الناس طقوس عبادة الحظ والصدفة المؤلهة .

ولذلك فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى استجلاء المفاهيم الأساسية التي تقوم عليها حياتنا ، وأهمها مفهوما الحضارة والألوهة . الأول لاعتقاد في نفسي يزداد تمكّناً يوماً بعد يوم ، أن الحضارة هي الإطار الذي تنتظم فيه وتنطلق منه القضايا القومية والإنسانية سائرها . وأن معالجة مشكلة أو قضية ما من المشكلات والقضايا التي تزدحم في حياتنا ، لا تكون بإدراك أو بجهد معيّن ، سياسي أو اقتصادي أو غيره ، بل تستوجب تفهّماً حضارياً في بلوغ ذلك الإدراك . ولأننا عندما ننظر في أوضاعنا أو في أوضاع المجتمعات الأُخرى بمضموناتها الحضارية وبشمولها الحضاري ، ننفذ إلى جذور هذه الأوضاع ونجابه مشكلاتها في أعمق المستويات ، ونتجهّز بما يمكننا من الحكم في شؤونها حكماً واعياً وسديداً[٢] . .

ثم إن النظر الحضاري الواعي يوسّع آفاقنا ويعمّق مداركنا ويساعدنا على وضع مفاهيم الحياة الأُخرى في مواضعها من ضمن الروابط التي تربطها والوحدة التي تجمعها . ذلك أن الوضع الحضاري هو الوضع الذي تلتقي به وتبيّن على ضوئه الأوضاع الأُخرى على اختلافها في مجتمع من المجتمعات . ولأن الحضارة هي الوحدة الأساسية والمعقولة في أي دراسة تاريخية[٣] . .

والثاني (مفهوم الألوهة) لاعتقاد في نفسي أيضاً أن هذا المفهوم هو أسمى ما وصل ، وما يمكن أن يصل ، إليه الذهن الإنساني . ولقد مضى زمن غير قصير قبل أن يبدأ الذهن السوري القديم ، وعلى ضوء أنقى الأذهان البشرية ، بافتراض وجود هذا المفهوم الكامل ، المجرّد عن جميع الغواشي الحسية ، ويطلق عليه صفة العالي (عل ـ ايل ـ إله ـ الله) .

ولأن تاريخ الإنسان في هذه الأرض مرتبط بتاريخ هذا المفهوم الذي تعبّد له على مرّ العصور ، ونسب إليه كل مجريات الطبيعة والحياة . فلقد كان كلّي الحضور في حياة الفرد ، يطوّقه من كل جانب ، ويوجّه أعماله في زمني السلم والحرب . وكان مطلق السلطان في تحكّمه بأفعال الإنسان ، أو قل إن كل شيء يخضع لسلطانه . كان عضد الحياة الاجتماعية ، وكان المبدأ الملهم والمنظّم في المجتمعات القديمة . وكان الأساس والجذر المشترك للديانات التاريخية سائرها .

ولأن الإنسان المعاصر (العقد الأخير من القرن العشرين) لم يفكّر يوماً بأن الإنسان القديم في الشرق المتوسطي (اكتشف) الإلـه ، أو تكشّف له الإلـه . وأن وعيه «العالي» ـ (الله) هو وعيه لذاته . وأنه ارتقى دون واسطة سماوية إلى افتراض وجود قوة عليا اطلق عليها صفة العالي (عل ـ ايل ـ إله ـ الله) . افترض فيها القوّة المطلقة : قوة الخلق ، وقوّة الافناء ، وافترض أنها ترعى شؤونه . ولكنه يجيبك ، إذا ما واجهته بالسؤال ، بأن معرفة الله قد مُنحت له كهبة إلٰهية .

لذلك وغيره كان الموضوع الذي لازم تفكيري في السنوات الأخيرة ، واستأثر بجزء وافر من قراءاتي وتأملاتي هو مفهوم الألوهة في الذهن المشرقي القديم . وكانت غايتي في هذا البحث هي استجلاء هذا المفهوم في التراث السوري ـ العربي القديم ، ومحاولة الوقوف على جوهر الإله كما تكشّف للإنسان القديم في سوريا الطبيعية . والصور والأفكار التي عبّرت بها مجتمعات سوريا القديمة عن هذا المفهوم . ومن ثم عرض تاريخه وإيضاح مدلوله وخصائصه وأبعاده الإنسانية ، كما عبّرت عنها النصوص التي وصلتنا من مختلف منائر الأرض السورية . وبذلك نتعرّف إلى أعمق الأفكار وأقوى العقائد التي انبثقت من هذه الأرض ، وعمّت مجموعات متعددة من الشعوب القديمة ، ودامت أكثر من غيرها في مساحب التاريخ .

والحقيقة أن استيضاح مفهوم الألوهة في الشرق المتوسطي القديم ضروري لفهم المجتمعات القديمة في هذا الشرق : اتجاهاتها وغاياتها ونظرتها إلى غيرها من الأفراد والمجتمعات ، وسلوكها إزاءهم . لأن هذا المفهوم هو الذي حدّد المبادىء التي تقوم عليها حياة الأفراد والمجتمعات ، وكيّف الروابط التي تنظّم حياتهم ، والعوامل التي تحركهم أو تدفعهم ، وعيّن لهم الاختيارات الواعية وغير الواعية التي تميّزهم كأفراد ومجتمعات معيّنة عن سواهم من الأفراد والمجتمعات الأُخرى .

واستيضاح مفهوم الألوهة ضروري لفهم المجتمعات الحديثة أيضاً ، لأنه يكيّف الاختيارات الواعية وغير الواعية التي تتمثّل في القواعد السلوكية في حياة الأفراد والمجتمعات . ويحدّد الغايات التي يرومونها أو يتجهون إليها . ويساعدنا في الوقوف على مفاهيم الحياة الأُخرى على اختلافها ، القائمة في مجتمع من المجتمعات . وعلى تحديد مواضعها من ضمن الروابط التي تشدّ الأفراد في المجتمع الواحد ، والوحدة التي تجمع بينهم .

والحقيقة الثانية أن مفهوم الألوهة ، كاختبار نفسي عميق ، هو أهم وأثمن ما قدمته سوريا الطبيعية إلى العالم . وقد كان للأفكار المعبّرة عن هذا المفهوم أهميتها البالغة في

حياة المجتمعات ، وفي تاريخ الفكر الديني بمفهومه الحالي . وما من فكرة إنسانية عمرت كفكرة العالي (عل - ايل - إله - الله) ، وأسهمت مثلها في دفع عربة الحضارة ورفع مستوى الإنسان .

والحقيقة الثالثة أن مفهوم الألوهة متأصّل ومتأسّس في كل لحظة وفي كل إنسان . وبذلك يصبح دائم الجدة والحضور في الإنسان . ولذلك فأنت تعرف الإنسان بالإله الذي آمن به وتعبّد له . وتعرف الإله بالإنسان الذي (اكتشف) ، أو تكشّف له ، هذا الإله . ومن هنا فإن البحث في مفهوم الألوهة وسيلة للتعرّف على الحقيقة المطلقة - «العالي» (ايل - الله) ، وبناء صورة واضحة للإنسان القديم في سوريا الطبيعية في (اكتشافه) هذه الحقيقة المطلقة ، أو في تكشّفها له . واعتقد أن وعينا لهذا المفهوم الذي نبت وأزهر وأينع في أرضنا ، يزيدنا محبة ويحضّنا على فعل الخير للغير ، لأن هذا المفهوم بحد ذاته هو المحبة المطلقة والخير المطلق .

أسوق هذه المقدمة أمام القارىء لأعبر عن دوافعي للبحث . وعن الأسباب التي حملتني على التنقيب والكتابة ، في محاولة للوقوف على وعي الإنسان القديم في الشرق المتوسطي للعالي (ايل - الله) ، وعلاقته به كإنسان . وعلى الشعور الأول الذي خالج صدره يوم انطلق حرّاً من كل قيد ، ينظر إلى الكون بعقله ، لا من حرف مقدس . يبني وينظّم مجتمعه على أسس تكفل الخير والعدل للجميع .

موضوع «العالي» - (ايل - الله) غني وفعّال . وقد كان له أهمية كبرى في حياة المجتمعات . وأثر بالغ في تاريخ الحضارة الإنسانية ، وتاريخ الفكر الديني . وهذا الموضوع شائك ومتشعّب ، ولذلك رأيت ألّا أقتصر في معالجته على جانب واحد ، بل أتناوله من الجوانب التاريخية والفيلولوجية والحضارية .

عالجت في القسم الأول ، وبايجاز ، جوانب مشعة من تاريخ الحضارة السورية التي انبثق عنها مفهوم «العالي» ، معتمداً في تصفّح هذا التاريخ على الأدلّة الأثرية الكثيرة التي عثر عليها علماء الآثار . وعلى ما تكشّفت عنه منائر هذه الأرض من نصوص ونقوش وصلتنا كما حفرها الإنسان المشرقي القديم على ألواح الطين أو نقشها على جدران المعابد وأبواب القصور . لم تنقّح ولم تنسخ من جديد ، ولم تحوّر حذفاً أو إضافة . ولم تصلنا عنها نسخ متأخرة . بل وصلتنا هي بذاتها كم كتبت وكما نقشت .

وعالجت في القسم الثاني مفهوم الألوهة من مرحلة وعي «السيّد» «العالي» - (الله) في ذهن الإنسان القديم في سوريا الطبيعية ، إلى مرحلة توضّح المفهوم في صورة مبدأ من المبادىء الأولية الكونية ، كانت في أذهانهم من الوضوح بحيث لم يروا ضرورة لشرحها أو

تحليلها . ومن الشمول والإحاطة بحيث لا يمكن التعبير عنها .

وفي الفصل الثاني ألقينا الضوء على ما أبدعه المشرقي القديم من فكر ميثولوجي غني وفعّال ، كان له أثر كبير في تاريخ الحضارة الإنسانية وتاريخ الفكر الديني .

وفي الفصل الثالث بحثنا في الصفة التي أطلقتها الشعوب القديمة في الشرق المتوسطي على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء . ثم عرضنا نماذج من الأسماء المقترنة بصفة القوة العالية في مركب إسنادي أو إضافي .

وفي الفصل الرابع أوجزنا القول في عقيدة الخصب الغنية بطقوسها وشعائرها ، فكانت من أكثر المعتقدات المشرقية القديمة انتشاراً وأبلغها تأثيراً في بلدان حوض المتوسط .

وفي الفصل الخامس ألمحنا إلى بعض قواعد السلوك وأعراف الأخلاق التي حكم بها الإنسان القديم في سوريا الطبيعية سلوكه ، وحدّد نوع علاقاته بالآخرين ، وعيّن مستوى عواطفه وانفعالاته . ثمّ فصّلنا القول (الفصل السادس) في مفهومه لـ «السيّد» «العالي» - (الله) ، وما يتضمّنه هذا المفهوم من مشاعر إنسانية تعبّر عن معاييره الأخلاقية في السلوك ، وعن درجة إيمانه بالفضائل والقيم الإنسانية .

وفي خاتمة البحث أشرت إلى نماذج من سقطات المؤرخين الغربيين وأغلاطهم ، على أمل أن تكون حافزاً لمؤرخين آخرين في الغرب والشرق ، للعمل على كشف السقطات وتصحيح الأغلاط قبل أن يفوت الزمن ويصبح الخطأ هو القاعدة .

تمهيد

أ

ظل مفهوم «العـالي» (عل ـ ايـل ـ إله ـ الله) منـذ ظهوره مـع بدايـة التاريـخ المدوّن (أواسط الألف الرابع ق.م.) غامضاً ، معقّداً ، وحافـلاً بالأسـرار . ومن هنا قلّة الكتـابات التي تضمّنت البحث في هذا المفهوم . ومحاولة المؤلف الكتابة في هذا الموضوع لا تعني البحث في الصورة التي ألفها الفرد عن «الله» في كتابه المقدس . وهي الصـورة التي تتبادر إلى ذهنـه عند ذكـر «الله» . ولا في «الحقيقة المـطلقة» التي يحصـرها في ذهنـه في صورة معتقدات عاطفية متوارثة في إطار من المقولات المحدّدة المعيّنة . والتي أضحت أمام جيل العلم المادي المعاصر علامة استفهام ورمزاً لبراءة الإيمان المتجذّرة في النفوس البسيطة . أو الممتدة إلينا من الماضي البعيد بالنقل والتوارث .

فنحن لا نرمي إلى دراسة «الحقائق المطلقة» الخالـدة المقدسـة . أو دراسة التقـاليد والطقوس ، والناس المندمجين بها اندماجاً شديداً كاملاً هو أشبه باندمـاج الإنسان القـديم بالطبيعة . فإنسان اليوم الذي يؤدي الطقوس ويحيا بها هو أشبه بإنسان ما قبل التاريخ الذي كان ينساب في مجرى الحياة الطبيعية إنسياباً طبيعياً مثل القطعان والأسماك .

ولا يعنينا في مجال هـذا البحث تناول مـوضوع الـدين وجدانيـاً أو عاطفيـاً ، وبصيغ تقريرية ، كما تناوله علماء الدين والدارسون من أتباع الديانات التاريخية . ولا يهمّنا «تفهّم الفكـر الديني بـطريقة علميـة» كما يحـاول بعض الباحثين ، أو على الأقـل يدّعي محـاولة ذلك . ولا نقصد إلى البحث في تاريخ الديانات ، وفي ما هي عليه من كثرة في المـذاهب وغرابة في الملل والنحـل . ولا في أثرهـا البيّن في الحياة الاجتمـاعية من حيث هي روابط أشبه بالروابط العصبية والقبلية . ولا البحث في الدين كيقين إنساني في الغيبيات أو في مـا وراء الـطبيعة . ولا في الـدين كفكرة أو مقـولة إجتمـاعية يـأخذ بهـا الناس ، كـل الناس ، بأساليب شتى وبمفاهيم متباينة . ولا في الدين كـرابطة اجتمـاعية أو عقـائد غيبيـة ، تجمّع

حولها البشر في تكتّلات دينية معينة .

ولا نود البحث في الدين من حيث هو قوة هائلة تدخل في صميم حياتنا ، وتؤثر في جوهر بنياننا الفكري والنفسي ، وتحدّد طُرق تفكيرنا وردود فعلنا إزاء العالم الذي نعيش فيه ، وتشكل جزءاً لا يتجزأ من سلوكنا وعاداتنا التي نشأنا عليها . ولا في الدين باعتباره مجموعة من المعتقدات والتشريعات والطقوس والشعائر والمؤسسات التي تحيط بحياة الإنسان ، في أوضاع معينة وحالات كثيرة ، إحاطة شبه تامة[٤] . ولا نرمي إلى التشكيك في الدين ببث آراء ومذاهب تنافي عقائده وتخالف أحكامه . ولا ننوي اقتلاع العقيدة الدينية من قلوب المؤمنين بها . أو تحرير الناس من سطوتها القاهرة . وليس هدفي أن أبسط رأيي الشخصي في العقيدة الدينية من حيث صحتها أو فسادها . حاجة الإنسان إليها أو استطاعته الاستغناء عنها .

وكذلك فإننا لا نبغي استبدال المفاهيم الدينية التقليدية و «الوحي الإلٰهي» بالتجربة الحسية وبتفسير الوجود والكائنات تفسيراً علمياً . وبالعقلانية التي جرّدت الفكر الديني من معانيه المقدسة . ولا ننوي الحكم على الديانات التاريخية والتعرّض لقدسيتها . ولم يكن قصدنا يوماً تناول أي معتقد ديني بالهدم أو التجريح . أو انتقاد مؤسسي الأديان الذين شغلوا عقول الجماعات الأُولى وساقوها بالدين . ولا تزال أديانهم حتى اليوم تشغل العقول البشرية وتسوق الناس إلى الاختلاف أحياناً ، وأحياناً إلى التباغض والتحاقد أو التناحر والاقتتال .

إني أقدّر مدى سيطرة الدين على عقول المؤمنين به ، وهم كثرة الناس . وهذه الكثرة الغالبة ليست مستعدة للتنازل عن معتقداتها الدينية مهما يقدّم لها من أدلة وبراهين على أن هذا التنازل هو في مصلحتها الفكرية والمادية والمعنوية . فهي تفضل الاحتفاظ بمعتقداتها مهما تسبّبت لها تلك المعتقدات من أضرار في أحوالها المعنوية ومصالحها الاجتماعية . والأدهى من ذلك أنها تظن أن تحمّل الأضرار في سبيل المحافظة على معتقداتها الدينية هو سلوك رفيع وتضحية مثالية تبذلها بطواعية تامة ونفس راضية[٥] . وغالباً ما نصادف في صفوة العلماء الذين بلغت فيهم روح النقد غايتها . وفي كثير من المتصفين بسمو المدارك ونضوج العقل ، منطقاً دينياً ، لا يُبالي كالمنطق العقلي بالمعقولات والمتناقضات والأُصول والمبادىء ، بل يسوق الفرد إلى أعمال تناقض أكثر منافعه صراحة .

ونحن لا نرمي إلى المقارنة بين من يعتقد أن كتابه الديني يشمل جماع العلم ويتضمّن الإجابة على كل سؤال ويقدم الحل الناجع لمشكلات الحياة كلها ، ما ظهر منها

وما سيظهر في المستقبل . وبين من يعتقد أن الدين هو إلغاء للعقل البشري وشلّ له وتثبيط لنشاطاته وقدراته .

بين من يشكّون في مقدرة الإنسان على التوصّل إلى الحقيقة القصوى بنفسه . ويرون أن البحث عن الحقيقة بغير طريق الدين كفر وإلحاد . وبين من يعتقدون أن التجربة هي معيار صحة المعارف التي لدينا . وهي الكافل لصحة معلوماتنا ومعارفنا عن الواقع . ومن الواجب إعادة النظر في معارفنا كلها على ضوء التجربة .

بين من يرفضون النقاش في جميع أشكاله وصوره. ويرمون كل من يخالفهم في آرائهم بالزيغ والكفر والإلحاد . ويعارضون كل جديد في الفكر والمجتمع ويسعون إلى محاربته ويسمّونه بدعة . وبين من يدعون إلى ثورة ثقافية أو فكرية شاملة تتناول بالنقد والتمحيص مفاهيمنا وقيمنا الموروثة جميعها .

بين من يعتقدون أن كتابهم الديني يشكل نظاماً تاماً كاملاً مبرّأً من كل نقص ، لا يقبل تغييراً ولا يحتاج إلى إضافة . وبين من يرون أن الدين بطبيعته جامد ثابت ساكن يتعامل مع الغيبيات . وهو لهذا مناقض لسير الحياة الإنسانية التي نعلم أنها دائمة التطور والتبدّل . وأن الدين بطبيعته أيضاً قتل للعقل البشري الدائم التوثّب النازع إلى الترقّي في سلّم التطور .

بين من يلوّح بعدائه الشديد للأفكار العلمية ، ويستنكر أي موقف علمي نقدي من التراث . وبين الإنسان الواعي الذي يعمد إلى معتقداته الموروثة فيمحّص أُسسها ويفحص مفاهيمها ويخضعها للنقد العلمي الموضوعي كشرط أساسي لقبولها .

بين من نشأ نشأة دينية وتقبّل كتابه الديني جملة وتفصيلاً ، ولذلك فهو أبداً سابح في غمرة التفاسير والشروح وشروح الشروح . وبين من نشأ على الثقافة العلمية وأخذ بها فساورته الشكوك إزاء التراث الديني والمعجزات التي يفصّلها ذلك التراث . وتحدّد موقفه من المعتقدات الدينية والطقوس التي تتمثّل بها والمؤسسات التي تتجسّد فيها ، وإن لم يجرؤ على التعبير عن آرائه والإفصاح عن مشاعره وشكوكه .

بين من يرون في الدين مذهباً معيناً يرجو الإنسان به الخلاص . أو يعتبره صخرة خلاص من الفقر ، الضعف ، العجز ، . أو قل من الشعور بالفقر ، الضعف ، العجز . وبين من يرون في الدين مخدّر عقل الشعوب أو أفيون جهلها وتخلّفها .

قلت لا نرمي إلى المقارنة بين هاتين الفئتين ، لأن التوفيق ، أو قل محاولة التوفيق ، بين الآخذين بالنظرة العلمية الطبيعية للحياة والكون والإنسان . وبين الآخذين بالمعتقدات

الموروثة ، يؤدي في كثير من الأحيان إلى ظاهرة خطيرة في شخصية الآخذ بالإثنتين : الثقافة العلمية ، والمعتقدات الدينية . وهي ظاهرة الانفصام التي كثيراً ما تنمو وتتضخم في الإنسان فتؤدي إلى نوع من الشلل الفكري الذي يؤدي بدوره إلى الشلل في التفكير العلمي الموضوعي ـ عصب الحضارة في العصر الحديث .

نحن لا نبحث في الدين كأداة جمود وتحجّر ، تستخدمها الطبقات الحاكمة في بعض مناطق العالم وسيلة للاحتفاظ بالامتيازات الموروثة ، وعرقلة حركات التجديد في شؤون الفكر والتغيير في أوضاع المجتمع . ولا نبحث في الدين كمجموعة من الأوامر والنواهي تتصل مباشرة بالواقع اليومي وتتفق مع متطلبات النظام الاجتماعي ـ الاقتصادي السائد . ولا في الدين كظاهرة اجتماعية ، تتخذ منه الطبقات المسيطرة مادة للاستغلال . مادة يسهل استعمالها فردياً وطبقياً للوصول إلى مآرب خاصة ، سواء أكان هؤلاء المتسلطون واعين لعملية الأستغلال أم غير واعين . أو تتخذ منه أداة قمع لاشعورية في الصراع الطبقي . فمن جهة يوجّه أفكار الناس عن الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة . عن الخلاص المادي إلى الخلاص الروحي . ومن جهة يبرّر لمعتنقيه وجودهم في واقع من الاستغلال والظلم والحرمان كاختبار لإيمانهم أو قصاص لذنوبهم أو كوعد لهم في الحياة الآخرة بنيل كل ما حُرموا منه في الحياة الدنيا (فالأرض للأغنياء والجنة للفقراء) . ومطالبه إليهم لا تخرج عن كونها ركائز المتسلّط الطبقي : الطاعة (أطيعوا أُولي الأمر منكم) . والصبر (فالصبر مفتاح الفرج) . والقناعة (فالقناعة كنز لا يفنى) . والرزق من الله (فالله يرزق من يشاء) . والزهد في الحياة الدنيا (لأن الآخرة خير وأبقى) .

نحن لا نبحث في الدين كتعبير عن زفرات المجموعات المعذبة ، كما يقول ماركس (العبيد في العصور القديمة ، والفلاحين التابعين في العصور الوسطى ، والبروليتاريا الرثّة في العصر الحديث) التي اتخذت من المقولات الدينية مسلّمات بديلاً للعلوم الطبيعية والاجتماعية . وآمنت بالخلاص الروحي كبديل عن الخلاص المادي (الصراع الطبقي بشكل عام) .

ثم إن ما أتناوله في هذا البحث لا يدخل في (علم) اللاهوت ، لأن موضوع اللاهوت هو الإيمان الكامل بمفهوم ديانة معيّنة ، يعتبرها المؤمنون بها أنها وحدها الديانة الحقيقية الصحيحة . ويسعون إلى تحديد أخلاق متسقة مع ما يعتبرونه الحقيقة . اللاهوت (علم) معياري تظل مساعي أربابه تشترط الإيمان بحقيقته الخاصة . والباحث اللاهوتي يرفض ، من حيث طبيعة بحثه ، ما يخالفه . وهو لا يشرك في الغالب مع موضوعه شيئاً . الدراسات اللاهوتية تجيب على السؤال : لِمَ ينبغي علينا أن نؤمن ؟ . وبماذا ينبغي علينا أن نعتقد ؟ .

ونحن لا نرمي إلى تجريد الفكر الديني من قيمه ، ولا تفريغه من قدسيته . ولا ننوي ردّ الاعتبار أو القدسية إلى الفكر الميثولوجي الذي كان له أهمية كبيرة في حياة الإنسان وفي ما هو عليه اليوم ، لما له من مغزى ديني وحضاري عميق . ولما كان له من دور كبير في تاريخ الفكر الإنساني الديني والاجتماعي والحضاري . إن همّنا ينحصر في مسألة الكشف عن الأصول ، أصول الأشياء ، لأن معرفة أي شيء تبدأ من معرفة أصوله . ومن الطبيعي أن الفكر الميثولوجي هو الأصول التي يجب أن نرجع إليها لتفهّم شخصية الإنسان وتتبّع عقليته[٦] . لأن الفكر الميثولوجي متأصّل في الإنسان المؤمن بمفهومنا الديني المعاصر ، وفي الإنسان غير المؤمن . ولا يزال يفعل فيهما معاً في مجالات عديدة ومختلفة . وما فتىء حتى اليوم يحدّد الكثير من جوانب شخصية الفرد ويرسم العديد من وجوه معالمها . والواقع أن كثيراً من تصرّفات الإنسان المعاصر يمكن تفسيرها على أساس العقلية الميثولوجية التي اكتسبها عبر العصور .

ومن هنا كانت الرغبة في إلقاء بقعة من الضوء على هذا الفكر الذي نبذ زمناً طويلاً ، وفرّغ من جوهره ومعانيه . ولم يعترف بأثره في ما جاء بعده من أفكار أو معتقدات دينية . بينما الحقيقة أنه بقي حيّاً فاعلاً في ألسن السوريين وفي معتقداتهم وتقاليدهم وعقائدهم الشعبية . وبقي حيّاً فاعلاً أيضاً في الديانات التاريخية ، وفي أيديولوجيات الفكر المعاصر . لم ينطفىء نوره ولم تخمد جذوته ، وإنما بقي يغذّي بأقدار متفاوتة ما جاء بعده من أفكار أو مذاهب دينية . وهنا تكمن أهميته كتراث عام للإنسانية . وتكمن إمكانية الإستفادة منه في وعينا التام بالعمل الخلّاق الذي تقوم به الميثولوجيا كطاقة حضارية حيّة .

ب

صحيح أن الديانات التاريخية تُعزى ، بمفهوم أتباعها ، إلى مصدر إلهي . ومن هنا كان الناس يعتنقونها غير مجادلين فيها . وعندما ينضج المعتقد الديني في منطقة اللاشعور ، حيث لا يصل إليها العقل ، يتقبّله المرء غير محاجٍّ فيه . ومصدر الديانات اللاشعوري وغير الإرادي يمنحها قوة عظيمة . ولذلك كان لها شأن كبير في التاريخ ، ولا تزال ذوات سلطان علينا . وما تأثير البرهان القوي فيها إلّا كتأثيره في الجوع والعطش .

وصحيح أن الوصول إلى حقيقة علمية صغيرة يتطلّب كدّاً طويلاً . أما حيازة يقين لا ركن له غير الإيمان لا يتطلّب شيئاً من السعي . فلكل واحد من الناس معتقد ، ولكن ما أقل الذين يصعدون منهم إلى سماء المعرفة .

وصحيح أيضاً أننا اليوم في عصر العلم نقرّ بتطور التاريخ وبتغيّر منطق اليقين .

ومـوقفنا من العقـائد الغيبيـة موقف تـاريخي طبعي ، تكرّر في حقب مختلفـة من التـاريـخ بأشكال مختلفة ونسب متفاوتة ، تبعاً لقوة الصراع بين المفهوم الجديـد وحدّة الشـك فيه ، وبين المفهوم القديم ورسوخ اليقين فيه . ففي ظل تعقّد المفاهيم الحضارية المعاصرة نجد مجتمعات ترفض العقائد والشعائر والطقوس الدينية المتوارثة . ومجتمعـات أُخرى لا تعيـر اهتماماً لعالم الأسلاف أو للحياة الأُخرى بعد الموت . ومجتمعات ثالثة تريـد لك كـإنسان متحضّـر يعيش في عصر العلم وغـزو الفضاء والالكترونيات المذهلة ، أن تتحرّر من ربقـة الـرقى والتعاويـذ ومن سلطة الإيمان بفعـل طقوس معينـة في شفاء الأمـراض أو طرد الجن والشيـاطين . ومجتمعات رابعـة علمية وصنـاعية لا يشغـل اهتمام الإنسـان فيها «خـلاصه» و «نصيبه من الخلود» ، لأن همّه الوحيد هـو تحقيق ذاته في بلوغ الـراحة والتلذّذ والـرفاه ، و «خلاصه» هو تحرّره من الفقر والبؤس والاغتراب .

ولكننا في المقابل نجد مجتمعات تعيش في عالم (النرفانا) ، وتنتظر حيـاة ثانيـة بعد الموت . ومجتمعات أُخرى ينحصر اجتهـادها الـدؤوب في حفظ طقوس الـدين وشعاراتـه التي تجلب بـاعتبارهـا الخير وتبعـد الشر . ومجتمعـات ثالثـة تغرق في النـزعات الصـوفية الغيبية . ومجتمعات رابعة تربط كـل ظاهـرة تحدث في العـالم بمقدرات غيبيـة صادرة عن «الحقيقة» المفترضة في يقينها . ونجد أيضاً أقواماً يعيشون مطمئنين إلى الوراثة الدينية التي تولّد فيهم إحساساً : أن يعيشوا كما عـاش آباؤهم من قبـل . وآخرين تحـدوهم الرغبـة في إتساق الحياة مع الوجدان الديني .

ونجد أيضاً مجتمعات أُخرى لا تزال تعيش بذهنية القرون الماضية ، تـأخذ بـالأفكار الثابتة والآراء الشائعة والمسلّمات المتوارثة . تحدوها الثقة بأن المفاهيم الدينية هي مصدر كل حق ، والدليل الأمين إلى حقائق الحياة الأساسية ، وإلى معنى الأحداث المتعـاقبة في الزمن ، وإلى العلة الفاعلة في هذه الأحداث . وبأن الابتعاد عن هـذه المفاهيم أو التـوجّه إلى سواها زيغ وضلال .

وصحيح أيضاً أن الرقي الفكري والتقدّم العلمي والاختراعات التقنية قد غيّرت وجـه العالم في عصرنا (العقد الأخيـر من القرن العشـرين) . ولكن الإنسان نفسـه الذي أحـدث هذه التغيّرات لم يتغيّر في غرائزه الدفينة وتقاليده الاجتماعية والدينيـة . فمن النادر جـداً أن تتبدّل الطبائع النفسية للمجتمعات . والمعارف قلّما تختـرق الطبـائع ، وإنمـا تبقى وكأنهـا طـافيـة . ففي شعـور أي إنسـان عـدد من التصـورات والعـواطف أوجـدتهـا فيـه الحيـاة الإجتماعية ، لا يقوى على التحرّر منها أو التغلّب عليها . ولا تستـطيع أي ثقـافة أن تمحـو العـواطف المسيطرة على النـاس ، أو الميول المـوروثة عن الأسـلاف ، وأن تجـاوز قشـرة

العادات والاعراف التي تتصف بأنها أنماط تقليدية متوارثة آلية .

إن المجتمعات الإنسانية في جوهرها قامت على تديّن وإيمان . وقد بدأت رؤية العالم لدى الإنسان من منطلق ديني . والإنسان في أي مجتمع وأي وسط وأي حضارة يتغذّى وجدانه منذ نشأته بالفكر الديني على قدر معيّن وبشكل من الأشكال . والطفل حين يدخل العالم لا يحمل معه سوى طبيعة بيولوجية ، غير خلقية أو اجتماعية ، تستطيع أن تتكيّف بجميع الهيئات والأشكال . فهو لا يختار لنفسه لغة دون أُخرى أو ديانة دون غيرها . بل هو المجتمع الذي يضّطره إلى اتباع الديانة التي يشبّ عليها واللغة التي يتكلم بها . والواحد منا يؤلف من ساعة نشأته جزءاً من مجتمع له تعاليمه وأخلاقه ولغته وديانته وفنّه وعاداته وتقاليده وتاريخه وأنظمته وخرافاته ومثله العليا . ولا بد من التقيّد بهذا الميراث والعمل به[٧] .

إن الظاهرة الدينية ظاهرة اجتماعية بكل ما يحمل هذا التعبير العلمي من معان . فهي أولاً لا تنبت وتنمو وتينع إلاّ في وسط اجتماعي . يتقبّلها ويتخذ منها أحد مقوماته الأساسية . وينشيء الأفراد على قواعدها وتقاليدها التي تصبح جزءاً هاماً من قواعده وتقاليده . وهي ثانياً إجبارية إلزامية ، أي أن الأفراد مجبرون على الخضوع لها ، وإلاّ وقعوا تحت طائلة جزاءات مادية ومعنوية . وهذا الإجبار لا يصدر عن الأفراد ، وإنما عن سلطة عليا تفوقهم هي سلطة المجتمع والشعور الاجتماعي الذي يسود الأفراد[٨] .

والظاهرة الدينية لا تزال حيّة في مجتمعات القرن العشرين بغالبيتها . وهي تشغل البشر جميعهم تقريباً . وتفرض عليهم تعاليمها وطقوسها مناهج ومواقف معينة في الحياة . وتأثيرها واضح في الحياة الإجتماعية والسياسية والقانونية للحاضرة العلمانية الحديثة . والسلطات السياسية والاجتماعية في كثير من المجتمعات تمدّ جذورها في تربة الدين ، وتستمد قوتها من الدين ، ويتحدّد فعلها وتأثيرها بالدين . والشرائع بمختلف فروضها وأحكامها ، والعلاقات الاجتماعية بمختلف أشكالها ومعاييرها ، بله الطقوس التي تحدّد ممارسات الاتباع وتنظّم مراسم تقرّبهم من آلهتهم أو تعبّدهم لها ، تنهل جميعها من منهل الدين ، وتستمد قوتها ومدى فاعليتها وتأثيرها من سلطة الدين . وحتى اليوم (العقد الأخير من القرن العشرين) لم يقيّض لكثير من الأنظمة أن ينعتق من ربقة الدين ، تنظيماً وتشريعاً . ففي الدول الإسلامية مثلاً لا يجوز لأي تشريع أن يخالف تعاليم الديانة الإسلامية وأحكامها الأساسية . ولم يقيّض لمجتمعات الأنظمة الإسلامية أن تتحرّر من الطابع الديني في المحرّمات أو ممارسة الطقوس ، ومن التقاليد الموروثة منذ خمسة عشر قرنا .

إن المفاهيم الاجتماعية مفاهيم عامة ، يأخذ بها المرء مضّطراً غير مختار تحت وطأة المجتمع . والمفهوم الديني لا يخالف في كيانه المفهوم الاجتماعي ، فهو عام غير خاص ، يشمل أفراد المجتمع جميعهم ويرغمهم على اتباع تعاليمه . وهو مستقل عن إرادة الأفراد ، يعيش كما تعيش التقاليد بقوة العادة . ومن الجلي لكل ذي بصيرة أن العادة والوراثة تخضعان الإنسان لعبودية التقاليد والمذاهب التي تكبّل الفكر . وأن المفهوم الديني يخضع الإنسان لعبودية الجماعة التي لا تسامح ولا تغفر عدم التمشّي معها في المعتقدات والآراء .

والملاحظ أن الأخذ بالقول الشائع لا يزال متأصّلاً فينا . تقوم أحكامنا على العاطفة السطحية . ونتّبع في تقرير الحكم ما توحي به الأعراف والتقاليد . ويشيع الاتجاه نحو المحافظة في المؤسسات الاجتماعية سائرها . ويتطابق سلوك الإنسان مع الأنماط الاجتماعية السائدة . وكل منّا يعيش في المستوى التقليدي معظم الوقت ، ذلك لأننا مخلوقات متلبّسة بالعادة الاجتماعية . ولا تعدو معتقداتنا وطقوسنا الدينية وأفكارنا السياسية وتفضيلاتنا الجمالية وشرائعنا الخلقية أن تكون أصداء لبيئتنا الاجتماعية ، لدرجة أن أكثر الناس أصالة وموهبة يعيشون إلى حدّ كبير وفق ما طبعهم عليه المجتمع .

ومثلما كان للأفكار والقصص الدينية (الميثولوجية) أثر مهم ودور أساسي في حياة الإنسان البدائي وأخلاقه وتصرفاته ، فإن لها في الإنسان المعاصر أثراً وتلعب في حياته دوراً . والواقع أن للأفكار الدينية قوة تتيح لها أن تأسر ألباب الأفراد والشعوب . وحتى اليوم ليس ثمة عاطفة إنسانية أبعد غوراً وأشد تأثيراً في نفوس الأفراد والجماعات ، من العاطفة الدينية . ولا يزال إنسان اليوم (العقد الأخير من القرن العشرين ـ عصر الرقي الفكري والإزدهار العلمي) يحمل في وجدانه طبيعة دينية سواء أكان مؤمناً أم غير مؤمن . ويصعب عليه الانعتاق من أُطر «المقدسات» والتحرّر من قيود «الحقائق الثابتة» التي تعمل النصوص الدينية فيها شدّاً وإحكاماً . ومن الممكن تفسير الكثير من تصرفاته على أساس العقلية الدينية (الميثولوجية) التي اكتسبها عبر العصور . وإذا كان التاريخ يصنع الإنسان ، فإن القصص والمفاهيم الدينية التي ينشأ عليها ويؤمن بها الإنسان هي التي تفعل فيه وتحدّد له شخصيته وتعيّن له المواقف التي يتخذها إزاء غيره من الأفراد أو الجماعات .

جـ

من المؤسف أو المزري أو المؤلم ، لا فرق ، أن الذهن العام في جوانب كثيرة من مجتمعاتنا متخلّف ، تنقصه الكفاءة ، ويفتقر إلى الموضوعية لدرجة تثير الشفقة . ولست

مستعـداً للاعتراف له بـأي قدرة على الفهم وأي درجـة من الوعي . لقـد تقـزّم الفكـر في مجتمعـاتنا وتشـوّه التفكير حتى لكـأننـا نعـاني من خصـاء ذهني ، أو أننـا نعيش في عصـر انحـطاط . فليس لقسم كبير من مفكـرينا ذهنيـة واعيـة مثـلاً تعـزم على الانعتـاق من أُطـر المفاهيم العتيقة والتحرّر من النظرة التصنيفية ، لتنطلق بروح الولاء إلى الحقيقة ، والرغبـة العلمية في معرفة مآثر الأمم القديمـة . يحدوهـا الوجـدان العلمي والتوق إلى الكشف عن المجهـول . وليس في أذهان أبنـائنـا غيـر معلومـات سـطحيـة جمعـوهـا من أفـواه معلمي المدارس والجامعات ـ أصحاب الثقافة الضحلة أو المشـوّهة ، وحملة المفـاهيم الباليـة أو التاريخية الزائفة . ولذلك قد تكون الأفكار أو بعضها في هذا البحث موضع استغراب عـدد كبير من قرائه . ربما لما فيها من طرافة وجدة تخالف ما اتخذوه من آراء مألوفـة ومتبعة ، أو ما آمنوا بـه من معتقدات هي في نـظرهم الحقيقة التي لا ينـال النقد منهـا ولا يرقى الشـك إليها . وربما لإظهـارها حقـائق ، عمد كثيـر من المفكرين (بله عـامة النـاس) عن جهل أو تجـاهل ، غبـاء أو تغاب ، إلى طمسهـا وإخفائهـا أو تشويههـا . وقد يكـون القارى مكبّـلاً بأفكاره المسبقة التي تلقّاها من أساتذته التـوراتيين أو الإنجيليين الذين يـأخذون بـالأشكال والـطقـوس ويؤمنـون بـالمفـاهيم التقليـديــة التي تخـطاهــا الفكـر في تــطوره التـاريخي والاجتماعي . ويغفلون أو يتغافلون عن الجوهر في القيم والفضائل والمفـاهيم الاجتماعيـة والإنسانية . أو يكون من الكثرة التي تخاف تفسير إرثهـا الديني والتـاريخي . أو من العامـة التي تشعـر بفؤادها قبـل أن تفكر بعقلهـا ، وتضع العـواطف في مرتبـة أعلى من الأفكـار . وبالتالي تنقاد في أحكامهـا إلى لغة العـاطفة لا إلى لغـة العقل والمنـطق . وقد يكـون ممن يصـدّقون دون تـروٍّ أقوال المؤرخين و (العلمـاء) الذين تنقصهم الكفـاءة العلميـة وينقصهم الخصب والعمق في البحث العلمي . أو ممن يعـانـون ضحـالـة الاستبصــار وضيق الأفق العقلي ، فلم يستطع التحرّر من قيوده العرقية والطائفية ، ومن المسلّمات والمقدسات التي نشأ عليها وأخذ بها دون تبصّر في معانيها أو تعمّق في أبعادها ومراميها .

وهذا لا يعني أني أُريد للقارىء أن يأخذ بأسباب حضارة وفكـر يباينـان حضارة وفكـر أسلافه . ولا يعني هذا البحث أن يطرح عقائده الدينية وراء ظهره . ولا يعني أن يأخذ فوراً بالعقل ، وبـالعقل وحـده الذي لا يقبـل إلّا البديهيـات الواضحـة . وأن يكون هـذا العقل مرشده وهاديه . ولا أن يتسلّح بمناهج ونظريات عقـلانية أو مـادية . فمن البـديهي أولاً أن لغـة العقل لا تـلائم الناس على اختـلافهم . ولا يسمـو اليهـا جمهـورهم وعـامتهم . ومن الضـروري ثانيـاً تقديس حـرية الإنسـان في البحث عن الحقيقة بـالطريقـة التي يعتقد أنهـا توصله إلى هذه الحقيقة .

ما أرغبه للقارىء أن ينفض الغبار المتراكم فوق ذهنه منذ أجيال وأجيال . وأن يتحرّر من عبودية التقاليد والمذاهب التي تكبّل الفكر . ومن عبودية الجماعة التي لا تسامح ولا تغفر عدم التمشّي معها في الآراء والمعتقدات . وأن يكون في صدره رغبة عارمة إلى مصافحة وجه الحقيقة ، ولهفة جارفة إلى النور الذي يوضح له مسيرته في دروب المعرفة . أُريد له أن يتعلّم التفكير لا أن يتعلّم الأفكار . والفرق كبير بين من يفكّر وبين من يتقبّل ما يلقى إليه من الأفكار . ولكم أتمنّى أن تكون له يقظة العقل ووعيه عظمة سلطانه وقدرته على خوض ميادين الحياة الفكرية والدينة والاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وأن يتحلّى بالفكر الذي يعيد النظر في المسلّمات الدينية والتقاليد الاجتماعية . أو أن يكون على الأقل من ذوي العقليات الذين ظفروا بحظ وافر أو متواضع من المعارف الضرورية . وارتقوا بضع درجات في سلّم الوعي . ولكم أرجو وآمل أن يضعه هذا الوعي ، وعيه لما يعرضه هذا البحث ، أمام آفاق جديدة فسيحة . وأن يضع أمامه حقائق جديدة ليس من السهل دحضها أو تجاهلها . فلعلّه يغضب لما اختزنه في فكره ، ونِعْمَ الغاضب . ولعلّه يسعى إلى سدّ هذه الثلمة في ثقافته ، وهذا ما أرغبه له وأحثّه عليه .

مقدمــة فــي

حضارة المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية

سـوريـا الشعـوب

إن البحث في مفهوم العالي (ايل ـ إله ـ الله) في الـذهن المشرقي القـديم ، يقتضي البحث في تاريخ الحضارة السورية التي انبثق عنها هـذا المفهوم ، وأخـذت به مجتمعـاتها قبل أن يعم العالم القديم ويأخذ به الكثير من المجتمعات والأمم .

والبحث في حضارة المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية متشعّب الخـطوط عميق الأبعاد ، لا تستوعبه مجلدات ولا يكفيه عمر باحث . ومن هنا كانت هذه «المقدمة» إلى ما تكشّفت عنه الأرض السورية حتى اليوم من ظواهر وتشكّلات حضاريـة مختلفة ، وهب لهـا الكثيـر من العلماء جهـودهم وأعمارهم . ولـو أردتَ الإطلاع على مـا دوّنوه لبـذلتَ عمرك فيه .

وإذا كـان العلماء المختصّـون قد قضـوا نصف قـرن في التنقيب عن آثـار أوغـاريت ودراسة حضارتها ، فالظاهر أنهم سيقضون قرناً في ايبلا ، تنقيباً عن آثارهـا ودرساً وتحليـلاً لآلاف الألواح التي عمرت مكتباتها دهراً . يقول الباحث وليم فولكو «من المؤكد أن انهماك الباحثين الرئيسي سيكون في السنوات المقبلة في ترجمة الألـواح الغنية جـداً المكتشفة في ايبلا»[٩] .

ومـا زال العلماء المخلصـون يعملون بجهد وإصـرار على اكتشاف منـابع العبقـريـة السورية القديمة ودراستها ، وتحليل معالم حضارتها الإنسانية التي شعّت في أنحاء العـالم القديم سائرها .

والأرض التي كانت مهداً لأقدم حضارة في التاريخ لم تعرف قديماً باسم جغـرافي أو سياسي معين (كمصر مثلاً) . بل كانت المنطقة الواحدة منها تُعرف باسم الشعب المتـوطن فيهـا . فأرض سـومر للسـومريين ، وأرض أكـاد للأكـاديين ، وأرض أشور لـلأشـوريين ،

وأرض كنعان للكنعانيين ، وأمورو للأموريين ، وبلاد آرام للآراميين ، وهكذا . .

ولما كانت نظرية الأسر اللغوية تفترض وحدة الأصل العرقي للشعوب الناطقة بألسن من أسرة واحدة ، تساءل العلماء والباحثون عن الوطن أو الأرض الأم التي انطلقت منها الأقوام التي تفرّعت وتوزّعت في مختلف أقاليم سوريا الطبيعية ، ثم شكّلت شعوبها في بداية التاريخ . وأبدوا في ذلك آراء كثيرة ، ومتناقضة أحياناً . فرأى نفر منهم أن هذه الشعوب تعود في أصلها إلى جزر المتوسط ، خاصة الجزر التي غارت في البحر . وذهب فريق إلى اعتبار افريقيا الشمالية الموطن الأصلي لهذه الشعوب[١٠] . ورأى آخرون أن بلاد اليمن في العربية الجنوبية هي مهد هذه الشعوب ، منها انطلقت الموجات البشرية إلى سائر الأنحاء[١١] . ومنهم من قال إن بلاد أمورو (سوريا الداخلية) هي الموطن الأصلي لهذه الشعوب[١٢] . منها انطلقوا إلى مصر وإلى حوض النهرين في حقبات تسبق التاريخ المدون . وأنهم أسسوا في القرن السادس والعشرين ق.م. الأسرة الملكية الأولى في أكاد . يقول المؤرخ جورج كونتينو مثلاً «إن الأكاديين جاؤا من سوريا العليا» . ويضيف «في بداية القرن السادس والعشرين ق.م. نزحت جماعة (سامية) كبيرة من شمال سوريا ـ المنطقة التي عرفها البابليون القدماء باسم بلاد أمورو (بلاد الغرب) . وهؤلاء (الساميون) هم الأكاديون . وحوالي ٢١٠٠ ق.م. انسابت إلى حوض النهرين موجة أمورية شكّلت في ما بعد الأسرة البابلية الأولى التي جاء منها أمورابي العظيم»[١٣] .

ورأى غيرهم أن الصحراء العربية هي المنطقة الوحيدة التي يفترض أنها المركز الذي انطلقت منه هذه الشعوب إلى مواطنها التاريخية . ورغم أن البعض فكّر في سوريا ، والبعض في أرمينيا . وفكر آخرون في افريقيا . ووضع العالم الإيطالي اغناطيوس غويدي نظرية طريفة قائمة على أسس لغوية مفادها أن هذه الشعوب تعود في أصلها إلى أرض ما بين النهرين . ولما كان التوفيق بين هذه النظريات وبين مجموعة الأدلة التاريخية والجنسية هو من الصعوبة بمكان ، رأينا في ضوء معلوماتنا الحالية أن نقبل ، ولو على سبيل الافتراض العملي ، النظرية التي تقول إن المنطقة التي انتشرت منها هذه الشعوب هي الصحراء العربية ، ولا سيما أطرافها[١٤] .

وأخيراً تركّزت آراء كثير من الدارسين حول شبه الجزيرة العربية ، كمركز بشري قديم ، انطلقت منه موجات بشرية قدّرها المؤرخون بخمس موجات . قد تكون الموجة الأولى حدثت في الألف الخامس أو الرابع ق.م. (الموجة الأكادية) . وكانت الموجة الأخيرة في سنة ٦٣٦ م وهي الموجة الإسلامية[١٥] . فالمعروف أن البحر يحيط بالصحراء العربية من جهات ثلاث . وعندما كان عدد السكان يزيد عن قدرة الأرض على إعالتهم ،

كانوا يميلون إلى البحث عن مجال حيوي متيسّر في السهول والوديان المترامية إلى الشمال من الصحراء .

وقال أصحاب هذا الرأي ، في استبعادهم الرأي القائل إن حوض النهرين هو مهد هذه الشعوب : إن من كان في طور اجتماعي زراعي ، كأبناء البلاد البابلية ، لا يحتمل أن يتحوّلوا إلى عيشة البداوة على ما تقتضيه الحال في البلاد العربية . فالبشر لا يرحلون من بقاع خصبة كمنطقة النهرين إلى أصقاع مجدبة كالصحراء العربية . والأقرب إلى العقل والمنطق أن يكون الانتقال من مرابع القلة والشظف إلى مراتع الخصب والنماء[١٦] . أو قل إن سنن الاجتماع تقضي بالانتقال من البداوة إلى الزراعة فالحضارة[١٧] .

يُضاف إلى ذلك أن الأرض في حوض النهرين ، ولا سيما في الوسط والجنوب ، امتازت بخصوبة التربة وسعة السهول ووفرة المياه ، فظلت منذ استقر الإنسان فيها أرضاً مفتوحة أمام سكان المناطق الجبلية الواقعة إلى الشرق والشمال منها . وأمام سكان الصحراء الواسعة الممتدة إلى داخل شبه الجزيرة العربية . ونظراً لافتقار المنطقتين الجبلية والصحراوية إلى السهول والتربة الخصبة والمياه الوفيرة ، فقد كانت بلاد النهرين محط أنظار سكان الصحراء والجبال الذين كانوا يتغلغلون فيها بالتسلّل السلمي أو بالغزو العسكري .

ويرى المختصّون بدراسة تاريخ الشرق المتوسطي القديم أن المجموعات البشرية الفائضة ظلت تنساب من الصحراء العربية ومن البادية السورية على شكل موجات متلاحقة طوال ثلاثة آلاف سنة ، تتوزّع في البيئة السورية الطبيعية التي تمتد بين مرتفعات وادي النهرين الشرقية وبين البحر الأبيض المتوسط غرباً . ومن الجبال المحاذية لأعالي الفرات شمالاً إلى البحر الأحمر جنوباً . وكانت الموجة اللاحقة تتأثر بالتراث الحضاري للسابقة ، وتنصهر معها في بوتقة حضارية واحدة . وفي هذه القاعدة الحضارية كان التفاعل الاجتماعي والفكري والاقتصادي يأخذ مجراه الطبيعي[١٨] . وفي هذا المجرى تدفقت تيارات حضارية فاض إشعاعها على آسيا الصغرى وحوض المتوسط ووصل إلى المحيط الأطلسي .

والشعوب التي كوّنتها تلك الموجات تتشابه في ما بينها إلى حد يكفي لتبرير الفرض القائل إنها انتشرت من موطن مشترك قديم إلى البلاد التي استوطنتها في العصور التاريخية[١٩] . وهي تؤلف كتلة واحدة ، ليس باجتماعها في صعيد جغرافي واحد والتحدّث بألسن لغة واحدة فحسب ، ولكن باشتراكها أيضاً في أصل حضاري تاريخي واحد[٢٠] .

وعلى أي حال لا يعنينا هنا تحديد الموطن الأصلي لهذه الشعوب ، لأن مثل هذا البحث يرجع بنا بعيداً إلى ما قبل التاريخ ، وتكون نتائجه فرضية وموضع شك . ثم إن وحدة الأصل ومنشأ الشعوب القديمة وتنقلاتها يخرج من نطاق العلم . المهم أن التاريخ فتح عينيه مع بدء التدوين في منتصف الألف الرابع ق.م. على هذه الشعوب متوطنة في أقاليم سوريا الطبيعية ، يعمّر كل شعب أرضه ويضع أسس حضارته . ومن يدري كم من الزمن مرّ عليها وهي متجذّرة في تراب هذه الأرض قبل بدء التاريخ ؟ .

سومر

لسنا هنا بصدد البحث في أصل السومريين أو جنسهم ولغتهم . فقد أفرد المؤرخون المختصّون الفصول الطوال لهذا الموضوع ولكنهم اختلفوا بغالبيتهم في تحديد جنس السومريين وتعيين موطنهم الأول . وربما كان الدافع الذي حدا بالمؤرخين إلى البحث في جنس السومريين وفي تحديد موطنهم الأول هو اختلاف لغتهم عن لغات (والأصح ألسن) الشعوب التي كوّنت حضارة الهلال السوري الخصيب . وقد ذهب عالم الآثار المؤرخ أندريه بارو إلى اعتبار السومريين بدواً في الأصل ، نزحوا مما وراء بحر قزوين ، بعد أن عبّر في صيغة تساؤل عن اضطراب المؤرخين في شأن تحديد أصل السومريين وموطنهم الأول ، قال «من أين جاء هؤلاء القوم ؟ . وما هو أساس عرقهم ؟ . ليس من اليسير أن نعطي جواباً ايجابياً على ذلك . ولم يتوصّل الاختصاصيون بعد إلى اتفاق حول هذا الموضوع . ولكن الشيء الذي يمكن قوله على وجه التأكيد هو أن السومريين لم يكونوا من الساميين ، وأن لغتهم لا تشبه غيرها من اللغات السامية . وأن موطنهم الأصلي يقع خلف بحر قزوين ، وربما أبعد من ذلك»[٢١] .

والواقع أن أصل السومريين لا يزال محوطاً بالغموض بالرغم من الجهود العظيمة التي بذلها المؤرخون وعلماء الآثار في هذا المضمار . ولم يتمكن أي آثاري أو مؤرخ من إرجاعهم بصورة أكيدة إلى غصن من أغصان الشعوب القديمة . يقول المؤرخ وليم ديورانت «ليس في وسعنا أن نعرف السلالة البشرية التي ينتمون إليها ، أو الأصل الذي تحدّروا منه أو البقعة الجغرافية التي احتضنتهم إبان نشأتهم الأولى رغم ما قام به البحاثة وعلماء الآثار من جهود في هذا المجال»[٢٢] .

وباختصار ، مهما يكن أصل السومريين ، والأرض التي نزحوا عنها قبل بداية التاريخ المدوّن ، فإن هؤلاء الروّاد في تاريخ الحضارة الإنسانية ظهروا في فجر التاريخ متوطنين في البطاح المترامية في رأس الخليج الصحراوي وهم يعمّرون أرضهم ويبنون

حضارتهم من قبل أن يعرفوا الكتابة في الألف الثالث ق.م. ويدوّنوا تاريخاً لهم وللعالم الذي عرفوه .

فالسومريون في أرض سومر (السهول الرسوبية في الجزء الأدنى من حوض النهرين) سبقوا التاريخ المدوّن ، أو قل بعبارة كريمر إن «التاريخ يبدأ في سومر»[٢٣] . وقد أنشأوا في ذلك المنبسط الفسيح القريب من ساحل البحر ، حيث يلتقي النهران برأس الخليج الصحراوي ، أنشأوا مدناً عديدة : أور (المقيّر) لارسا (سنكرة) لاغاش (سبرلا) نبّور (نفر) أريدو (أبو شهرين) أوروك (الوركاء) ، وغيرها من أسماء عريقة كانت في عهد ازدهارها مدناً عامرة مشرقة بالحضارة والعمران .

أكاد

ذكرنا أن المؤرخين يميلون بغالبيتهم إلى الاعتقاد بأن الصحراء العربية فاضت في فترات من الدهر بما زاد من سكانها نحو سهول سوريا ووديان أنهارها حيث كانوا يستقرون في المناطق الخصيبة . فقبل الأزمنة التاريخية التي اتفق المؤرخون على تحديدها بالألف الرابع ق.م. كانت المجموعات البشرية الفائضة تنساب من الصحراء العربية ومن البادية السورية إلى الهلال الخصيب حيث تستقر وتتكاثر . ومع الأيام تكوّنت منها مجموعة عرفت في ما بعد باسم شعب أكاد ، لم يكن بينه وبين شعب سومر حدود واضحة ، وإن كان من المفهوم أن سومر تعني القسم الجنوبي من حوض النهرين ، بينما تقع بلاد أكاد إلى الشمال من سومر .

وقد اختلط الأكاديون بالسومريين الذين كانت حضارتهم مزدهرة في الألف الثالث ق.م. في وادي النهرين الأسفل . وتفاعلوا معهم وأخذوا عنهم الكثير من وجوه حضارتهم الرفيعة كبناء البيوت وزراعة الأرض وبعض الصنائع والفنون والقراءة والكتابة . واستوعبوا الصور الاجتماعية والأدبية والفنية لتلك الحضارة ، وتأثروا بالتراث السومري : لغة وآداباً وعلوماً ، فاستوعبوه وتمثّلوه . ثم انتظموا في جماعات صار لها كيانها الاجتماعي والسياسي .

ويبدو أن الأكاديين كانوا من الشعوب النزّاعة إلى الأخذ بأسباب التطوّر والتكامل ، وكأن خميرة الوعي الإنساني كانت ترافقهم منذ ارتحالهم من الصحراء إلى الهلال الخصيب . فقد اندمجوا في البيئة الطبيعية والثقافية والاجتماعية الجديدة ، الغنية بالمقومات والإمكانات ، وذابوا فيها اجتماعياً وثقافياً ، وتمكّنوا من امتصاص القسم الأكبر من الحضارة السومرية . أو قل تبنّوا هذه الحضارة في مقوماتها جميعها . ثم تفتّقت نفسهم

عن غناها الإنساني فساهموا بدورهم في رفد مجاري الحياة الاقتصادية والسياسية والحضارية والاجتماعية بدم جديد مما أدّى إلى نهضة خلّاقة في مجالات الحياة على اختلافها .

وباختصار ، إن العناصر الاثنية التي أبدعت تلك الصروح الفنية والأدبية في تاريخ حوض النهرين وحضارته هي في الأساس سومرية وأكادية . لقد عاش هذان الشعبان ضمن شراكة تفاعلية خيّرة ، فتمّ بينهما انصهار وتفاعل . وليس صحيحاً كما كنا نتوهم منذ سنوات أن المحن التي ألمّت بتلك المنطقة كانت ناتجة عن مفارقة أو تناقض بينهما[٢٤] .

وإذا كان الأكاديون قد قضوا على وجود السومريين السياسي فإنهم لم يقضوا على وجودهم الحضاري . والواقع أنّ حضارة السومريين كانت حيّة فاعلة طبعت الأكاديين بطابعها ، فظلت الثقافة سومرية الشكل والمضمون ، وظلت المدارس والمعاهد في سومر وأكاد تستخدم اللغة السومرية والآداب السومرية قاعدة أساسية في منهج التعليم . وظل التراث السومري منبعاً اغترفت منه الشعوب التي جاءت بعدهم .

وبعد ، أياً يكن شكل الاختلاط أو الاندماج بين الشعبين ، يظل أكيداً أن امتزاجهما أعطى ثماراً خارقة على الصعيدين الاثني والثقافي . وأدّى إلى نهضة خلّاقة نتج عنها تطور الكتابة وتدوين ملاحم وآداب ، وتوحيد شعوب مختلفة ضمن اطار ثقافة واحدة ، أصبحت غاية النخبة المثقفة عند شعوب البيئة الواحدة .

أشور

يمكن أن نميّز في بلاد النهرين قسمين طبيعيين : سهول رسوبية في الجنوب ، وحزون مرتفعة في الشمال تتصل بسفوح الهضاب التي تشقّها روافد دجلة ، وتنتهي بالجبال الشرقية والشمالية التي تعتبر حدوداً طبيعية .

يبدو أن مجموعات من الموجات البشرية المتسرّبة من البادية السورية وصلت إلى الحزون الشمالية من بلاد النهرين ، فاستقرت في الأرض وأسست مدناً عديدة عرفت باسم أشور . متى وصلوا إلى الحزون الشمالية ؟ . لا ندري . المهم أننا نجدهم يستوطنون منطقة أعالي دجلة منذ بداية التاريخ المدون (الألف الثالث ق.م.) ويبرعون في التجارة حتى لنراهم يؤسسون محطّات تجارية ومستعمرات في أقاصي بلاد الأناضول في أواخر الألف الثالث ق.م. وأوائل الألف الثاني ق.م.

أنشأ الأشوريون مملكة تطورت إلى امبراطورية كانت الأمجد في تلك العهود . فقد

بسطت أشور سلطانها في فترات طويلة من تاريخها على سوريا الطبيعية بكاملها من الخليج العربي إلى جبال طوروس ، ومن الشاطىء السوري إلى قوس الصحراء . وكان لهذه الأمبراطورية أبعد الأثر في تاريخ الشرق المتوسطي اقتصادياً وسياسياً وحضارياً .

أمــورو

يطلع التاريخ في الألف الثالث ق.م. على الشعب الأموري في سوريا الوسطى والشمالية ، يعمّر أرضه ويبني حضارته . ويبدو أو من المرجّح برأي كثير من الدارسين أن سكان حوض النهرين الأدنى هم الذين أطلقوا على هذا الشعب لقب «أمورو» أي بلاد الغرب . كما أطلقوا على البحر الأبيض المتوسط اسم «بحر أمورو العظيم» .

كان لهم عدد من المدن ـ الممالك ، مثّلت دوراً هاماً في التاريخ ، مثل ماري (تل الحريري) على الفرات الأوسط ، وايسين ولارسا في الحوض الجنوبي من وادي النهرين ، ويمحاض (حلب) ، وايبلا في تل ماردبخ ، وألالاخ بين حلب وانطاكية ، وقطنة (المشرفة) على بعد ثمانية أميال إلى الشمال من حمص ، وقادش (تل النبي مند) على بعد ثمانية أميال إلى الجنوب الغربي من حمص ، وغيرها .

اندفع الأموريون في جهات سوريا الأربع ، فوصلوا سوريا الغربية ، ومن مدنهم على ساحل سوريا الشمالي «عمريت» . وقد سيطروا على بعض مدن الكنعانيين ، وهدّدوا حدود مصر من جهة فلسطين . وحوالي ٢١٠٠ ق.م. بلغ نفوذهم بابل ، فعملوا على توحيد سومر وأكاد في مملكة واحدة يمكن تسميتها مملكة بابل . ثم امتد إلى الشمال ليشمل أشور أيضاً . فحوالي ١٨٣٠ ق.م. أعلن سومو أبوم الأموري نفسه ملكاً على بابل . ثم ضم إلى مملكته بعد انتصاره على ملك أشور، سيبار وكيش . ومن السلالات الأمورية الأولى في بلاد أشور سلالة شمشي هدد (١٨١٤ ق.م.)[٢٥] .

كنعــان

لا يهمنا البحث في أصل الكنعانيين ، وإن كان المؤرخون قد أجمعوا على القول إنهم هاجروا من البادية السورية واستقروا في مناطق متفرقة من سوريا الغربية ، ثم أصبحوا مع الزمن شعباً زراعياً يعيش في مدن صغيرة تحميها الجدران الحجرية العالية[٢٦] .

يذهب المؤرخ أوتو ايسفلد إلى القول إن موطن الكنعانيين الأصلي هو شبه جزيرة سيناء ، أو البادية العربية المجاورة ، التي يُعتقد أنهم قدموا منها حوالي ٣٠٠٠ ق.م. ، وحلّوا في المواقع التي عرفت باسمهم في العصور التاريخية . ويخصّص جورج كونتينو

صفحات كثيرة لـ «مهد الفينيقيين» ، ولا يتردد في ارجاع أصلهم إلى ما قبل التاريخ . أما المؤرخ الكلاسيكي فيلون الجبيلي فيزعم أن الفينيقيين أصيلون في موطنهم . وأن بلادهم هي مصدر الناس والآلهة والثقافة الإنسانية كلها ، ويعيّن هيرودوتس موطنهم الأصلي على الساحل الأرتيري . ويذهب سترابو إلى القول بوجود معابد ومدائن على خليج البصرة شبيهة بالمعابد والمدائن الفينيقية . ويثني بلايني على كلامه . ويقول جوستين إن الفينيقيين بعد أن أجلتهم الزلازل عن موطنهم الأصلي حطّوا رحالهم في بادىء الأمر عند البحيرة السورية (البحر الميت) ، ومن بعد على ساحل المتوسط[٢٧] .

والسؤال : متى هاجروا من البادية إلى المناطق الخصبة في سوريا ؟ . لا ندري . وليس لدينا أي دليل على هجرتهم من مكان ما في التاريخ القديم إلى هذه الأرض . وربما وجدوا على شواطىء سوريا الغربية وجبالها من عصور ما قبل التاريخ . فالشعب لا يوجد فجأة ، وإنما يعبّر عن وجوده التاريخي عندما ينشط عسكرياً وسياسياً وحضارياً . وهناك ما يكفي من الأدلة والبراهين على استقرار الكنعانيين في سوريا الغربية قبل التاريخ المدوّن . وهم الذين أسسوا حضارة الساحل السوري وحضارة فلسطين القديمة .

والواقع أن التنقيبات التي أُجريت إلى الآن (١٩٩٥) في بعض المواقع أثبتت أن بعض المدن الكنعانية كأريحا وبيت شان وجازر ومجدو وأورشليم وجبيل وأوغاريت ، تسبق التاريخ . وقد أرجع علماء الآثار مدينة أريحا إلى ما قبل الألف السابع ق.م. وهذا ما حمل بعضهم على اعتبارها أقدم مدينة في العالم ما تزال قائمة حتى اليوم[٢٨] . وتدل الآثار المكتشفة في أوغاريت على أن المدينة كانت مأهولة منذ ما قبل الألف السابع ق.م. وأن ثقافتها ترجع إلى ما قبل التاريخ[٢٩] .

أرام

إن بداية التاريخ الأرامي غامضة ، فليس ثمة وثيقة تطلعنا على نشأة الأراميين . وكل ما يمكننا قوله إنهم تسرّبوا من البادية السورية إلى الهلال الخصيب مثلهم مثل الموجات التي سبقتهم . ويبدو أنهم كانوا في بداية ظهورهم على مسرح التاريخ قبائل رحّلاً . تتفق تحركاتهم وتحركات البدو الدائمة في مواسم معينة من أطراف الصحراء إلى المراعي المحيطة بها . وقد توزعت هذه القبائل بين القرنين الخامس عشر والحادي عشر ق.م. في أقاليم الهلال الخصيب ، من الخليج الصحراوي حتى فلسطين[٣٠] ، راحلة أحياناً بحثاً عن أرض أكثر خصباً وأرحب متسعاً ، أو مستقرة في إقليم ما مؤسسة إمارة أو مملكة .

لم يتضح وجودهم السياسي إلاّ بعد ضعف أو تفكّك الامبراطورية الأمورية ، أو بعد

تقلّص نفوذها حوالي ١٥٠٠ ق.م. ففي القرن الخامس عشر ق.م. بدأت الممالك والامارات الأرامية تأخذ دورها السياسي ، فكان لهم في الجزء الشمالي من بلاد النهرين عدد من التجمّعات الكبيرة (أرام النهرين ، فدان أرام) ، أخذ بعضها شكل الدول الصغيرة أو المدن ـ الممالك ، لعل أهمها دولة بيت عديني التي كان مركزها في تل برسيب على الفرات الأعلى ، ودولة بيت بخياني التي كان مركزها في غوزانا (تل حلف) .

وبعد سيطرتهم على بابل حوالي ١٠٥٠ ق.م. توغلوا جنوباً فكوّنوا إمارة بيت يكيني . ثم كان لهم إمارة بين بابل وبين رأس الخليج الصحراوي عرفت باسم كلد ، وقد أدّى الكلدانيون دوراً بارزاً في حضارة بلاد ما بين النهرين .

وفي الشمال الغربي أسس الأراميون عدداً من المدن ـ الممالك مثل مملكة ياعودي ، كانت عاصمتها سمائيل بين انطاكية وبين مرعش (تقوم عليها الآن بلدة زنجرلي التركية) . ودولة أغوشي إلى الجنوب من حلب . وكان لهم عدد من المدن المزدهرة مثل أرفاد وكركميش (جرابلس) .

وفي سوريا الجنوبية كان لهم عدد من الإمارات والممالك مثل أرام بيت رحوب في وادي الليطاني الأوسط ، وأرام بيت صوبا في البقاع ، وأرام معكة في الجولان . وإمارة جشور بين اليرموك وبين دمشق . وفي دمشق كان لهم مملكة عظيمة .

بلغ الأراميون ذروة قوتهم وعظمتهم حوالي نهاية القرن العاشر ق.م. ولكن قوتهم التوسعية لم تصحبها القدرة على تنظيم فتوحاتهم أو تنظيم دولهم ، فلم يتوصلوا مثلاً إلى تكوين مملكة قوية أو إنشاء وحدة فعّالة لعدم اتحادهم وتماسكهم . والأهمية التاريخية للدولة الأرامية قد تكون طفيفة إذا ما قيست بالدور الثقافي الفريد الذي قدّر للأراميين أن يلعبوه في الشرق المتوسطي ، فقد تفوّق اللسان (اللغة) والنشاط الثقافي الأراميان ، وطبعا الشرق المتوسطي بطابع أرامي واضح وعميق الأثر ، بقي يتجلّى ويتسع حتى مجيء العرب المسلمين[٣١] .

يبدو أن الأراميين اتخذوا الأبجدية الكنعانية أساساً لخطّهم . ويبدو أيضاً أن لسانهم (لغتهم) تطوّر مع تطوّرهم السياسي والثقافي إلى لغة مكتوبة . وقد حمل الأراميون لغتهم (لسانهم) معهم أينما ذهبوا . ومن الحقائق المهمة أن اللسان الأرامي انتشر في المدن الأشورية القديمة حتى أصبح المتكلمون به أكثر عدداً من المتكلمين بالأشوري . ثم تبنّت أشور اللسان الأرامي كلغة رسمية . وأخيراً أصبحت الأرامية لغة الهلال الخصيب كله ، فكان السيد المسيح يتكلمها في فلسطين .

وقد انتشرت حضارة الأراميين التجارية انتشاراً واسعاً ، وتركت وراءها مؤثرات خلدت مع الأيام . وقد توصّل حضريوهم إلى اشغال المناصب العالية في الدولة البابلية الثانية ، ومن ثم في الدولة الفارسية .

* * *

وإلى الشرق من نهر الأردن قامت ممالك عمون ومؤاب وأدوم ومديان . فمؤاب إلى الجنوب الشرقي من البحر الميت . من مدنهم ديبون ، أرنون ، حولون ، بيت ماعون ، وحشبون . ومديان على التخوم الغربية للبادية العربية حتى خليج العقبة . وأدوم في صحراء النقب . كان لها ميناء في منطقة ايلات الحالية . عاصمتها بصرى ، ومن مدنهم أزيون . وإلى الشرق من القدس (٦٠ ميلاً) كانت مملكة عمون ، عاصمتها ربّة (عمان الحالية) . كان العمونيون يسكنون بيوتاً حجرية محاطة بأسوار من الألف السادس ق.م. وقد دلّت الأبحاث والآثار المكتشفة على أن الأنصاب والصوامع الحجرية الضخمة التي بقيت آثارها في جبال عمان ، كانت قد أُقيمت كهياكل على مشارف الجبال وعند عيون الماء . ومن الآثار المكتشفة في عمان ضريح منقور في الصخر وفيه مجموعة نفيسة من الأواني الفخارية ومن الأختام .

وحوالي القرن الثامن ق.م. بدأت مجموعات بشرية بالتسرّب من البادية العربية إلى المشارف الشمالية من منطقة الحجاز . وفي القرن السادس ق.م. تشكلت منهم موجة استقرت في الشمال الشرقي من شبه جزيرة سيناء ، وإلى الشرق من نهر الأردن ، عرفت باسم الأنباط .

وفي القرن الرابع ق.م. كان لهم مملكة ، عاصمتها سلع . أطلق عليها اليونان صفة بترا أي الصخرة . بلغت درجة رفيعة من الحضارة .

وسّع الأنباط سلطتهم ومراكزهم ، فبسطوا نفوذهم على سيناء وحوران ووادي القرى والحجر ومؤاب والبلقاء وأرض مديان وأعالي الحجاز . واشتهرت مدن لهم بالإضافة إلى العاصمة (البتراء) مثل اذرع وجرش والكرك والشوبك وأيلة ومدائن صالح والعلا وصلخد ومأدبا .

ظلت البتراء قرابة أربع مائة سنة تشغل مركزاً مهماً على طريق القوافل بين العربية الجنوبية وبين ثغور البحر الأبيض المتوسط .

اتسعت دولة الأنباط سياسياً في أواخر القرن الأول ق.م. فشملت الجنوب السوري من النقب إلى دمشق . كما وصلوا إلى سوريا المجوفة (البقاع) . أما امتدادها تجارياً فقد

تجاوز هذه الرقعة إلى موانىء البحر المتوسط وموانىء مصر وساحل البحر الأحمر . ووصلوا غرباً إلى ايطاليا وشرقاً إلى موانىء الجزيرة العربية وربما إلى الهند .

كتب ديودور الصقلي (٦٣ ق.م ـ ١٤ م) عن الأنباط أواخر القرن الرابع ق.م. وألمّ سترابو (٥٨ ق.م ـ ٢١م) في جغرافيته في القرن الأول ق.م. بجوانب من أوضاعهم الإجتماعية . ومما قاله فيهم إنهم شعب ديمقراطي تسود بينهم علاقات اجتماعية سليمة لدرجة أنهم لا يحتاجون إلى رفع دعاوى أو إقامة محاكم . وقال إن مساكن الأنباط من الحجر ، ومدنهم غير محاطة بالأسوار بسبب من حالة الأمن والسلم السائدة في بلادهم .

سوريا الحضارة

صحيح أن الحضارات تتأثّر بعضها ببعض . وصحيح أيضاً أن الحضارات الأُولى نشأت منفصلة بعضها عن بعض . وأن جلّ ما ساهمت به الأقوام الأُولى في تاريخ الحضارة كان ابتكاراً ، لأن عمليات الاقتباس تمّت في مراحل متأخرة عندما اتصلت الشعوب وتعارفت في التجارة أو في أثناء ترحّل الجماعات والأقوام المختلفة بحثاً عن بقع من الأرض أكثر خصباً وأوفر أمناً . ومن الأكيد أن أقواماً في بقاع معيّنة كانوا أسبق من غيرهم في ارتقاء الدرجات الأُولى في سلم الحضارة . فقد تتشابه البيئات الطبيعية في أكثر من منطقة ، ولكن يبقى دور الإنسان هو الحاسم في ترويض عوامل البيئة والتغلّب عليها وتسخيرها لخدمته عن طريق ابتداع الطرق والوسائل التي تمكنه من التغلّب على الطبيعة ومجابهة عواملها . والإنسان ، أي إنسان ، يؤثر في المحيط الحيوي ويبدّل فيه بنسبة ما يبذله من جهد وما يتوفر له أو ما يوفره لنفسه من قدرة للسيطرة على المجال الحيوي أو تحطيمه .

وصحيح أن التحضّر أو ما يسمّى الانتقال من الأحوال البدائية إلى الأحوال الحضرية قد حصل أكثر من مرة في التاريخ وفي أكثر من مكان ، وكان نتيجة اتصال شعوب بدائية بشعوب أُخرى أكثر تحضراً . ولكن الحضارة في الشرق المتوسطي لم تكن نتيجة احتكاك أو اتصال شعوب هذه المنطقة بشعوب أُخرى أكثر تمدّناً وحضارة ، وإنما ظهرت تلقاء من فعل الإنسان في طبيعة الأرض وتأثيره في محيطه . ولا يمكننا أن نعلّل انبثاق فجر الحضارة في مجتمعات هذه المنطقة على أساس الاحتكاك أو الاتصال بالخارج[٣٢] .

وإذا كان علماء التاريخ قد اختلفوا حول مهد الجنس البشري ، فإنهم لم يختلفوا حول المهد الذي نشأت فيه الحضارة البشرية . وقد اتفقوا على أن المهد الذي توصّل فيه

الإنسان إلى أقدم الاكتشافات وأعظمها خطورة وأبعدها أثراً في تقدم الحضارة ، هو البقعة الممتدة من حوض النهرين (دجلة والفرات) إلى البحر الأبيض المتوسط . ومن حدود الجبال المحاذية لأعالي الفرات شمالاً إلى أطراف البحر الأحمر جنوباً ، والتي اصطلح على تسميتها منذ أواسط الألف الأول ق.م. سوريا .

والطريف أن دوافع الإنسان القديم في سوريا الطبيعية لتكوين الحضارة ، تتجذّر وتتشعّب في حقول النشاط الإنساني سائرها . وقد بلغت ما بلغته من التطوّر في نواحي الحياة جميعها وفي مجالاتها على اختلافها . فقبل التاريخ المدوّن كان للسوري القديم خطوات فعّالة في صنع حياته المستقرة . وحين تحرّر عقله من اهتمامات المعيشة بدأ يستجيب لمحرضات الطبيعة ، مستخدماً كل ما تقدّمه له من إمكانات لتحسين وجوده . فعرف منذ الألف السابع ق.م. مثلاً أن يبني المنازل بالحجر ويكسو الجدران بالطين ويصنع الأدوات المختلفة من الفخار ، مما وفّر له المجال لتنمية الشؤون الرفيعة في سائر مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والسياسية . وفي أدوار لاحقة ، وقبل التاريخ المدوّن أيضاً ، ألّف الحكومات المدنية ذوات الدوائر المنظمة . وأنشأ المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية . وبدأ بتكوين أو وضع الأُسس لحياته السياسية والاجتماعية . وبالتالي تكوين معالم حضارة بلغت شأوا عالياً من النضوج والتفوّق قبل بداية العصر التاريخي . وشكّلت الأُصول الأُولى للحضارة الإنسانية في مجالاتها المادية والمعنوية .

ومن هنا فإن البحث في تاريخ الحضارة السورية موضوع واسع ومتشعّب ، لا يكفيه عمر باحث ولا تستوعبه مجلدات . ولذلك لا يعنينا في مجال هذا البحث اقتفاء الخطوات الأُولى التي قطعها السوري القديم ليبلغ ذلكم المستوى الرفيع من مهارة الصنعة ورفعة التنظيمات الاجتماعية والتشريعات الخلقية والنشاطات الثقافية . ولا نرغب في تقصّي الدور الذي أدّاه في تكوين وانشاء مقومات الحضارة الأُولى . ولا الوقوف على الجهود التي بذلها في تسخير عوامل البيئة لخدمة الإنسان . ولا استقراء التطوّر العظيم الذي حصل في مجاري الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ولا نريد البحث في المجتمعات السورية الأُولى ، أو محاولة الكشف عن جذور الحضارة السورية . وإنما رغبت في إلقاء بقعة من الضوء على جذوع تلك الحضارة التي أفرعت ، وعلى فروعها التي أينعت . وإذا كان التاريخ يبدأ بمعرفة الكتابة في الألف الثالث ق.م . فمن الصعب ، إن لم يكن من المحال ، التعرّف إلى جذور حضارة سبقت التاريخ ، والوقوف على القوى والمقومات التي أوجدتها . ولذلك فنحن معنيّون في سياق هذا البحث بالإشارة إلى المقوّمات والوجوه الحضارية في هذه المنطقة ، لا بحقيقة ظهور الحضارة التلقائي . والإشارة إلى الإنجازات

الحضارية والمقومات الثقافية التي أفاد منها عدد كبير من الشعوب القديمة ، وبقي مستمراً كتراث عام للإنسانية . وأردت التركيز في البحث على جوهر الحضارة السورية كما قام في تفكير شعوبها وقيمهم ، وتمثّل في مآتيهم من الفنون والآداب والعلوم ، وفي مفهومهم للعالي (عل ـ ايل ـ إله ـ الله) .

ولقد جهدت في كتابة هذه المقدمة في تاريخ الحضارة السورية من وجهة نظر متأثر بالوضع القومي الحضاري ، لا بالوضع السياسي القائم في منطقة الشرق المتوسطي منذ أوائل القرن العشرين . وكان همّي التلميح إلى القيم الإنسانية العليا في الحضارة السورية القديمة ، التي تمثّلت في معتقداتهم ومعطياتهم الاجتماعية ومبادئهم الخلقية ، والتي كانت وما فتئت تعتبر من أكثر القيم قابلية للاستمرار في مجاراة الحياة والتعميم بين مختلف الشعوب . وكان همّي أيضاً الإشارة إلى المقومات الحضارية التي نهضت بالسوريين القدماء إلى ارتقاء سدّة الحضارة لحقبة تتجاوز ثلاثة آلاف سنة . والتبصّر في ما أسهمت به الحضارة السورية القديمة من إبداع وتنمية التراث الحضاري المادي والروحي للبشرية .

وهنا لا بد من التريّث ولو قليلاً ، والتحدّث ولو بإيجاز شديد عن الدور الريادي الذي كان لشعوب سوريا القديمة في وضع الأُسس الأُولى أو الدعائم التي قام عليها صرح الحضارة . تمثّل في ما قدّموه إلى الشعوب الأُخرى من مقوّمات حضارية في الزراعة والصناعة والهندسة والعمران والعلوم والفنون والشرائع والآداب والمعتقدات .

النقلة الخطيرة في حياة الإنسان

الحضارة هي الإقامة في الحضر . أو هي بتعبير ابن خلدون (مؤسس علم الحضارات) ، «العمران البشري والاجتماع الإنساني» . فأصل المعنى هو الاستقرار . والاستقرار الذي ينشأ عن زراعة الأرض هو السبيل الذي تنفسح فيه لأبناء المجتمع مجالات التطوّر ، فيتقدمون في فنون اكتساب العيش وفي الانتظام الداخلي والتعامل الخارجي ، وفي بناء المدن وإقامة منشآت العمران .

فالاستقرار أهم شروط الحضارة . وتتمثّل أهميته في نشوء القُرى الأُولى بشرارة أوقدت المشعل الذي حوّل الإنسان بواسطته الطبيعة المحيطة به إلى مروج وحقول وبساتين . ولذا حصر ابن خلدون صفة الحضارة بالمجتمعات المستقرة ، على اعتبار أن الحضارة مناقضة للبداوة المتنقّلة . والإنسان لا يعرف العمران حين يقضي عمره مترحّلاً يصرف جهده في تأمين مسكنه وحاجاته المعاشية .

والاستقرار مرتبط بمحاولة استثمار الأرض بالفلاحة والزراعة ، مما يؤمّن تجمّع

العدد الكبير من السكان ، فتنشأ القرى والمدن . وهذا التجمّع يساعد في تقسيم العمل وتنظيمه ، وبالتالي يؤدي إلى حياة اجتماعية وإلى تفاعل فكري وارتقاء حضاري . ومن هنا كان أصل معنى culture في الذهن الغربي وراتباطه بزراعة الأرض Agriculture . فالزراعة تتطلّب الثبات في الأرض ، وتقتضي أنواعاً من التعاون تفوق تلك التي تقوم في المجتمعات القنصية أو البدوية . وتؤدي مورداً له حظ من الأمن والاستمرار ، ونتاجاً يمكن خزنه للمستقبل . وتتيح بعض الفراغ لصنع الأدوات أو للانصراف إلى أعمال لا تنحصر بمجرّد تحصيل العيش وحفظ البقاء . وبهذا كله تفتّح الزراعة إمكانات الإنسان ، وتقوّي فعله في محيطه وفي نفسه ، فتنمّي أهليته للحضارة وتقيم لهذه أساساً وطيداً[٣٣] .

أجمع المؤرخون والعلماء على القول إن شعوب سوريا الطبيعية كانوا أسبق شعوب الأرض في الانتقال من مرحلة الصيد والبحث عن الجذور التي تجود بها الطبيعة ، إلى مرحلة الاستقرار ، وما استتبع الاستقرار من تربية الحيوانات واستنبات التربة ، وكل ما يدخل في نطاق الرعي والزراعة . وهذا التحوّل من عهد جمع القوت إلى عهد انتاج القوت حدا به إلى تخطّي إمكانياته المحدودة ، والبحث عن إمكانيات أوسع وأشمل ، مما أدّى إلى قيام شكل جديد من أشكال الفعالية البشرية تمثّل في العملية الإنتاجية التي أضحت لأول مرة (حوالي الألف الثامن ق.م.) هي العامل الجديد في المجتمع الإنساني المتحضّر .

والواقع أن خطوته الجديدة في ميداني الزراعة وتربية الحيوانات كانت بمثابة ثورة في حياته الاقتصادية والاجتماعية . فقد حدت به إلى الاستقرار في الأرض وإنشاء المساكن وتكوين القرى . والاستقرار أدّى إلى تجميع الاختبارات المتشابهة وانتقالها بشكل تقاليد حضارية من مكان إلى آخر ومن جيل إلى آخر . وهذا التطوّر من مرحلة رعوية بدائية إلى أخرى زراعية أكثر تركيباً ، كان في فترة مبكرة تسبق الألف التاسع ق.م. وقد استطاعت التجمّعات البشرية الأولى في القرى الزراعية أن تحقّق الوحدة بين أفراد المجموعة الواحدة ، وتعطي لحياتهم مغزى وأهمية في اطار التطوّر البشري ، لا سيما وأن القرية هي القاعدة الأساسية لحضارتنا الحديثة .

ومن الواضح ، كما يرى المؤرّخ جاك كوفان[٣٤] ، أن سلّم ذلك الارتقاء وعناصره ظهرا أولاً في الشرق المتوسطي القديم (سوريا الطبيعية) . ويرى المؤرخ ر. بريدوود[٣٥] أن المنطقة التي شهدت نشاطاً حضارياً مثيراً للاهتمام خلال الفترة التي تمت فيها القفزة نحو إنتاج القوت وتأسيس القرى الزراعية ، كانت تشمل البلاد المحاذية للشواطىء الشرقية للبحر الأبيض المتوسط . والممتدة شرقاً إلى حوض النهرين . ففيها نضج قبل أي مكان

آخر في العالم جملة متكاملة من التحوّلات . وفيها تمت النقلة الخطيرة في حياة الإنسان من مرحلة الالتقاط والصيد إلى مرحلة الاستقرار والبدء بالزراعة وإنشاء القرى وإقامة التنظيمات المستقرة . ومن الطبيعي أن الاستقرار أساس الحضارة فهو الذي يمكن من إنشاء وسائل الري والزراعة والحصاد والخزن . ويتبع الاستقرار تنظيم المجتمع واشتراع القوانين من أجل حماية التنظيم . ويرى المؤرخ أرنولد توينبي[٣٦] أن الزراعة وتربية الماشية والتعدين وتقنية تشذيب قطع كبيرة من الحجارة ونقلها ، قد عرفت لأول مرة في المنطقة الممتدة من الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط إلى حوض النهرين . ومنها انتقلت إلى بعض مناطق العالم القديم بالاقتباس أو بالتجارة .

ومن المؤكد ، يضيف توينبي ، أن الزراعة وتربية الحيوان كانا أهم الإكتشافات البشرية حتى يومنا هذا ، ذلك أنهما لم يخسرا من قيمتهما كأساس اقتصادي للحياة البشرية حتى في الأزمنة والأمكنة التي يبدو وكأن التجارة والصناعة قد تغلّبتا عليهما .

وهكذا كان الإنسان القديم في أقاليم سوريا الطبيعية أسبق من غيره في بقاع العالم الأُخرى ، تطوّراً من مخلوق يعيش على ما يجمعه من القوت أو ما يصطاده من الطيور والحيوانات ، إلى إنسان ينتج طعامه ويختزنه ، مما وفّر له نوعاً من الحياة المستقرة ومجالاً لجمع الثروة وزيادة عدد السكان . وعندما تحرّر عقله من اهتمامات المعيشة راح ينمّي خبراته بمغالبة عوامل الطبيعة حوله كغزارة الأمطار وفيضان الأنهار ، مكتسباً مهارات جديدة في استثماره الأرض . وبدأ يفكر في استغلال ما تقدمه له الطبيعة من إمكانات لتحسين ظروف حياته ، وبالتالي إلى الانصراف إلى تنمية الفنون والشؤون الرفيعة في الحياة . فحين كان الإنسان القديم مستقراً في مساحب الوديان في منطقة حوض النهرين مثلاً ، استرعى انتباهه ازدياد منسوب المياه في بعض الأوقات ، وتهديدها للإنسان القاطن بجوارها . ثم انحسار المياه بعد حين من الزمن ، وتكرار هذه الظاهرة عاماً بعد عام . وقد عبّر أرنولد توينبي عن هذه الظاهرة بالقول إنها كانت تحدّياً للإنسان الذي اضطر إلى مجابهة هذا التحدي أو الردّ عليه بمحاولة التحكّم في البيئة ، وهو ما يسمى بنظرية التحدي والردّ Challenge and response . وفي محاولته الرد على تحدي الطبيعة عمل جاهداً على التحكم في البيئة : ردّ المياه المتدفقة أو تحويلها بمختلف الوسائل : إنشاء السدود وإقامة الجسور وشق القنوات ورفع الحواجز وغير ذلك .

والطريف أن الملوك البابليين كانوا يشعرون في أعماق نفوسهم بعظمة المشاريع العمرانية التي يحققونها مثل احكام السدود وإقامة شبكات الري وحفر الأقنية وتجفيف المستنقعات . وكانوا يقيسون هذه العظمة بمدى استفادة شعوبهم منها . فيكتبون على

الفخـار مثلاً مخلّدين أسمـاءهم في هذه المشـاريع ومعلنين لـلأجيال المقبلة مـا حقّقوه من أجل مملكتهم . وليس أدل على ذلك من النص الذي تركه اياهـدونليم ملك ماري حـوالي ٢٠٠٠ ق.م. يقـول «لقد حفـرت الأقنية وجـررت المياه إلى المـدن ، فأبـطلت عادة نقـل المياه من النهر . وبنيت سور مدينة ماري ، وحفرت خنادقهـا»(٣٧) . وقد أشـارت النصوص إلى اعتناء البابليين بالأقنية واهتمامهم بتحسينها وتطويرها ، فيذكـر أحد النصـوص أن نارام سن ملك لارسـا «حفر قنـاة السهل التي تحمـل الخير الـوفير» . كمـا يـذكـر نقش آخـر أن أمورابي ملك بابـل كان يعنى بحفـر الأقنية ، والعمـل في كل مـا من شأنـه توفيـر الخصب للأرض والازدهار للشعب(٣٨) .

وفي سوريا الغربية بدأت الحضارة النطوفية (نسبة إلى وادي النطوف في شمال غربي القدس) مع بداية العصر الحجري الـوسيط (١٢٠٠٠ ق.م.) . وقد دلت الآثـار المكتشفة كالسكاكين والمناجل المصنوعة من الصوّان البركاني وغيرها ، على اشتغالهم بالزراعـة في وقت مبكر يسبق الألف الثامن ق.م. . وربما كانوا مع معاصريهم في الشمال السوري أول من مارس الزراعة في العالم . وليس لدينا أي دليل على ممارسة أي شعب آخر للزراعة في مثل هذا العصر المبكر ، كمايقول المؤرخون وعلماء الآثار(٣٩) .

ويـرجّح علمـاء الآثار أن النـطوفيين كانـوا أول من استعمل أداة الحصـاد المعقـدة ـ المنجل . وقد انبعثت منهم معرفة زراعة الحنطة والشعير ، ومعرفـة أداة الحصاد ـ المنجـل على شكل دوائر كانت تتسع شيئاً فشيئاً ، فوصلت مصر وبـلاد النهرين ، وبلغت شـواطىء البلطيق والبحر الشمالي حوالي ٢٥٠٠ ق.م.

ولعـل النطوفيين ، بـالإضافـة إلى تعميمهم معرفـة زراعة الحبـوب وصنع المنـاجـل واستخدامها ، كانوا أول من خـطا الخطوة الأولى نحـو توفيـر البذور وخـزنها وحمـايتها من الحشرات والقواطع وبذرها في الوقت الملائم .

والخلاصة إن الإنسان القديم في سوريا الـطبيعية عـرف في وقت مبكر جـداً (الألف الثامن ق.م.) أن يستفيد من موارد الطبيعة للزراعة أو لبناء المساكن أو لصنع الأسلحة وغير ذلك من الأدوات . وهذا الالتفات إلى موارد الطبيعة كـان تعبيراً عن حسّ الإنسـان في هذه الأرض بوجوده الإنساني القادر على البدء بنشاط حضاري . فعندمـا تمّ له الاستقـرار الذي نشأ عن زراعة الأرض تحرّر من الشعور بالقلق والخوف الـذي يرافق المتـرحّلين المشرّدين البـاحثين عن طعام أو مـأوى . وانفسحت له مجـالات التطور ، فتقـدم في فنـون اكتسـاب العيش وفي بناء المدن وفي تحصيل المعارف وفي الانتظام الداخلي والتعامل الخـارجي . وتحرّرت في نفسه دوافع التطلّع وعوامل الإنشاء والإبداع . وعبّر عن مشاعره وعواطفه نحو

الآخرين بعلاقات اجتماعية هي في رأس كل تقدّم حضاري . كما أدّى استقراره أيضاً إلى تطوير العقل ، وبالتالي إلى تطوير اللغة التي وصلت إلى درجة الاتقان في العصر الحجري الوسيط .

عنوان الثورة التكنولوجية

لم تكن الشعوب القديمة في سوريا الطبيعية أقل مهارة في الصناعة منها في الزراعة . ولعل أهم الصناعات التي برع فيها الإنسان القديم منذ استقر في هذه الأرض ، هي صناعة الأواني الفخارية التي عرفها منذ عهد مبكر جداً قد يسبق الألف السابع ق.م. ولعلها الصناعة الأولى في التاريخ البشري . وتكمن أهميتها في تحريرها الإنسان من الاعتماد على مواد الطبيعة وحدها .

عرف الكنعانيون صنع الفخار في الألف السادس ق.م. مما أحدث انقلاباً في أحوالهم المعيشية . وبدت مصنوعاتهم بأشكال متعددة وزخارف متنوعة . وقد ساعدت كثرة الأواني المكتشفة وتنوّع صناعاتها وأشكالها في إعطاء المؤرخ مادة أثرية ضخمة تعينه في دراسة التطورات الصناعية في العصور المختلفة ، وبالتالي تقويم أزمنة تلك العصور .

كان لاختراع دولاب الخزاف أثر عظيم في تطور الحضارة . فنفعه لم يقتصر على تحسين صناعة الخزف ، وإنما أصبح في ما بعد النموذج لصنع عجلة العربة . واختراع العجلة كان فجراً جديداً في عالم الصناعة ، فقد أسفر هذا الاختراع عن إمكانات صنع آنية خزفية مستديرة ، وعن صنع عربات مختلفة الأنواع تسير على عجلات ، وعن تقدم في صناعة النسيج والحياكة ، وفي صنع الآلات المعدنية . وكانت العجلة سبباً في إنشاء شبكات للمواصلات البعيدة براً وبحراً . والعجلات التي وصلتنا من المقابر الملكية في أور تمتاز بتصميم فنّي على شيء من الدقة والتعقيد .

وراجت صناعة النسيج في أرجاء سوريا الطبيعية . والمتأمّل لدقة أنسجتهم وزخرفتها يشهد على لباقة نسّاجها وذوقهم الفني الرفيع . وقد اشتهرت الأنسجة البابلية في جهات العالم القديم ، يرغبها الملوك والأمراء . واشتهرت ايبلا بتصنيع الصوف والكتان . وكثيرة هي النصوص التي تفيد توزيع المنسوجات داخل مملكة ايبلا وخارجها مصدّرة إلى المناطق التي وقعت تحت النفوذ السياسي والتجاري لمملكة ايبلا .

حققت الكنعانيون شهرة واسعة في صناعة النسيج ، لا سيما نسيج الأرجوان المصبوغ باللون الأرجواني المستخرج من المرّيق (Murex) . فقد كان في شواطىء صور وصيدون قدر كبير من أصداف المرّيق . كان الكنعانيون يستخرجون منه صباغاً أرجوانياً .

وقد كانت عملية استخراج نقط قليلة من المحار عملية شاقة ومـرهقة تتـطلّب مهارة فـائقة ، ومهارة كذلك في استعمالها كمادة في صبغ النسيج[٤٠] ، حتى أن فئة قليلة جداً من الأغنياء كانت تستطيع أن تدفع ثمنه . ولذلك راج المثل : «ولد في الأرجوان» . وقد كانت هيلانـة طروادة وكليوبترا مصر وأباطرة الرومان يتفاخرون بلبس الأرجـوان . والثياب الكهنـوتية التي يلبسها الكرادلة الكاثوليك وبـطاركة الكنـائس الشرقيـة هي استمرار لهـذا التقليد الكنعـاني القديم .

وعرف السوريـون القدمـاء صناعـة المعادن في وقت مبكـر (الألف الخامس ق.م.) وأدركوا خطورة شأنها وإمكاناتها العظيمة . وراح كل شعب بحسب توفّر هـذه المادة وتـطوّر قدراته العقلية ، يصنع منها الأدوات والآلات مستعيضاً بهـا عن الأدوات الحجريـة البدائيـة التي استخدمتها الأجيال السابقة . وقد أدى اكتشـاف المعدن إلى حـركة انقـلابية أدت إلى رفـع الحضارة من مستـوى الحجر إلى المعـدن . وأصبح الإنسـان بعـد اكتشـاف المعـدن وإدراك خواصه على عتبة عصر جديد استمر إلى يومنا هذا .

يعتبر موقع تليلات الغسول (في شمال شـرقي البحر الميت) أهم مـراكز التعـدين في العصور القديمة . وقد أصبح اسم المكان نموذجاً للحضارة في بلاد الغرب .

عرف السوريـون القدمـاء النحاس الـطري في وقت مبكر . وضـربوا بسهم وافـر في التعدين وصناعة النحاس والبرونز والفولاذ . واهتدوا إلى الجمع بين النحاس والقصـدير . وقد ظهر من تحليل العلماء لفأس يرجع تاريخها إلى ثلاثـة آلاف سنة ق.م. أن السـوريين القدماء كانوا يعرفون مزج الحديد مع عناصر أُخرى لتكوين الفولاذ . وكان استعمال البرونز شـائعاً في المـدن الكنعانيـة في الألف الثالث ق.م. أيضـاً ، مما يـدل على مـدى سيـطرة الكنعاني على بيئته. وكانوا السباقين في صناعة التعدين إلى إنتاج الأسلحة وأدوات الزينة . وكـان بينهم صناع مهـرة طرقـوا النحاس وصبـوه في قوالب وأشكـال . كما صنعـوا تماثيـل لمعبوداتهم

يتحدث هوميـروس كثيراً في الاليـاذة عن الشهرة التي كـانت لمصنوعـات صيدون ، لروعة صنعتها وفخامة اتقانها ، فيذكر مثلاً «الثياب التي صنعتها النساء الصيدونيـات باتقـان بالغ» . وفي الملحمة وصف لكأس من مصنوعات صيدون جاء فيه «كأس مزيج من الفضـة صنعهـا باتقـان الصيـدونيـون المـاهـرون يتجسّـد فيهـا الفن وتفـوق لـروعتهـا جميـع آنيـة الأرض»[٤١] .

ويكفي للدلالة على مهارتهم الصناعية أن نستشهـد ببعض ما عثـر عليه المنقبـون في

قبورهم ، خاصة الملكية ، من تحف فنية تشهد على تقدمهم الرائع في حقل الصناعات اليدوية ، ولا سيما الحفر في الأبنوس ، وأنواع المعادن المختلفة ، التي تعود إلى نهاية الألف الرابع ق.م. وقد استدل العلماء من دراستها على أن صنّاعها كانوا يعرفون عمليات خلط المعادن ولحامها وصقلها وطرقها وترصيعها . ففي مقابر أور الملكية مثلاً ، التي يرجع تاريخها إلى ٤٠٠٠ سنة ق.م. عثر المنقبون على أوان من الذهب تنم عن ذوق فني رفيع في الصنع والصقل .

وباختصار، إذا كان تدجين النباتات والحيوانات قد أصبح لحمة الحياة البشرية وسداها في العصور القديمة ، فإن اختراع التعدين هو عنوان الروعة التكنولوجية للإنسان . وقد كان له آثار قوية على أحوال الإنسان الاقتصادية والاجتماعية ، وعلى التفاعل بين الإنسان وبين المحيط الحيوي ـ المكان الوحيد الصالح لعيشه .

توسيع وتمديد لمساحة العالم

ازدهرت التجارة في أقاليم سوريا الطبيعية على اختلافها ، خاصة في بابل ، نظراً لافتقار الإقليم إلى المواد الخام اللازمة للحضارات الناضجة ، كالأحجار يرفع بها البابلي أعمدة للهياكل والقصور ، والصخور الديورية والرخام ينحتها تماثيل للأرباب والملوك ، والأحجار الكريمة يصنع منها الأختام ، والأخشاب ، خاصة أخشاب الأرز ، والحديد والنحاس والذهب يصنع منها أدواته وأسلحته وحليه . وتتجلّى آثار المهارة التجارية البابلية في ما وصلنا من آلاف الألواح المدوّن عليها المعاملات التجارية المتنوعة . والكثير منها وثائق وعقود تشهد على التقدم العظيم في الحياة التجارية ، وعلى النشاط الجم فيها . كما تشهد على النظام القانوني الدقيق الذي كان ينظم المعاملات . وقد عثر المنقبون في أماكن متفرقة من بلاد النهرين على أختام يستدل منها على ازدهار العلاقات التجارية بين بابل وبين كل من مصر والهند[٤٢] . ومن الطبيعي أن ازدهار التجارة البابلية ترك تأثيره البالغ على تطور الحضارة .

وقد تضمّنت الألواح المكتشفة في ايبلا عدداً كبيراً من النصوص التي تشير إلى علاقات المملكة التجارية الناشطة مع كثير من مدن الشرق المتوسطي . ويعتبر هذا النشاط التجاري دلالة واضحة على ما بلغته البلاد عهدئذ من الإزدهار .

وفي الشاطىء السوري تحرّر الكنعانيون في وقت مبكر من تاريخ الحضارة ، قياساً إلى غيرهم من شعوب الأرض ، من قوى الطبيعة ورعب الغيب . والتاريخ الحضاري يشهد بأن هذا التحرر هو الشرط الضروري والقاعدة الأولى لانطلاقة أي شعب في طريقه

لتذليل مجاهيل الطبيعة وكشف أسرارها . والواقع أن شعورهم بالسيادة على الطبيعة جعلهم يستخفون بالمجهول ويغامرون في البحار البعيدة ، فكانوا بحارة ذوي مهارة فائقة ، رصدوا المظاهر الفلكية وراقبوا نظام الرياح وفحصوا التيارات البحرية . ومن الممكن اعتبارهم في علمهم بشكل الأرض وطرق البحار ومهاب الرياح وفن الملاحة والاهتداء بالنجوم في عصرهم (الألف الثاني ق.م.) أوسع تبسّطاً وأكثر مراساً وأوفر جناناً في وجه العواصف من أهل القرن الخامس عشر ب.م.

وكان لهم خبرة هندسية عظيمة في صناعة السفن ، فقد ابتكروا السفن ذوات الطبقات المتعددة المجاذيف ، وطوّروا مقدمات السفن لشق الأمواج . وهذا الاختراع أو التطور العظيم الذي وصلوا إليه يدل على تقدمهم في التقنية ، إذ يتطلّب الانضباط في الحركة والتوقف ، وهو ما يعادل بتقنيته الاختراعات التقنية المعاصرة(٤٣) .

تميّز الكنعانيون بالنشاط التجاري داخلياً وخارجياً ، مما دفع بالقوم إلى تنظيم قوافل التجارة وشق الطرق ومدّ الجسور وبناء السفن وإنشاء المستعمرات وتنظيمها ، وإلى وضع الأسس والقواعد وإصدار التعليمات والقوانين الضرورية لضبط شؤونها .

يُضاف إلى ذلك أنهم عرفوا بصبرهم ودبلوماسيتهم الحكيمة اللبقة ، وسهولة انسجامهم مع كل العقليات والشعوب والمدنيات . وقد أولعوا بحب المعرفة واكتشاف المجهول ، فألفوا المخاطر تنقلهم سفنهم إلى العوالم الجديدة وتأتيهم بالمعادن الثمينة التي كانت محط أنظارهم . فمن مملكة أوغاريت الكنعانية جرى الاتصال بأجزاء العالم القديم : بلاد النهرين والأناضول وحوض المتوسط الغربي ومصر . وجرى التبادل سلعاً وفكراً ودبلوماسية . ومن جبيل التي كانت مركزاً تجارياً واقتصادياً عالمياً ، كانت السفن الكنعانية تمخر عباب البحر حاملة معادن طوروس وأخشاب لبنان وصناعات مدن الساحل الزجاجية والفخارية وأرجوانها وصباغها وآنيتها ومجوهراتها . ومنذ الألف الثاني ق.م. كانت صور وصيدون أغنى مدينتين في العالم ، أنشأت تجارتهما شبكة عالمية جعلت منهما محور الحركة الاقتصادية العالمية . وقد بسط الصوريون سلطانهم على قبرص وصقلية وكريت ومالطة ، وأسّسوا المراكز التجارية في هذه الجزر من مثل ميناء فينكس في جزيرة كريت (القرية) ، ومدينة كيتيوم Kitiom أو سيتيوم Citium التي أسسها الصيدونيون في قبرص . ويبدو أن هذه المدينة بلغت من الشهرة حداً جعل كتّاب التوراة (العهد القديم) يطلقون اسمها على الجزيرة بأكملها (Kittim أو chethim) من باب إطلاق اسم الجزء على الكل . ثم توغلت أساطيلهم التجارية في الجانب الغربي من المتوسط الذي كانوا يعتبرونه بحيرة كنعانية برؤوسه وخلجانه وشطآنه جميعها ، لا ينازعهم فيه منازع .

لقد صيّر الكنعانيون البحر المتوسط من أول نشاط إنساني فيه ، بحيرة كنعانية . وكانت جزره في نظر الملاحين الكنعانيين مراكز تأهّب ومنازل استجماع للقوى التي ستنطلق إلى مرتميات الرحلات البعيدة . ومنذ الألف الثاني ق.م. أخذ الكنعانيون يستقرون في نقاط كثيرة من الساحل المتوسطي ليضمنوا لتجارتهم منافذ جديدة . وبفضل دأبهم وذكائهم وحسن معرفتهم للطرق البحرية . ولاستقامتهم ومرونتهم في التعامل التجاري ، تمكنوا من أن يصمدوا في وجه المخاطر ، وأن يوفّروا لتجارتهم الأسواق البعيدة التي لم يبلغها أحد سواهم . وهكذا وسّعوا حدود العالم المعروف يومئذ ، وتجاوزوا الشواطىء المتوسطية ليستقروا على تخوم العالم الغربي . وكانت علاقاتهم مع الشعوب التي عرفوها أو احتكوا بها علاقات مسالمة رغم الاختلاف في اللغة والتباين في العادات والتقاليد .

كانت التجارة الكنعانية مع اليونان في غاية النشاط والازدهار . وكان اليونانيون يعجبون بالأثاث الكنعاني المطعّم بالعاج . ويؤخذون بالصحون البرونزية أو الفضية المزينة بالنقوش والرسوم ، ويتباهون بالألبسة الكنعانية المصنوعة من الصوف أو الكتان . ولا يزال اللفظ الأرامي «كتان» في اليونانية Kiton . وهو اللفظ عينه في أخوات الأرامية : الأشورية والكنعانية والعربية . وفي هذه المناسبة نذكر من بين الألفاظ اليونانية المأخوذة عن الكنعانية مثلاً لفظ «ذهب» ، فهو في الكنعانية «خ روص» ، وفي الأشورية «خ وراش» ، وفي اليونانية Krysos .

كان اليونانيون يستوردون من المدن الكنعانية الساحلية الأقمشة المصبوغة بالأرجوان . وقد احتكر الكنعانيون صناعة الصبغة الأرجوانية التي استخرجوا مادتها من حيوان بحري رخوي يكثر بالقرب من شواطئهم[٤٤] . وقد اشتهرت نساء صور باستخدام الألوان الجميلة الزاهية التي كنّ يصبغن بها ما برعن في تطريزه من الأقمشة . وكان التجار الكنعانيون ينقلون هذه المصنوعات والفائض الذي يمكن نقله من غلات الهند والشرق الأقصى من حبوب وخمور ومنسوجات وحجارة كريمة ، إلى موانىء البحر الأبيض المتوسط . وكانت سفنهم تعود مثقلة بالرصاص والذهب من شواطىء البحر الأسود الجنوبية . وبالنحاس وخشب السرو والغلال من قبرص . وبالعاج من افريقيا . والقصدير من بريطانيا .

والطريف أن سفن الكنعانيين كانت تطوف في المتوسط وعلى صواريها تخفق أشرعة صبغ قماشها باللون الأرجواني . وحين كانت الواحدة من هذه السفن تطلّ على الشواطىء الاغريقية كان الأغارقة يتراكضون هاتفين : فينيكس ، فينيكس . . (أحمر ، أحمر) .

فـ «فينيقيا» صفة في اللغة الاغريقية تعني «أحمر» . وقـد أطلق قدامى الاغـريق هذه الصفـة على السفن والملاحين والتجـار القادمين إليهم من السـاحـل الكنعـاني . وشـاعت الكلمـة في تلك البـلاد حتى صـارت السفن الكنعـانيـة ومن فيهـا لا تعـرف إلاّ بـالصفـة «فينيقيا» . فالمصـطلح (الفينيقيون) يعـود إلى اليونـانيين ، وهو مشتق من اللفظ الإغـريقي Phoinix الذي يعني الأرجوان .

والمـلاحظ أن استعمال اللقب اقتصـر على الغربيين . أمـا الكنعانيـون أنفسهم فقـد اتخـذوا اسم «كنعـان» لـوطنهم . ويبـدو أن لفظ «كنعـان» مشتق من كنـع Kn' الـذي يعني الأرجوان أيضاً ، بالإستناد إلى النصـوص التي اكتشفت في نوزي Nuzi (في القسم العلوي من الجزيرة السورية) إذ ورد فيها لفظ Ki-naḫ-ḫu الذي يعني الأرجوان[٤٥] .

دار الكنعانيون حول الساحل الافريقي الغربي حتى وصلوا إلى سيراليون . واكتشفوا جزر الكناري ، كما اكتشفوا رأس الرجاء الصـالح قبـل أن يكتشفه فـاسكو دي غـاما بنحـو ألفي عام . وفي ذلك يقول هيرودتس «ولما أقبل الخريف نزلـوا إلى البر ، وزرعـوا الأرض وانتظروا الحصاد ، وعندما حصدوا الحب أقلعوا بسفـائنهم مرة أخـرى . وفي السنة الثـالثة من تجوالهم في البحر وصلوا إلى مصر بعد أن طافوا بأعمدة هـرقل»[٤٦] ـ (جبـل طارق) . ويقول المؤرخ الإيطالي مـوسكاتي «ولعـل أطول رحلة بحـرية قـام بها البحـارة الكنعانيـون كـانت الدوران حـول القارة الافـريقية حـوالي ٦٠٠ ق.م. فقد انـطلقوا من البحـر الأحمر باتجاه الغرب . وما يثبت صحة هذه الـرواية أن الشمس كـانت على يمين الملاحين عنـدما اجتـازوا ليبيـا»[٤٧] . وأبحـروا شمـالاً حتى وصلوا إلى القنـال الإنجليـزي ، فحـوالي ٤٥٠ ق.م. مثلاً انطلق حميلكو من قرطاجة ، فأبحر حـول اسبانيـا حتى وصل إلى الجـزر البريطانية .

وكانوا في تجوالهم ينشئون محطات تجارية أصبح بعضها مدناً عظيمـة . ويساهمـون في تنمية الحضارة في المناطق التي يصلون إليها . وفي أواخـر القرن الحـادي عشر ق.م. كان للكنعانيين عشرات المدن والمراكز التجـارية على شـواطيء المتوسط الجنـوبية[٤٨] . وكان لهم في مصر مراس عدة . وقد أشار هيرودتس إلى وجود حي في مدينة ممفيس طبعـه الصـوريون بـاسمهم هو «الميـدان الصوري»[٤٩] . أمـا مرتكـزهـم على شـاطيء المتـوسط الجنوبي فكان مدينة قرطاجة ، ربيبة صور ومنافسة روما في السيطرة على المتوسط ، والتي ظلت أعظم مدن العالم ردحاً من الزمن[٥٠] .

ويبـدو أن العتيقة Al'atiqa (Utica) هي أقـدم مستعمرة كنعـانية في شمـال أفـريقيـا . وحين وضعوا أسس المستعمرة الثانية أطلقـوا عليها اسم «القـرية الحـديثة» Qart-hadašt ـ

(قرطاجة) تمييزاً لها عن الأُولى «العتيقة» .

وكـان لهم في اسبانيـا الجنوبيـة وفي الجزر المتـوسطيـة وعلى الشواطىء الايـطاليـة عشرات المدن والمراكز التجارية أيضاً ، منها مثلاً ترشيش وقادش في إسبانيا ، وطرسـوس وكورنثوس في اليونان ، ومرسيليا في فرنسا .

وهكـذا نرى أن المـلاحة الكنعـانيـة التي نجمت عن شـروط جغـرافيـة وتـاريخيـة ـ سياسية ، حتّمت على الكنعانيين التوسع عبر المتـوسط ، وتأسيس سلسلة من المـراسي أو محطات النزول أو المراكز التجارية ، تفصـل في ما بينهـا مسافـات منتظمـة لتكون مـراسي تناسب أسفارهم الطويلة ، مثل قرطاجة ، نورا ، بيثيا ، موتيا ، قادش ، وموغادور(٥١) .

المهم أن ما وصلنا من شهادات كثيرة من المؤرخين الكـلاسيكيين يؤكد على المـدى الحضـاري الواسـع الذي بلغـه الكنعانيـون في تلك العصور المبكـرة من تاريـخ الحضـارة الإنسانية . ديودورس الصقلي مثلاً يقول «كان نجاحهم عظيمـاً . وقد دفعتهم التجـارة التي ملكوا زمامهـا في العالم القـديم ، إلى إقامـة المستعمرات في صقليـة وفي ما جـاورها من الجـزر ، وفي ليبيـا وسـردينيـا وايبـريـا»(٥٢) . أمـا المؤرخ الاغـريقي سترابـو فقـد شهـد لمستعمرات صور الكثيـرة ، فكتب يقارنهـا بصيدون قـائلاً «لئن كـان اسم صيدون قـد ورد كثيراً على ألسنة الشعراء ، فهوميـروس مثلاً لم يـذكر صـور ، فإن لصـور من المستعمرات المنتشرة في ليبيا (افريقيا) وفي ايبريا وبعـد أعمدة هـرقل (مضيق جبـل طارق) ، مـا يجعل لاسمها مجداً أكثر من جميع أشعار العالم» . ويؤكد سترابو في بحثه أن الكنعانيين كانوا قد سيطروا على ايبريا وليبيا واسبانيا قبل زمن هوميروس وحرب طروادة . ويقول عن قادش «إن الجزيرة غدت الأكثر شهرة بين الجزر جميعها رغم أنها واقعة في نهاية الأرض»(٥٣) .

ومن المؤرخين المحدثين ول ديورانت الذي يقول «لقد أقام الكنعانيون حـاميات لهم في نقاط منيعة على ساحل البحر المتوسط ، ظلت تكبـر حتى أضحت مستعمرات أو مـدناً غاصة بالسكان ، في قادش وقرطاجة ومرسيليا ومالطة وصقليـة وسردينيـا وكورسيكـا ، وفي انجلتـرا البعيدة أيضـاً . واحتلوا قبرص وميلوس ورودس . ونقلوا الفنـون والعلوم من مصر وكريت والشرق المتوسطي ونشـروها في اليـونان وفي افـريقيا وإيـطاليا وإسبـانيا . وربـطوا الشرق بالغـرب بشبكة من الـروابط التجاريـة والثقافيـة . وشرعـوا ينتشلون أوربا من بـرائن الهمجية»(٥٤) .

اجتاز الكنعانيون بمراكبهم أعمدة هرقـل (مضيق جبل طـارق) ، وأقامـوا مستعمرات على شاطىء الأطلسي مثل قادش وليكسوس Lixus وبذلك شقوا الحجب التي كانت تفصل

بين العالم القديم المعروف وبين العالم المجهول وراء البحار . ولا مراء بأن اكتشاف المحيط الأطلسي يعدّ انتصاراً من أعظم الانتصارات وأبعدها أثراً في تطور الحضارة . يقول المؤرخ جاك بيرن «لقد كان اكتشاف أميركا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي بداية عصر جديد في تاريخ أوروبا . وقبله كان اكتشاف الكنعانيين للغرب في القرن الحادي عشر ق.م. بداية عصر جديد في تاريخ العالم»[٥٥] . ويقول ديودور الصقلي (القرن الأول ق.م.) «إن الفينيقيين الدائبين من قديم الدهر على خوض البحار استقرت جاليات منهم على شواطىء ليبيا (افريقيا) وغرب أوروبا ، فأحرزوا مكاسب طائلة وثروات واسعة شدّدت عزائمهم على طلب المزيد، وسوّلت لهم الابعاد بمراكبهم عن أعمدة هرقل ، والضرب في عرض هذا البحر المحيط المسمى أوقيانوس . إلاّ أنهم قبل التورّط في مهالكه ومُغوياته أنشأوا لهم في قارة أوروبا مدينة سموها قادش على شبه جزيرة قريبة من أعمدة هرقل . وأقاموا لهرقل هيكلاً عظيماً كانوا يتقرّبون إليه بالأضاحي على مذهب الفينيقيين . وما زال هذا الهيكل إلى عهدنا اليوم قبلة المصلّين والمتعبّدين ، يؤمه الكثير من أعيان الرومان يرفعون إليه أدعيتهم ويحملون إليه نذورهم .

ويضيف ديودور الصقلي «واتفق لجماعة من الفينيقيين المقيمين في هذا البلد أنهم ركبوا البحر يتفقّدون سواحل ليبيا بعيداً عن أعمدة هرقل ، إذ هبت عليهم ريح عاصفة شديدة لم يملكوا معها أمرهم ، وقذفت بهم إلى أقصى المحيط . وبعدما لبثوا أياماً منقادين لسلطان العاصفة إذا بهم عند ساحل جزيرة مترامية الأطراف في عرض الأوقيانوس

وقد بقي سرّ هذه الجزيرة العظيمة أو «الأرض الجديدة» مكتوماً في صدورهم وضاع بضياع ملكهم وزوال سلطانهم»[٥٦]

ويعكس الأدب اليوناني القديم صورة مشرقة عن مهارة الفينيقيين (الكنعانيين) في مختلف شؤون الحياة . فهوميروس مثلاً يتحدث عن محبتهم للتجارة واتقانهم لأصولها . ويشير إلى رحلة حنون وراء أعمدة هرقل وطوافه حول افريقيا ووصوله مع بحارته إلى جزر التنك(بريطانيا) وإلى غيرها . ويتحدث المؤرخ جان مازل عن أمير البحر القرطاجي (حنّون) الذي خرج من قرطاجة في الربع الأول من القرن الخامس ق.م. على رأس أسطول كبير ، ينير بمصابيح سفنه ظلمات البحر ومجاهله[٥٧] . والمؤسف أن تفاصيل تلك الرحلات وأهدافها كانت تعتبر سرّاً ، وأن ما جاءنا عنها جاء كله نقلاً عن اليونان بعد أن محا الحقد الأوروبي مدينة قرطاجة من على وجه الأرض محواً تاماً

ويروي هيرودتس عن التجار القرطاجيين خبراً طريفاً مفاده أنهم كانوا برحلاتهم التجارية يجتازون أعمدة هرقليس إلى بلاد آهلة بالسكان ، فإذا ما بلغوها أخرجوا من

مـراكبهم ما حملوه من السلع وصفّـوه على طول الشـاطىء ثم عادوا إلى مـراكبهم يوقـدون النار . فإذا ما سطع دخانها ورآه أهل تلك البلاد أقبلوا بمـا معهم من التبر فـوضعوا منـه إلى جانب السلع ما يحسبونه وافياً بثمنها ثم يبتعدون . وعندها ينحدر القرطاجيون ثانية ينظرون إلى مقدار التبر الذي وضعه أهالي البلاد لهم . فـإذا وجدوه مـوازياً لقيمـة بضائعهم أخـذوه وانصرفوا ، وإلاّ عادوا إلى المراكب يرقبون الـزيادة . فيقبـل الأهالي ثـانية ويـزيدون . ولا يزال ذلك دأبهم إلى أن يرتضي الفريقان . فلا القرطاجيـون يمسّون الـذهب قبل أن يعـدل سلعهم ، ولا الأهالي يرفعون السلع قبل أن يأخذ القرطاجيون الذهب[٥٨] .

والـواقع أن فضـل الكنعانيين الأكبـر على شعوب حـوض المتوسط القـديمة هـو في فتحهم أبـواب هـذا البحـر على المحيط الأطلنـطيكي . وقـد كـان اكتشـاف الكنعـانيين للاطلنطيكي ودخولهم «بحر الظلمات» لأول مـرّة في التاريـخ ، توسيعـاً وتمديـداً لمساحـة العالم ، ظهرت نتائجهما بعد قرون وقرون في اكتشاف كولومبس لاميركا[٥٩] .

والجدير بالذكر أن التجارة الكنعانية ظلت إلى وقت متـأخر (القـرن السادس ق . م .) في ازدهار عارم وعلى نشاط جمّ استأثر بإعجاب أنبياء بني إسرائيل ، فـراحوا يصفـون تلك التجارة وصفاً مسهباً رائعاً على الرغم من كل ما يكنّونه من حقد دفين وكراهية عمياء لكل ما هو كنعاني . فيشير أشعيا مثلاً إلى صور «التي منذ الأيام القديمة قدمها . صـور المتوّجـة ، التي تجارها رؤسـاء ومتكسّبوهـا كرام الأرض ٢٣ : ٧» . ويتحـدث حزقيـال ٢٧ عن صور «تاجرة الشعـوب إلى جزائر كثيرة . تخـومك في قلب البحـور . بناؤوك تمّمـوا جمالـك . عملوا كل ألواحك من سرو سنير . أخذوا أرزاً من لبنان ليصنعوا لـك سواري . صنعـوا من بلّوط باشان مجازيفك . صنعوا مقاعدك من عاج مـطعّم في البقس من جزائـر كتّيم . كتّان مطرّز من مصر هو شراعك ليكون لك راية . الأسمانجوني والأرجوان من جزائـر اليشة كـانا غـطاءك . أهل صيـدون وأرواد كانـوا ملاّحيـك . حكماؤك يـا صور الـذين كانـوا فيك هم ربابينك . شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك قلاّفوك . جميع سفن البحـر وملاّحـوها كـانوا فيك ليتاجروا بتجارتك . . ترشيش تـاجرتـك بكثرة كـل غنى بالفضـة والحديـد والقصديـر والـرصاص أقـاموا أسـواقك . يـاوان وتوبـال وماشـك هم تجارك . بنفـوس الناس وبـآنيـة النحاس أقاموا تجارتك . . بنو ددان تجارك . جزائر كثيرة تجـار يدك . أدّوا هـديّتك قـروناً من العـاج والابنوس . أرام تـاجرتـك بكثرة صنـائعك . تـاجروا في أسـواقـك بـالبهـرمـان والأرجوان والمطرّز والبوص والمرجان والياقوت . . . دمشق تاجرتك بكثرة صنائعـك . . . ودان وياوان قدّموا غزلاً في أسواقك . العرب وكل رؤساء قيدار هم تجار يدك . تجـار شبا ورعمة هم تجارك ، بأفخر كل أنواع الطيب وبكل حجـر كريم والـذهب أقامـوا أسواقـك .

حرّان وكنّة وعدن تجار شبا وأشور وكلمد تجارك . سفن ترشيش قوافلك لتجارتك ، فامتلأت وتمجّدت جداً في قلب البحار . . عند خروج بضائعك من البحار أشبعت شعوباً كثيرين . بكثرة ثروتك وتجارتك أغنيت ملوك الأرض» .

وبعد ، أعتقد أن الذي يُشبع الشعوب ويُغني الملونت هو صاحب رسالة إنسانية أخلاقية حضارية . للعطاء مفهوم أخلاقي من حيث هو فعل محبة ، ومفهوم إنساني من حيث هو تعاون ، ومفهوم حضاري من حيث هو تفوق . المتفوّق وحده يعطي ويعرف أنه يعطي ، وقد كان عطاء الكنعانيين كبيراً وشاملاً .

النهضة العمرانية

بدأ البابلي القديم عملية البناء بالتعرّف إلى أهمية الطين كمادة يمكن تشكيلها على هيئة كتل طينية متراصّة تكوّن حائطاً وبالتالي منزلاً . وهكذا كان الطين المجفف بفعل حرارة الشمس حقيقة عظيمة الأهمية في حياة البابليين . ويعتبر هذا الإنجاز استغلالاً ناجحاً للبيئة . وحين اهتدوا إلى صناعة الآجر توسّعوا في عمليات البناء به نظراً لقلة الأحجار في بيئتهم[٦٠] .

ويبدو أن الإنسان القديم في سوريا الطبيعية أتقن منذ الألف الثامن ق.م. عملية بناء الجدران المستقيمة التي تلتقي بعضها مع بعض بزوايا قائمة . وعمل على تسليح الجدار الطيني بالخشب . وفي سوريا الجنوبية الغربية تمّ تدعيم سقوف المنازل بأعمدة من الحجارة أو الخشب منذ العصر النطوفي (٨٥٠٠ ق.م.) وعمل الكنعانيون على إكساء الجدران بطبقة من الطين ، وعلى فرش أرضية المسكن بالحجارة والطين . وتدل الآثار المكتشفة على ما كان لهم من نظام واسع للمجاري وتصريف الفضلات من الأحياء المأهولة في المدن . وعلى ما أقاموه من مرافق ثابتة خارج نطاق المساكن مثل المواقد المحفورة والأحواض المنقورة في الصخور .

وفي الألف السادس ق.م. تطور فن العمارة في مختلف أقاليم سوريا الطبيعية تطوراً كبيراً ، باستخدام الأحجار من مختلف الأنواع والأحجام . وهذه الصناعة احتاجت إلى عدد كبير من العمال الاخصائيين لتعدّد أنواعها وطرق صناعتها . واحتاجت أيضاً إلى عمليات تنظيمية هامة لاستغلال المحاجر ونقل الأحجار . ورافق فن العمارة تطوّر مهم تمثّل في ظهور الأبنية الكبيرة والواسعة ، وفي الباحات التي تتقدم البيوت .

كان الكنعانيون ماهرين في قطع الحجارة الضخمة ، وفي تشييد القصور والمعابد

والحصون . ويعتقد علماء الآثار أن مباني جبيل التي ترجع إلى أكثر من ستة آلاف سنة ق.م. تعتبر أقدم أبنية حجرية في العالم[٦١] . وقد توصّل الإنسان القديم في الجنوب السوري إلى بناء المساكن بالحجر منذ الألف الثامن ق.م. ومن أكمل وأجمل ما تركه لنا الإنسان المتفوّق في سوريا الجنوبية مدينة أريحا بطابعها العمراني المتقدم . فلقد أثبتت الحفريات الآثارية أن أريحا كانت منذ الألف السابع ق.م. مدينة جيدة البناء ومحاطة بأسوار حجرية[٦٢] . بالإضافة إلى خندق يحفظ المياه حول السور . والإنجازان يشهدان على ما توصّل إليه الكنعانيون من تنظيم اجتماعي وإداري . وأظهرت الحفريات أيضاً آثار برج ضخم مستدير يصعد من جوفه درج متقن الصنعة يدل على رقي واسع في الفن المعماري .

كانت مدن الكنعانيين حصينة ومحاطة بالأسوار بشكل عام . فقد شيّد اليبوسيون مثلاً حصناً عظيماً حول أورشليم . وفي مدينة جازر (في الجنوب السوري أيضاً) عثر المنقبون على بقايا سور قطعت حجارته بأدوات حادة وهذّبت قليلاً . وكان للسور أبراج يبلغ ارتفاع الواحد منها اثني عشر قدماً .

واللافت في مدن الكنعانيين هو المباني المؤلفة من أكثر من طبقة . يقول سترابو «كانت البيوت في صور وفي ارواد تتألف من عدة طوابق . وكانت بيوت صور أعلى من بيوت روما . وقد انتقل هذا الطراز من المباني إلى أوروبا عن طريق قرطاجة التي كانت البيوت فيها لا تقل عن ست طبقات»[٦٣] .

وأنشأ الكنعانيون القلاع وما يرافقها من تحصينات دفاعية ومشاريع هندسية لدرء الخطر في وقت الحصار . ومن بقايا تلك المشاريع التي لا تزال آثارها ماثلة للعيان ، النفق الطويل (٢١٩ قدماً) في بلدة جازر (الواقعة على بعد ٣٥ كم إلى الشمال الغربي من أورشليم) للوصول إلى نبع ماء على عمق حوالي مائة قدم ، يهبط إليه الإنسان بواسطة مدرّج مكون من ٨٠ درجة . وأنشأ الكنعانيون مشروعاً آخر من هذا القبيل في أورشليم .

كان المهندسون الكنعانيون يتمتعون بمهارة فنية عالية في بناء السدود والجسور ، وما بقايا السدود في ارواد وصور وصيدون إلّا دليل واضح على مآثر الكنعانيين العمرانية . وقد أنشأوا المرافىء الكثيرة في موطنهم (ساحل المتوسط الشرقي) وفي المستعمرات الكثيرة التي أقاموها في جزر المتوسط وعلى سواحله .

وكان لدى الكنعانيين خبرة هندسية عظيمة في صناعة السفن . وقد أشار هيرودتس إلى هذه البراعة وما تمتاز به من تقنية ودقة ملاحظة . فالتقنية مثلاً تجلت في صنع مقدمات

السفن لشق الأمواج والثبات فوق السفينة أثناء العواصف العاتية في عرض المحيطات . وفي ابتكار طبقات متعددة للمجاذيف في السفينة . وكان الكنعانيون أبرز من استخدم طاقة الرياح في الأسفار البعيدة .

وفي سوريا الشرقية شيّد البابليون معابدهم بحجارة مستوردة من الأقطار النائية . وأقاموها على تلال عملاقية مصطنعة من الآجر تعرف بالزقورات (مفردها زقورة Ziqqurat أي القمة المرتفعة) . وهي تشبه البرج . وتتألف غالباً من سبع طبقات تؤلف شكلاً هرمياً متدرج الجوانب ، فكأنها سلالم ترتفع في وحدة قائمة . والطبقات مزيّنة بالتماثيل والمنحوتات . وهذه الهياكل العظيمة المشيّدة على جبال عملاقية مصطنعة تشهد على ما وصلت إليه شعوب حوض النهرين في وقت مبكر من تاريخ الحضارة ، من تنظيم معقّد وإدارة دقيقة ومعرفة هندسية هائلة .

وقد ابتدع الإنسان القديم في سوريا الطبيعية الأشكال الأُولى للقباب والعقود والأعمدة في تشييد المنازل والمعابد . فكانت المداخل المعقودة مألوفة في أور منذ أواسط الألف الرابع ق.م.[٦٤] . وعثر المنقبون على مجرى مائي معقود في أطلال نيّبور يعود تاريخه إلى الألف الثالث ق.م . وكانت العقود والقباب والأعمدة معروفة في هياكل وقصور أوغاريت وجبيل وأريحا وغيرها من الحواضر الكنعانية ، قبل هذا التاريخ بوقت طويل . وكان في صيدون وصور مثلاً كثير من المعابد العظيمة والهياكل الضخمة . وقد أشار هيرودتس إلى معبد ملكارت في صور ، ولم يتمالك دهشته أمام عمودين قائمين على مدخله ، الأول من الذهب الخالص والثاني من الزمرد[٦٥] .

وأنشأ البابليون نظاماً واسعاً للمجاري وتصريف الفضلات من الأحياء المأهولة في المدن[٦٦] . كما أن الكنعانيين أنشأوا في بيوتهم مصارف للمياه ، وهذا شيء فريد في ذلك الزمن البعيد[٦٧] .

يُضاف إلى ذلك أن المنقبين كشفوا عن كثير من مخططات المدن العامة وتنظيماتها المعمارية ، منها مثلاً مخطط قديم لمدينة نيّبور عثر عليه المنقبون منقوشاً على رقيم طيني يعتبر أقدم رسم تنظيمي لمدينة في العالم[٦٨] .

ورغم أن ماضي هذه الأرض لا يزال سجيناً تحت أنقاض التراب . ورغم قسوة عوامل الطبيعة وبربرية الإنسان اللتين أضاعتا معالم العمران التي أنجزها الإنسان القديم في سوريا الطبيعية ، فإن بعضاً من المظاهر المعمارية الضخمة لتي خلّفتها مدنيات سوريا الطبيعية ، لا يزال واضحاً للعيان حتى الوقت الحاضر . أوغاريت مثلاً في الساحل

السوري ، وماري في الشمال السوري التي تكشفت عن ثروة آثارية مذهلة : المنحوتات والرسوم الجدارية والمكتبة الملكية التي كانت تضم عشرات الآلاف من الألواح الكتابية في مختلف فنون الأدب والعلوم والمعارف الإنسانية . أما قصر ماري فيعتبر درة العمارة الشرقية القديمة ، تبلغ مساحته هكتارين ونصف الهكتار ، ويضم حوالي ٣٠٠ غرفة وباحة . ومن هنا نفهم دوافع ملك أوغاريت الذي أرسل ابنه إلى ماري ليأخذ فكرة عن القصر وينقل إلى والده صورة عنه .

والخلاصة إن الآثار المكتشفة في بلدان الشرق المتوسطي تدل على وجود نهضة عمرانية منذ الألف الرابع ق.م. تشمل هندسة المدن وإقامة الهياكل وتشييد القصور وشق الأقنية ورفع السدود . هذه المنشآت العمرانية وأمثالها تدل على هندسة هائلة وتنظيم معقّد وإدارة دقيقة في الشعوب التي أقامتها(٦٩) .

الأنظمة الاجتماعية في الحضارة السورية القديمة

ذكرنا قبل قليل أن مستغلي الأرض في الواحات الصغرى في حوض النهرين الأدنى ، كانوا قد توصّلوا في وقت مبكر إلى معرفة تحسين هبة الطبيعة المحلية للري بطريقة صناعية . وهذه التقنية التي حذقها السومري ـ البابلي في الري الصناعي كانت تتطلّب تعاوناً بين عدد كبير من أفراد المجتمع . وهذا التعاون كان ثورة اجتماعية قبل أن يكون ثورة تكنولوجية . فالإنسان كائن اجتماعي ، والاجتماعية هي الشرط اللازم لصنع أي شيء أو تحقيق أي غرض . والواقع أن الإنجازات التكنولوجية التي عرفت في تاريخ البشرية كانت إنجازات اجتماعية(٧٠) . فالمزارع السومري أو البابلي عمل بتعاون مع غيره من المزارعين . وكانت السخرة العامة لصيانة السدود والقني جزءاً من واجبات المزارع ، يعمل فيها بالروح التي يعمل بها في حقوله الخاصة . ومن هنا فإن الجهود التي انبثقت عنها الحضارة التاريخية الأولى في حوض النهرين ، كانشاء السدود وحفر الأقنية وتجفيف المستنقعات وتنظيم الري بواسطة القنوات على نطاق واسع ، اقتضت تعاون وتضافر أفراد المجتمع لتحقيق مثل هذه الأعمال .

والحاجة إلى العون المتبادل في القضايا ذوات المنافع المشتركة أدت إلى قيام مجتمعات كبيرة منظمة . ومن الطبيعي أن الفرد من البشر لا يصير إنساناً ولا تتفتّح مواهبه الإنسانية ، ولا تنمو معارفه وخبراته إلاّ في المجتمع المنظم . وبغياب الوجود الاجتماعي المنظم لا يستطيع الإنسان أن يكوّن حضارة .

فاجتماع البشر وتعاونهم وتفاعلهم مع البيئة هو الأساس لنشأة الحضارة ونموها

وتطورها ، لأن الحضارة في المراحل الأُولى تقوم على قدر من التعاون بين أفـراد المجتمع لمواجهة الطبيعة . وكلمـا ارتفع هـذا القدر كلمـا ازداد المجتمع تحقيقـاً لشروط الحضـارة واكتساباً لحظوظها . والقـول إن الإنسان حيـوان اجتماعي يعني في الـوقت ذاته أنـه حيوان حضاري أيضاً .

والتعاون الإجتماعي الذي تتطلبه الحضارة يفتـرض نوعـاً من الحكم المنظم لتنـظيم الجهـود وتوجيههـا ، ولتنسيق فاعليـات الأفـراد ، وحمـايتهم بعضهم من بعض . وتـدبيـر شؤونهم العامة ، ورعاية علاقاتهم بغيرهم من الأفراد أو المجتمعات .

وبصيغة أُخرى يمكن القول إن الحضارة تنشـأ في المجتمع . والمجتمـع لا يقوم إلاّ إذا كان له حظ وافر من التماسك والترابط . والتماسك والترابط يحدثان بفعل مجمـوعة من العوامل لعـل أهمها حـاجة الإنسـان ، كما يقـول ابن خلدون ، إلى «وازع» يضمن السلطة والنظام . و «الوازع» في رأي ابن خالدون هـو أحد الأُسس الـرئيسية التي يقـوم عليها بنـاء المجتمع . ومن المستحيل وجود مجتمع بشري من غير سلطة وازعة . فلا مجتمع وبالتالي لا حضارة من دون وازع وقدر معين من السلطة والنظام . ومن هنا كـان الإنسان القـديم في أرض بـابل وفي أرض كنعـان ينظر إلى الجمهـور الذي لا قـائد لـه نظرة الاستيـاء والشفقـة والخوف أيضاً . فـ «الجنود بلا ملك كالغنم بغير راع» . وإذا كان الجمهور بـلا قائـد يعمل على تنظيمه وتوجيهه ، ضائعاً كقطيع من الغنم دون راع ، فإنه أيضاً شيء خطر ، قد يكون مدمراً كالمياه التي تحطم سدودهـا وتغرق الحقـول والبساتين إذا لم يتـداركها مفتش الـري بصيـانة السـدود[٧١] . فالنـظام قائم في أسـاس المجتمع . ويستحيـل قيام المجتمـع بغير نـظام . والنظام لا يكـون بغير سلطة وقـانون ، لأن القـانـون يؤيـد السلطة ويعضـد الهيئـة الحـاكمة ويحـل الطمـأنينة في النفـوس ويعترف بحقـوق المـواطن كمـا يعتـرف المـواطن بـالقانـون . والقانـون مـلازم للحكـومـة والمجتمـع . ومن هنـا اقتضى تنـظيم العـلاقـات الاجتمـاعية في مجتمعـات الشرق المتـوسطي القـديمة نشـوء أوائل أنـظمة الحكم وأوائـل القوانين المدونة .

كيف نشأ أو كيف كان أول أنظمة الحكم ؟ .

حين دعت الحاجة إلى قيام نظام سياسي كان لا بد من أن يتخذ هـذا النظام المـدينة حدوداً لكيانه . وهكذا تبلور المجتمـع المتحضر في الهـلال السوري الخصيب في خـلايا منفصلة في عـدد من المدن ـ الحـواضر ، يشكـل كل منهـا وحدة سيـاسيـة مستقلة عـرفهـا الباحثون باسم «دول المدن» ، كانت أول نمط للحكم بمعناه السياسي الحديث .

كانت المدينة ـ الدولـة الواحـدة تتألف من المـدينة ومن الأراضي المحيـطة بها التي يستثمرها أهل المدينة . وتشكل كياناً سياسياً مستقـلاً ، يحكم المنطقـة المسكونـة والريف الذي يحيط بها . وكان نفوذ دولة المدينة يشمل أحياناً أكثر من مدينة واحدة ، إذ يجتمع في تشكيل السلطة مدينتـان أو أكثر وبضـع قرى ، يخضعـون جميعاً لإرادة السلطة في المـدينة الـرئيسية . وقـد عرفت المنـطقة زعمـاء عملوا على توحيـد المدن ـ الـدول في دولة قـومية واحدة (سارجون الأكادي وأمـورابي الأموري مثـلاً) . لكنها لا تـدوم طويـلاً ، تعود بعـدها البلاد إلى التفكك في دول مدينية جديدة .

والطريف في هذا التنظيم هو بروز التفكير الديمقراطي مع بدايـة العصر التـاريخي . ففي دولة المدينـة كانت السلطة السيـاسية العليـا في يد مجلس عـام يشرف على تصـريف شؤون الحيـاة اليوميـة في الفترات العـاديـة . وفي الأزمـات (حـالات الحـرب مثـلاً) كـان للمجلس العام أن يخوّل أحد أعضائـه السلطة المطلقـة ويجعله ملكاً . ولكن هـذه الملكية منصب يتقلّده صاحبه لزمن محدد . إذ أن المجلس الذي يحدث هذا المنصب يستطيـع أن يلغيه في حال انتهاء الأزمة[٧٢] . ينهض دليـلاً على هذا التنـظيم السياسي في إدارة الـدولة ومؤسساتها ما جاء في أحد النصوص السومريـة عن اجتماع الجمعيـة العموميـة في «كيش» وانتخاب الحاكم بنـاء على قرارات الجمعيـة : «اجتمعت (الجمعية) في كيش ورفعـوا إلى الملكيـة رجلاً من كيش» . ويتضـح في ملحمة جلجـامش أول نظام ديمقـراطي لمجـالس استشارية . فمنذ بداية الألف الثالث ق.م. كان في سومر حياة بـرلمانيـة راقية لا تقـل رقياً عن المدن الكنعانية واليونانية في أوج ازدهارها . فحوالي ٣٠٠٠ ق.م. اجتمع أول برلمان عرفه العالم في دورة علنية[٧٣] ، وكان مؤلفاً ، مثل برلمانات أيامنا ، من مجلس الشورىٰ أو مجلس الشيوخ ومن جمعية الشعب المؤلفة من ممثلي الشعب . وهذه الديمقراطيـة سبقت الديمقراطية اليونانية بأكثر من ألفي عام . وأعتقد جـازماً أن هـذا التنظيم الـديمقراطي كـان سائداً في سائر الحواضر السورية القديمة : الأمورية والأرامية والكنعانية .

كيف بدت أوائل القوانين المدوّنة في سوريا الطبيعية ؟ .

من المعروف أن أهم وسائل تنظيم المجتمع وتنسيق علاقات أفراده بعضهم ببعض ، الشرائع والقوانين الوضعيـة . ويعتبر الشـرع أو القانـون المتبع مـظهراً من مـظاهر حضـارة المجتمع . أو قل إن القوانين والشرائع هي التي تحدّد درجة الشعب في سلم الحضارة .

يرى مؤرخو الحضـارات أن ظهور أوائـل القوانين المـدوّنة في العـالم لدى الشعـوب القديمة في سوريا الطبيعية ، يدل على مقدار حرص تلك الشعوب على ترسيخ العدالة بين أفرادها . كما يدل على أوائل الجهود البشرية لتنظيم الحياة الاجتماعية وفق قواعد وأُصـول

مـدونة . وهم يجمعـون على القول إن الأنـظمة القـديمة في سـوريا الـطبيعية سبقت بقـاع المعمورة كلها في مجال تدوين وجمع وتنسيق الحقوق المتعارف عليها في قـانون واحـد . ويجمعون أيضاً على أن ظهور القوانين والأنظمة في الحضارة السورية القديمـة هو من أوثق المعايير للحكم على مستوى تلك الحضارة في سلّم التطور الحضاري والتقدم العمراني .

كانت نظرة شعوب حوض النهرين القانـونية مؤشـراً حضاريـاً على توطّـد تنظيمـاتهم الاجتماعية ، وعـلامة مميـزة لمنحاهم الفكـري . تركت طـابعها على منـاحي واتجاهـات حياتهم الاجتماعية . والمتأمّـل في قوانينهم يقف على مـا كان في نفـوسهم من ميل طبيعي إلى التمييـز والتقنين ، يكمن وراء النـظام التشـريعي الضخم الـذي نهضت بـه الحضـارة البابلية[٧٤] . فهم حين بلغوا مراحل متقدمـة في النمو الاجتمـاعي والسياسي بـدأوا بوضـع الشرائع والقوانين التي تنظم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وتكفـل العدالـة وتؤمن الحرية لسائر أبناء المجتمع .

لعل أول كتاب شامل من كتب القانون في تاريخ العالم ساد في بلاد سومر هو كتـاب أورنمّـو Ur-Nammu (٢١١٢ ـ ٢٠٩٥ ق.م.) مؤسس الأسرة الثـالثة في أور . فـالمعروف عن هـذا الملك أنه كـان مصلحاً اجتمـاعياً ومشـرّعاً أيضـاً . وضـع حـوالي ٢١٠٠ ق.م. مجموعة قوانين رمى منها إلى فرض الأخلاق الكـريمة على الحيـاة العامـة ، والقضاء على فساد الموظفين . وعمل على بسط حمايته العطوف على الأرامل والأيتام . واتخـذ التدابيـر اللازمة للحيلولة «دون وقوع اليتيم فريسة بين أيدي الأغنياء» . و «دون وقوع الأرملة فريسـة بين أيدي الأقوياء» .

ومن بين القوانين التي وجدت في مجمـوعة أورنمّـو ثلاثـة ترتـدي أهمية خـاصة في تاريخ الاعتبارات الأخلاقيـة لدى الإنسـان . إذ أرست قاعـدة التعويض المـالي أو الغرامـة مقابل الإيذاء الجسدي . ومن الطبيعي أن هذا القـانون الـذي يعتمد مبـدأ الغرامـة ، يعتبر أكثـر إنسانيـة ورحمة من ذلـك القانـون البربـري الذي يعتمـد قاعـدة «العين بالعين والسن بالسن» .

ويعد أورنمّو ملك على أور ابنه شولجي (٢٠٩٥ ـ ٢٠٤٧ ق.م.) الذي أعلن تشريعاً دفع البلاد في طريق التقدم المدني والتجاري . كما أنشأ في المعابد مـدارس للكتبة ليعمّم الثقافة ولينشىء عناصر متعلمة قادرة على ضبط المؤسسات الخاصة والعامة .

أما ملك لاغاش غوديا (٢١٤١ ـ ٢١٢٢ ق.م.) فقد وضع القوانين للحد من سلطان الأقوياء رحمة بالضعفـاء . ويفصح نقش من نقـوشه التي عثـر عليها عن سيـاسته التي أجلّه

رعاياه من أجلها «وخلال سبع سنين كانت الخادمة نداً لمخدومتها ، وكان العبد يمشي بجوار سيده ، واستراح الضعيف في بلدي إلى جوار القوي»[٧٥] .

عمل شولجي وغوديا على تطوير النصوص القانونية ، فاتجه القانون نحو تحرير الفرد بصورة كاملة . وأصبحت المرأة ذات شخصية مستقلة عن الرجل ، وتتساوى به تماماً ، فالزواج يتم بعقد رسمي ، ولا ينفصم إلاّ في المحاكم المدنية .

وفي الحاضرة العظيمة ايسين وضع ملكها لبت عشتار (حوالي ١٩٣٤ - ١٩٢٤ ق.م.) مجموعة قوانين جديدة قال إنها من وحي انليل «لإشاعة السلام والعدالة ، وإزالة أسباب الشكوى ، والاستغناء عن السلاح ، ونشر الازدهار بين أهالي سومر وأكاد» . جاء في مقدمة القوانين «حين دعا انليل ، الراعي العظيم ، لبت عشتار إلى ولاية أمر البلاد ، ليقر العدل ويمنع المظالم وليسحق العداوة والعصيان وليصلح من أمر السومريين والأكاديين ، نهضت أنا لبت عشتار راعي نيبّور المتواضع وحارس أوروك الذي لا يتخلّى عن أريدو ، فأقمت العدالة وأرسيت دعائمها في سومر وأكاد طبقاً لكلمة انليل» . وجاء في الخاتمة «إني بالاتفاق مع كلمة الحق جعلت سومر وأكاد تتمسّكان بالعدالة . حقاً إني محوت ، أنا لبت عشتار ، وفقاً لأمر انليل ، الظلم والعصيان . ووضعت حداً للنواح والنحيب والحرمان ، كما نشرت العدل والحق وثبّت الخير للسومريين والأكاديين»[٧٦] .

ولعل قوانين الملك الأموري أمورابي أكثر القوانين السابقة تطوراً من حيث دقة الصياغة القانونية ودلالتها وشموليتها لموضوعات مختلفة . فهذا الملك الحكيم والمشترع الكبير جمع القوانين المعمول بها والقوانين القديمة التي تعارفت عليها شعوب سوريا الشرقية وأقرتها ، فبوّبها وأدخل عليها تحسينات وتعديلات كثيرة كما ألهمته حكمته ، ثم جمعها كلها في مجموعة واحدة ، وأمر بنقشها على ألواح من حجر الديوريت ، وأقامها في أواسط المدن ، الأمر الذي سهّل شيوعها في طول البلاد وعرضها . وكثيراً ما عثر علماء الآثار على مواد من قانون أمورابي مكتوبة على رقم ، يبدو أنها كانت تحفظ في قاعات المحاكم للرجوع إليها حين الحاجة .

يمهّد أمورابي لمجموعة قوانينه بعبارة يوضح فيها عظمة أهدافه وسموها ونبلها . يقول فيها إنه وضع القوانين «لكي يشرق العدل كالشمس فوق العالم ، وكي ينقشع الشر والظلم ، وكي لا يضطهد القوي الضعيف»[٧٧] .

تضمّنت المجموعة ٢٨٢ مادة رتبت ترتيباً يكاد يكون هو الترتيب العلمي الحديث . ويمكن تقسيم مواد القانون إلى ستة أبواب : الأموال المنقولة ، الأملاك العقارية ،

التجارة ، الأُسرة ، الأضرار ، والعمل .

والمجموعة تعكس لنا فيضاً من المعلومات عن التنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي . كما تعكس تقدماً حضارياً ملموساً في معالجة القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . فنجد مثلاً اجتهادات قضائية قانونية لكل مجالات الحياة الاجتماعية . وتبحث موادها في الشكاوى ، وفي القضاء ، والشهود ، والحكم ، وفي الواجبات العسكرية ، والتعويضات والغرامات ، والقوانين الخاصة بالعائلة ، وجداول الأسعار ، وقوانين التجار ، والحانات ، وشؤون البيع .

والواقع أن قوانين أمورابي ، في تحديدها لأجور العمال ، الأطباء ، وأصحاب المراكب البحرية ، تعتبر أول إشارة واضحة إلى وجود جماعات منتظمة في هيئات مهنية ، لها أحكامها وقوانينها الخاصة . كما تعكس تقدماً حضارياً ملموساً في معالجة القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

وبما أن الأرض كانت من أهم أنواع الملكية في بلاد النهرين ، فقد أهتم قانون أمورابي ببحث جميع المسائل التي تتعلّق بزراعتها وتنشيط مسائل استثمارها .

ويتضمن القانون أحكاماً للتبنّي ، والزواج ، والطلاق ، ومعاقبة الزناة . وتؤكد مواده على أن ينال الأرامل واليتامى والفقراء حقوقهم ، وألا يقع عليهم ظلم أو ينالهم أذى . وتتجلّى فيها حقوق المرأة مضمونة بشكل لم تعهده القوانين القديمة حتى ظهور القانون الروماني . فالمجتمع البابلي أولى العلاقة الزوجية أهمية بالغة ، وأرادها أن تكون مبنية على أُسس من الاحترام . وكان للمرأة مركز كبير في ذلك المجتمع الذي بني على أساس من الفضيلة العائلية التي يحميها القانون ويشد من أزرها . وقد أشار العديد من المؤرخين المعاصرين إلى حال المرأة المتزوجة في المجتمع البابلي ، الذي لم يكن فريداً في بابه إذا ما قورن بالحال الذي كانت عليه في المجتمعات المعاصرة له فحسب ، بل يقف على قدم المساواة ، ولا سيما في قضية حرية المرأة ، مع أفضل المجتمعات الأُوروبية وأكثرها تقدماً في أيامنا هذه[٧٨] .

تعالج شريعة أمورابي علاقات الإنسان بالإنسان . وتعيّن واجباته في المجتمع . وتتطرق إلى الحقوق الشخصية والحقوق الملكية . ولا تغفل شؤون التجارة والعمل والاقتصاد وتحديد الأسعار والأُجور ، . . وهذا تعبير عن رقي فكري ومفهوم مجتمعي حضاري .

وفي خاتمة القوانين يقول البابلي العظيم أمورابي «إن الشرائع العادلة التي رفع

منـارها الملك الحكيم أمـورابي ، والتي أقام بهـا في الأرض دعائم ثـابتة وحكـومة طـاهرة صـالحة . . أنـا الحاكم الحفيظ الأمين عليهـا . في قلبي حملت أرض سومـر وأكـاد . . . وبحكمتي قيّـدت شعبها ، حتى لا يـظلم الأقـويـاء الضعفـاء ، وحتى ينـال العـدالـة اليتيم والأرملة . فليأت أي إنسان مظلوم وليقف بقضيته أمام صورتي ، أنـا ملك العدالـة ، وليقرأ النقش الـذي على أثري ، وليلق بـاله إلى كلمـاتي ، ولعلّه يريـح قلبـه فينـادي : حقـاً إن أمورابي حاكم كالوالد الحق لشعبه . لقد جاء بالرخاء إلى شعبه ، وأقام في الأرض حكومة عادلة صـالحة . ولعـل الملك الذي يكـون في الأرض في ما بعـد وفي المستقبل ، يـرعى ألفاظ العدالة التي نقشتها على أثري»(٧٩) .

والواقع أن الإنسان قلّ أن يجد في تاريـخ الشرائـع ألفاظـاً أرقى وأجمل من الألفـاظ التي يختتم بها البابلي العظيم شريعته ، كما يقـول المؤرخ ول ديورانت . ويضيف «وهـذه القوانين من وجوه عدة لا تقل رقياً عن شريعة أي دولة أوروبية حديثة»(٨٠) .

والخلاصة ، إن أمورابي عني بإقامة العدل ، واعتبار الناس سواسيـة أمام القـانون . ونظر إلى العدالة كحق من حقوق الفرد، على الدولة أو السلطة أن ترعـاه وتحميه . والمهم أنه حوّل المواقف الأخلاقية العامة التي كانت تسود مجتمعه بفعل الحوافز الأخلاقية الطبعية لدى الأفراد نحو مجتمعهم ، حوّلها إلى تشريع قانوني . وظلت قوانينه مدة ألفي سنة «النور الذي يسري في مؤسسات بلاد النهـرين ، ويضيء سائـر مجتمعات الشـرق القديم»(٨١) . وظلت من أكثر القوانين التي صدرت خلال هذه المدة ، شمولاً وأرفعها مستوى .

وبعد ، إن الأسماء القليلة التي ذكرناها في مجال الشرائع والقوانين : أورنمّو ، لبت عشتـار ، شولجي ، غـوديا ، أمـورابي ، والشرائـع ـ النماذج التي وصلتنـا عنهم ، تنهض دليلاً على المستوى الرفيع في النضج الفكري والقانوني والسمو الأخلاقي الذي كانت عليه المجتمعات القديمة في حوض النهرين : مؤسسات اجتماعية منظمة ، وقوانين خلقية رفيعة على قـدر عظيم من النضـج والرقي ، تعتبـر حجر الأسـاس في تنـظيم العـلاقـات العـامـة والخاصة . فقد أحلّت النظام والأمن محـل الفوضى والخـوف من العدوان . وغـرست في نفوس المواطنين الإحساس بالـطاعة والـولاء والوطنيـة . وعالجت مشكـلات المجتمع في المجالات كافة وأخصّها في المجالين القانوني والاقتصادي ، ومجال تنظيم الأسرة .

كـانت قوانينهم مبـوّبة ومنـظمة ، وقـد دوّنت بلغة قـانونيـة دقيقة وبـأسلوب علمي . وجـاءت في تعابيـر واضحة ودقيقـة ، لا تترك مجـالاً لاجتهاد أو تـأويل . وهي تعتبـر أولى الجهود البشرية في تنظيم الحياة الاجتماعية وفق قواعد وأصول مـدوّنة . ودورهـا الإيجابي

أنها مدّت الحضارة البشرية بأُولى مقومات بنائها وتطورها .

هذا في منائر حوض النهرين . أما في منائر سوريا الطبيعية الأُخرى فلم يصلنا في ما كشف عنه التنقيب من تراث غير القليل من قوانين وشرائع الأشوريين[٨٢] والأراميين والكنعانيين . وهذا لا يعني أن مجتمعات هذه الشعوب التي أرست مجداً حضارياً عريقاً في ما أسست من ممالك وإمارات في هذه الأرض ، قامت بلا شرائع أو انتظمت من غير قوانين . وإنما يعني أن شرائعها امّحت بفعل عوامل الدهر ، أو أحرقها البرابرة ، أو مزقتها سنابك خيول الغزاة . وما أكثر ما ابتليت هذه الأرض بجحافل الغزاة وبربرية النفوس . وربما لا تزال تحت أطباق الثرى تنتظر اهتمام القادرين ومعاول المنقّبين .

وأعتقد أن إشارات الكتّاب الأغريق إلى القوانين الكنعانية خير شاهد على ما بلغته تلك القوانين من رقي فكري وسياسي واجتماعي . فقد أثنى أرسطو مثلاً على قوانين قرطاجة واعتبر «شرائعها غاية في الحسن» . قال في «سياسة المدن» : «إن لقرطاجة دستوراً انفردت بكماله عن سائر المدن ، وهي في الذروة بالفضل ، لا تدانيها في صحة سننها أُمة من الأُمم» . وما يدهش أرسطو في دستور قرطاجة أنه ، مع إشراكه الشعب في السياسة ، كان قوي الفعل والتأثير في النفوس بحيث لم يواجهه يوماً أي تمرّد ولم يقاومه أي طاغية . وقرطاجة بتعبيره «لم تشب فيها يوماً فتنة ، ولم يسيطر عليها طاغية» .

وفي عقده المقارنة بين قرطاجة واسبرطة يقول «إن القضاء عند القرطاجيين أفضل منه عند الآسبرطيين ، لأنهم لا يرضون له اغفال الناس ، بل يولونه أحسنهم طريقة وأحمدهم سيرة» . ويضيف إن دستور قرطاجة ينظر في اختيار الشيوخ إلى الفضل لا إلى العمر ، «إذ أن الشيوخ قائمون على أُمور خطيرة ، فإذا ما كانوا أغبياء أضروا بالدولة» . ويقول إن القرطاجيين أشد حرصاً على سلامة الحكم ، فلا يلي الملك عندهم جماعة من أسرة واحدة ، بل يبايعون من يقع عليهم الاختيار . وعن علاقة الملك بالشعب يقول «إن السلطة تحمل إلى الشعب تدابير الملك وإجراءاته . ومن صلاحيات الشعب أن يبدي رأيه فيها . كما أنه يتاح لمن يشاء ممن وقفوا عليها أن يعارضوها . وهذه عادة لا أثر لها في بقية الدساتير .

أعتقد أن هذا التعليق من أرسطو يكفي للدلالة على ما بلغه القرطاجيون من حكم ديمقراطي سليم . وعلى ما وصلوا إليه من رقي اجتماعي تمثّل في دستورهم الذي شده أرسطو لدرجة لم يجد له مثيلاً في بقية الدساتير .

ومن الطبيعي أن تكون قوانين قرطاجة صورة عن قوانين أُمها صور وبقية المدن الكنعانية العريقة في التاريخ والحضارة .

وهنا لا بد من الإشارة إلى الفقهاء السوريين الذين يفتخر بهم القانون الروماني ، وأشهرهم بابينياس الحمصي وأولبيانوس الصوري في مطلع القرن الثالث للميلاد . وإلى مدرسة الحقوق التي أُسّست في بيروت في ذلك العصر أيضاً ، والتي ظلت تغذي العالم الروماني بالمحامين والحقوقيين حتى القرن السادس للميلاد . والطريف فيها أن الأمبراطور يوستنيان كان يسمي بيروت «أم الحقوق ومرضعتها» . وأن أولبيانوس الصوري كان قد درس في معهد بيروت قبل أن يُستدعى إلى روما ليصبح مستشاراً لحكام الامبراطورية الرومانية .

وفي الختام أود أن أنهي حديثي عن هذا الجانب من الحياة الاجتماعية في سوريا الطبيعية بتعليق أرسطو على الأنظمة المدنية الكنعانية التي قال فيها إنها «أرقى قوانين الحكم في العالم»[٨٣] . وتعليق الكاتب اليهودي جوزيفس (القرن الأول للميلاد) على ديمقراطية الكنعانيين ، قال «كان في القرن الأول قبل المسيح مجلس شيوخ ديمقراطي في كل مدينة من المدن الكنعانية . وكانت مهمة المجلس الاجتماع دورياً لإدارة وتدبير شؤون المدينة»[٨٤] .

وأود التأكيد على المبدأ الفكري العظيم ، ومفاده أن ظهور الأنظمة الاجتماعية (القوانين والشرائع) في حضارة ما هو من أوثق المعايير للحكم على مدى تقدم تلك الحضارة في سلم التطور الحضاري والتقدم العمراني . وهو من أكثر المؤشرات الحضارية على توطّد التنظيم الاجتماعي والرقي الحضاري .

المدارس والتعليم

يبدو أن الشعوب القديمة في سوريا الطبيعية أخذت بمفهوم عام مفاده أن الإنسان يضيء بالمعرفة والأخلاق . وأن الجاهل يبقى مصدراً للشرور والآثام والمفاسد . ولذلك كان الناس يقبلون على الانتساب إلى المدارس التي كانت شعبية ومنتشرة في المعابد ، تزوّد الناس بالمعرفة وتمدّهم بثقافة تتناسب مع رقي الحياة الاجتماعية ومتطلباتها .

كان الكهنة يقومون في المدارس التي تلحق بالهياكل بتعليم الأولاد الخط والحساب ، ويعدّون بعضهم للمهنة العليا ـ الكتابة . ولقد بقي لنا من أيامهم الألواح المدرسية وعلى بعضها جداول للضرب والقسمة والجذور التربيعية والتكعيبية ، ومسائل الهندسة التطبيقية[٨٥] . وكانت مواد التدريس تشمل الآداب والأفكار العالية (اللاهوت) والعلوم على اختلافها : علم النبات وعلم الحيوان والطب والجغرافيا والفلك والعقاقير والرياضيات وقواعد اللغة والموسيقى والرسم والنحت والتجارة والمحاسبة .

وقد كشفت الحفريات في قاعات الأبنية المدرسية التي تم العثور عليها في مدن عديدة ، عن ألواح غير قليلة يمكن أن نعرف منها طرقهم في التدريس وطبيعة مناهجهم[٨٦] . وألواح دوّن فيها تمارين لصبية المدارس . وألواح دوّن فيها أمثال ونصائح تتعلق بسلوك الطلاب وتوجيههم ، من مثل «لا تنظر إلى ما حولك» . «كن متواضعاً» . «احترم معلمك» . وكانوا يعبّرون عن تقديرهم للكتابة والعلم بالمثل السومري «إن من يتفوق في الكتابة يضيء كالشمس» . ويعبّرون عن تسفيههم للجهل بتشبيه الجاهل بالحيوان الذي لا يملأ بمجيئه مكاناً ولا يترك بذهابه فراغاً . وبمثل هذه الأقوال كانوا يشجعون الصبية على تعلّم الكتابة والانتساب إلى المدرسة[٨٧] .

يذكر هنا أن هيرودتس زار بابل بعد ثمانين سنة من سقوطها بيد الفرس ، فأبدى اعجابه بتقدم العلوم والفنون في البلاد . ويستدل من كلامه أنه لم يكن في البلاد من لا يعرف القراءة والكتابة .

والطريف أن بلدان العالم القديم ، ومن ضمنها اليونان ، كانت تتسابق للتعاقد مع أساتذة من بلاد النهرين . ويذكر مؤرخوهم أن العلماء والأساتذة من بلاد النهرين كانوا موضع تجلة واحترام في كل مكان . وكانت المعاهد العلمية في اليونان وإيطاليا تفاخر بما لديها من أساتذة من بلاد النهرين .

في مجال العلوم

قام البابليون بدور مهم في وضع الأُسس لعلومنا منذ الألف الثاني ق.م. فقد أبدعوا في العلوم الرياضية وعلم الفلك والكيمياء . ووضعوا الفهارس وبوّبوا الموضوعات بعناية فائقة . وعنوا بكل شيء لفت انتباههم . فقدموا للأجيال اللاحقة قدراً كبيراً من المعلومات في مختلف حقول المعرفة . وقد عملت الأجيال المتعاقبة التي توارثت علوم البابليين ومعارفهم على تنظيمها وتطويرها .

بدأ البابليون القدماء بالعد على أصابع اليد ، شأنهم في ذلك شأن الشعوب البدائية جميعها . وأصبح عدد أصابع اليدين الأساس الرياضي للنظام العشري . كما أصبح العدد ستون ، وهو مركب العشرة ، والعدد اثنا عشر وهو أحد الأرقام التي ينقسم عليها العدد ستون ، أساسين لنظامين حسابيين يعرف الأول بالنظام الستيني ، والثاني بالنظام الاثني عشري . ولا يزال النظام الستيني مستعملاً في تقسيم الساعة إلى ٦٠ دقيقة ، والدقيقة إلى ٦٠ ثانية . ولا يزال مركب الستين معروفاً لدينا في تقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة[٨٨] . يُضاف إلى ذلك أن البابليين كتبوا كسورهم أيضاً بالشكل الستيني ، وبالنظام ذاته الذي

كتبوا به الأعداد الصحيحة .

وقد أدّى علماء الحساب البابليون خدمات جليلة في حقل الرياضيات ، يجهلها الناس عامة في الوقت الحاضر . فقد كانوا أول من أعطى للأعداد قيمتها بحسب مراتبها في الرقم . وأول من اكتشف الصفر . وكانوا يستطيعون الجمع والطرح والضرب والقسمة ، واستخلاص الجذور ، وحل المعادلات المركبة . ففي الجبر مثلاً حلّوا المعادلات ذوات المجهول الواحد . وبحثوا بالطرق العلمية في المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية . ووضعوا قواعد تشبه القانون الذي يستعمل اليوم لحلّ المعادلة التربيعية . وحلّوا معادلات تربيعية بمجهولين أو أكثر . كما حلّوا معادلات تكعيبية .

وفي الهندسة اكتشف البابليون مساحة كل من المستطيل والمربع وشبه المنحرف والمثلث . وعرفوا أن الزاوية المرسومة في نصف الدائرة قائمة . وعرفوا القانون الصحيح بحجم متوازي المستطيلات . وقد تقدّم علم الهندسة على أيديهم حتى صار بوسعهم أن يقدروا المساحات المعقدة ومساحات الأشكال غير المنتظمة .

وباختصار ، كان البابليون منذ الألف الثاني ق.م. قد وضعوا القوانين الأساسية للرياضيات . تلك القوانين التي لم يصل اليونانيون إلى التعرّف عليها إلاّ بعد مرور ١٥٠٠ سنة .

والواقع أن البابليين كانوا أساتذة الأغريق في الرياضيات . فديوفانتس الاغريقي مثلاً لم يبتكر الجبر ، ولكن البابليين هم الذين ابتكروه قبله بعشرين قرناً . وأن كثيراً مما يُعزى إلى فيثاغوراس كان مجهوداً بابلياً انحدر إليه .

ولنا أن نفترض أن الرياضيات الأوروبية والإسلامية كانت متصلة الحلقات بالرياضيات البابلية عبر التراثين الاغريقي والأرامي . يقول المؤرخ غوردون تشايلد «إن أسس علم الرياضيات وضعت في بلاد حوض النهرين . وأكثر الرياضيات الحديثة تطوّر عن تلك الأصول عن طريق الرياضيات الهلنستية والعربية»[٨٩] .

واجتهد البابليون منذ أقدم العصور في عمليات رصد النجوم . فكان لديهم مراصد دقيقة تقام على رؤوس أبراج المعابد . وكانوا يقيسون مدارات النجوم بالساعة المائية . ويسجلون حركات الشمس والقمر . وكانوا يحتفظون بالجداول والسجلات لعمليات رصدهم ، حتى وصلوا في القرن السابع ق.م. إلى القدرة على التنبؤ بما يتنابهما من خسوف أو كسوف . وقد أدت ملاحظة الأفلاك في بلاد النهرين إلى تطور عظيم في المعلومات الخاصة بالفلك ، ولاسيما خلال العصر الكلداني ، فلدينا جداول عدة في

المعلومات الفلكية تدل على معرفة واسعة بالظواهر السماوية .

وقد قادت المراقبة المستمرة للأجرام السماوية إلى معرفة سير الكواكب . وكانت ذروة اكتشافاتهم في هذا الحقل ضبط خسوف القمر وترقّب هذا الخسوف بدقة . ويعد هذا الرصد من أقدم الأرصاد العلمية التي دوّنها الإنسان باطراد .

واستطاع البابليون أيضاً قبل الألف الثاني ق.م. أن يعيّنوا مسارات الكواكب . وكانوا أول من ميّز النجوم الثوابت من السيارة تمييزاً دقيقاً . وحدّدوا تاريخي الانقلابين الشتائي والصيفي ، وتاريخي الاعتدالين الربيعي والخريفي .

كانت النجوم السيارة باعتبار البابليين سبعة وهي الشمس والقمر والمريخ وعطارد والمشتري والزهرة وزحل . وقد خصّصوا لكل نجم يوماً يرفعون له فيه آيات التمجيد والتكريم . ومن هذه الأيام السبعة المكرسة للكواكب السبعة جاءت فكرة الأسبوع ، وعنهم انتقلت إلى العالم الغربي .

وقد تحدّرت أسماء بعض الكواكب بمعانيها البابلية إلى اللغة اللاتينية . ولا تزال ثلاثة من أسماء هذه الكواكب ترد في أسماء ثلاثة من أيام الأسبوع هي Sun day (يوم الشمس و Mon day (يوم القمر) و Satur day (يوم زحل Saturn) .

والجدير بالملاحظة أننا ورثنا عن الشعوب البابلية فكرة تقسيم الفلك إلى دائرة بروج ، وهو حزام وهمي في السماء يشمل مسالك الشمس والقمر والنجوم السيارة . وكانت دائرة البروج بإشاراتها الاثنتي عشرة ، المقسّم كل منها إلى ٣٠ درجة ، بمثابة أداة لرصد حركة الشمس والقمر والكواكب السيارة[٩٠] .

كان علم الفلك البابلي المصدر الذي استقت منه أوروبا في ما بعد . فمن المعروف أن هباركوس الفلكي الذي وُلد في آسيا الصغرى حوالي منتصف القرن الثاني ق.م. والذي يعتبر واضع علم الفلك الحديث ، كان قد اعتمد على الأرصاد البابلية واستفاد منها استفادة علمية كبيرة . وكذلك فإن بطليموس الذي عاش في الإسكندرية في النصف الأول من القرن الثاني بعد الميلاد ، والذي ظل العالم يعمل بنظاميه الجغرافي والفلكي حتى القرن السادس عشر ب.م. كان قد اطلع على الأرصاد البابلية واستخدمها وأفاد منها .

وهناك ما هو أهم من ذلك ، فإذا رجعنا بالتاريخ إلى القرن الثالث والعشرين ق.م. نلاحظ أن العالم الخارجي أصبح امتداداً خاضعاً لارادة العالِم البابلي ، يأتمن لحركته عن طريق إدراكه لقوانينه . من ذلك مثلاً أن علماء الفلك في ذلك الوقت لاحظوا خسوفاً للقمر ، فساروا على طريق التحقق من هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر الطبيعية بتدوينهم

الملاحظات بصفة دائمة ودقة بالغة . ونعلم الآن ، كما يشير المؤرخ جيمس برستد[٩١] ، أن علماء الفلك الكلدانيين ظلّوا يدوّنون ملاحظاتهم في الأمور الفلكية لفترة تربو على ثلاث مائة وستين سنة . فصارت تسجيلاتهم أول سلسة طويلة للأرصاد الفلكية ، وأولى الوثائق ذوات القيمة في الدراسات الفلكية . وقد وصلنا رقيم من ٥٦٨ ق.م. يتضمّن معلومات فلكية دقيقة .

وقد استطاع أحد الفلكيين الكلدان ويدعى نابو ريمانو Nabu Rimannu (عاش حوالي ٥٠٠ ق.م.) أن يستخدم ملاحظات الكلدان وسجلاتهم السابقة له ، وأن يضع جداول لتحركات الشمس والقمر ، سجّل فيها حسابه للوقت الذي يستغرقه هذان الجرمان في دورتيهما اليومية والشهرية والسنوية . كما أرّخ وقت كسوف الشمس وخسوف القمر ، وأوقات وقوع بعض الأحداث الفلكية الهامة .

يُضاف إلى ذلك أن هذا الفلكي العظيم حسب طول السنة بثلاث مائة وخمسة وستين يوماً وست ساعات وخمسين دقيقة وواحد وأربعين ثانية . وهذا الجدول الزمني الذي وضعه ريمانو كان أقدم بحث علمي ذي قيمة إنشائية في علم الفلك . وحسابات ريمانو قاربت الصواب إلى حد يدعو إلى الدهشة .

وبعد مضي قرن وضع فلكي كلداني آخر هو كيدينو Kidinnu مجموعة مشابهة من الجداول كانت أكثر دقة من سابقتها .

ولقد آلت الأبحاث الفلكية التي قام بها العلماء الكلدان إلى الاغريق ، فانكبوا على دراستها واستيعابها . وقد وصف أحد علماء الفلك المعاصرين نابو ريمانو (في اليونانية Naburianus) وكيدينو (في اليونانية Kidinas) بقوله «إن من الحق والواجب أن يوضعا بين أعاظم الفلكيين» .

والواقع أن هذين الكلدانيين اللذين أطلعا البشرية لأول مرة في التاريخ على نظام ثابت لعالم الكواكب ، أصبحا مؤسسي علم الفلك . ويجدر بنا أن نذكرهما باحترام وأن يظل اسماهما خالدين[٩٢] .

وقام البابليون أيضاً بوضع الأُسس لعلوم الطب والكيمياء . وقد بلغ الطب على أيديهم درجة عالية في مجال التقدم والتطور العلمي إلى حد أدرجت مهنة الطب في صلب القوانين لحمايتها ورعايتها ومراقبة المشتغلين بها . والمواد الخاصة بممارسة مهنة الطب في قوانين أمورابي تعبّر عن مدى التأكيد والحرص اللذين أبداهما أمورابي للمحافظة على حقوق الأطباء والمواطنين .

كانت مدارس الطب في نيبّور وبورسيبا وايسين مشهورة . ورسائل مدينة ماري تلقي مزيداً من الضوء على الطب البابلي . وتشير إلى ما وصل إليه الأطباء البابليون من تقدير وتعظيم . من أمثلة ذلك الدعوات التي كانت توجّه إليهم من البلدان المجاورة .

والملاحظ أن الأطباء كانوا يؤدون قسماً لدى ممارستهم مهنة الطب . وكانوا في بلاد أشور منتظمين في نقابات . وكان بينهم من يحمل لقب رئيس الأطباء .

وفي حقل الكيمياء عرف البابليون الدوارق المصنوعة من الخشب أو المعدن . وعرفوا الطواحين والأفران الكيميائية . وكان لديهم أجهزة لفصل السوائل وأخرى للتقطير . اشتغلوا في الترشيح والتصفية والتقطير . واشتهروا بصناعة النبيذ والبيرة ، بالإضافة إلى صناعة العطور والصابون . وكانت صناعة الزيوت والشحوم والشمع معروفة لديهم منذ الألف الثالث ق.م. بالإضافة إلى صناعة الجلود والدباغة والنسيج والصباغة[٩٣] .

وفي حقل الجغرافيا يعتبر الجغرافي مارينوس Marinus الصوري (منتصف القرن الثاني الميلادي) أول من وضع الخرائط المرسومة بالطرق الرياضية . ويعترف بطليموس بأنه بنى كتابه في الجغرافيا على أساس كتاب مارينوس[٩٤] .

وبعد ، إن الرسائل التي وصلتنا في علوم الفلك والرياضيات والجغرافيا والطب والكيمياء وفي علمي الحيوان والنبات ، تأخذ المرء بسعتها وتنوعها[٩٥] . وتعتبر مجموعة المعارف التي قدّمها البابليون القدماء في هذه الحقول العلمية وغيرها من أعظم ما أسهموا به في تاريخ الحضارة . قال عنهم هيرودتس (٤٨٠ ـ ٤٢٥ ق.م.) «إن الهيللينيين أخذوا الساعة الشمسية والمؤشر الشمسي وتقسيم النهار إلى اثنتي عشرة ساعة ، عن البابليين» . وقال عنهم سترابو الاغريقي (٥٨ ق.م. ـ ٢٥ ب.م.) «أما الصيدونيون (يقصد الكنعانيين بشكل عام) فإن أخبار الأيام تصفهم بأنهم أرباب الصناعات والفنون والفلسفة والعلوم . وقد ارتقوا فوق المحسوسات إلى ذروة العلوم العددية والفلكية» . وأضاف «يجب الإقرار بأن اليونانيين تلقوا في ما سلف عن الفينيقيين معارفهم في الفلك والرياضيات . ونرى في عصرنا الحاضر (القرن الأول ق.م.) أن كل من أراد المزيد من العلوم على اختلاف أصنافها قصد صور وصيدون حيث العلوم أغزر مدداً وأصفى مورداً من سائر الحواضر» . وقال سترابو أيضاً «إنهم فلاسفة في علم الفلك وفي الرياضيات» . وقد عبّر عن نباهة الكنعانيين في تلك العصور المبكرة بالقول «إنهم متفوقون على جميع الشعوب وفي كل الأزمنة»[٩٦] .

ولعل أروع ما بلغ بهم توقّد البصيرة هو معرفتهم التامة بمسألة المدّ والجزر ،

وارتباطها بحركة القمر . فقد نقل سترابو عن بوزيدونيوس(٩٧) أن سكان قادش على الأطلسي كان لديهم تقويم فلكي دقيق يعرفون بواسطته حركة المد والجزر في المحيط . فأخبروه مثلاً أن حركة المد والجزر تبلغ قمتها في فترة الانقلاب الشمسي الصيفي . وأن تعامد القمر والشمس هو الذي يحدث المد في المحيط .

وحديثاً يقول المؤرخ فان لون «يجدر بنا القول إن معرفتنا العصرية بالفلك والرياضيات تقوم على مبادىء أولية وضعها البابليون»(٩٨) . ويقول المؤرخ جيمس برستد «لقد ترك علم الفلك الكلداني في نفوسنا أثراً لا يمحى ، على الأقل في ما يتعلق بالأسماء التي نطلقها على أيام الأسبوع مثلاً . فهذه الأيام كلها أو بعضها تحمل أسماء الكواكب البابلية»(٩٩) . ويقول المؤرخ ول ديورانت «كان علم الفلك البابلي الأساس الذي بني عليه التقويم المؤلف من اثني عشر شهراً» . ويضيف «إن تقسيم الشهر إلى أربعة أسابيع وتقسيم مدار الساعة إلى اثنتي عشرة ساعة . وتقسيم الساعة إلى ٦٠ دقيقة . والدقيقة إلى ٦٠ ثانية . هذه وغيرها آثار بابلية لا شك فيها ، باقية من أيامهم إلى أيامنا»(١٠٠) . ويقول المؤرخ ساباتينو موسكاتي «إن المعارف الفلكية والرياضية هي بلا ريب من أعظم ما أسهم به البابليون في تاريخ الحضارة»(١٠١) .

في مجال الفن

يبدو أن الحس الفني استيقظ في نفس الإنسان القديم في الشرق المتوسطي منذ م استيقظت إمكانية التقليد في وعيه . وحينذاك انغمرت نفسه في عالم جديد هو عالم الخيال . وبدأ يتذوق الجمال في الصور التي يتخيّلها أو يركبها .

ويبدو أن الفن في الشرق المتوسطي القديم ارتبط منذ لحظة ولادته بمشاعر الفنان فما كان يحس به من رغبة أو رهبة إزاء القوى والكائنات الطبيعية المحيطة به ، هو الذي حرّك في نفسه مشاعر الفنان . وكانت الصور التي نقشها والتماثيل التي جبلها من طين أو نحتها من حجر تعبيراً عن مشاعره . فقد حفر مثلاً رأس ثور وحمله معه أو وضعه في مسكنه ربما لاعتقاده أنه يحميه من الثور الذي يصادفه ، أو على أمل ورجاء أن يصير الثور الذي حوله في الطبيعة قريباً منه أليفاً إليه . وفي مراحل لاحقة نحت أشكالاً من الحيوانات التي دجّنها كالبقر والغنم والماعز لتقديمها كنذور في معبده .

وهذه الأشكال التي حفرها أو نحتها تعتبر أقدم الأمثلة المعروفة للفن التشكيلي من العصر النطوفي (٨٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ ق.م.) اكتشفت في أريحا وفي كهوف جبل الكرمل وهضاب القدس . وهي تعبّر عن حسّ أصيل وشعور طبيعي بالانفعال الجمالي الفني ،

استيقظ في نفس الإنسان القديم في سوريا الطبيعية عندما بدأ يعي وجدانياته .

وفي تليلات الغسول عرفوا في وقت مبكر النحت ، واستخدموا الأختام . وكـان لهم ذوق فني في صناعة الحلي ، وفي زخـرفة الأواني الفخـارية ، وفي تـزيين جدران منـازلهم بالرسوم الملونة .

وفي سوريا الشمالية ، ومن ضمنها حوس النهرين ، توصل الصنّاع في أواخر الألف الخـامس ق.م. إلى معرفـة واستعمـال الـزخـارف الهنـدسيـة والنبـاتيـة المتعـددة الألـوان والأشكال ، فبلغوا مراحل متقدمة في تاريخ الفن الـزخرفي . وتعتبـر الأواني المزخـرفة من مثـل الصحون والكؤوس والجـرار ، من الوجهتين الصنـاعيـة والفنيـة ، من أجمـل الأواني المصنوعة باليد في العصور القديمة[١٠٢] . خذ مثلاً هذا الإناء (محفوظ في متحف اللوفـر) الـذي يزينـه شريـطان يدوران حـوله ، وفيهمـا زخارف محفـورة تمثـل أحسن تمثيـل الفن الزخرفي في الحضارة السومرية المبكـرة . ونرى في الشـريط العريض نسـراً له رأس أسـد يقبض بمخلبيـه على أسـدين يعضّ كـل منهمـا تيتـلاً . وهـذا التمـاثـل في تـرتيب رسم الحيوانات من أهم ما وصل إليه الفن السومري . وقد انتقلت هذه الرموز التي تمثل أزواجـاً من حيوانات ترسم متقابلة بعضها أمام بعض ، إلى أوروبـا . وما زالت مـاثلة حتى الآن في الرسم الزخرفي وفي الرسوم المميزة لبعض الملوك . وقد ظهر النسر في أعلام ملوك النمسا وبـروسيا وغيـرهم من أمم أوروبا . وأخيـراً وصل إلى أميـركا . وكلهـا مستمـدة من النسـر السومري الذي يرجع تاريخه إلى ما قبل خمسة آلاف سنة[١٠٣] .

تجلّى الفن في الشـرق المتـوسـطي القـديم في دقـة الصنعـة وطـلاوة الصبغـة وقـوة الاستنباط الفكري . والمتأمل في الرسوم والتماثيل يشعر بالبداهة والصراحة في التصوير . فالمادة الجامدة وقطعة البرونز الخـرساء تحـولتا تحت إزميـل الفنان إلى اسـطورة ناطقـة أو تاريخ متحـرك . لقد نفحهمـا الفنان روحـاً من ذاته فبعث فيهمـا الحياة . ثم إن إلقـاء نظرة على المكتشفـات الآثاريـة في أوغاريت من حلى ذهبيـة وأوان فخاريـة وأختام اسـطوانية ، يجعلنا ندرك الحس الجمالي لدى الصائغ الأوغاريتي الفنان ، والبـراعة الفنيـة التي تجلّت في ما صاغه من الأواني الذهبية ، وفي ما نقشـه من العاج ، ثم إن التمـاثيل المصنـوعة من البرونز المغطّى بصفائح ذهبية تدل على مهارة ذلك الفنان وذوقه الفني الرفيـع . ويكفي أن نلقي نظرة على «رأس عاجي لأميرة أوغاريتية» ونتأمل في ملامـح وجهها وتعـابيره الإنسـانية الناطقة بكل معاني الرّقة والعاطفة والمشاعر الإنسانية ، لندرك مدى تحسّس فنـان أوغاريت بالجمال ، وبخاصة في التعبيـر عن الجمال الإنسـاني في عمله الفني . كما أن إلقـاء نظرة فنية على المشاهد المختلفة المنقـوشة على الأختـام الأسطوانيـة يدفق في صـدر المشاهـد

شعـور الإعجاب بقـدرة ذلك الفنـان المبدع الـذي استطاع أن ينقش على حجـر اسـطواني موضوعاً معقّداً بأُسلوب فني يجسّد فكراً جمالياً .

وقـد بلغ النحت مرحلة متقـدمة من النضـج في نهايـة الألف الرابـع ق.م . وتميّـزت أعمـال الفنانين بقـدر كبير من التحسّس بـالجمال والـدقة في التعبيـر ، مما يتـرك في نفس المشاهد أثراً عميقاً . فالأشكال الصغيرة للمتعبّدين مثلاً ، التي كانت ضـرباً هـاماً من الفن البابلي ، تعبّر عن التقوى الدينية بكثير من الحيوية . والمتأمّل في المتعبّد بيديـه المطويتين وعينيه الرانيتين بخشوع ، يشعر بالرهبة والخشوع العميق اللذين كانا يلفانه في صلاته .

وقد عثر علماء الآثار على بقـايا أحـد الأُمراء وعلى رأسـه كساء مصنـوع من صفائـح سميكة من الذهب ومزخرف برسوم دقيقة جداً حفرتها يد الصانع الماهر . ويعلّق في حزامه خنجراً من الذهب المشغول المفرغ . وإلى جانبه في القبر أوانيه الـذهبية التي كـانت تزيّن مائدته في حياته . وهذه الأشياء التي أخرجتهـا يد الصـانع الفنـان تعبّر عن المهـارة الفائقـة والدقة الفنية ، كما تعبّر عن سمو الذوق في تصميم أشكالها .

وعثر علماء الآثار على أثر ضخم مكوّن من حجر واحـد يمثّل سـارجون بلحيـة كبيرة تخلع عليـه كثيـراً من المهـابـة . وعليـه من الثيـاب مـا يـدل على الكبـريـاء وعـظيم السلطان(١٠٤) .

ويعتبـر نصب الملك نارام سن (القـرن ٢٣ ق.م.) (محفوظ في متحف اللوفـر) من المنحوتات الجميلة المعبّرة التي وصلت إلينا . فهو يمثّل وقفة نصر أحرزها ذلـك الملك . المنـظر عبارة عن جبـل يصعد فيـه نارام سن مهيبـاً جليلاً خفيف الحـركة ، يحمـل قـوسـاً وسهاماً ، وعلى رأسه خوذة بقرنين رمز الملوكية . يصعد وراءه جنوده حاملين رماحاً طـويلة تعلوها أعلام . وأمامه رمزان لعدوين : الأول انحنى إلى الأرض وقد اخترق الرمح عنقـه . والثاني عقد يديه في ضراعة وتوسّل . كما يعتبر تمثال أشور ناصر بعل الثاني (٨٨٣ ـ ٨٥٩ ق.م.) (المحفوظ في المتحف البريطاني) من المنحوتات الطافحة بالحياة والجلال . ففي وسع المتأمـل فيه أن يـرى من خلال خـطوطه الثقيلة ملكـاً في كل شبـر من جسمه . يـرى الصـولجان الملكي وقـد أحكم عليه قبضتـه القويـة ، والشفتين الغليـظتين تنمـان عن قـوة العزيمة ، والعينين القاسيتين اليقظتين . ويرى قدمين ضخمتين متـزنتين على الأرض أكمل إتزان(١٠٥) .

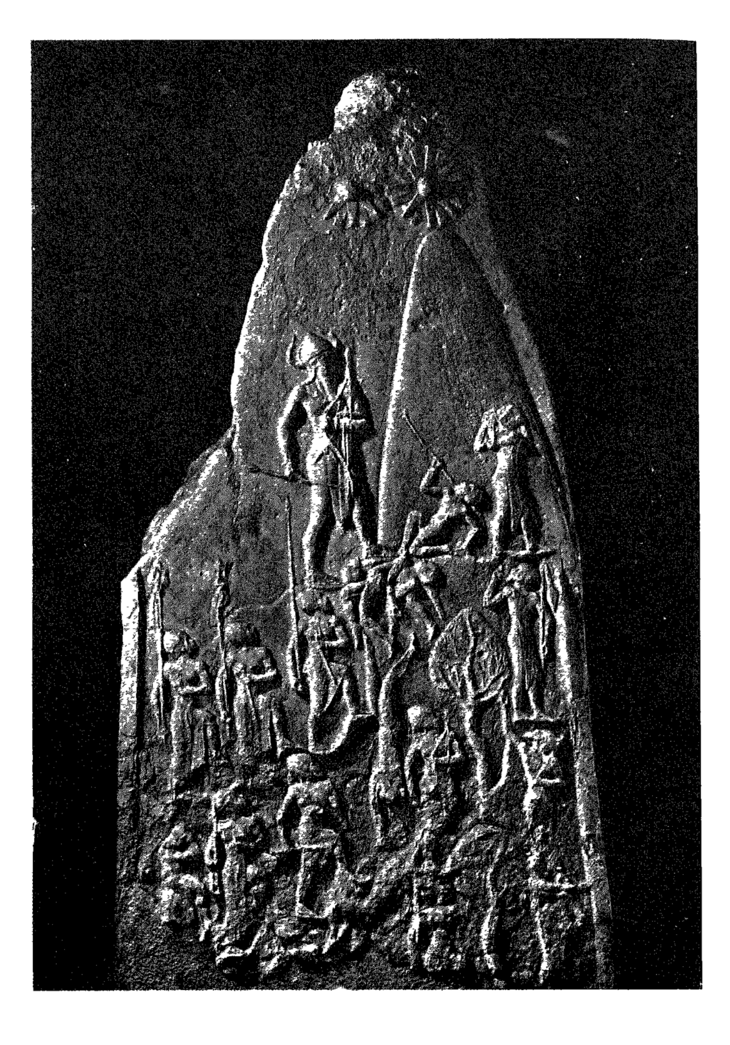
إن الـرومـوز الفنيـة التي وصلت إلينـا كثيـرة . والمؤلفـات التي وضعت حـولهـا والمجلدات الضخمة التي نقلت صورها كثيرة ومتنوعة أيضاً . ولكن الجدير بالانتباه إليه هو

أن هذه القطع الفنية حافظت ، على الرغم من عوامل الدهر ، على الحيوية المدهشة التي أودعها مبدعوها فيها قبل آلاف السنين . ومن الطبيعي أن قوة الأثر الفني ، تمثالاً كان أم لوحة ، تتجلّى بمقدار ما يتمثّل فيه من الحيوية . لأن الحيوية تخصّب الموضوع وتضفي عليه طابعاً حيّاً ، فيصبح الموضوع حياة تجري في المادة أو الشكل . ومن هنا يأتي خصب الموضوع وعمقه .

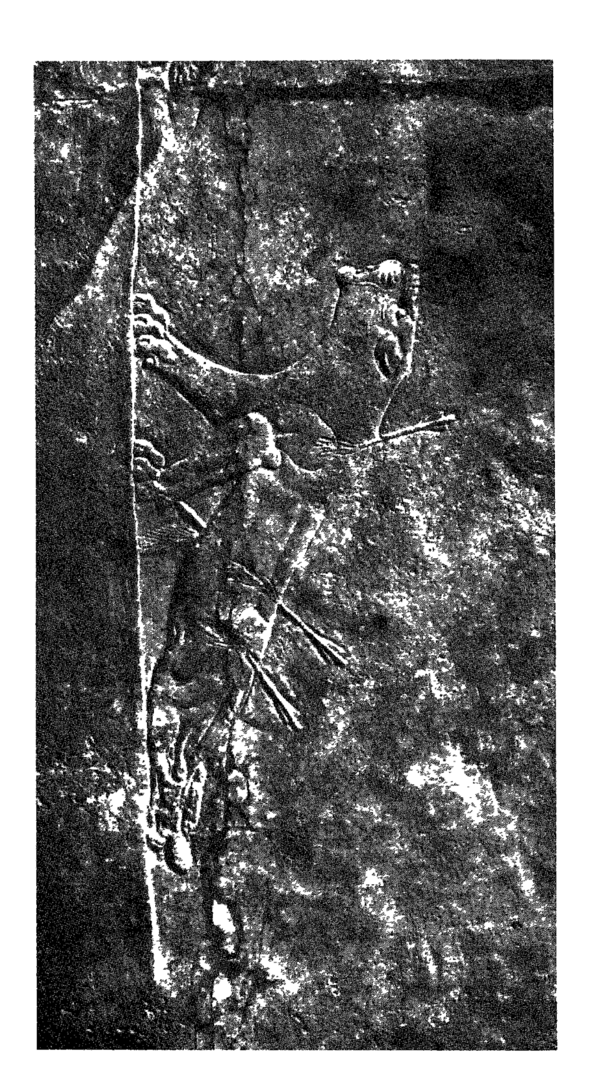
برع الفنان القديم في سوريا الطبيعية في الحفر على العاج . ومن آثارهم التي وصلت إلينا تلك اللوحة العظيمة التي وجدت في قصر أوغاريت . وقطع العاج المنحوتة التي وجدت في الشمال السوري حيث حملها الملك الأشوري بعد فتحه دمشق ، والتي كانت أصلاً في سرير حزائيل ملك دمشق الأرامي . وفي ماري اكتشفت تماثيل جميلة الصنع تظهر عبقرية الفنان الأموري في النحت في عصور مبكرة من تاريخ الحضارة . ونحن ، يقول أندريه بازو ، إذ نتأمل في بعض الألواح الصغيرة التي اكتشفت في مدينة ماري ، يخالجنا شعور بأن من الصعوبة بمكان صنع مثلها حتى بالأدوات العصرية . وهذه القطع الفنية التي سلمت من عوامل الدهر ما فتئت تسحر الفنانين ومتذوقي الفن[١٠٦] . ويقول المؤرخ ول ديورانت «وهل هناك ما هو أروع من خيل سارجون الثاني في نقوش خراساباد . أو اللبؤة الجريحة التي عثر عليها المنقبون في قصر سنحاريب في نينوى . أو اللبؤة المحتضرة المنقوشة على حجر المرمر والتي استخرجت من قصر أشوربني بعل . أو مناظر صيد أشور ناصر بعل الثاني للأسود . أو منظر الأسد الذي أطلق من الشرك . أو القطعة التي نقش عليها أسد ولبؤة يستظلان الأشجار . هذه القطع وغيرها تعتبر من أجمل روائع هذا الفن في العالم»[١٠٧] .

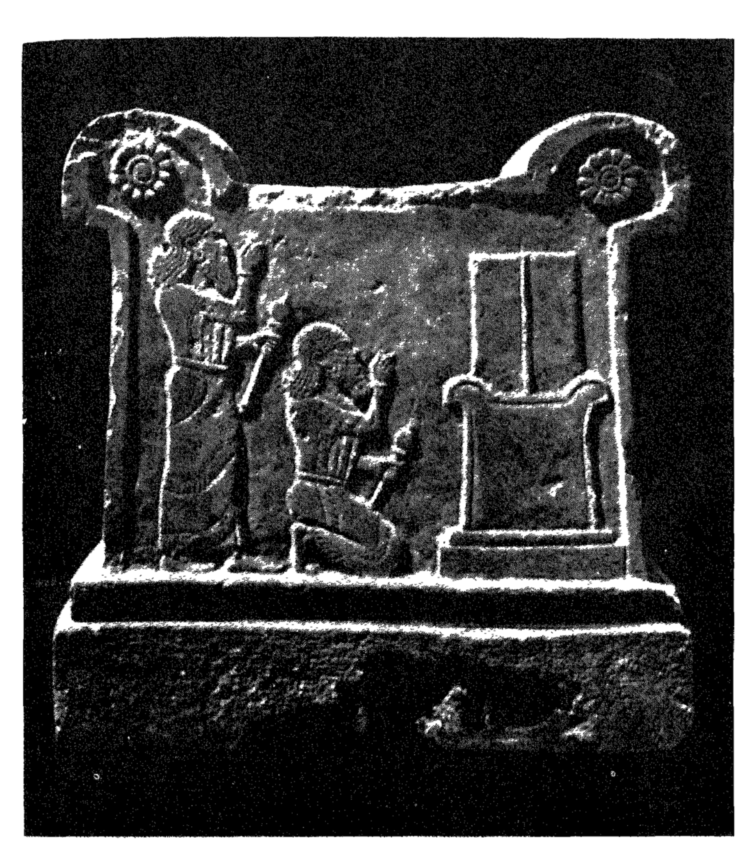
كان الملوك القدماء في سوريا الطبيعية يزينون القصور والهياكل ، خاصة الأعمدة فيها ، بخطوط هندسية محفورة من النحاس المطعّم بمواد شبيهة بالحجارة الكريمة . وغالباً ما كانت الجدران تغطّى من الخارج بالقرميد الأزرق الشاحب ، بينما تُكسى من الداخل بالواح من الأخشاب النادرة كخشب الأرز أو السرو ، المزينة بالمرمر أو العقيق أو الذهب . أما الأبواب فكانت تتيح للفنان أحسن الفرص لممارسة فنه في الزخرفة والتزيين بالأشكال الفنية والهندسية . والترصيع بالذهب والفضة والبرونز والأحجار الكريمة .

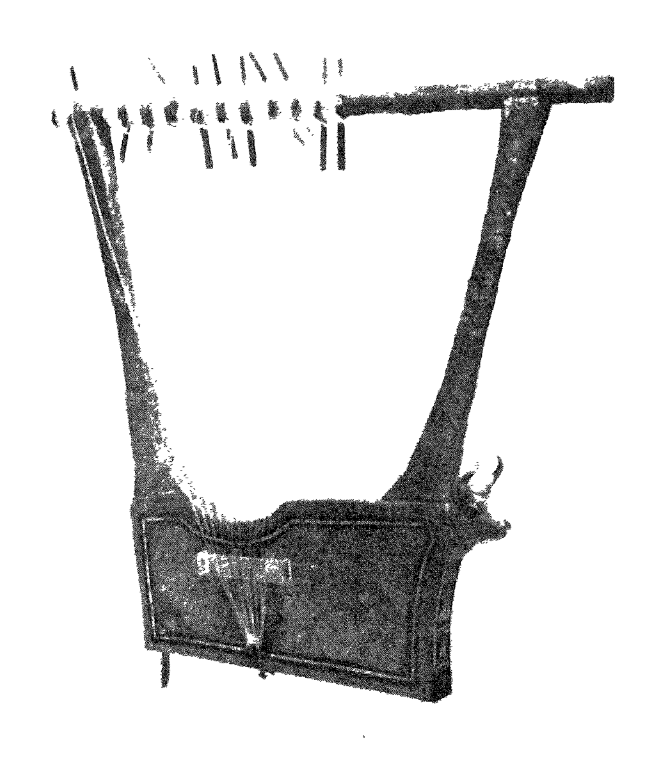
وقد بلغ فن النحت الذروة في الإتقان في القصور الملكية لسارجون الثاني وسنحاريب وأشوربني بعل . فقصر سارجون الثاني مثلاً يمتاز بوحدته المعمارية وفخامة هندسته ، وبالثيران المجنّحة القائمة على جانبي المدخل الرئيسي . والمتأمل فيها يستطيع أن يتقرّى قدرة الفنان في المحافظة على مظهر القوة التي يوحيها الثور المجنّح . ويعتبر

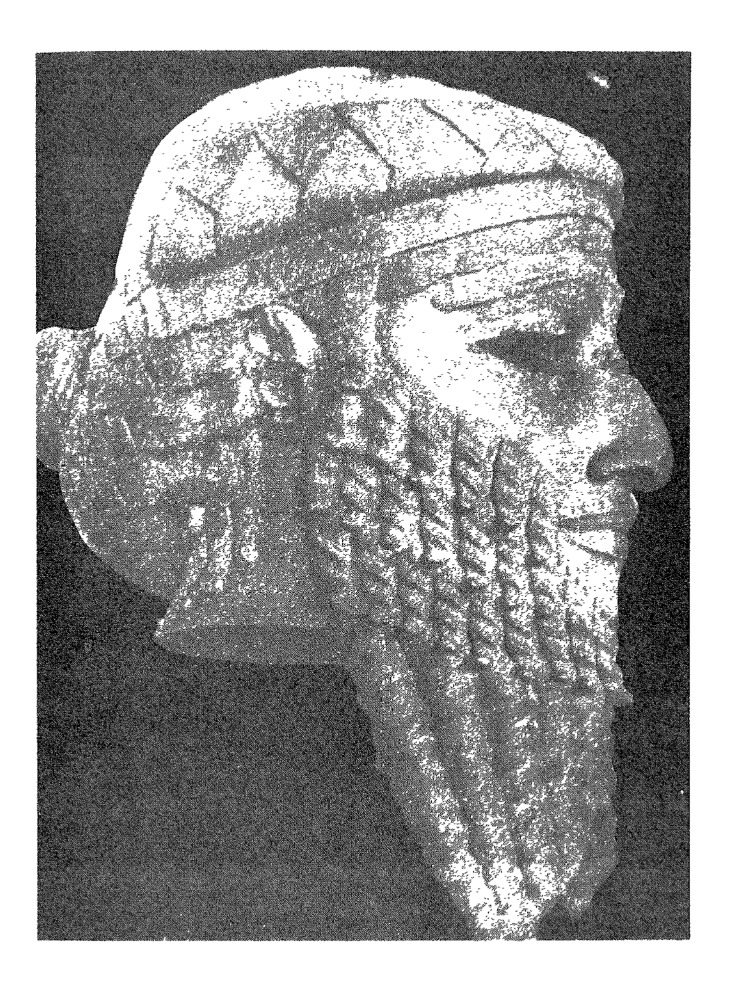












القصر من أغنى القصور القديمة بالنقوش التزيينية ، فقد قدّرت مساحة النقوش التي عثر عليها بحوالي ستة آلاف متر مربع ، وهي تدل على مهارة الفنانين الذين اشتركوا في تزيين القصر .

كان الإنسان القديم في سوريا الطبيعية يقدّس عالم الغيوب بحسب توهمّه أو تخيّله . وبالفن وحده اتخذ العالم الغيبي أو عالم الوهم شكله . أو قل إن المقدس لا يتخذ شكلاً إلاّ بالفن ، لأنه غير مرئي . ومن هنا كان الفنان يرسم أو ينحت ما لا تراه بالضرورة عينا الفرد المرتبط بالأرض . فهو يبدع في رسومه ومنحوتاته أشكالاً بشرية أو حيوانية لا تخضع لقوانين الطبيعة . بل يخلق أشكالاً غريبة لا وجود لها في الواقع . وكانت براعته المدهشة تتمثّل في قدرته على الإيحاء بآثاره التي يبدعها ، بما يفلت من نظر الأحياء . فلم يكن الإنسان القديم في سوريا الطبيعية يضع في محراب معبده تمثالاً يجد فيه المرء مجرد تقليد للإنسان . ولذلك كان الفنان يجهد للظفر بالقوة الخفية للتمثال عن طريق كل ما يجعله مميّزاً عن أي نوع من مثل هذا التقليد .

والملاحظ في مثل هذه التماثيل هو رغبة مبدعيها في تحريرها من عالم البشر ، ومنحها الطريق إلى عالم آخر . ولذلك فإن التلميح إلى الشكل البشري لا يسمح به إلاّ في المدى الذي يمكن استخدامه كوسيلة للتعبير عن عالم علوي . ومثل هذه التماثيل ليس تقليداً فجّاً لشكل تصوّري أو لأي شيء آخر . إنه في الحقيقة يجعل الكائنات المقدسة ممثّلة في عاطفة المتعبد مثلما يجعل رموزها ممثلة في ذهنه . وبهذه التماثيل عبّر الفنان عن رغبته في تجاوز الواقع ، وجسّد تطلعاته إلى احتضان المطلق .

إن ما كشفت عنه الحفريات ، وما عثر عليه المنقبون في أطلال الحواضر السورية من قطع فريدة من المنحوتات . وما بقي لنا من دلالات في وصف المؤرخين الاغريق لبعض ما شاهدوه في الحواضر السورية من هياكل ومعابد وقصور (وصف هيرودتس مثلاً للذخائر والتحف التي شاهدها في هيكل هرق ايل في صور) ، يعبّر إلى حد بعيد عن مهارة الصنعة (الفن) ورفعة الثقافة اللتين تعبران بدورهما عما نعمت به الشعوب القديمة في سوريا الطبيعية من سمو فكري وذوق فني وحضارة راقية وحياة أكثر غنى وأكثر تنوعاً وتعقيداً ، بالقياس إلى الحياة المحدودة التي كانت الشعوب والمجموعات البشرية تعيشها في مناطق أُخرى من العالم القديم .

وكان للموسيقى مكانة عالية في نفس الإنسان القديم في سوريا الطبيعية . وبالتالي كان لها دور كبير في حياته اليومية في البيت وفي المعبد . وقد ازدهر هذا الفن كبقية الفنون : النحت والرسم والنقش ، ولكن لم يبق منه ما يعبّر عنه وعن مراحل التطور ومدى

الازدهار الذي وصل إليه ، كما بقي لنا من منحوتات وألواح تطلعنا على براعتهم الفنية ورقيهم الفكري والأدبي والاجتماعي . وما بقي لا يزيد عن ألواح قليلة يحمل بعضها أسماء أوتار القيثارة . ويحمل بعضها الآخر أغاني مبوّبة حسب المقامات . ومنها ما يحدّد أبعاد السلم الموسيقي الأكادي . وقد عثر المنقبون على لوحين نقش على كل منهما ألحان قطعة موسيقية . الأول أكادي يرجع إلى القرن الثامن عشر ق. م. والثاني أوغاريتي يرجع إلى القرن الرابع عشر ق.م. وعثروا أيضاً في مدافن أور على آلات موسيقية جميلة الصنع كالقيثارة .

والجدير بالذكر أن الموسيقى ازدهرت كعلم وفن في سوريا الطبيعية قبل ألف عام من ظهور علم الموسيقى على يد فيثاغوراس[١٠٨] .

التراث الثروة

لم يخلّف لنا السومريون ما خلّفه المصريون القدماء من معابد ومقابر وهياكل وقصور ، تأخذك الدهشة والمهابة من ضخامتها ودقة الفن وروعة النحت فيها (ربما لندرة الحجر في بلادهم) . وإنما خلّفوا لنا عشرات الآلاف من الألواح الغنية التي تؤرخ كثيراً من وجوه حضارتهم وانماط حياتهم . والأهم من ذلك أنها حفظت لنا نماذج من آدابهم وقوانينهم ونصوصاً من صلواتهم وشواهد من نظمهم الاجتماعية والمعارف التي توصلوا إليها في تلك العصور المبكرة .

والألواح التي سلمت أو التي اكتشفت تفيد أنهم أبدعوا في ضروب الأدب كافة . وكانوا أساتذة أنواع عظيمة من الأشكال الأدبية . فقد ألّفوا القصص والأساطير والملاحم ، وكتبوا الأدعية والترانيم الدينية ، وجمعوا الأمثال والحكم ، ونظموا القصائد في مختلف الموضوعات . وهي تعطي صورة واضحة لنتاج غزير يفصح بعضه عن عقائدهم الدينية ومبادئهم الأخلاقية وآرائهم الفلسفية . ويتسم بالأصالة وتنوّع الموضوعات .

ونقع في ما وصلنا عنهم من تراث على أقدم المحاولات لبحث ومناقشة مسائل فلسفية أساسية كالحياة والموت وخلق الكون والإنسان . وهناك عشرات الآلاف من الرقم التي حفظت لنا وثائق وعقود أعمالهم التجارية والقانونية والإدارية . وهذه الرقم تساعد في الاطلاع على أنظمتهم الاجتماعية والتعرّف على تنظيماتهم الإدارية .

يقول المؤرخ ول ديورانت في تعليقه على التراث السومري العظيم «لقد وصلنا من سومر أول طريقة للتدوين ، وأوائل المثل الأخلاقية ، وأوائل الأفكار السياسية والاجتماعية والتأملات الفلسفية . وأوائل المدونات في التاريخ والميثولوجيا والملاحم والتراتيل

الدينية . وأوائل العقود القانونية . ومنها خرج أول مصلح اجتماعي في التاريخ ، وأول مشرّع . وفيها اجتمع أول برلمان ذي مجلسين . وفيها كانت أيضاً أُولى المدارس»[١٠٩] .

يُضاف إلى ذلك أن عدداً كبيراً من دور الكتب العظيمة كان قد انشى في المدن السومرية حوالي ٢٧٠٠ ق.م. فقد اكتشف المنقبون في سيبار مثلاً (على ضفة الفرات الشرقية) حوالي ١٣٠ ألف لوح بالخط المسماري . وعثر علماء الآثار في مدينة تلّو على مجموعة من خمسين ألف لوح ، مرتبة بعضها فوق بعض في نظام أنيق ودقيق[١١٠] .

وحضارة سومر الغنية تركت أثرها المباشر في الشعوب التي استوطنت حوض النهرين . وامتد هذا الأثر أيضاً إلى مناطق أُخرى في الهلال الخصيب .

والتراث الضخم الذي خلفه السومريون في الملاحم والأمثال والكيمياء والرياضيات وفي غير ذلك من حقول المعرفة ، أخذته عنهم شعوب كثيرة في الشرق المتوسطي نقلاً أو اقتباساً . فقبل الأزمنة التاريخية التي اتفق المؤرخون على تحديدها بالألف الثالث ق.م. كانت القبائل النازحة من سوريا العليا تستقر في بلاد النهرين ، عرفت في ما بعد باسم شعب أكاد وبلاد أكاد . وقد اختلط الأكاديون بالسومريين الذين كانت حضارتهم مزدهرة في الألف الثالث ق.م. في وادي النهرين الأسفل ، وتبنّوا هذه الحضارة في جميع وجوهها ومقوماتها .

كان الأكاديون يكنّون احتراماً عظيماً لتراث أسلافهم الذين ورثوا عنهم حضارتهم . ولم يكونوا يجدون حرجاً في أن يعيدوا نشر ما سطره غيرهم . ويمكن القول إن فكرة الملكية الأدبية كانت غريبة على عقلية شعوب الشرق المتوسطي القديمة . فاسم المؤلف نفسه لم يكن أمراً ذا بال . ولهذا كان الإنتاج الأدبي في الغالب مجهول الصاحب[١١١] .

كانت الأعمال الأدبية القديمة تعتبر قدوة ، يخالج المقلّدين شعور بأن الإتيان بأفضل منها صعب أو غير ممكن . ويبدو أن كل جيل من الفنانين كان يطمح ، قبل كل شيء ، إلى استيعاب خصائصها ، ثم إخراجها من جديد . وهكذا أقبل البابليون في عهودهم الأُولى على التراث السومري ، فوعوه وتمثّلوه ، وعملوا على محاكاته وتقليده أو اقتباسه ، وكأن القوم شعروا بأن الحضارة السومرية آخذة في الاندثار أو الزوال بعد انهيار سلطان السومريين السياسي . فبدأ البابليون المضطلعون بمعرفة العصر وعلومه ، بنقل مآثر السومريين الأدبية إلى لغتهم ، واقتباس معارفهم العلمية . ومن هذا المنطلق ظلت الطبيعة المحافظة تلازم الأدب . وظل التقليد يمثّل دوره البارز فيه .

والملاحظ أن الأدب السومري اندمج بالأدب الأكادي اندماجاً كاملاً بحيث يصعب

الفصل بين ما هو موضوع وبين ما هو مترجم . ويبدو هذا الدمج واضحاً في قصة الخلق (اينوما ايليش) حيث يصعب التمييز بين ما هو سومري وبين ما هو أكادي .

ولعل أشهر ملوك بابل اهتماماً برعاية العلوم والآداب ، وبنقل تراث الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة ، هو أشور بني بعل (٦٦٩ ـ ٦٢٦ ق.م.) الذي اقترن اسمه باسم مكتبته الشهيرة في نينوى . فقد صرّح هذا الملك العظيم بأن الغاية من إنشاء المكتبة هي الحفاظ على العلوم والآداب القديمة ، ونقلها إلى الأجيال المقبلة . والواقع أن العالم القديم لم يعرف مكتبة بكثرة محتوياتها وغزارة مادتها وتنوّع موضوعاتها مثل مكتبة أشور بني بعل . فقد كشفت أعمال الحفر بين أطلال حجرات المكتبة عن مجموعة من ثلاثين ألف لوح من الطين ، في مختلف ألوان المعرفة ، ظلت ملقاة على أرضها ما يقرب من سبعة وعشرين قرناً ، مصنّفة ومفهرسة وفق نظام دقيق ، وعلى كل واحد منها رقعة يسهل الاستدلال بها عليه .

وقد تمكن هذا الملك من أن يجمع في مكتبته قسماً كبيراً من الألواح السومرية والأكادية . كما أمر بنسخ ما كان موجوداً في المكتبات الأُخرى . فهناك رسالة لأشور بني بعل يطلب فيها إلى أحد عماله البحث عن وثائق قديمة ونسخها لصالح المكتبة الملكية . وهي توضح لنا طريقة الملك في تغذية مكتبته : «عندما تستلم رسالتي هذه خذ معك رجالك وفتّش عن جميع الألواح الموجودة في بورسيبا وفي هيكل أزيدا ، فانسخها وأرسلها إلينا»[١١٢] .

ويحمل الكثير من الألواح المصنّفة في مكتبة أشور بني بعل عبارة «فليحل غضب أشور على كل ما ينقل هذا اللوح من مكانه ، وليمح اسمه وأسماء أبنائه من على ظهر الأرض»[١١٣] .

والطريف أن الحكومة البريطانية كانت قد نقلت ما يقرب من خمسة وعشرين ألف لوح من مجموعة الوثائق التي جمعها أشور بني بعل في مكتبته في نينوى . وأودعتها في المتحف البريطاني ، غير مكترثة بحرمة تراث أشور بني بعل ، وغير آبهة بغضب أشور .

والملاحظ أن الكتّاب لم يضعوا مؤلفاً واحداً منظّماً ومرتّباً ترتيباً علمياً في أي حقل من حقول المعرفة . فهم لم يعرفوا التخصّص في الموضوع ، ولم يألفوا التجريد الذهني . وإنما عملوا على حشد المعلومات والوقائع وتأليف الموضوعات على غير نظام ولا قاعدة ، وعلى هذا النمط وضعوا ما وضعوا من ألواح في الجغرافيا والحساب والملاحم والقوانين والعقود والنصوص الدينية ، ومن ألواح لتعليم الآداب والعلوم . ولهذا لا تظهر

جوانب الحضارة البابلية أو الأشورية مثلاً في العلوم والآداب والقانـون والمعتقدات و . . . في وحدات متميّزة منفصلة ، وإنمـا هي متداخلة تؤلف معـاً وحدة مـركبة . وهـذه ظاهـرة طبيعيـة في الشرق المتـوسطي القـديم حيث لم تكن هذه الجـوانب من الحضـارة واضحـة التميّز كما هي في عالمنا الحديث .

والنصوص البابلية التي وصلتنا كثيرة ومتنوعة . وهي تغطّي حقبة من الزمن تمتـد من الألف الثـالث ق.م. إلى المائـة الأولى ق.م. ففي موقـع تل حـرم ايل مثـلاً اكتشف زهاء ثلاثة آلاف لوح تتوزّع مضامينها بين أنواع مختلفة من الوثائق التجارية والقانونية ، والرسائل المتعلّقة بالشؤون التجارية وشؤون الأرض . ومجموعة كبيرة من الوثـائق الإدارية المتعلّقـة بالضرائب والواردات والأملاك ، بالإضافة إلى تآليف أدبية ولغوية وشرائـع ووثائق علميـة ، لعل أهمها الألواح الرياضية التي يتضمّن بعضها جداول رياضية ومسائل جبرية وهنـدسية ، وضعت وحلّت بالمعادلات الجبرية المختلفة (من الدرجة الثانية ، والثالثة) . وهناك مسـألة جبرية هندسية تستحق الذكر تدور على مبدأ تشـابه المثلثـات القائمـة الزاويـة المحدثـة من انزال عمود من الزاوية القائمة في مثلث قائم الزاوية على الوتر . وهذه هي إحدى النظريات الهندسية المنسوبة إلى اقليـدس الريـاضي اليونـاني (بدايـة القرن الثـالث ق.م.) . مع أن الرياضيين في تل حرم ايل سبقوه إليها بما يقرب من ١٧٠٠ سنة .

وفي هيكـل أوروك عثر المنقبـون على ألواح طينيـة كثيرة تتضمن طبعـات من أختـام اسطوانية للتعريف بالفرقاء أو الشهود في المعاملات وكشوفات الأجور . وعثـروا أيضاً على الآف النصـوص من الوثـائق التجاريـة : عقود بيـع وشراء ، وصـولات بالقبض والتسليم ، اتفاقات تجارية مختلفة ، رسائل ووثائق إدارية ، سندات تمليك ، وأحكام قضائية .

والواقع أن جزءاً أساسياً من وثائق الحضارة البابلية يتكون من عقود تشهد على التقدم العـظيم في الحياة التجـارية . كمـا تشهد على النـظام القانـوني الدقيق الـذي كـان ينـظم المعاملات .

وعثـر المنقبون في نيبّـور على لوح (محفـوظ في متحف جامعـة فيـلادلفيـا) يتضمن فهرساً لإحدى المكتبات أدرج فيه أسماء ٦٢ مـادة ، يعود تـاريخه إلى نهـاية الألف الثـالث ق.م. وعلى لوح آخر (محفوظ في متحف اللوفر) يفهرس ٦٨ عنواناً .

إن مـا تكشّفت عنه الأرض في حـوض النهرين من آلاف الألـواح التي تتضمّن عقوداً ووثائق قانـونية ورسـائل وشـرائع وتـآليف أدبية ، يمثّـل مختلف نواحي الحيـاة الاقتصاديـة والإداريـة والاجتماعيـة . ولدينـا من تراثهم أيضـاً رسـائـل في علوم الفلك والـريـاضيـات والجغرافيا والطب والكيمياء وعلم الحيوان وعلم النبات . وهي مجمـوعة تـروع المرء حقـاً

بسعتها وتنوعها ، كما يقول المؤرخ ساباتينو موسكاتي[١١٤] .

وفي الأدب الأكادي قدر مهم من المسائل اللغوية . فقد ترك لنا البابليون والأشوريون معاجم رتّبت فيها المفردات المتقابلة في لغتي البلاد : السومرية والأكادية ، ترتيباً يثير الدهشة والإعجاب بدقته وتنظيمه .

يقول عالم الآثار أندريه بارو «لم يكن في التاريخ القديم مدنية أُخرى وهبت العالم طائفة واسعة من الوثائق المدونة مثل مدنية بلاد النهرين» . ويضيف «لا يوجد عرق آخر في العالم توفر لديه مثل هذه الحيوية لاعداد سجلات تشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية في التاريخ والعلوم والآداب والمعتقدات والأحوال الاجتماعية . وهذه الثروة العظيمة الممثلة في أختامهم وألواحهم المنقوشة أنارت لنا جوانب كثيرة من وجوه حضارتهم . وبفضلها عرفنا الكثير من أسماء مدنهم ، ووقفنا على معتقداتهم وحياتهم الاجتماعية»[١١٥] .

وفي الألف الثالث ق.م. كانت مملكة ماري قد قطعت شوطاً بعيداً في مدارج الحضارة . وقد دلت الوثائق المكتشفة في ماري على تنظيم داخلي في مختلف شؤون المجتمع ، وعلى علاقات خارجية واسعة مع الدول المجاورة . وفي ماري عثر عالم الآثار أندريه بارو على ألواح كثيرة تزيد على ٢٥ ألفاً .

وفي هذا العصر بلغت مملكة ايبلا في تل مارديخ قمة في الازدهار الحضاري . والألواح التي عثر عليها المنقبون في ايبلا تتضمن نصوصاً تجارية ورسمية وإدارية وقضائية تسلّط الأضواء على الهيكل الإداري والتعامل التجاري وشؤون المحاكم والقضاء . ونصوصاً ميثولوجية وأُخرى أدبية تتضمن أمثالاً وحكماً وملاحم . ونصوصاً تتضمن وظائف مدرسية وتمرينات تعليمية ، تحمل الواحدة منها اسم الطالب مع توقيع أستاذه . ويمكن اعتبار هذه النصوص أقدم الوثائق الشاهدة على التدريس في تلك العصور المبكرة .

وفي ايبلا تم العثور على أقدم معجم سومري ـ ايبلاوي ، يعود تاريخه إلى ثلاثين قرناً قبل الميلاد . يعتبر أقدم المعاجم اللغوية القائمة في مسيرة المعرفة البشرية المتطاولة . ومن الطبيعي أن هذا العمل المعجمي لا يتسنّى له أن يبرز إلى حيّز الوجود دون مناخ ذهني حضاري ووسط ثقافي متفوق . المهم أن العلماء اكتشفوا في آثار ايبلا تراثاً غنياً ، من المؤكد أنه سيكون محط اهتمام الباحثين في السنوات المقبلة ترجمة وتحليلاً ، كما يقول الباحث وليم فولكو[١١٦] .

وفي سوريا الغربية بلغ الكنعانيون درجة عالية في سلم الحضارة . فكان كتّابهم مثلاً يعملون على تدوين المعارف والآداب والعلوم السائدة في عصرهم من مختلف

الموضوعات وفي شتى الحقول . ولذلك زخرت مكتبات أوغاريت مثلاً بكل شؤون الفكر الإنساني السياسية والاقتصادية والعلمية والادبية والاجتماعية . والنماذج التي تمثّل تراث الكنعانيين في أوغاريت وجدها علماء الآثار موزعة بين مكتبة المعبد وبين المكاتب الخاصة ، وفي غرفة الوثائق في قصر المدينة . لعل أثمنها تلك الألواح التي حملت إلينا معاجم بلغتين ، يعتقد نفر من الدارسين أنها كانت تعتمد في تثقيف الكهنة والكتاب ممن كان عليهم أن يلمّوا بمختلف اللغات المتداولة في أوغاريت ، بالإضافة إلى فن الكتابة الخاص بكل منها . ويبدو أن الكتّاب في أوغاريت كانوا يجيدون ، أو كان عليهم أن يجيدوا ، ست لغات : السومرية والبابلية والكنعانية والمصرية والحثية . وهذا يعني أن أوغاريت كانت مركزاً ثقافياً لامعاً بالإضافة إلى كونها مدينة تجارية مزدهرة .

ومن الطبيعي أن يكون للكنعانيين في الحواضر الأُخرى ، وللآراميين في حواضرهم ، عطاءات فكرية وأدبية وعلمية كثيرة . ولكن لم يصلنا منها إلاَّ القليل . فقد مزّقتها سنابك خيول الغزاة أو أنها لا تزال مطمورة تحت التراب . ومن المحتمل أن الكنعانيين الذين ابتكروا الأبجدية وحافظوا عليها في كل جهة ومكان ، فأصبحت الأساس لأبجديات العالم جميعها في الشرق والغرب ، لم يبدوا اهتماماً بالتدوين والتأليف ، فلم يخلّفوا شيئاً من المصنّفات حتى في العلوم والآداب والفنون التي امتازوا بها . ولولا عناية كتاب الأُمم والشعوب الأُخرى كالاغريق والرومان وبني إسرائيل بقص أخبار الكنعانيين وجمع المعلومات عنهم ، لقذف التاريخ بهم في زوايا الإهمال والنسيان .

والخلاصة ، إن التراث الكنعاني بقي حيّاً فاعلاً في لغة وتقاليد وعادات ومفاهيم ومعتقدات الشعوب في سوريا الوسطى والغربية حتى العصر الحاضر. وهذا التراث الغني حضارياً وإنسانياً غذّى العالم القديم بكل ما في المفاهيم الإنسانية من قيم وفضائل ومناقب خلقية سامية . وظل وقتاً طويلاً الينبوع الروحي والفكري والعلمي الذي اغترفت منه شعوب الشرق المتوسطي وحوض المتوسط ولا يزال حتى اليوم غاية النخبة المثقفة .

سوريا اللغة

ثمة حقيقة تبدو ثابتة إلى حدّ كاف، هي أن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للصحراء تجعل سكانها الرعاة ينزعون إلى التدفّق على المناطق الزراعية المحيطة بالصحراء . ومن الثابت أيضاً أن الصحراء العربية كانت نقطة الانطلاق لموجات بشرية عديدة . فالأكاديون والأشوريون والأموريون والكنعانيون الذين ظهروا مع بداية التاريخ المدوّن (الألف الثالث ق.م.) مستوطنين في أقاليم سوريا الطبيعية، كانوا قد نزحوا من

الصحراء العربية في فترات تسبق التاريخ المدوّن . ثم إن الموجات المتعاقبة التي شكلت في ما بعد الشعوب الأرامية ، والأنباط ، ومجموعات الغساسنة والمناذرة ، وأخيراً الموجة الإسلامية ، نزحت من تلك الصحراء أيضاً إلى الهلال الخصيب(١١٧) .

هذه الشعوب توحّد في ما بينها روابط عديدة من الأحوال الاجتماعية والمفاهيم الاعتقادية والأصول اللغوية والثقافية . والواقع أن علماء اللغة يجنحون بغالبيتهم إلى الاعتقاد بوجود لغة أم تعدّدت لهجاتها أو ألسنتها اثر انتشارها الجغرافي الواسع ، وخضوعها لمؤثرات إقليمية مختلفة . وأن هذه اللغة الأم هي لغة الصحراء العربية القديمة التي تحدرت منها تلك اللهجات أو الألسن اثر موجات الهجرة المتعاقبة باتجاه الشمال ـ حوض النهرين ، والشمال الغربي ـ سوريا الوسطى والغربية حتى شواطىء المتوسط الشرقية .

هذه اللغة هي اللغة السورية العربية ، وصلتنا على ألسن شعوب سوريا الطبيعية : الأكاديين والأشوريين والأموريين والكنعانيين والأراميين ، حتى مجيء العرب المسلمين ٦٣٦ م فثبّتها القرآن وأكّدها .

* * *

من المعروف أن الأكاديين المنتصرين على سومر اتخذوا الخط السومري وسيلة للتعبير عن لسانهم . ويبدو أن اللغة الأكادية كانت أقدر على التعبير وأكثر دقة ومرونة ، فأخذت تسيطر على السومرية شيئاً فشيئاً ويوماً بعد يوم ، إلى أن حلّت محلّها في الحياة العامة وفي المعاملات التجارية والكتابات الأدبية ، بعد أن تمثّلت الكثير من المفردات السومرية . وبقيت السومرية لغة كلاسيكية مقدسة (كما حدث للاتينية في القرون الوسطى)(١١٨) . تستخدم في الطقوس الدينية وفي أمور القضاء والقانون . وهكذا حافظ الأكاديون على اللغة السومرية باعتبارها لغة تراث عريق ، فكانت مدارس تعليم الكتابة في بابل وأشور تعتبر دراسة السومرية من المعارف الأساسية التي ينبغي تعلّمها .

كانت اللغة الأكادية قد أخذت مكانتها قبل عهد سارجون نظراً إلى مرونتها وغناها في الاشتقاق والتصريف . وعندما وحّد سارجون بين سومر وأكاد أنشأ دائرة للترجمة تعمل على نقل التراث السومري إلى الأكادية . وبدأ اللغويون بوضع المعاجم السومرية ـ الأكادية ، والأكادية ـ السومرية ، لتسهيل الأمر على النقلة . وأخذ أدباء النهضة الجديدة ومفكروها ينسجون على منوال الأدب السومري الذي بقي حيّاً في الفكر الجديد كأدب كلاسيكي ، مثلما بقي التراث اليوناني حيّاً في الفكر الأوروبي الجديد الذي أحدثه عصر النهضة في

أوروبا . وصارت اللغة الأكادية لغة العلاقات الدولية والمراسلات الدبلوماسية بين دول الشرق المتوسطي ، وبينها وبين مصر أيضاً .

وحري بالذكر أن الأكاديين لما حلّوا بأرض سومر في حوض النهرين الأدنى ، استعملوا الخط السومري ـ المسماري في كتابتهم . وبما أن في لغتهم أصواتاً لا وجود لها في نطق السومريين ، ومنها حرف العين مثلاً ، لم يتمكنوا من تدوينها . وبذلك راحوا يكتبون مثلاً حرف العين همزة من باب الضرورة . والكتابة تؤثر أحياناً في النطق . ثم إن السومريين الذين نزل بهم الأكاديون ساعدوا بنطقهم ، بالإضافة إلى حروفهم ، على تشويه الأكادية . ذلك أنهم كانوا عاجزين عن نطق بعض الحروف ومنها العين . فكانوا يلفظون بالهمزة ما كان يعرض لهم من كلمات وأسماء أكادية تشتمل على حرف العين . ولعلهم هم الذين ساعدوا على خلق نزعة إبدال العين بالهمزة في بعض الألفاظ الأكادية .

يُضاف إلى ذلك أن الأكاديين لم يكتفوا باستعارة الخط المسماري من السومريين ، بل زادوا على ذلك مما يحدث غالباً بين الشعوب المتجاورة المتمازجة ، فقد أخذوا عن السومريين ألفاظاً كثيرة وتعبيرات جمّة ، جرت على ألسن المتكلمين وأقلام المنشئين . من ذلك مثلاً لفظة «إيجال» E gal تعني البيت العظيم (للإله) ، التي صارت باللسان الأكادي هيكل . واستمرت في العربية حتى اليوم تحمل المعنى ذاته ، ففي كل كنيسة هيكل هو بمفهوم المسيحيين بيت الله .

ومعروف أيضاً أن الأراميين وصلوا إلى ذروة مجدهم وعظمتهم أواخر القرن العاشر ق.م . فكان نفوذهم يشمل الهلال الخصيب من رأس الخليج إلى فلسطين ، باستثناء مدن الساحل الكنعانية التي ظلت محتفظة باستقلالها الذاتي . ولكن قوة توسع الأراميين لم تصحبها القدرة على تنظيم فتوحاتهم أو تنظيم دولهم . فلم يتوصّلوا إلى تكوين مملكة قوية أو إنشاء وحدة سياسية فاعلة . والأهمية التاريخية للدول الأرامية قد تكون طفيفة إذا ما قيست بالدور الثقافي الفريد الذي قدّر للأراميين أن يقوموا به في الشرق المتوسطي . فقد تفوّق اللسان الأرامي والثقافة الأرامية ، وطبعا الشرق المتوسطي بطابع أرامي واضح وعميق الأثر ، بقي يتجلّى ويتسع حتى مجيء العرب المسلمين .

يُضاف إلى ذلك أن الأراميين وحّدوا مصادر حضارة الشرق المتوسطي . فألفوا بين العناصر البابلية والكنعانية ، ونقلوها إلى المسيحية ، ومنها إلى الغرب . (ومن المعروف أنهم نقلوا في عصور متأخرة الثقافة اليونانية من الغرب إلى الشرق) .

كانت اللغة الصورة الأساسية بين الصور المختلفة للحضارة الأرامية . ولكن اللغة

ليست فكـرة أو منحى ثقافيـاً ، وإنما هي وسيلة لاكتسـاب الثقافـة والتعبير عنهـا ونشرهـا . والواقع أن ما أسهم به الأراميون في مضمار الحضارة كان كبيراً . فقد كـانت بلادهم ملتقى النتـاج الثقافي للدول القـويـة المحيـطة بهم . وكـانت لغتهم ، والأحـرى لسـانهم ، أداة لاستيعـاب الثقافـة ونقلها . وقـد تجاوزت حـدود تاريخهم ، وصـارت عنصراً في حضـارة المتوسط[١١٩] . فاستـطاع الأراميون تـوحيد مصـادر حضارة الشـرق المتوسـطي ودفقها في مجـرى واحد ، كـان له أثـر كبيـر في إخصـاب العـالم القـديم بمقـومـات الحضـارة على اختلافها .

كان الأراميون على صلة وثيقة بالكنعانيين في سوريا الغربيـة . وكانت قـوافلهم تنقل من صور وصيدون وجبيل وأوغاريت إلى الداخل السوري ما كان يجلبه البحارة الكنعانيـون من مدن حوض المتوسط ، أو ما تنتجه الحواضر الكنعانية .

وحوالي القرن العاشر ق.م. أو قبل ذلك بقليل تبنّى الأراميون أبجدية الكنعانيين في كتابتهم ورسائلهم التجارية ، فانكفأت أمام هذا الأُسلوب الكتابي الجديـد أساليب الكتـابة المسمارية القديمة جميعها . وكان من الطبيعي أن يتغلّب الخط الأرامي بسهولته ووضوحـه على الخط المسماري البالـغ الصعوبـة والتعقيد . وأن يتغلّب اللسـان الأرامي على الألسن المحلية التي كانت منتشرة في بلاد النهرين وفي الشمال السوري .

وهكذا انتشر اللسان الأرامي والخط الأرامي في بلدان الشرق المتـوسطي منـذ القرن العاشر ق.م. فالأشوريون مثلاً أقبلوا على تعلّم الأرامية منذ القـرن التاسـع ق.م. وعندمـا سقطت دولة أرام دمشق بين أيديهم (٧٣٢ ق.م.) استعملوا الكتّاب الأراميين في دواوينهم وأعمالهم . ثم عملوا على تبنّي اللغة الأرامية . وأخيراً اعتمدوها لغة رسمية .

وفي عام ٦٢٦ ق.م. أسس نبوخذ نصر الكلداني الأُسرة البابلية الجديـدة . وكانت الأرامية لغة الامبراطورية البابلية . وبعد سقوط نينوى (٦١٢ ق.م.) ظلت بلاد أشور أرامية اللغة والثقافة .

وعندما سقطت بابل بأيدي الفرس (٥٣٩ ق.م.) اعتمد كورش الأراميـة لغة رسميـة للأمبراطـورية الفـارسية . وفي عهـد داريوس الأول (٥٢١ ـ ٤٨٥ ق.م.) امتـدت الدولـة الفارسية من النيل إلى الهندوس ، فـانتشرت الأراميــة انتشاراً واسعـاً ، وإذا بها لغـة العالم القديم : سوريا الطبيعية ومصر وفارس وبعض آسيا الصغرى .

والنصوص الأرامية المكتشفة في بابـل وأشور وأوروك ونيبّـور ولارسا ، لا تقـع تحت حصـر . وقد عثـر المنقبون على كتابـات بـالأراميـة في أقـاصي آسيـا الصغـرى واليـونـان

وأفغانستان ومنغوليا ومنشوريا والهند ، وكذلك في بلاد فارس وبلاد العرب (تيماء والحجر وإيلات) .

وقد استطاعت الأرامية أن تحل محل الكنعانية في فلسطين منذ القرن الثامن ق.م. وفي أيام السيد المسيح كانت الأرامية هي اللسان المحلّي الوحيد ، فتكلّم بها المسيح ورسله .

وهكذا امتد مجال الأرامية شمالاً إلى جبال الأمانوس ، وشرقاً إلى جبال زاغروس ، وغرباً إلى وادي النيل[١٢٠] . وظلت لغة التجارة والإدارة في العالم القديم . ولم يؤثر سقوط دول أرام في سوريا على انتشار حضارتهم ولغتهم في أرجاء الشرق المتوسطي جميعها ، وفي ما وراء حدود هذه الأرض . يقول رينان «لقد طمست الأرامية في القرن السادس ق.م. كل اللغات التي سبقتها ، وأصبحت اللغة الأُولى خلال أحد عشر قرناً»[١٢١] . ويرى آخرون أنها ظلت لغة العالم المتمدن منذ القرن التاسع ق.م. إلى القرن السادس ب.م.

وربما استطعنا أن نعزو هذا الإنتشار الواسع إلى توزّع الأراميين إمارات وممالك في أقاليم سوريا الطبيعية على اختلافها . وانتشارهم تجاراً ومزارعين في أرجاء البلاد جميعها . وإلى قوّة الأرامية التي تكمن في كثرة مفرداتها ، وقابليتها الواسعة للاشتقاق ، وبساطة أبجديتها ، وسهولة نحوها وصرفها . والنصوص الأرامية التي تعود إلى القرن الثامن ق.م. تبيّن أن الأرامية تطورت من حيث اللهجة ، واستعارت بعض التعابير الكنعانية ، وتركزت على قواعد نحوية وصرفية تثير الإعجاب . والواقع أنه لم يكن بين الألسن السورية العربية لسان يضاهي الأرامية من حيث الغنى اللفظي وسعة الإنتشار وشدّة النفوذ .

وفي فترة الغزو الإغريقي تحصّنت الأرامية في الدول القائمة على تخوم الصحراء مثل البتراء وتدمر . وقد أدّى توحيد الشرق المتوسطي في ظل الامبراطورية الرومانية . ثم انتشار المسيحية بعد ذلك ، إلى انتعاش حال الأرامية . وبما أنها كانت لغة السيد المسيح فقد صارت اللغة الرسمية للكنيسة السورية . وعاشت قروناً بعد ذلك . وظلت اللغة السيدة في الشرق المتوسطي حتى القرن السابع الميلادي ، حين خلفتها العربية وحلّت محلّها في سوريا . ولم تزل جماعات قليلة تتكلم بها في طور عَبْدين (جبال في ما بين النهرين) ، وفي جبال كردستان ، وقرب بحيرة أرومية ، وفي معلولا القريبة من دمشق .

ومذ أخضع الملك الأشوري الممالك الأرامية في سوريا الطبيعية ، أصبحت علاقة

الأراميين بشبه الجزيرة العربية علاقات حضارية ، تشع من سوريا جنوباً ، وتعبّر عن نفسها في ميادين التجارة واللغة والفكر والتفاعل الإيجابي بمختلف عوامله ومقوماته . وكانت تيماء وتدمر والبتراء نقاط الإلتقاء والتفاعل بين سوريا وبين شبه الجزيرة العربية .

كانت واحة تيماء في شمال الحجاز على طريق عظيم يرّبط خليج العقبة والبتراء غرباً بالخليج الصحراوي شرقاً . وكانت على طريق قوافل التجار من الشام إلى اليمن ، وفي منتصف الطريق بين بابل وبين مصر . قطنها الأراميون وزهت فيها الثقافة الأرامية . أما تدمر فواحة في الصحراء السورية بين دمشق وبين بلاد النهرين . كانت مركزاً مهماً من مراكز التجارة الأرامية ، ومحطاً للقوافل . وقد نمت كتيماء والبتراء في ظل حضارة الأراميين ، واتخذت لغتهم والمبادىء الأساسية في تفكيرهم الثقافي والاجتماعي . والجدير بالذكر أن نقوشاً تدمرية أرامية اللسان وجدت في افريقيا وروما والمجر ورومانيا وانجلترا ، وهي من كتابة التجار التدمريين .

بدأت القبائل العربية تجوب البادية السورية في القرن التاسع ق.م. وقد استقر بعضها وأنشأ الدول والإمارات . ففي الجنوب الشرقي من سوريا أنشأ الأنباط مثلاً مملكة في القرن الخامس ق.م. تتكلم العربية وتكتب بالأرامية . وكان نبط البتراء (العاصمة) صلة بين بلاد العرب وبين سوريا الشمالية والغربية . والنقوش النبطية المكتشفة لسان أرامي . وفي القرن الأول الميلادي امتدت اللغة الأرامية إلى العربية الشمالية . يقول المسعودي ، بعد ذكره أقسام بلاد العرب ، «إن هذه الجزيرة . . لسانها واحد سرياني»[١٢٢] . وكان يعقوب السروجي (٤٥٢ ـ ٥٢٢ م) يراسل عرب نجران المسيحيين في شرقي بلاد العرب ، باللغة الأرامية»[١٢٣] .

المهم أن الشعوب التي ظهرت مع بداية التاريخ المدوّن (الألف الثالث ق.م.) مستقرة في أقاليم سوريا الطبيعية على اختلافها ، تتشابه في ما بينها إلى حد يكفي لتبرير الفرض القائل إنها انتشرت من موطن مشترك قديم إلى البلاد التي استوطنتها في العصور التاريخية[١٢٤] . وهي تؤلف كتلة واحدة ، ليس باجتماعها في صعيد جغرافي واحد ، والتحدث بألسن لغة واحدة فحسب ، ولكن باشتراكها أيضاً في أصل حضاري تاريخي واحد[١٢٥] .

والواقع أن بين ألسن هذه الشعوب من التشابه في الأصوات والصيغ والتراكيب والمفردات ما لا يمكن معه أن تنسب تقاربها إلى حدوث اقتباسات في ما بينها في العصور التاريخية . ولا سبيل إلى تفسير هذا التقارب إلاّ بافتراض أصل مشترك لها[١٢٦] . وأن المقارنة بين الألسن : الأكادي (البابلي ـ الأشوري) والكنعاني والأرامي والعربي ، تقدم

الدليل الساطع على أن هذه الألسن تفرعت عن لغة واحدة ، تكلم بها شعب واحد قبل أن يتفرق في مناطق مختلفة . وقد أدرك الخليل بن أحمد (القرن الثامن الميلادي) هذه الحقيقة في وقت مبكر من العهد الإسلامي ، فقال في كتابه «العين» : «وكان الكنعانيون يتكلمون بلغة تضارع العربية» . وأدركها ابن حزم الأندلسي أيضاً . قال في كتابه «الاحكام في أُصول الاحكام» : «إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أن السريانية (الأرامية) والعبرانية (الكنعانية) والعربية ، لغة واحدة ، تبدّلت بتبدّل مساكن أهلها ، فحدث فيها جرْس كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان ، ومن القيرواني إذا رام نغمة الأندلس ، ومن الخراساني إذا رام نغمتهما . وهكذا في كثير من البلاد ، فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أُخرى تتبدّل لغتها تبدلاً لا يخفى على من تأمله» . وأضاف «ومن تدبر العربية والعبرانية (الكنعانية) والسريانية (الأرامية) أيقن أن اختلافها إنما هو من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأُمم ، وأنها لغة واحدة في الأصل» .

يقول المستشرق إسرائيل ولفنسون «وليس أمامنا كتلة من الأُمم ترتبط لغاتها بعضها ببعض كالإرتباط الذي كان بين اللغات السامية»[١٢٧] . كان الأولى به أن يقول «الشعوب» وليس «الأُمم» ، لأن الشعوب البابلية والكنعانية والأمورية والأرامية والعربية تؤلف أُمة واحدة ، وليس أُمماً . وأن يقول «الألسن» وليس «اللغات» .

ويقول المستشرق كارل بروكلمان «والاعتراف بأن هذه اللغات (والصحيح الألسن) تكوّن مجموعة واحدة يؤدي إلى الاعتقاد بأن الشعوب التي تكلمت بهذه اللغات كانت متحدة في وقت ما عبر التاريخ» . ويضيف «واللغات التي ظهرت لنا في العصور التاريخية في صورة لغات مستقلة ، لم تكن غير لهجات (ألسن) لغة واحدة»[١٢٨] .

والخلاصة ان الإصطلاح «اللغة أو اللغات السامية» الذي يتشدّق به المؤرخون واللغويون العرب ، من باب الغلط الشنيع ، تشبّهاً بأساتذتهم المستشرقين ، هو في الحقيقة ألسن متفرعة عن دوحة واحدة ، قامت أو توزعت على أساس من التوزّع الجغرافي لمواطن المجموعات البشرية ، ثم بدت تأثيرات البيئة في ألسن المهاجرين . هي ألسن تجمع بينها وجوه كثيرة من الشبه توحي بوحدة الأصل لها جميعاً ، وبأنها كانت في غابر الأزمان لساناً واحداً أي لغة واحدة .

هذا اللسان الأول أو اللغة الأُولى لا نعلم عنه أو عنها شيئاً . والجهود التي بذلها المؤرخون وعلماء اللغة لمعرفة شيء يقيني عنه أو عنها ذهبت أدراج الرياح . واقتنعوا أخيراً أن من العسير الوصول إلى تحديد اللغة الأُم التي تفرعت منها هذه الألسن . ومن العبث إطالة البحث في أمر غامض مجهول نشأ ونما في عصور سبقت العصور التاريخية . وربما

كان اللسان العربي القديم (اللغة العربية حالياً) أقرب الألسن السورية العربية إلى اللغة الأُم التي تفرّعت منها هـذه الألسن . فالصحـراء العربيـة تؤلف ما يسميـه علم الأجنـاس وعلم اللغات ، منطقة محمية . فهي أقل أجزاء منطقة الشرق المتوسطي اتصالاً بغيـرها ، وأقلّهـا تأثراً بما يدور حولها . وهذا الوضع يؤدي إلى المحافظة على اللغة والجنسية . وهكذا بقي اللسـان العربي في مـوطنه صـافياً أو أصفى من الألسن الأُخـرى التي بـدت فيهـا تـأثيـرات البيئات الجديدة التي توزع فيها أو هاجر إليها أصحاب هذه الألسن .

والجدير بالملاحظة في هذا المجال أن الظواهر المشتركة في الألسن السورية العربية هي ظواهر موروثة عن اللغة الأم . يصدق هذا على الأصوات والأبنيـة الصرفيـة وعلى أبنية الجمل وعلى المفردات .

ففي مجـال الأصوات لاحظ علمـاء اللغة أن هـذه الألسن تضم مجموعـة أصوات لا توجد في غيـرها من اللغـات ، وهي أصوات الحلق (تخـرج من الحلق) مثل العين والغين والحاء والخاء . وأصوات الاطباق مثل القاف والطاء والصاد والضاد . وهاتان المجموعتـان توجدان بـدرجات متفـاوتة في الألسن السـورية العـربية ، ولا يخلو لسـان من عدد منهـا . فالحاء مثلاً في الكنعانية تمثّل الحاء والخاء في العربية . والصاد في الكنعانيـة تمثل الصـاد والضـاد والطاء في العـربية . واللسـان الأكادي فقـد أكثر أصـوات الحلق لإتصال أصحـابه بالسومريين . أما العربية الشمالية فقد احتفظت بالمجموعة كاملة . ومن هنـا كان اعتبـارها أصدق تعبيراً عن اللغة السورية العربية الأُم[١٢٩] .

وهذه الألسن تشترك أو تتقارب في أُمور أساسية من جوهر اللغة ، منها مثلاً :

١ ـ أن الجـذر فيها ثـلاثي الأحرف . ومن هـذا الجـذر تصـاغ الألفـاظ المعبّـرة عن المعاني المختلفة بتغيير الحركات أو بإضافة حرف أو أكثر . فالحروف الثلاثة ك ت ب مثلاً هي الجـذر ، يصاغ منهـا : كتب يكتب كاتب مكتـوب كتاب مكتب كتـابـة . . طـائفـة من الصيـغ الفعلية والاسميـة . والمعاجم العـربية لا تـرتب حسب الكلمات المفـردة كمعاجم اللغات الأُوروبية مثلاً ، ولكن حسب الجذور . فالكلمة مكتب مثلاً لا ترد في باب الحرف م وإنما في باب الحرف ك .

٢ ـ وأن الضمائر فيها متشابهة اللفظ والمعنى .

٣ ـ وأن تصاريف الأفعال فيها تجري على نسق واحد .

٤ ـ وأن بناء الجملة ، وتركيب الجمل فيها متماثل .

٥ ـ وأن عناصر المفردات ، وهي كثيرة ، متشـابهة . وكـذلك أسمـاء أعضاء الجسم

مثل عين رجل يد شعر أذن رأس . . والأعداد من ١ ـ ١٠ والألفاظ الدالة على العلاقات الأساسية في الأسرة : أب أم أخ أخت حم . والألفاظ الدالة على أشهر السنة .

٦ ـ وأن كلاً من اللسانين الأرامي والكنعاني يتكون من اثنين وعشرين حرفاً ، ويكتب من اليمين إلى الشمال . والترتيب واحد في اللسانين : أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت .

والملاحظ أن اللسان الأكادي هو أهم الألسن السورية العربية . فهو أقدم لسان سوري عربي دوّن . ولهذا يعتبر وجود أي ظاهرة لغوية في الأكادية والعربية دليلاً على كون الظاهرة موروثة عن اللغة السورية العربية الأم . من ذلك مثلاً أن للاسم في الأكادية حالات إعراب على نحو ما نعرف في العربية : رفع ونصب وجر . والميم التي ينتهي بها بعض الصيغ في اللسان الأكادي وفي غيره من الألسن السورية العربية ، تقابل التنوين في العربية . وحرفا الميم والنون شقيقان ، وقد ينوب أحدهما عن الآخر لتقارب مخرجيهما من الفم لدى النطق .

المهم أن الألسن السورية العربية كلها تتشابه بعضها مع بعض . والألفاظ العامة مشتركة بين الشعوب السورية العربية جميعاً . وليس ثمّ فضل لغة على لغة ولا لسان على لسان ، ولا أسبقية وضع لهذا القوم دون القوم الآخر[١٣٠] .

وإذا كان هناك من اختلاف بين هذه الألسن فمردّه إلى تصرّف المتكلمين بها تصرّفاً يختلف باختلاف البلدان والقبائل والبيئات والأهوية . فلكل زيادة أو حذف أو قلب أو إبدال أو صيغة معناة أو غاية أو فكرة . ثم جاء الاستعمال فأقرها مع الزمن على ما أوحته لهم الطبيعة أو ساقهم إليه الإستقراء .

والواقع أن أوجه المشابهة بين البابلية ـ الأشورية والكنعانية والأرامية والعربية واضحة جداً . وأشد وضوحاً التشابه بين الكنعانية والعربية والأرامية . فقد تتفق معاني الألفاظ كل الاتفاق ، وقد تبتعد قليلاً ، وهذا ما لا بد منه بعد نزوح الدار واختلاف العادات والتقاليد وتغيّر الأهواء والأجواء إلى غير ذلك من الأمور التي تؤثر في المرء تأثيراً لا يمكن إنكاره .

أما الألفاظ العامة المشتركة بين الكنعانية وبين العربية فهي كثيرة جداً إلى درجة حدت بعضو المجمع العلمي الفرنسي المؤرخ كلود شايفر إلى القول عن الأوغاريتية «إنها تؤلف أقدم مصدر للغة العربية»[١٣١] .

والحقيقة أن إطلاق الأحكام القاطعة من مثل : إن هذه اللغة أقدم من تلك ، أو أقدم مصدر لها . أو إن هذه اللفظة هي من تلك اللغة وليست من هذه . أو . . فيه الكثير من

ضحالة الوعي وقلّة التبصّر . وقد كان ابن حزم الأندلسي أكثر وعياً وأشد تبصّراً من اللغويين المعاصرين في الغرب والشرق حين قال «إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أن السريانية (الأرامية) والعبرانية (الكنعانية) والعربية لغة واحدة» . وأضاف «فمن تدبّر هذه الألسن أيقن أن اختلافها إنما هو من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأُمم . وإنها لغة واحدة في الأصل» .

وينبغي أن نلاحظ مواطن التقارب والاختلاف ، لا مواطن الأخذ والإقتباس . لأن ما يدعونه لغات هو ألسن متفرعة من لغة واحدة ، لم يأخذ أو يقتبس لسان عن آخر ، وإنما هناك تقارب أو اختلاف بحسب عوامل البيئة .

يُضاف إلى ذلك أن هذه الألسن وصلتنا مكتوبة في صور ورموز كتابية ، غابت منطوقاتها مع الزمن ، وتعدّدت بتعدّد المجموعات الناطقة بها ، الذين تباعدت بهم هجراتهم عن مواطن اللغة الأُم .

وما طرأ على هذه الألسن من اختلاف مردّه إلى تبدل الألفاظ على ألسنة الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأُمم . وهذا ما نلاحظه مثلاً في اللسانين العربي والكنعاني . ومن أمثلة ذلك :

١ ـ أن حرفي العين والحاء في العربية يقابلهما أحياناً ألف مهموزة في الكنعانية . فـ «حفّ ـ حفْفَ» في العربية بقايلها אפף (أفف) في الكنعانية .

عروس في العربية يقابلها ארוס (أروس) في الكنعانية .

وفي المقابل فإن الألف المهموزة في العربية يقابلها أحياناً عين في الكنعانية . فـ «جار» في العربية يقابلها גער (جعر) في الكنعانية . (لا تزال كلمة جعر في المحكية السورية) .

٢ ـ وأن حرف القاف في العربية يقابله أحياناً كاف في الكنعانية . فـ «قرطاس» في العربية يقابلها כרטיס (كرطيس) في الكنعانية .

وفي المقابل فإن الكاف في العربية يقابلها أحياناً قاف في الكنعانية . فـ «باكر» في العربية يقابلها בקר (بُوقِر) في الكنعانية .

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن الأحرف س ش ت ث ز ص يمكن أن يحل الواحد منها محل الآخر بحسب اللسان والبيئة . وكذلك الأمر في :

ـ اللام والنون والميم .

ـ الباء والفاء والواو .

ـ الجيم والغين والكاف والقاف والطاء .

ـ الدال والذال والزاي والتاء .

ـ الهاء والعين والألف المهموزة .

ـ الحاء والخاء والعين والغين والجيم والهاء .

ـ الطاء والظاء والصاد والضاد .

ـ الكاف والقاف والخاء .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر منها :

عربي	كنعاني	عربي	كنعاني	عربي	كنعاني
اذار	ادار	ذكر	زكر	ظِلْف	طلف
احب	اهب	صغير	زعير	ميراث	يروشا
أخ	أح	خبط	حبط	ورث	يرش
آخر	آحر	خِدْر	جِدِر	كذب	كزف
أصم	أطم	حدث	حدش	كتب	كتف
أرض	أرص	خيط	حوط	سأل	شأل
بيضة	بيصا	أحس	حش	أسبوع	شبوعا
جسر	جشر	خاتم	حوتم	سبّح	شبّح
دغدغ	دجدج	اخطأ	حطا	سبيل	شبيل
لبس	لبش	خطف	حطف	سبعة	شبعا
لباس	لباش	خلّص	حِلّص	السبت	شبت
قاسي	قشي	خمس	حمس	ضحك	سحك
قسا	قشا	خنق	حنق	سطح	شطح
قثّاء	قِسّو	خرط	حرط	سكن	شكن
قسوة	قشي	حرث	حرش	سكر	شكر
ذبح	زبح	طبّاخ	طباح	اسم	شم

والجدير بالذكر أن هذا التناوب بين الأحرف في اللسانين العربي والكنعاني ، يسري على اللسان الأرامي أيضاً .

* * *

ذكرنا أن اللغة الأرامية ظلت اللغة السيدة في الشرق المتوسطي ، بالإضافة إلى بعض آسيا الصغرى ومصر وبلاد فارس، منذ القرن التاسع ق.م. إلى القرن السابع ب.م. يعني أنها ظلت اللغة اليومية لسائر أبناء سوريا الطبيعية حوالي خمسة عشر قرناً . ومن هنا فإن اللغة المحكية في سائر أنحاء سوريا الطبيعية قديمة ، تعود في أُصولها إلى اللسان الأرامي . ولا تزال آثار اللسان الأرامي ماثلة في اللغة المحكية في سوريا ، من ذلك مثلاً :

١ ـ من القواعد النحوية المعتبرة في العربية أن الفعل المتقدم على فاعله يبقى في حالة الافراد : جاء الطالب وجاء الطلاب . بخلاف القاعدة الأرامية التي تقضي بالمطابقة بين الفعل والفاعل في الافراد والجمع . ولا تزال هذه القاعدة الأرامية سارية في لغتنا المحكية . نقول مثلاً «إجو الشباب» . ويقول الولد لأُمه «ضربوني الأولاد» . وهذا اللسان منتشر كثيراً بين تلاميذ المدارس في سوريا الوسطى والغربية بفعل نشأتهم البيتية على اللغة المحكية ذات الأُصول الأرامية .

وقد انتبه النحاة العرب الأقدمون إلى هذا التأثير الناتج من احتكاك العربية بالأرامية في الحيرة وأعالي الحجاز ، وسمّوه لغة «أكلوني البراغيث» .

٢ ـ في الأرامية يتعدّى الفعل المتعدي إلى مفعوله بواسطة حرف الجر (اللام) . وفي اللغة المحكية يُقال «شفتو للصبي» . «ضربتو لخيك» . «سمعتو للولد» . وهذا ما لا تجيزه قواعد العربية .

٣ ـ الأسماء والصفات على وزن فِعِّيل في العربية ، ترد مفتوحة الفاء في المحكية ، طبقاً للأوزان الأرامية تقول في الفصحى قِدّيس وفي المحكية قَدّيس . وفي الأرامية قَديشا . ومثل ذلك في تِنين .

٤ ـ يُصاغ اسم الآلة في العربية الفصحى على وزن مِفْعل . ويحرّف في المحكية إلى مَفْعل المطابق للوزن الأرامي . نقول في الفصحى مِلقط وفي المحكية مَلقط . وفي الأرامية مَلقطا .

٥ ـ تُصاغ النسبة في العربية الفصحى عادة بإلحاق ياء مشدّدة في أخر الكلمة . وفي الارامية بإلحاق (ا ن ي) . ومن بقايا ذلك في اللغة المحكية روحاني بدلاً من روحي .

٦ ـ علامة التصغير في العربية هي ياء ساكنة بعد ثاني الاسم . فتقول في تصغير درهم دريهم . وعلامة التصغير في الأرامية هي «أُنا» . لا تزال ماثلة في المحكية . من ذلك كلبون (الكلب الصغير تستعمل للطفل بقصد التحبب) . شلفون بمعنى الشاب

الصغير . بيتون أي البيت الصغير .

٧ ـ وأثر الأرامية واضح في الضمائر . نقول في الفصحى نحن وهم . وفي المحكية نِحنا وهِنّي طبقاً للأرامية .

وفي صيغ الأفعال . نقول في الفصحى قوّم ونوّم . وفي المحكية قيّم ونيّم طبقاً للأرامية .

٨ ـ قلب الميم نوناً في ضمير المخاطبين والغائبين . نقول في الفصحى أبوكم وبيتهم . وفي المحكية أبوكن وبيتهن . وهذه خاصة من خواص الأرامية .

٩ ـ ليس في الفصحى وزن فوعل . ولكنه شائع في الأرامية ، وكذلك في المحكية . نقول حورك ودوقر (أوصد الباب) .

١٠ ـ التأثير الصوتي في التلفظ . من ذلك تسكين المتحرك الأول في المحكية : كْبير صْغير . وتسكين المتحرك في وسط الكلمة : رزقْتك حرمْتك علْتك بدلاً من رِزْقَتُك وحرمتُك وعلّتُك . وتسكين ثاني المتحركين المتلاحقين قصْبة شرْكة بدلاً من قَصَبة وشَرِكة . ومن ذلك أيضاً اشباع الحركة في صيغ الأمر من الأجوف ، بينما تقضي قواعد اللغة بقصرها : بيع روح بدلاً من بع رح .

ومن دوائر الأرامية في اللغة المحكية نقتطف الكلمات الآتية[١٣٢] : أو . واوا (قول الأم لصغيرها ردعاً له وتخويفاً من أن يمس شيئاً يؤذيه) .

شكارة (بقعة صغيرة من الأرض يستعيرونها دلالة على قلّة الشيء المحكي عنه) .

بعط (قول الأم لوليدها : حاج تبعط . كفّاً له عن الحركة والمرح في غير وقتهما) .

بحْ (قول الأم لوليدها عن نفاذ الشيء المطلوب) .

الله يخرب كوشته (الله يمحقه مع لفيف زمرته ومريديه . الكوشة الكومة) .

قولهم دعاء لموتاهم : الله ينيّحهم ، وينيّح نفوسهم (أراحه) .

قولهم نقّصتْ عيونه (انتفضت شرايين عينيه لكثرة إجهاده لنفسه) .

عفارة الكرم وعفارة الحقل (الخصاصة أي ما بقي في الكرم أو الحقل بعد قطافه وحصاده) .

شَلَف (خطف وأخذ عنوة تُقال لمن يخطف فتاة ليتزوجها) .

شمّط يشمّط (اقتلع . قول الأب لصغيره : بشمطلك ديناك) .

الشربوكة (الشرك والأحبولة تُقال في صعاب الأُمور) .

شفّى يشفّي الشجرة أو العصا (جلا ونحف) .

قول الفلاح لجاره : زرعاتك دليلين (متفرقين) .

انقطع حيله (خارت قواه وذهبت قدرته) .

كبّس الكر والمهر والعجل (روّض وطيّع) .

كرز (وعظ) .

عك يعك (دفع وصدم) .

كربل (للدابة لفّ الحبل حول ساقيها) .

قرقش يقرقش (الحمّص) .

يتبحّر (يتروّى ، تفحّص الأمر جيداً) .

بحش الأرض (حفر) .

كعيت (قولهم لمن عجز عن اتمام العمل) .

كعر ، كعره (صاح به وانتهره زاجراً) .

جرجر . جرجره (جرّر وسحب) .

دلف بيتنا ، ونزل فيه الدلف (رشح) .

دندل (عوضاً عن دلّى) .

دقر يدقر (لمس يلمس) .

فرط الثمر وفرط السنبلة (نثر) .

شحط يشحط (طرد) .

فشط وشفط (اختلق الأكاذيب) .

رصّ يرص الزيتون (رضّ) .

رصّه لكمة (لكمه بجمع كفّه) .

مرشّل (استرخى) .

شقّف الرغيف والحجارة (كسّر) .

جهجه الضوء (انبلج الصبح وأضاء) .

ملش (نتف الشعر ونتشه) .

شحّل (الدالية) .

طمّش (عينيه) .

عبي (للشجر والزرع) .

زوم (الأكل أو الثمرة) .

فقّيع (للتين) .

نطّ (الحائط) .

عِدّان (للسقي) .

فرفط وفرافيط الخبز (الفتات) .

بشّط على الأرض (انطرح وتسطح) .

تشطّح على الحصير (تمدد وتسطح) .

طلعت هبلة الماء (البخار إذ يسخن الماء) .

حوتك (طاف ودار) .

زيح (ابتعد) .

الأمثلة كثيرة ، نكتفي بهذا القدر .

وما زال الكثير من المدن والقُرى السورية يحمل أسماء أرامية ، من مثل : آبل (المرج) (بالقرب من حمص) .

آبل بيت معكة (في الجنوب السوري) .

آبل السقي (في الجنوب اللبناني) .

آبل شطيم (في صحراء مؤاب) .

آبل الزيت وآبل محولة وآبل كراميم (في وادي الأردن) .

كفر جديا . كفر دُبين . كفر رومة . كفر سوت . كفر توثا . كفر طاب . كفر غمّا .

كفر نبو . كفر نَجَد (في الشمال السوري) .

كفر تكيس . كفر نغْد ، كفر رام (في سوريا الوسطى) .

كفر بطنا . كفر سوسية (بالقرب من دمشق) .

كفر ببنين . كفر بدّه . كفر بعال . كفر تبنيت . كفر تعلا . كفر جرا . كفر حاتا . كفر جريف . كفر حباب . كفر حبو . كفر حتي . كفر حزير . كفر حونة . كفر حيّان . كفر حيم . كفر دان . كفر دبش . كفر دونين . كفر ربد . كفر شخت . كفر شع . كفر شلّان . كفر شوبا . كفر شيما . كفر صارون . كفر عقاب . كفر مايه . كفر مشكي . كفر ملكي . كفر نبرخ (في لبنان) .

كفر برّا . كفر برعم . كفر ثلث . كفر جمّال ، كفر حتّى . كفر دان . كفر سابا . كفر سميع . كفر صور . كفر طاس . كفر عانا . كفر عقب . كفر عنان . كفر قاسم . كفر قدّوم . كفر كنّا . كفر مالك (فلسطين) .

راشيا ، مجدليا (المجدل البرج والحصن) مجدل بعنا . بكفيّا . رشميا (رأس المياه) ڤاريا . حاصبيا . بكّيفا (بيت كيفا) بيت مري . بعلشميه (بعل السماء) بطرام (بيت رام أي البيت العالي) (لبنان) .

نهاريا . طبريا (فلسطين) .

سوريا الكتابة

يبدأ التاريخ بظهور نظام صالح للكتابة . وظهور الكتابة المسمارية في سومر مع انبلاج فجر التاريخ كنظام تام ، يعني أن وراء هذا النظام تاريخاً طويلاً من التطور المستمر . فمن الطبيعي أن اختراع الكتابة من أجل التعبير ونقل المعرفة وخزن العلم وضبط الحسابات ، لا يتم إلّا في مجتمعات خطت بعيداً في دروب التحضّر والتمدّن ، فتنظّمت في دولة أو دول ، وصار لها علاقات اجتماعية وتجارية . ويبدو أن السومري شعر مع تقدمه في مدارج المعرفة بالحاجة إلى ما يساعد ذاكرته على حفظ تلك المعارف والمعلومات التي اكتشفها أو وعاها ذهنه . ومع وعيه قيمة وجدانه ومعارفه شعر أيضاً بالحاجة إلى نقل ما يعتمل في صدره من مشاعر وما يتكون في ذهنه من أفكار .

عمد السومري أولاً إلى نقل الأفكار والتصورات بطريقة تصوير بدائية مرتبطة بذاكرته الفطرية وبعلاقات مألوفة بينه وبين أشياء وأشخاص حفظت ذاكرته صورهم . فكانت محاولاته الأُولى في الكتابة تصويرية . أي أن الصورة الواحدة تنقل شيئاً ما على وجه

التقريب تعبيراً عنه . وقد يكون التعبير أحياناً عن الفكرة بشيء ما يرمز إليها ، كالذراع في التعبير عن القوة ، والقدم في التعبير عن المشي . وهكذا كانت السطور الكتابية في المراحل الأُولى نوعاً من العلامات والصور التي جرى بها العرف ، تنقش على الأواني الخزفية البدائية .

ومع مرور الزمن وتعاقب الأجيال عمل الكتبة السومريون ، في محاولة لتيسير الكتابة ، على التقليل من أعداد العلامات والصور ، والتخفيف من شدة الانحناءات والدوائر في أشكالها . واتجهوا بها وجهة خطية كي تتناسب مع طبيعة الألواح الطينية اللينة التي استحبوا الكتابة عليها ، ومن ثم تجفيفها في حرارة الشمس . واستمرت عملية التنقيح والتهذيب تفعل فعلها في العلامات السومرية ، تصغّر وتبسّط رغبة في سرعة كتابتها . وواصلت التطور في وجهتها التخطيطية حتى غدت هيئة كل علامة منها تشبه المسمار (ومن هنا كانت تسميتها الكتابة المسمارية) ، ففقدت بذلك طبيعتها التصويرية ، وأصبحت علامات تختلف في أشكالها اختلافاً تاماً عن الأشياء التي كانت تمثّلها . فصارت بهذا رموزاً للأصوات لا صوراً للأشياء .

فالكتابة الصورية ، التي كانت السلف للكتابة التجريدية ، لم تظهر على ما نعرف حتى الألف الخامس ق.م. وفي سومر فقط على ما نعرف أيضاً . ومن هنا فإن ابتكار السومريين للكتابة يجعلهم مفجري العصور التاريخية .

ومع تحوّل الكتابة الصورية إلى أُسلوب صوتي تجريدي في الألف الثالث ق.م. غدت يسيرة مرنة صالحة للتعبير عن الأفكار المعقدة في الشعر والمعتقدات . ولتدوين الحسابات التي كانت آخذة بالتعقيد مع توسع اقتصاديات المدن والهياكل .

كان السومريون مهرة في النقش على الطين . وقد استطاع كتّابهم ، بفضل هذه المادة اللينة ، أن يدوّنوا العقود والوثائق الرسمية ، ويسجلوا الممتلكات والأحكام القضائية ، وأن يحتفظوا بما سجلوه ، وذلك بتجفيف اللوح الطيني بالنار أو عرضه لحرارة الشمس ، مما يجعله مخطوطاً أبقى على الدهر من الورق ، لا يفوقه في طول العمر إلاّ الحجر .

يبدو أن الكتابة ظلت قروناً تستخدم في الأعمال التجارية : عقود وقوائم بضائع وإيصالات ونحو ذلك . وفي عصر فجر السلالات دوّنوا أعمال الملوك والأُمراء وعلاقاتهم بغيرهم من الحكام . ودوّنوا أيضاً بعضاً من شؤون معتقداتهم في أشكال أقاصيص وصلوات وملاحم . ولم يحلّ عام ٢٧٠٠ ق.م حتى كان عدد كبير من دور الكتب قد

أُنشىء في المدن السومرية .

كانت نشأة الكتابة المسمارية وتطورها أعظم ما للسومريين من فضل على الحضارة العالمية . فقد استطاع الإنسان للمرة الأُولى أن يسجّل وقائع دائمة لأعماله وآماله ورغباته ، وأحكامه ومعتقداته . واستطاع أن يحافظ على ما تكدّس عنده من معرفة . وقد نجح السومري في إقرار المبادىء والقيم التي اكتسبها وصنعها طوال عصور ما قبل التاريخ المدوّن . وبدأ بتسجيلها بعد اختراعه الكتابة . وكان ذلك التسجيل بمثابة توثيق لقيمه الفكرية والمادية . ثم إن تسجيل الاتفاقات والقوانين والشرائع هيّأ السبيل لنمو الدول ، وامكان قيام وعي تاريخي متواصل . وباختصار ، كان لاختراع الكتابة في سومر أهمية كبيرة جداً في تطور المجتمعات الإنسانية .

ثم تطورت الكتابة بتطور المجتمعات في الشرق المتوسطي . فالمجتمعات الراقية التي أنشأت المدن وكوّنت الدول المنظمة في أقاليم كثيرة السكان ، طوّرت الكتابة المسمارية لتتجاوب مع متطلبات الحكم وتنظيم المجتمعات ، ولتسهيل المعاملات التجارية مع شعوب أُخرى في مناطق أُخرى . وللتعبير عن الرغبات ، ونقل الأفكار للآخرين . ففي مراحل متأخرة اهتدى الكنعانيون في سوريا الغربية إلى استخدام الطريقة المقطعية أو الصوتية في الكتابة . أي استخدام القيم الصوتية للعلامات الصورية لكتابة كلمات جديدة لا علاقة لها بمعاني تلك الصور . وعندما توصلوا إلى رسم رموز تعبّر عن نبرات صوتية أخذت الهوة التي كانت تفصل الرمز الصوري عن الرمز الصوتي تضيق شيئاً فشيئاً ، إلى أن أصبح الرمز المكتوب لا يمثّل شيئاً ما ، بل صوتاً معيناً .

وإذا كان بعض العلماء والباحثين يختلفون في رد الأبجدية إلى أصل أو مصدر معين ، فمن قائل مثلاً إنها انطلقت من أرض كنعان . ومن قائل إن الكنعانيين استوحوا شكل الحروف أو مبدأ الأبجدية من المصريين أو السومريين . فإنهم لا يختلفون في أمرين : أولهما أن الكنعانيين كانوا أول من جرّد الصور التي كانت تستعمل لكتابة الكلمة أو المقطع . واستعاضوا عن هذا النظام بوضع رموز يمثل كل منها وحدة صوتية . أي إنهم قاموا بتحليل نبرات الصوت إلى مركبات بسيطة . ثم مثّلوا هذه المركبات برموز سميت في ما بعد بحروف الهجاء . والثاني أنهم الروّاد في إذاعة ونشر الحروف الأبجدية في الشرق ابتداء من الدول المجاورة ، وفي الغرب ابتداء من اليونان .

المهم أن الكنعانيين ارتقوا في فن الكتابة من الحس إلى التجريد ، حتى وصلوا إلى إقرار النبرة الصوتية بالشكل المرسوم . في وقت ظلّت شعوب العالم القديم مدة طويلة في طور التصوير اللفظي أو المقطعي العاجز عن أداء الأفكار النظرية .

إن العبقرية الكنعانية حلّلت الكلمات إلى أبسط مركباتها الصوتية . وجرّدت من الألفاظ نبراتها المشتركة ، أي عناصرها البسيطة . ثم انتقلت من السمع إلى النظر فخصّت كل نبرة برمز . وبذلك غدت كل صورة دلالة ، لا على الشيء العيني المصوّر ، كما في الأسلوب الهيروغليفي أو المسماري ، بل على النبرة الصوتية البسيطة التي لا معنى لها بحد ذاتها ، ولا فائدة منها إلاّ باقترانها مع غيرها من النبرات . وهذا الأسلوب عملية تجريدية هي في أساس عمليات العقل في الإرتقاء من المشاهدة الحسية إلى التجريد الشامل .

هذا الواقع يتكرّر اليوم في الكتابة الموسيقية ، فنحن ندوّن نقاطاً وحركات ترمز إلى نبرات صوتية ، لا معنى للنقطة أو الحركة بحد ذاتها إلاّ باندماجها مع النقاط والحركات سائرها .

والخلاصة ان الكنعانيين عملوا على تحليل رنّات أو نبرات الصوت إلى أبسط مركباتها ، وأنشأوا رموزاً لهذه المركبات حصروها في اثنتين وعشرين نبرة تعبّر عن كل ما في لغتهم من الرنّات . وبذلك كان الكنعانيون أول قوم نقلوا اللغة من الصورة إلى الأبجدية ومن المقطع إلى الحرف . فكانوا بهذا العمل مؤسسين لأهم انعطافة في التاريخ . ومما يدل على كمال الطريقة الكنعانية هو أن هذا العدد بقي على ما كان عليه منذ أربعة آلاف سنة ، فلم تر الإنسانية من حاجة إلى تعديله أو تغييره .

وهكذا ظهرت الأبجدية لأول مرّة في أرض كنعان . ولا ريب أن ابتداع الحرف كان اسمى فعل تجريدي قام به العقل . وأعظم ما أسهمت به شعوب سوريا القديمة في مضمار الحضارة . لأن الحضارة هي الثقافة والمعلومات التي يمكن نقلها بالكتابة . وليس من قبيل المبالغة القول إن الكتابة هي الأساس الذي قام عليه صرح الحضارة ، لأنها هيّأت وسيلة تسجيل المعرفة ونقلها . وهي العنصر الحضاري الوحيد الذي لا تقيّده حدود الزمان والمكان . فجميع العناصر الحضارية تفعل فيها البيئة والتاريخ (المكان والزمان) إلاّ الكتابة . ولهذا عاشت الأبجدية مع جميع التطورات الحضارية منذ أكثر من أربعة آلاف سنة . وتحت أشكال متعدّدة في عالم يعيد النظر في كل مناهجه . يقول الباحث موريس دونان «إن الأبجدية من اختراعات الإنسانية العظيمة الأكثر كمالاً ، أو قل هي أثمن عطاء حضاري قدّمه الكنعانيون إلى البشرية ، فقد حلّت بطريقة تجريدية معضلة صعبة . وها هي بعد أربعة آلاف سنة ، وفي عالم يعيد النظر في كل شيء ، باقية على الشكل الذي وضعه لها مخترعوها الأولون . وهي صامدة إزاء تطورات المدنية جميعها . والمدنية لن تنقض الأبجدية بل تسهّل انتشارها»[١٣٣] .

وكان من الطبيعي أن تنتشر الكتابة الكنعانية في مدى من الإتساع والعمق بمقدار ما كان للحضارة الكنعانية من سعة انتشار وقوة تأثير في الشعوب . فقد نقل الكنعانيون هذه الرموز ـ الحروف شرقاً إلى الأراميين حوالي ١١٠٠ ق.م. وغرباً إلى بلاد الاغريق حوالي ٨٠٠ ق.م. ونقلها الإغريق بدورهم إلى أوروبا برمتها . والأراميون نقلوها إلى العرب وإلى غيرهم من الشعوب القديمة كالفرس مثلاً . ففي القرن الأول الميلادي امتدت اللغة الأرامية إلى الأجزاء الشمالية من شبه الجزيرة العربية . والمعروف أن الأنباط كانوا يتكلمون العربية ثم أخذوا بالأرامية وكتبوا بها . وقد كان أخذهم بها ضرورة حضارية ووسيلة عملية للتفاهم مع الشعوب التي احتكوا بها أو كانوا على صلات معها . كتبوا العربية بالحروف الأرامية . وفي القرن الثالث للميلاد أصبح الخط النبطي الخط المألوف في العربية الشمالية ، ومن ثم في لغة القرآن . وأول كاتب عربي أشار إلى أصل الخط العربي هو البلاذري المتوفى سنة ٨٩٢ م . فهو يذكر إستناداً إلى رواية والد هشام الكلبي (هشام توفي ٨١٩ م) أن دخول الخط العربي كان من الحيرة والأنبار . وأن العرب «وضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية»[١٣٤] .

المهم أن أهل الأرض ما برحوا إلى يومنا يدوّنون بحروفها مآثرهم ويذيعون علومهم . وهم يحفظون لحروف كتابتهم ترتيبها الكنعاني ، ويسمونها بأسمائها الكنعانية . حتى أشكالها ما زال فيها مشابه من صورها الكنعانية ، إلاَّ ما طرأ على بعضها من تداول الألسنة واختلاف اللهجات . وما أفسده من رسمها النقل على مرّ السنين[١٣٥] . والواقع أن الناظر في أشكال الحروف الأبجدية اليونانية القديمة ، وفي الأبجدية العربية القديمة المسماة «كوفية» ، يلاحظ أوجه التشابه بين كل منهما وبين أشكال الحروف الكنعانية . فمن هذه الأوجه مثلاً بين اليونانية وبين الكنعانية :

١ ـ التشابه في أسماء الحروف في اللغتين .

٢ ـ محافظة اليونانيين على ترتيب الحروف الكنعانية . والأحرف التي زادوها في أبجديتهم على الأصل الكنعاني (ذي الأثنين والعشرين حرفاً) رتبت بعد الحرف الأخير (ت ـ T) من الأبجدية الكنعانية . يُضاف إلى ذلك أنهم لم يسقطوا أي حرف من الكنعانية . من ذلك مثلاً أنهم أبقوا من الكنعانية على حرف لا حاجة لهم به هو القاف الذي تلّفظوا به «كافاً» (بفعل عوامل البيئة واللسان) . وبذلك صار في لغتهم شكلان لحرف «الكاف» K و Q . الأول في مستهل كلمن Klmn . والثاني في مستهل قرشت Qrst كما هو الترتيب في الكنعانية .

٣ ـ التشابه في أشكال الحروف في اللغتين (انظر الرسم) .

الصوت في الكنعانية	الكنعانية	اليونانيّة (بين القرنين الثامن والسادس ق. م)	اليونانيّة (في القرن الرابع ق. م)	الصوت في اليونانية
a	𐤀		Α	a
b	𐤁		Β	b
g	𐤂		Γ	g
d	𐤃		Δ	d
h	𐤄		Ε	e
w	𐤅		Υ	u
z	𐤆		Ζ	z
ḥ	𐤇		Η	ē
ṭ	𐤈		Θ	ṯ
y	𐤉		Ι	i
k	𐤊		Κ	k
l	𐤋		Λ	l
m	𐤌		Μ	m
n	𐤍		Ν	n
s	𐤎		Ξ	x
ᶜ	𐤏		Ο	o
p	𐤐		Π	p
ṣ	𐤑			s
q	𐤒			q
r	𐤓		Ρ	r
š	𐤔		Σ	s
t	𐤕		Τ	t

مقارنة الأشكال الكنعانية واليونانية

٤ ـ اتجاه الكتابة في النقوش اليونانية الأولى من اليمين إلى اليسار ، كما هو الأمر في اتجاه الكتابة الكنعانية .

وقد تطورت تلك الأشكال القديمة بتطور التاريخ ، وبفعل عوامل البيئة واللسان ، فغدت اصطلاحات محلية يختلف بعضها عن بعض باختلاف الشعوب ومناطق العمران .

كان للاستقرار والسلام التامين اللذين نعم بهما الكنعانيون على الساحل السوري في عصورهم الذهبية (١٢٠٠ ـ ٩٠٠ ق.م.) الفضل الكبير في انتشار أبجديتهم . ففي هذه الحقبة من التاريخ تقدموا في الفنون والصناعة تقدماً عظيماً . وأنشأوا تجارة واسعة مزدهرة . واتخذوا من الملاحة سبيلاً لتوثيق علاقات تجارية جديدة ، وتأسيس المستعمرات التي لم تكن سوقاً تجارية ينقلون إليها البضائع والسلع المادية فحسب ، وإنما كانت مراكز إشعاع تنقل إليها الأفكار الإنسانية السامية في حضارتهم الراقية . فكأن أشرعتهم كانت تؤلف جزءاً عائماً متنقلاً من تربة كنعان ـ مهد الحضارة وموطن تراث الإنسانية الروحي والفكري .

وبذلك تمكّن الكنعانيون من جمع الشرق والغرب بشبكة من العلاقات التجارية والثقافية ، فكانوا أول من انتشل أوروبا من البربرية[١٣٦] .

وقد أجمع المؤرخون القدامى والمحدثون على الإقرار بفضل الكنعانيين على العالم لنشرهم أبجديتهم التي كانت الأساس لابجديات العالم . نذكر على سبيل المثال المؤرخ الاغريقي هيرودتس (القرن الخامس ق.م.) يقول «كان الفينيقيون الذين صحبوا قدموس قد أدخلوا إلى بلاد اليونان كثيراً من المعارف ، ومن ضمنها هذه الحروف الأبجدية»[١٣٧] . ويضيف هيرودتس «ولقد رأيت بعيني في هيكل أبولون بمدينة ثيبة (طيبة) نقشاً بحروف جماعة قدموس ، وهي مماثلة كل المماثلة للحروف اليونانية»[١٣٨] .

والجدير بالذكر أن علماء الآثار عثروا في مدينة ثيبة Thèbes (طيبة) اليونانية على قطعة نقود نقشت عليها صورة لقدموس وهو يعلم الاغارقة الكتابة بالحروف الأبجدية .

ويقول ديودور الصقلي «إن السوريين هم الذين اكتشفوا الحروف . وقد أخذها الكنعانيون عنهم ، ونقلوها بدورهم إلى الإغريق» . ويقول بلايني «إن اختراع الحروف مأثرة فينيقية»[١٣٩] .

وحديثاً يقول المؤرخ أرنولد توينبي «إن السوريين اكتشفوا المحيطين الأطلسي والهندي . وكانوا قد أبدعوا الأبجدية في الألف الثاني ق.م.»[١٤٠] .

ويقـول المؤرخ آبـل ري «إن الشعب الفينيقي هـو الـذي رفـع أداة العلوم كلهـا في مضمـار التقدم ، عنيت بهـا الكتابـة . فهو الـذي اكتشف الحروف الأبجـدية ، وهـو الذي نشرها في العالم القديم»(١٤١) .

ويؤكـد المؤرخ موريس دونـان أن الكتابـة شاهـدت النور في الشـرق المتـوسـطي ، وبالتحديد في الساحل الكنعاني في الـربع الأول من الألف الثـاني ق.م. ومنه انتقلت إلى سـائر حـواضر العـالم القديم . ويضيف «إن اكتشـاف الأبجـديـة هـو أحـد ألقـاب الفخـر للفينيقيين ، فهــو يضعهم في مصـاف الشعــوب التي أسهمت كثيـراً في تــطويــر الفكــر والحضارة . ولم يسهم أي شعب بقدر ما أسهموا في نشر الثقافـة في حوض المتـوسط وفي الغرب الأوروبي»(١٤٢) .

وعن فضـل الكنعانيين في نشـر أبجديتهم يقـول المؤرخ س . سيجرت «إن الغـرب يـدين للكنعـانيين بـإبـداع الإبجـديـة»(١٤٣) . ويقـول المؤرخ ول ديـورانت «إن الفينيقيين يستحقون مشكاة صغيرة في المحراب المكـرّس للأمم المتمـدنة ، لأن تجـارهم هم الذين علّموا الأمم القديمة كيفية استعمال الحروف الهجائية . وهذه الرموز الغريبة هي حقاً الجزء الأثمن في تراث حضارتنا»(١٤٤) . ويقول المؤرخ جـورج بوتسفـورد «كان الفينيقيـون رسل المدنية في العالم القديم . وهديتهم الثمينة إلى أوروبا كانت الأبجدية»(١٤٥) .

مؤرخ آخر نذر عمره لدراسـة حضارة الشـرق المتوسـطي القديم ، ووضـع في ذلك المؤلفات الرائعة ـ ساباتينو مـوسكاتي ، يقـول «إن الفينيقيين أبدعـوا الحروف الأبجـدية . وإن أحد أعظم أمجاد الفينيقيين ، وربما الأعظم على الإطلاق ، هـو نشرهم الأبجـدية في بلدان حوض المتوسط . وليس من شك في أن الفينيقيين علموا اليونان الأبجـدية وبـالتالي الكتابة .

هذه الحقيقة ثابتة ، وأظن أنها تكفي وحدها لإعطاء الفينيقيين مكاناً ودوراً هامين في تاريخ الحضارة»(١٤٦) . ويقول في موضع آخر من كتابه «لقد كان اختراع الأبجدية بجميـع خصـائصها في أوغـاريت في حوالي القـرن الخامس عشـر ق.م. وبلغـة أخـرى إن شـرف اختـراع الأبجديـة كما وصلتنـا يعود إلى أوغـاريت . وإلى الكنعـانيين يـرجـع الفضـل في انتشارها في بلدان حوض المتوسط» . ويضيف «إن تبسيط الأبجدية من ثـلاثين علامـة إلى اثنتين وعشرين تمّ في أوغاريت»(١٤٧) .

أما المؤرخ جورج كونتينو فقـد وضع في الحضـارة الكنعانيـة مؤلفات عـدة ، تحدّث فيها بإسهاب عن أمجاد الكنعانيين في حقول المعرفة كـافة ، خـاصة حقـل الكتابـة . يقول

«بسط الكنعانيون أسباب الراحة والرفاه وكل ما يعطي الحياة رواء في أوساط الشعوب التي نزلوا فيها أو تاجروا معها . وقد نشروا الأبجدية في أرجاء العالم القديم ففتحوا بذلك للفكر آفاقاً جديدة ، وقدّموا للمدنية خدمة لا تقدر»[١٤٨] .

والخلاصة ، إن الحروف الأبجدية التي ابتكرها الكنعانيون كانت أعظم كشف إنساني عرفته البشرية . وأسمى فعل تجريدي قام به العقل . فهذه الحروف حين انتظمت في كتابة أضحت وسيلة تفاهم مباشر بين الإنسان وبين الآخرين دون الحاجة للمرور بأشياء الطبيعة . وأضحت قادرة أيضاً على حفظ خبرات الإنسان في عالم ذهني حي . بمعنى آخر قادرة على نقل الماضي إلى الحاضر ، وحفظ الحاضر إلى المستقبل . وبهذه الرموز استطاع الذهن أن يختزن عالماً من الأفكار ، واستطاع الإنسان أن يعبّر عن رغباته وعواطفه ، وينقلها إلى الآخرين ، وبذلك اتسع البعد الذهني لدى الإنسان وأصبح قادراً على خوض ميادين حضارية لا حد لها ولا نهاية .

سوريا الاسم والوحدة

درج المؤرخون الغربيون المختصّون بدراسة تاريخ الشرق المتوسطي القديم على اعتبار كل إقليم من أقاليم سوريا الطبيعية وحدة مستقلة حضارياً وسياسياً عن الآخر . فجاءت دراساتهم تحمل أسماء الأقاليم المدروسة .

ويبدو أنهم عجزوا أو تغافلوا عن رؤية الوحدة الحضارية (بله الوحدة التاريخية) في سوريا الطبيعية . هذه الوحدة التي تشدّ منطقة حوض النهرين إلى البحر المتوسط ، وأعالي جبال أشور إلى قوس الصحراء . ولذلك حاولت في ما تقدم أن أجمع بعض ما دبّجته أقلام الباحثين من تعليقات في ما تكشّفت عنه أطلال الحواضر السورية من آثار فنية وعمرانية ، ومن نصوص في مختلف فنون المعرفة ، تحت عنوان «مقدمة في تاريخ الحضارة السورية» ، على اعتبار أن سوريا الطبيعية «وحدة تاريخية مفهومة»[١٤٩] . أي وحدة شعوب أو جماعات متشابهة في صفاتها الحضارية الخاصة وفي فلسفتها الحياتية . وذات علاقات تاريخية قوية لا يمكن فهم أي جزء من أجزائها وحده فهماً كاملاً لأنها تؤلف كلها وحدة تاريخية تامة .

ثم إن النظر العميق في البحث الرصين والدراسة الدقيقة يدلك على اتصال ، وبالأحرى وحدة أجزاء هذه المنطقة حضارياً وتاريخياً ومن مختلف الوجوه الاجتماعية والأدبية واللغوية والمفاهيم الاعتقادية .

فعلى صعيد الأصل التاريخي الواحد ، ذكرنا في ما تقدم أن المختصّين بدراسة التاريخ السوري بغالبيتهم يرون أن المجموعات البشرية الفائضة ظلت تنساب من الصحراء العربية ومن البادية السورية على شكل موجات متلاحقة طوال ثلاثة آلاف سنة ، تتوزّع في البيئة السورية الطبيعية التي تمتد بين مرتفعات حوض النهرين الشرقية وبين البحر الأبيض المتوسط غرباً . ومن الجبال المحاذية لأعالي الفرات شمالاً إلى البحر الأحمر جنوباً . وكانت الموجة اللاحقة تتأثر بالتراث الحضاري للسابقة وتنصهر معها في بوتقة حضارية واحدة . وفي هذه القاعدة الحضارية كان التفاعل الاجتماعي والفكري والاقتصادي يأخذ مجراه الطبيعي . وفي هذا المجرى تدفقت تيارات حضارية فاض إشعاعها على آسيا الصغرى وحوض المتوسط الغربي ووصل إلى المحيط الأطلسي .

والشعوب التي كوّنتها تلك الموجات تتشابه في ما بينها إلى حد يكفي لتبرير الفرض القائل إنها انتشرت من موطن مشترك قديم إلى البلاد التي استوطنتها في العصور التاريخية(١٥٠) . وهي تؤلف كتلة واحدة ، ليس باجتماعها في صعيد جغرافي واحد ، والتحدث بألسن لغة واحدة فحسب ، ولكن باشتراكها أيضاً في أصل حضاري تاريخي واحد .

وعلى الصعيد اللغوي ، تعتبر اللغة رباط الوحدة الأسمى . ومن العسير تفسير الصلة الوثيقة بين الشعوب القديمة في سوريا الطبيعية لاجتماعها كما ذكرنا في صعيد جغرافي واحد ، واشتراكها في أصل تاريخي حضاري واحد ، وأخذها بمفاهيم اجتماعية متقاربة أو متشابهة ، واعتقادية ميثولوجية واحدة ، دون الإشارة إلى الوحدة العضوية القوية بين ألسن هذه الشعوب المتفرعة عن لغة أم هي لغة الأصل الذي تحدّرت منه هذه الشعوب .

والواقع أن بين ألسن البابليين والأشوريين والأموريين والكنعانيين والأراميين وأخيراً العرب المسلمين ، من التشابه ما لا يمكن معه أن تنسب تقاربها إلى حدوث اقتباسات في ما بينها في العصور التاريخية . ولا سبيل إلى تفسير هذا التقارب إلاّ بافتراض أصل مشترك لها .

والاعتراف بأن هذه الألسن تكوّن مجموعة واحدة يؤدي إلى الاعتقاد بأن الشعوب التي تكلمت بها كانت متحدة في وقت ما عبر التاريخ . وظلت تشكل أجزاء حضارية من مجتمع حضاري كبير . وتتميّز بصفات حضارية هي نتيجة أصالة وتفاعل تاريخي .

وعلى الصعيد الجغرافي تعتبر سوريا منطقة طبيعية متميّزة ، وذات حدود طبيعية متميّزة أيضاً . إنها مستطيل غير مكثف من الأراضي الصالحة للزراعة على موازاة الشاطىء

الشـرقي للبحر المتـوسط . تحيط بها جبـال عاليـة من الشمال والشـرق وصحراء عـاتية من الجنوب والبحر من الغرب ، فتكوّن بذلك كياناً طبيعياً مستقلاً بذاته منسجماً بتكاوينـه على الرغم من التشكلات والتناقضات الطبيعية الداخلية المختلفة والمتباينة ، والتي ربما كـانت قـد حكمت عليه بـالتجزؤ السيـاسي ، ولكنها لم تحـل دون توحـده في اللغة والمعتقـدات الميثولوجيـة والصور الفنيـة والمفاهيم الاجتمـاعية التي تفسـح في المجال أمـام المواطنين جميعهم للتفاعل والإنصهار في العقلية والتفكير .

فالوحدة الجغرافية الجوهرية جعلتهـا أجزاء لا يستقـل واحدهـا عن الآخر . ولـذلك كان لكل حركة أو فكرة تنشأ في جزء منها أثرها في الأجزاء الأُخرى[١٥١] .

والـواقع أن أجـزاء هذه المنـطقـة لم تكن يـومـاً مستقلة بعضهـا عن بعض حضـاريـاً واجتماعياً . فقد عاشت الشعوب السورية حياتها التاريخيـة متجاورة ، وتميّـز هذا التجـاور باتصاله واستمراره . ولم تكن هذه الوحدة الجغرافية مجرّد ظـرف تاريخي ، بـل إنها تشيـر إلى حياة اجتماعية مشتركة في الأصل ، تتميز بمزاج خاص في التفكير واتجـاه ذهني يظهـر في طـرق التفكير وأسـاليب التعبير . وبـوحدة تـاريخية تجمـع بين أطرافهـا روح خفية هي مجموعة الأفكار والمفاهيم والتقاليد التي تبقى مـلازمة للمتحـد الاجتماعي خـلال تاريخـه الطويل . وتتميّز أيضاً بالروح الحضارية التي تلازم المتحد الاجتماعي في تطوره وارتقائه .

وباختصار ، إن الشعوب التي ظهرت مع بداية التاريخ المدوّن (أواسط الألف الـرابع ق.م.) في الشرق المتوسطي ، وبالتحديد في المنـطقة الممتـدة بين هضبة وادي النهـرين الشرقية حتى البحر الأبيض المتوسط . ومن جبال طوروس في الشمال حتى آخر حبـة رمل في سينـاء جنـوبـاً ، والتي اصـطلح على تسميتهـا منـذ أواسط الألف الأول ق.م. بـاسم سوريا ، تشكل وحدة تاريخية وجغرافية وحضارية .

وإذا كانت سوريا كوحدة جغرافية أمراً يقول به الواقع ، فإن سوريـا كوحـدة حضاريـة أمر يحتاج إلى تـوضيح . لأن المشكلة هي في التـوضيح لا في وجـود الوحـدة . فالتـاريخ السـوري وقائـع وحوادث وتـراث فكري وحضـاري ، صنعته شعـوب ذات أرومة واحـدة ، وحضاراتها ذوات صفات متشابهة . اختلفت مظاهر إبداعهـا أحيانـاً باختـلاف البيئات التي قامت فيها والظروف التي رافقتها ، ولكنها تتميز بصفات حضارية خاصـة هي نتيجة أصـالة وتفاعل تاريخي بين تلك الشعوب . وبـوحدة تفكيـر وتعبير . فـالتفكير المتشـابه الخـطوط والأبعاد قدّم لنا عناصر واحدة لـلإنسان ، ورسم خـطوط واتجاهـات إنسانيـة مشتركـة . أما وحـدة التعبير فـظهرت عفـوية عبـر العصـور في أزمنـة مختلفـة وأمـاكن مختلفـة ، دون أن يتقصّدها الإنسان ودون أن يفلسفها ويضع لها قواعد وأنظمة متميّزة .

قلت إن سوريا كوحدة حضارية أمر يحتاج إلى توضيح . والمشكلة في التوضيح لا في وجود الوحدة . فتاريخ سوريا كوحدة حضارية لم يكتب إلى الآن ، أو قل إن تراث سوريا الحضاري لم يُجمع في وحدة أو لم يُنظر إليه كوحدة . ربما لأن الذين كتبوا تاريخها ، أو جوانب من تاريخها ، لم يروها ، أو لم يريدوا أن يروها كوحدة . وربما للصعوبة في جمع تراثها والتحقيق فيه ، وقراءة ألسن لغتنا القديمة ، التي يقف المؤرخ العربي (ما لنا وللمؤرخ الأوروبي والأميركي) عاجزاً عن تذليلها لضعف أو قصور أو عجز . أو لأن الجامعة التي أوفدته إلى الخارج لتحضير أطروحة الدكتوراه ، لم تزوّده بالتوجيهات الضرورية للالتفات إلى تراث أمته الحضاري . ولذلك سرعان ما يتلقّط صاحبنا (المؤرخ) بموضوع تافه ، ويعود بعد سنوات حاملاً درجة الدكتوراه بمرتبة الامتياز أو الشرف أو الشرف الأولى . بينما لم يلتفت في السنوات التي قضاها في الجامعة الأوروبية أو الأميركية ، أو لم ينتبه من قريب أو بعيد ، إلى تراث أمّته الذي يملأ رفوف مكتبة الجامعة التي قضى فيها سنواته .

* * *

ذكرنا أن المؤرخين لم يبحثوا في «المدلول» ـ (سوريا) كوحدة تاريخية أو جغرافية أو حضارية . وكذلك لم يبحثوا في «الاسم» ـ (سوريا) : أصله ومصدره أو دلالته ومعناه . وما أشار إليه بعض الباحثين ، في معرض تعليله لهذا الاسم ، لا يزيد عن افتراضات بسيطة لا ترتكز على أساس ولا يشد من أزرها مستند . فواحد يشير في معرض تعليله لـ «الاسم» ـ (سوريا) إلى ارتباطه باسم شرين Shryn الوارد في آداب أوغاريت (القرن الرابع عشر ق.م.) . وآخر يشير إلى ما ذكره كاتب «العهد القديم» في سفر التثنية ٣ : ٩ بقوله «والصيدونيون يدعون حرمون سِرْيون . والأموريون يدعونه سنير . ويكسّر الرب أرز لبنان . ويُمْرِحها مثل عجل . لبنان وسريون ، مثل فرير البقر الوحشي» . وهم يبرّرون هذه الافتراضات بالاستناد إلى باب من أبواب البلاغة هو اطلاق اسم الجزء على الكل .

وما نعتقده نحن أن «الاسم» ـ (سوريا) مشتق من أشور . أشور التي بلغت مجداً بين ١٢٠٠ و٦١٦ ق.م. جعل اسمها يسم سوريا الطبيعية من ذلك الوقت وإلى آخر الدهر . فمن المعروف أن الأشوريين أنشأوا امبراطورية كانت الأمجد في أواخر الألف الثاني ق.م. والنصف الأول من الألف الأول ق.م. وكان لامبراطوريتهم أبعد الأثر في تاريخ الشرق المتوسطي اقتصادياً وسياسياً وحضارياً . وبسطوا سلطانهم في فترات طويلة من تاريخهم على سوريا الطبيعية بكاملها . فتغلات بيلاسر (١١١٢ ـ ١٠٧٤ ق.م.) تقدم إلى سوريا العليا ، ووصل إلى بحر أمورو (الغربي) . جاء في حولياته قوله «ذهبت إلى جبل لبنان .

ثم عبرت البحر إلى أرواد . قطعت جذوع الأرز وعدت بها عبر أمورو» . أما أشورداان الثاني (٩٣٢ ـ ٩١٢ ق.م.) فأخضع سوريا الوسطى ، ووصل إلى وادي العاصي الأدنى . وفي سنة ٨٨٢ ق.م. أخضع أشور ناصر بعل الثاني (٨٨٣ ـ ٨٥٩ ق.م.) مدن حوض النهرين ، ثم اجتاز الفرات إلى كركميش (جرابلس) ، وتابع زحفه إلى سوريا الجنوبية ، فبلغ حطين ووادي العاصي الأدنى . وحين وصل إلى الشاطىء هرعت المدن الكنعانية إلى استرضائه واتقاء سلاحه بالهدايا الثمينة . جاء في حولياته قوله «زحفت يومئذ في محاذاة جبل لبنان ، حتى طلعت إلى البحر الكبير في بلاد الأموريين حيث غسلت أسلحتي» .

وبعد أشور ناصر بعل الثاني ملك ابنه شلم ناصر الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م.) الذي قاد عدة حملات إلى سوريا الوسطى والغربية والجنوبية ، لعل أشهرها الحملة التي كانت في السنة الثامنة عشرة من حكمه (٨٤٠ ق.م.) . نقرأ في الحوليات «تقدمت حتى بلغت جبل حوران ، ثم زحفت إلى جبل بعل راسي ، وهو رأس متقدم في البحر» . وفي السنة الحادية والعشرين من حكمه (٨٣٧ ق.م.) قاد حملة على سوريا الغربية . أما هدد نيراري (٨٠٩ ـ ٧٨٢ ق.م.) فتقدم في زحفه حتى بلغ مناطق الفلسطينيين والأدوميين .

وفي عهد تغلات بيلاسر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م.) بدأت سياسة ضم الأقاليم إلى مملكة أشور . جاء في الحوليات ، إشارة إلى المدن الغربية ، «جعلتها ضمن حدود أشور» . وفي السنة الثالثة من حكمه (٧٤٣ ق.م.) شكل الأشوريون ولاية ضمت عدداً من المدن الكنعانية ، منها مثلاً أوسنو ، سيانو ، سيميرا ، كشبونا ، باب ايلوس ، أرقا ، زيمارا وغيرها . وفي هذا العهد حققت أشور أوسع امبراطورية قامت في تلك العهود ، من الخليج الصحراوي وجبال زاغروس الشرقية إلى جبال طوروس الشمالية والشمالية الغربية المشرفة على كيليكيا وخليج اسكندرون . ومن الشاطىء السوري حتى قوس الصحراء .

وفي سنة ٧٢٥ ق.م. وصل شلم ناصر الخامس إلى فلسطين . وفي سنة ٧٢١ ق.م. وصل سارجون الثاني جنوباً إلى السامرة ، وغرباً إلى قبرص ، وبسط سلطانه طوال عهده على آسيا الغربية . أما ابنه سنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق.م.) وحفيده اسرحدون (٦٨١ ـ ٦٦٨ ق.م.) فقد أخضعا مصر . فيذكر سنحاريب المدن التي وصل إليها وأخضعها : صيدا الكبرى ، صيدا الصغرى ، بيت زطي ، شريفتا ، محلّيبا ، أوشو ، اكزيب، وعكا . ويذكر الملوك الذين دانوا لسلطانه : توبعلو الصيدوني ، عبدي بعتي الأروادي ، أورو ملكي الجبيلي ، ميتيني الأشدودي ، بودو ايلو البيتعموني ، كموسونا دبي المؤابي ، ومالك رمّو الأدومي . أما أسرحدون فقسم الساحل الكنعاني إلى ولايات أشورية : سيميرا في الشمال ، ومنطقة صيدون في الوسط ، ومنطقة صور في

الجنوب[١٥٢] .

وفي عهد أشور بني بعل (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق.م.) بلغت أشور ذروة المجد والعظمة . فقد أصبحت بعد احتلالها مصر ، الدولة الأولى في الشرق المتوسطي . وأصبحت عاصمتها نينوى سيدة مدن آسيا الغربية . ومن الطبيعي أن يكون اسمها أشور أو أثّور أو أسور Assur باللسان الشرقي . وأسيريا Assyria باللسان الاغريقي (الأوروبي) قد ملأ العالم القديم ، وخاصة بلاد الاغريق التي كان أهلها على اتصال مباشر بالشرق المتوسطي لتلقّي العلم أو للتجارة أو غير ذلك من وسائل الاتصال والالتقاء بين الشعوب .

وفي سنة ٥٢٣ ق.م. كان الأمبراطور الفارسي دارا الأول قد أخضع أشور ، وقسم الأمبراطورية الفارسية التي وصلت إلى جبال الهندوس شرقاً ومصر غرباً ، إلى ٢٠ ولاية ، كانت ولاية سوريا من حرّان شمالاً إلى سيناء جنوباً تسمّى أثّورا عربايا Athoura Arabaya .

وفي ذلك الوقت كان المؤرخ الاغريقي هيرودتس يتجوّل في حواضر الشرق المتوسطي ، فظهر اسم سوريا على لسانه .

وحين قضى الإسكندر المكدوني على دارا الثالث في موقعة ايسوس ٣٢٣ ق.م. وانتقلت سوريا إلى الاحتلال اليوناني ، أطلق على البلاد الممتدة بين طوروس شمالاً وسيناء جنوباً ، وبين البحر المتوسط غرباً وحوض النهرين شرقاً ، اسم سوريا . وفي فترة الاحتلال الروماني بدءاً من ٥٦ ق.م. كانت ولاية سوريا الرومانية تمتد من الفرات إلى مصر . وظلت تعتبر كذلك حتى نهاية الاحتلال العثماني (١٩١٨ م) .

وهكذا ظهر اسم «سوريا» في النصف الأول من الألف الأول ق.م. وقبل هذا التاريخ لم يطلق على هذه البلاد اسم جغرافي أو سياسي معين . كانت ممالك وشعوباً ، تحدثنا عنها بإيجاز في فقرة «سوريا الشعوب» .

والخلاصة ، إن اسم سوريا من أثّور Assur باللسان الشرقي . وسيريا من Assyria باللسان الاغريقي (الأوروبي) .

الاشعاع الحضاري السوري
على شعوب حوض المتوسط القديمة

الحضارة الأُولى في تاريخ البشرية نبتت ونمت وأينعت في تربة الأرض السورية . وبقيت متعلّقة بها تعلّق النبتة بالأرض ، محققة مجموع إمكاناتها التعبيرية الخاصة في صور شعوب ودول وألسن ولاهوت وفنون وفلسفة وعلوم . ثم خرج بها كنعانيو الساحل السوري فأعطوها إلى الشعوب الأُخرى التي عرفوها أو احتكوا بها في سائر أنحاء العالم القديم . أو تأثرت بها شعوب اجتاحت جيوشها هذه الأرض . يقول المؤلف هنري فرانكفورت «كان ظهور الحضارة في الشرق المتوسطي القديم تلقائياً ، أي أنه لم يكن نتيجة اتصال أو احتكاك ما بالخارج أو بالأُمم الأُخرى . أما حضارة الشعوب الأُوروبية القديمة ، أو انتقال تلك الشعوب من الأحوال البدائية إلى الأحوال الحضرية فكان نتيجة احتكاكهم أو اتصالهم بشعوب الشرق المتوسطي التي كانت قد قطعت شوطاً بعيداً في مجالات الحضارة»[١٥٣] .

ترك الإنسان القديم في حواضر سوريا الطبيعية : بابل ، نينوى ، ماري ، ايبلا ، أوغاريت ، وفي غيرها من الحواضر ، ترك لنا عن مراحل حياته الحضارية ، في المعتقدات والعلوم والفلسفة والآداب والعمران ، فكراً غنياً وفعّالاً ، كان له أثر كبير في تاريخ الحضارة الإنسانية وتاريخ الفكر الديني .

وقد تميّزت فترة الألفي سنة التي سبقت الميلاد من عمر الحضارة السورية ، بتبادل التجارب ومنجزات الفكر بين المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية . وتوارث هذه التجارب والأفكار وتطويرها من عصر إلى عصر ، مما ولّد حضارة مزدهرة عمت شعوب حوض المتوسط القديمة ، فرفدتهم بعلومها وآدابها وإبداعاتها الفنية .

انتشر الأراميون في أرجاء سوريا الطبيعية كلها ، وعبروا حدودها الطبيعية إلى مناطق أُخرى في العالم القديم . وانتشر الكنعانيون في جزر المتوسط وفي حوضه بغاية تجارية . وقد تركت العلاقات التجارية ، ككل تفاعل اجتماعي ، أثراً حضارياً واضحاً في الشعوب التي احتكّوا بها أو أقاموا في ما بينها . فقد كانت قوافل الأراميين ومراكب الكنعانيين تنقل

أكثر من السلع المادية . كانت تنقل أفكاراً وقيماً فلسفية ومسائل علمية على غاية من الأهمية من حيث تقدم البشرية ورقيها . وبذلك كانوا الروّاد الذين سبقوا شعوب العالم كلها بنقل حضارتهم إلى أقطار ومناطق بعيدة .

والمعروف أن الأراميين والكنعانيين سيطروا على العالم القديم حضارياً واقتصادياً دون حرب أو إكراه . لم يقتحموا يوماً العوالم المتحضرة ليبيدوا حضارتها ويتسلّطوا عليها ، كما فعل المكدونيون والرومان من بعد . وكأنهم كانوا أصحاب رسالات اجتماعية إنسانية وحضارية .

والواقع أن ينابيع الحضارة المتدفقة مع خطوط التجارة من مراكز الانطلاق : أوغاريت ، جبيل ، صيدون ، صور وغيرها من منائر الشرق ، ومن المستعمرات التي أنشأها الكنعانيون في الغرب : القرية «العتيقة» ، «القرية الحديثة» - قرطاجة ، «مرسى ايل» - مرسيليا ، جزيرة «القرية» - كريت ، «قادش» وغيرها ، أخذت تشق طرق اتجاهها في الغرب المتوسطي منذ الألف الثاني ق.م. فتتوزّع على المدن اليونانية وتتغلغل في أماكن متفرقة من أوروبا الغربية . وقد أدّت دوراً مهماً وأساسياً في تكوين وتطوير حضارة البحر المتوسط . أو بالأحرى مجموعة مدنيات هذا البحر . وبذلك وجدت المنجزات الحضارية العظيمة التي قام بها الإنسان القديم في الشرق المتوسطي ، سبيلها إلى شعوب حوض المتوسط ، وأصبحت نواة للحضارة الكلاسيكية التي نشأت في بلاد اليونان . وتركت أعمق الأثر وأوسع المدى في تكوين الفكر الأوروبي القديم . قال سترابو الاغريقي الذي عاش في القرن الأول ق.م. «إن الفضل في معارفنا عائد إلى الفينيقيين»[١٥٤] . وحديثاً يقول المؤرخ فكتور بيرار في مقدمة كتابه «الفينيقيون والأوديسة»[١٥٥] «لقد حل الفينيقيون (كنعانيو الساحل السوري) المكان الأول في المتوسط قبل العصر الهليني . ويرقى أثرهم إلى الألف الرابع ق.م. وقد أصبحوا أسياداً دون منازع في الألف الثالث ق.م. فجعلوا من المتوسط ميداناً حضارياً عالمياً . ومن الصعب أن نفهم شيئاً من عادات اليونانيين وصناعاتهم وعلومهم ولغتهم ومعتقداتهم ونظرياتهم الفكرية والفلسفية ، ومن الأناشيد الهوميرية أيضاً ، إلاّ إذا فهمنا دور هؤلاء المعلمين (الكنعانيين) وتعاليمهم في الحقول جميعها» .

ويقدّم غيره من المؤرخين دراسات مفصّلة للصلات الحضارية بين بلدان الشرق المتوسطي وبين اليونان في القرن السابع ق.م. فيتحدث دونبابن مثلاً عن أثر الحضارة السورية القديمة في بلاد الإغريق قبل القرن الثامن ق.م. وعن مدى إسهام المشرقيين في الحضارة اليونانية . وباختصار ، يؤكد نظرية الأصل السوري للحضارة اليونانية[١٥٦] .

فأوروبا والغرب بشكل عام مرتبطان بالشرق المتوسطي حضارياً ارتباط الأبناء بالآباء . قد يختلف الابن بصفاته وبروحه عن الأب ، ولكن لا بد للابن من أن يحتفظ بالكثير من صفات الأب(١٥٧) .

ويضيف بيرار «لقد كان الفينيقيون لليونان ما كان اليونانيون بدورهم للرومان ، وما كان الرومان للغرب ، والغربيون أخيراً للإنسانية جمعاء .

ويؤكد بيرار على الدور الذي قام به «هؤلاء المعلمون» في حملهم إنتاجهم الحضاري الأول ـ خميرة الحضارة العالمية ، بقوله «عندما بدأ اليونانيون يتلمّسون المعارف العلمية والمعتقدات الميثولوجية الآسيوية (السورية) ، كان قد تجمّع في منائر الشرق بعد ثلاثين قرناً من التطور تراث عظيم من الآداب والمعتقدات . وكانت العلوم قد توصلت إلى انجازات ضخمة في حقول الحساب والهندسة والفلك والطب والكيمياء . بينما لم يكن لدى اليونانيين قبل ذلك أية أفكار ميثولوجية أو علمية خاصة بهم . وهكذا حصدوا دفعة واحدة ومن دون جهد ثمار ثلاثة آلاف سنة من الحضارة»(١٥٨) .

فبيرار ، في وعيه حقيقة التطور الحضاري ، خلص إلى نتيجة مفادها أن الذين ينظرون إلى الظاهرة الحضارية اليونانية على أنها انبجاس مفاجىء لطاقات بشرية محلية ، سطحيون في تفكيرهم ساذجون في أحكامهم . فليس في الوجود الحضاري للإنسان ملمح واحد أو خط واحد لا يرتد إلى أصل قديم نشأ النشأة الهادئة البطيئة ، وتطور التطور العميق في خلال التجربة الحضارية المستمرة والمتصلة حقباً وآماداً من الدهر طويلة .

وبيرار ، في وعيه هذه الحقيقة ، أدرك أن اليونانيين لم يشيدوا صرح الحضارة ، أو قل لم ينشئوا الحضارة إنشاء . لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه . وكانوا الوارث المدلّل المتلاف لذخيرة من الأفكار والفنون والعلوم والآداب مضى عليها أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، جاءت إلى مدنهم مع قوافل التجارة أو بغيرها من وسائل الإتصال .

وأندريه بارو يؤكد كبيرار أيضاً على دور الكنعانيين في حمل ميراث سوريا الحضاري العريق إلى الشعوب الأوروبية ، بقوله «يوم كانت أوروبا ما تزال تعاني آلام معرفة الأصول المجردة للحياة الاجتماعية والفنية والسياسية ، كان الشرق الأدنى قد تجاوز منذ زمن طويل عتبة المدنية . وقطع إنسانه مراحل عديدة حقق فيها تقدماً وطيداً على طريق الحضارة» . ويضيف بارو «ومن يستطيع أن ينكر أن المعرفة جاءت من هذا الشرق؟»(١٥٩) .

والحقيقة أن ما عرفه اليونانيون القدماء من علوم رياضية وفلكية في العهود الأولى من تاريخهم ، نجد أصوله اليوم في الاكتشافات الحديثة في بعض المواقع الأثرية السورية

التي كانت منائر حضارية في العصور القديمة . انتشرت منها الملاحم الميثولوجية والأفكار العلمية والمعتقدات الغيبية . وتدل الدراسات الحديثة دلالة تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم على أن اليونانيين القدماء كانوا قد أخذوا عن البابليين القواعد الأساسية لعلوم الرياضيات والطب والفلك والفلسفة . ومن دويلات المدن اليونانية انتقلت هذه العلوم إلى روما ومنها إلى الأوروبيين فالاميركيين . وليست الأسماء التي وضعها اليونانيون للمعادن وأبراج النجوم والموازين والمقاييس والآلات الموسيقية والكثير من العقاقير إلاّ تراجم لأسمائها البابلية[١٦٠] . وتدل هذه الدراسات أيضاً على «أن الحضارة اليونانية رغم أصالتها في جملتها ، تدين بالكثير من أفكارها لشعوب أرض النهرين» ، كما يقول المؤرخ ساباتينو موسكاتي[١٦١] . ويقول مؤرخ آخر «ول ديورانت» إن «بابل العظيمة كانت موطن حضارة غنية وقوية ، أوجدت علم الفلك ، وكان لها فضل كبير في تقدّم علوم الطب . وأنشأت علم اللغة . وأعدت أوائل كتب القانون . وعلمت اليونان مبادىء الحساب وعلم الطبيعة والفلسفة . وأمدت اليهود بالقصص الميثولوجية التي أورثوها العالم . وعنها انتقلت إلى العرب المعارف العلمية والمعمارية التي ايقظوا بها روح أوروبا من سباتها في العصر الوسيط»[١٦٢] .

ويقول المؤرخ هندريك فان لون «يجدر بنا القول إن معرفتنا العصرية بالفلك والرياضيات تقوم على مبادىء أولية وضعها الكلدانيون»[١٦٣] . ويرى ول ديورانت أن الساعات التي نستخدمها لمعرفة الوقت ، والتقويم الذي نعرفه ، والقوانين الأدبية والخلقية التي نطبقها في حياتنا ، ونظام الكتابة الذي هو أهم أركان الحضارة . هذه الأمور وغيرها تشهد على مبلغ ما نحن مدينون به لشعوب الشرق المتوسطي القديمة[١٦٤] .

وفي سوريا الغربية كانت المجتمعات الكنعانية غنية بالخلق والعطاء . ولشد ما كان عطاؤها عظيماً في مجالات العلوم والآداب والمعتقدات الطافحة بالقيم والفضائل والمفاهيم الإنسانية السامية . يقول المؤرخ غوردون تشايلد «إن الكنعانيين في انتشارهم التجاري كانوا ينشرون في العالم القديم معطياتهم الفكرية والعلمية واللغوية ومعتقداتهم الميثولوجية»[١٦٥] . ويرى أن حضارة أوروبا لم تكن لمدة طويلة غير انعكاس ضئيل لحضارة الشرق المتوسطي القديمة . ويتحدث المؤرخ ساباتينو موسكاتي ، وفي أكثر من مجال ، عن الخصائص التي تميّزت بها الحضارة الكنعانية . أعني الخصائص المميّزة لثقافتهم وللوقائع التاريخية والسياسية والفنية والأدبية التي تسم هذه الحضارة . ويشير أيضاً إلى تنوع خصائصهم الحضارية وإلى تطورها واستمرارها في المستعمرات والمراكز التي أنشأها الكنعانيون في الغرب المتوسطي[١٦٦] .

أما المفكر الالماني ف. موفرز[١٦٧] (أواسط القرن التاسع عشر) فقد وضع كتاباً عن الفينيقيين يدور في مجمله حول تأكيد نظرية الأصل الفينيقي للحضارة اليونانية . ويتحدث عن صعوبة الوقوف على هذا الأصل ، أو على الأقل إحصاء العناصر الحضارية التي اقتبستها الشعوب الأوروبية القديمة عن الكنعانيين ، والتي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الأوروبية .

المهم أن الساحل الكنعاني كان مركز الالتقاء بين الشعوب والتفاعل بين الحضارات . فيه التقت التيارات الفكرية المختلفة ، وتطورت الإبداعات الصناعية التي حققتها شعوب الشرق المتوسطي . وقد حوّل الكنعانيون ساحلهم من مركز التقاء بين الشعوب وتفاعل بين الحضارات ، إلى مركز للإشعاع الفكري والحضاري ، فكانوا يبحرون وفي صدورهم نزوع إنساني أخلاقي طامح إلى أنسنة الشعوب التي يلتقونها في البيئات الجديدة . يحملون قيمهم وفضائلهم ومفاهيمهم الإنسانية إلى العالم الجديد . لم يشنّوا حرباً على أحد ولم يعتدوا على أحد ولم يذلّوا أحداً . وإنما كانوا يقيمون معابدهم وينشئون مدارسهم وينشرون انتاج فكرهم ووجدانهم وعناصر حضارتهم في كل مكان نزلوه . لا يبخلون على أحد بشيء مما عندهم لأنهم كانوا يرون الحياة شراكة إنسانية ، وليست احتكاراً . وكانوا يرون الحضارة كرماً على درب ، يجود الكرّام فيه على المارين من دون تمييز . وكانوا يمارسون العلاقات الاجتماعية من خلال حس طبيعي بأن الإنسان أخو الإنسان ، وأن الواجب يقضي عليه بأن يعطي لكي يأخذ . وبذلك عمروا العالم القديم حضارة ، وقلوب البشر محبة . فكانوا الروّاد الذين يمثّلون الانفتاح الكنعاني على العالم .

لم يكن لهم العدد الذي يمكّنهم في تلك العصور من شغل كل أرض عرفوها ونزلوها . فكانوا معمّرين ولم يكونوا مستعمرين . والتعمير ظاهرة أساسية من ظواهر الحضارة الكنعانية[١٦٨] . استعمروا العالم بالمحبة . وحاولوا بمحبة القلب وحكمة العقل وشرعة القانون أن يهذبوا من نفس الشعوب التي عرفوها . كما حاولوا أن يرفعوا الشعوب من مهاوي بداثيتها إلى يفاع القيم المعنوية والروحية . علّموا الإنسان معنى إنسانيته . وحاولوا أيضاً خلق مجتمع إنساني أفضل في كل بقعة وطئتها أقدامهم . سلاحهم في ذلك كله وعيهم العقلي المبكر ونضجهم الروحي وسمو نظرتهم إلى الكون والإنسان . وكان تعميمهم للمعارف والآداب التي أبدعوها أو اقتبسوها شكلاً من أشكال بث النور في مرحلة العسعسة التي كانت تعيشها المجموعات البشرية الخارجة حديثاً من الحياة البدائية ، أو العناصر المتحدرة من الشمال البارد للاستقرار في جزر المتوسط وعلى شواطئه . وقد أدّى

انتشارهم في البحر المتوسط ، كتجار ومؤسسين لمدن ومرافىء مختلفة ، إلى جعل هذا البحر أداة اتصال عوضاً عن أن يكون حاجز انفصال . مما يسّر عمليتي العطاء والاقتباس . كما أدّى انطلاقهم من اختمار حضاري طويل إلى انتشار لغتهم ومعتقداتهم وعلومهم وآدابهم بين المجموعات والشعوب التي احتكوا بها أو اندمجوا في مجتمعاتها .

والكنعانيون الذين كانوا «رسل المدنية إلى العالم»[١٦٩] ، كما يقول المؤرخ جورج بوتسفورد ، يلخّصون في ما قدّموه إلى اليونان ميراثاً حضارياً ضخماً لشعوب الشرق المتوسطي التي أعطت البشرية ، في مضمار الحضارة ، خير ما يعطى من تشريع ومعتقدات وعلوم وفنون وآداب ، أرست أُسس الحضارة في العالم القديم ، «وكان لها أثرها الباهر في تكوين وارتقاء الحضارة الغربية»[١٧٠] . يقول المؤرخ رالف لنتون «لقد أثّرت المدنية السورية القديمة على المدنية الأُوروبية أكثر من أي مركز آخر من مراكز المدنيات المبكرة . وقد بدأنا منذ وقت قريب ندرك مدى الدين الكبير الذي تدين به الحضارة الاغريقية القديمة لهذه المنطقة . كما أن دين الحضارة الهيلينستية أكثر وأعظم ، لأن النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تضمّنتها هذه الحضارات قد أخذت مباشرة من هذه المنطقة ، ثم انتقلت هذه النظم عن طريق الحضارة الهيلينستية إلى الامبراطورية الرومانية ، ومنها إلى غرب أوروبا»[١٧١] .

ويُضيف لنتون مفصّلاً القول في ما رفد به الكنعانيون مجرى الحضارة «ولعل أهم ما قدّمه الكنعانيون وساهموا به في المدنية كان في ميداني العلوم الرياضية والفلك من ناحية . وفي ميدان المعتقدات الميثولوجية من ناحية أُخرى» .

وإذا كان المؤرخ جيمس برستد قد أجمل هذا الأثر بقوله «في حوض المتوسط الشرقي تطورت الحضارة التي ورثتها الآن شعوب أوروبا وبالتالي أميركا»[١٧٢] . فإن علماء اليونانيات يفصّلون القول في هذا الأثر وأهميته ومداه في مختلف النواحي . فبولسن مثلاً فصّل في مؤلفه «الشرق والفن اليوناني القديم»[١٧٣] كل الحقائق الأركيولوجية المتوافرة في عصره عن الفن الكنعاني في التعدين والنحت ، وخصوصاً النحت في العاج الذي كان الكنعانيون وحدهم تقريباً يتخصّصون به . وقد تمكن بولسن من تثبيت الأثر الكنعاني إثر اكتشاف عدد من الأوعية المعدنية والعاديات العاجية في نمرود وقبرص وكريت وفي أولمبيا وأتروريا وإيطاليا ، يدل نوعها وشكلها وأُسلوبها الفني على أنها كنعانية الصنعة ، أو أنها صنعت مباشرة تحت تأثير الفن الكنعاني .

ودروبفلد في كتابه «أولمبيا القديمة»[١٧٤] يرجع أُصول الفن المعروف لدى العلماء بالنزعة الهندسية (حوالي القرن التاسع ق . م .) إلى أُصول كنعانية ، نشرها الكنعانيون

الذين قطنوا بلاد اليونان في أواخر الألف الثاني ق.م.

والواقع أن مراجعة مختصرة وسريعة لتاريخ العلاقات القديمة بين سوريا وبين اليونان، تكفي لإنارة جوانب كثيرة من وجوه التأثير الحضاري السوري على اليونان. يُضاف إلى ذلك أن الاكتشافات الآثارية في القرنين الأخيرين مكّنتنا من تقصّي العلاقات المختلفة التي قامت بين سوريا وبين اليونان في عصور ما قبل التاريخ. فقد كشفت التنقيبات مثلاً في أوغاريت وألالاخ وفي غيرها من مدن الساحل السوري عن قبور دلّت على وجود جاليات يونانية انتشرت على طول الساحل الكنعاني، واستوطنت بعض حواضره في تلك القرون الخالية قبل أن تتبلور الحضارة اليونانية بما يقرب من ألفي سنة. ومن الطبيعي أن اختلاط الشعوب يؤدي إلى تبادل الأفكار وإلى تيسير عمليتي العطاء والإقتباس.

وفي بحثنا عن الأُصول الكنعانية في الحضارة اليونانية نقف أولاً على ذكر الفينيقيين (الكنعانيين) في الأدب اليوناني القديم منذ بدأ اليونانيون بتدوين أدبهم حوالي منتصف القرن الثامن ق.م. فقد أتى على ذكرهم كل من هوميروس وهزيود وهيرودتس وتوسيديس ويوربيدس وأفلاطون وأرسطو طاليس وغيرهم كثيرون. ومن مجمل ما ورد عنهم يحسّ الإنسان بالدور البارز الذي أدّوه في الحضارة اليونانية. وقبل الإلمام بما أورده أُولئك الشعراء والكتّاب والفلاسفة الكلاسيكيون، تجدر الإشارة إلى أُسطورة قدموس التي تعبّر عن نزوع الكنعاني العبقري الجامح لاستكشاف الأبعاد وفضّ أسرار المجهول. وعن العلاقات التجارية والحضارية التي كانت قائمة بين الكنعانيين وبين اليونانيين.

كانت أوروبا، ابنة أغنور ملك صور، رائعة الحسن فائقة الجمال. وذات يوم - تقول الأُسطورة اليونانية - خطف ذوس (كبير آلهة اليونان) أوروبا من بين أحضان أهلها في صور. فأرسل أغنور ابنه قدم كي يفتش عنها.

سعى قدم إلى بلاد اليونان، فأسس مدينة «قدميا» (نسبة إليه). ثم مدينة «طيبة». وعلم اليونانيين استعمال الحروف الهجائية، كما يقول هيرودتس.

إن ما تعرضه هذه القصة الميثولوجية يمثّل حقائق لبست ثوب الأساطير. ويبدو أن كنعانيي الساحل السوري نسجوا هذه القصة أو بالأحرى ابتكروا هذه الحجة الذكية لاخفاء أهدافهم في الهجرة إلى مناطق البحر المتوسط المختلفة لاستثمار مواردها المعدنية، وانشاء المستعمرات كمراكز لتجارتهم الواسعة. وقصة خطف البنات أو النساء أو القيام بحملة عسكرية للظفر بعروس جميلة أو استعادتها، كانت على ما يبدو عقدة القصة لكل رواية عن تحرّك تاريخي. إذ نجدها في أساس حملة كرت ملك صيدون على مملكة أدوم

(ملحمة كرت الأوغاريتية) . وفي أساس حروب الالياذة عند هوميروس . كما نجدها في أساس الحروب الفارسية الاغريقية عند هيرودتس . وقد يكون بعض القراصنة الكريتيين الذين كانوا يغيرون بين الحين والآخر على شواطىء صور قد خطفوها فعلاً . وربما كان أولاد أغنور الذين خرجوا يبحثون عن أُختهم المخطوفة زعماء صوريين هاجروا على رأس جماعات كنعانية للإتجار أو استثمار المعادن .

المهم أن أُوروبا تركت أثراً كبيراً في الأساطير الإغريقية . والأهم أن قدموس وجماعته كانوا يشيدون المعابد ويضعون الأسس للمدن والمرافىء في كل مكان نزلوه أو جزيرة حلّوها . يقول ديودورس الصقلي مثلاً إن قدموس بنى هيكلاً في إحدى الجزر اليونانية (رودس) . ويذكر ديودورس من بين مشاهداته في الهيكل وعاء زجاجياً عليه نقوش فينيقية[١٧٥] .

وفي زيارته لإحدى الجزر اليونانية ذكر هيرودتس من بين مشاهداته في الجزيرة معبداً لهرقثيل يعود إلى زمن هجرة قدموس . وقال إن الجزيرة تحمل اسم ثازوس الذي جاء على رأس جماعة من الفينيقيين لاستعمار الجزيرة واستثمار مناجمها[١٧٦] .

* * *

نعود إلى الشعراء والمؤرخين الكلاسيكيين الذين ذكروا الكنعانيين في مؤلفاتهم . هوميروس مثلاً يخلع عليهم في أماكن متفرقة من شعره الصفات الحميدة . ويقف منهم كبحارة وتجار وصناع ماهرين ، بكل احترام وتقدير . يقول في الإلياذة إن الملك كينارس أرسل إلى أجاممنون ، وهو في طريقه لمحاصرة طروادة ، درعاً صورياً مطليّاً بالميناء . وفي موضع آخر يقول إن الجوائز التي قدمها بطل اليونان اشيل إلى محاربيه كانت كؤوساً فضية أبدعها مهرة الصنّاع الصيدونيون . وجاء في الأوديسة أن منلاوس أقام عند فايديموس ، ملك صيدون ، فأهداه الأخير كأساً فضية . ويبدو أن ملوك اليونان وأبطالها كانوا يتباهون بمصنوعات الكنعانيين . يقول هوميروس في الالياذة إن أُم هكتور بطل طروادة ، تباهت في احدى المناسبات المهمة بثوب مطرز من صنع الصيدونيات، جلبه لها ابنها باريس بطوافه في البحر المتوسط بعد خطفه هيلانة .

وفي الانيادة ذكر فرجيل أحد ملوك صور باسم بيلوس (البعل) . ونسب له فتح قبرص . وتحدث في النشيدين الثاني والثالث من الأنيادة عن حضارة قرطاجة العظيمة . وأثنى أرسطو كثيراً على قوانين قرطاجة وعلى دستورها ، ولم يتمالك دهشته أمامه ، فقال «تأملوا الدستور الفينيقي» .

وحديثاً تقول مادلين هورس «قلما عرف اسم في التاريخ الشهرة التي عرفها اسم قرطاجة . ومع ذلك قلما أهمل اسم مثله من الوجهة العلمية» . وتضيف هورس «إن قرطاجة لعبت دوراً هاماً في التاريخ وفي الحضارة الغربية خلال الألف الأول ق.م. وتمكنت من أن تنوب عن أمها صور في السيادة على حوض المتوسط الغربي»[١٧٧] .

أما الأب جان فرّون المدير السابق لمتحف قرطاجة ، والذي وضع ثلاثة مجلدات ضخمة في تاريخ قرطاجة وحضارتها ، فيعتبر قرطاجة «أماً لدول السلام في العالم . وأنها ليست امتداداً لصور فحسب ، وإنما هي صور بالذات في مكان آخر»[١٧٨] .

ويرى الأب فرّون ، من خلال دراساته للحضارة الكنعانية ، أن صور اشتهرت قديماً بمكتباتها التي كانت مقصد طالبي العلم من شتى الأنحاء ، خاصة من بلاد الإغريق . يطرح دليله في صيغة تساؤل إيجابي : ما دامت قرطاجة ، بنت صور ، تحتضن مكتبة عظيمة ، فكيف بمدينة صور الأم ؟ .

وإذا قارنا النصوص التي وصلتنا من التراث السوري القديم مع ما يشابهها من التراث اليوناني ، نرى تأثّر هذا الأخير بالأول تأثراً واضحاً . يبدو مثلاً في الشاعر هزيود الذي يمثل إلى حد كبير عصره والزمن الذي كانت العلاقات الكنعانية ـ اليونانية في أوج تفاعلها . فقصيدته «مولد الآلهة» مثلاً لا تختلف في تركيبها وتنظيمها وموضوعها عن ملحمة الخليقة «اينوما ايليش» .

ويبدو تأثر اليونانيين بالتراث الكنعاني واضحاً أيضاً في فن الملحمة الذي عرف لأول مرّة في التاريخ في سوريا الشرقية (حوض النهرين) والغربية (أوغاريت الكنعانية) . وأشهر الملاحم المكتشفة حتى اليوم هي ملحمة جلجامش وملحمة اينوما ايليش ، وملاحم أوغاريت : كرت ، واقهات بن دانئيل ، والبعل وعناة .

تعالج هذه الملاحم الميثولوجية مواضيع فلسفية كموضوع الصراع بين القوى العالية : قوى الخير والنظام وقوى الشر والفوضى . وموضوع تكوّن الأشياء وتنظيمها . وكأن مؤلفيها حاولوا تفسير الكون والخليقة . وهي بذلك تختلف عن الالياذة والأوديسة بأن مواضيعها فلسفية لا تاريخية كملاحم اليونان . وأشخاصها قوى عالية (آلهة) ، وليسوا آلهة وأبطالاً من البشر كما هو الأمر في الالياذة . وهذه الملاحم تفسّر أُصول الأشياء . أما الالياذة فلا تتعدّى تفسير حدوث بعض الأشياء . ومن البديهي أن الأصل قائم قبل الزمان فهو أزلي وغير محدود . بينما الحدوث واقع في الزمان ومحدود . يُضاف إلى ذلك أننا نلمس في الملاحم السورية (جلجامش مثلاً) حسّاً أرهف وعمقاً نفسياً أكبر ، وتساؤلاً قوياً

عن معنى الحياة وعن قيمة الإنسان . لا نجد مثيله في الالياذة . فما نلمسه من قلق يضطرم في صدر جلجامش ، ومن صراع يدور في أعماق نفسه ، هو تعبير عن الغاية التي سعى إليها جلجامش الإنسان : الوصول إلى الحقيقة الأساسية التي ليس بعدها حقيقة . تلك هي الحقيقة ذاتها التي سعى للتوصل إليها فلاسفة اليونان والرومان والعالم أجمع في ما بعد : ما هي الحياة ؟ ما هو الموت ؟ ما هو الإنسان ؟وما هو مركزه في هذا الكون ؟ وما علاقته به ؟ . إن سرّ الموت كسرّ الحياة من أعظم أسرار الوجود وأهمها . ومحاولة جلجامش البحث عن سرّ الموت هو في الحقيقة محاولة بحث عن سرّ الحياة . ومثل هذا الموضوع الفلسفي : قلق الإنسان لمعرفة سرّ الحياة ، والألم العميق الذي يورثه الفشل في اكتشاف هذا السرّ ، لا نجده في الالياذة .

وقد أوضح الكتّاب الكلاسيكيون وعلماء اليونانيات أهمية الأثر الكنعاني ومداه في التراث اليوناني . فاسترابو الاغريقي مثلاً الذي جال في مدن الساحل الكنعاني وفي مستعمراته ، لم يترك مجالاً إلاّ وأتى فيه على ما قدّمه كنعانيو الساحل للحضارة من علم ومعرفة وإنجازات . حتى لنسمعه عند معالجته لجغرافية الالياذة يقول مذكراً «إنني أكرّر القول إن الذين أوحوا لهوميروس بهذه الأقاليم هم الفينيقيون»[١٧٩] .

وأنطون مورتغات يرى أن ملحمة جلجامش كانت مصدراً مهماً للملاحم الشعرية التي أبدعتها شعوب أوروبا[١٨٠] . أما فكتور بيرار فقد وضع في مستهل القرن العشرين (١٩٠٢) كتاباً ضخماً في مجلّدين بعنوان «الفينيقيون والأوديسة» قال فيه إن أوصاف عدد من الأماكن الواردة في الالياذة تنطبق على أوصاف الشاطىء السوري . وإن معظم الأسماء الواردة في الالياذة ، والذي ليس له أصل يوناني أو لاتيني ، هو من أصل سامي (كنعاني) ، أعطاه الفينيقيون للجزر والجبال والمدن في المتوسط والأطلسي ، فقد كان من عادة المهاجرين الكنعانيين إطلاق اسم البلد التي هاجروا منها على البلد التي ينشئونها في مهاجرهم ، أو على المنطقة التي يقيمون فيها ، أو على الجزيرة التي ترسو مراكبهم على شواطئها . وغالباً ما كانوا يطلقون عليها اسماً من الأسماء التي كانت لديهم محط احترام وتقدير . خذ مثلاً سلاميس (سلام) ، ساموس (شمس) ، قدميا ، قمرينا ، قادش ، مرسى ايل ، وعشرات غيرها .

ويرى بيرار أن أسماء الأنسجة والمشروبات المخمرة والعصافير والأسماك والأسلحة الواردة في الالياذة ، هي من أصل فينيقي (كنعاني) . ومن المعروف أن الاسم الذي يمهر مكاناً أو مدينة أو يقترن بشيء ما ، تكمن وراءه قوة حضارية هي التي مهرت به المكان أو المدينة ، وهي التي تضمن بقاءه[١٨١] .

يقـول جاك بيـرن «إن أنساب الآلهـة اليـونـانيـة ، حسب ورودهـا في الاليـاذة ، هي سومرية ـ بابلية» . ويضيف «إن الملحمة الهوميرية ، كأفكار اليونانيين الدينيـة ، هي مزيـج من عناصر يونانية وأُخرى شرقية . والأوديسة تحمل الكثير من الآثار الشرقية : نـزول أوليس إلى الجحيم ليس إلاّ إقتباساً عن ملحمة جلجامش . وعملية سحق أوليس للوحوش البشرية مشابه لعراك ماردوك مع الوحوش البشرية التي أنجبتها تعامت» . ويضيف بيرن «لقـد جرى في اليونان ، وبشكل واسع ، استغلال هذا المنجم الذي يختزن الملاحم البابلية»[١٨٢] .

والجدير بالملاحظة في موضوعنا أن عدداً كبيراً من الشعراء الإغريق قبسوا الكثير من التراث الكنعاني . نذكر منهم مثلاً هوميروس ، هزيود ، أورفيوس ، وفريسيد الذي يذكـره فيلون الجبيلي كتلميـذ نجيب للفينيقيين . وأن عـدداً من الشعـراء والفـلاسفـة والعلمـاء الاغريق نشأوا في الشرق المتوسطي أو سافروا إليه طلباً للعلم . وقد أدهشهم ما وجدوه في الحواضر السورية من مواضيع علمية ومواد فلسفية غنية ولكنها مبعثرة وغير منظمة . فشرعوا في تـأليفها وتنـظيمها في وحـدات علميـة فلسفيـة . لعـل أشهـرهـم طـاليس وبيتـاغـوراس وديموقريطس وأفلاطون وغيرهم . وقد تأثروا جميعاً بـالفكر الميثـولوجي الشـرقي وبالعلوم والآداب الشـرقية . فـطاليس مثـلاً (٦٤٠ ـ ٥٤٦ ق.م.) «من أهـل ميلطس ، ولكن آبـاءه فينيقيون» كما يقول هيرودتس الـذي عاش بعـده بأقـل من مائـة عام . قـام في سني شبابـه برحلة طويلة إلى الساحل السوري في سبيل تحصيل العلم . كما قـام برحـلات مماثلة إلى مصـر وبلاد النهـرين . أطلق الفكـر الفلسفي في اليـونـان وهـو الـذي فجّـر العقـلانيـة في الإنسان ، وعلى هدي فكره وفلسفته قام سلطان العقل .

يقول المؤرخ جاك بيرن «ليس صدفة أن تنشأ في ميلاطيا المدرسة الفلسفية الأُولى . فقد كانت ميـلاطيا أعـظم مدينـة يونـانية في عصـرها وفيهـا التقى الشرق بـالغرب . وكـان الميلاطيون على صلات تجارية مع آسيا (سوريا الطبيعيـة) ومصر ، اللتين كـانت قد بلغتـا أوج الحضارة . فقد تكوّنت فيهما المعتقـدات والمعارف العلميـة بتؤدة عبر القـرون . وقد نشأ الفكر الفلسفي اليـوناني نتيجـة الاحتكاك بهمـا . فطاليس ميـلاطي من أصل فينيقي ، كان كمواطنيه رحالة عظيماً ورجل أعمال بارعاً ، ومن الطبيعي أن تقوده أسفاره إلى مـركزي الحضارة في ذلك العصر : مصر وسوريا . ولما كان طاليس عقلاً منفتحـاً مولعـاً بالإطـلاع وإكتساب المعرفة ، درس في مصر الهندسة وعلم الفلك ، وفي بلاد النهرين اطلع على مـا بلغه البابليون من معارف في نشوء الكون وعلم الفلك . وقـد استطاع طـاليس أن يستوعب المعارف العلمية المصرية والبابلية . والواقع أن فلسفته وكذلك معارفه العلمية مأخوذة كلها عن الفكـر الشرقي . فمن نـظريتي نشوء الكـون البابليـة والمصريـة استعار المفهـوم الذي

يجعل من الماء مصدراً لجميع الأشياء الحية[١٨٣] .

من مفاخر اليونانيين أن بلادهم كانت مهد الحضارة . وإذا استنبأت مؤرخيهم وجدتهم يشيدون بذكر الكنعانيين وما كان لهم قبل الإغريق من سعة في العلوم والفنون والصناعات وصدق نظر في الفلسفة وسائر المجالات الفكرية . قال سترابو «أما الصيدونيون فإن أخبار الأيام تصفهم بأنهم أرباب الصناعات والفنون والفلسفة والعلوم . وقد ارتقوا فوق المحسوسات إلى ذروة العلوم العددية والفلكية» . وأضاف «يجب الإقرار بأن اليونان تلقوا في ما سلف عن الفينيقيين معارفهم في الفلك والرياضيات . ونرى في عصرنا الحاضر (القرن الأول ق.م.) أن كل من أراد المزيد من العلوم على اختلاف أصنافها ، قصد صور وصيدون حيث العلوم أغزر مدداً وأصفى مورداً من سائر الحواضر» .

وقال سترابو «إن مسألة الجوهر الفرد Théorie Atomistique يرجع الفضل في وضعها إلى الفيلسوف الصيدوني مورشو Morchus ، وهو ممن توسطوا باحة العلم قبل حرب طروادة» . وأضاف «ولا حاجة بنا إلى استخبار الأيام الخوالي ، ففي زماننا هذا اشتهر من أهل صيدون عدد نبيل من أفاضل العلماء ، نذكر منهم بايثوس Baethus زميلي الذي كنت وإياه نتلقّى معاً فلسفة أرسطو طاليس» .

وكثيراً ما كان سترابو يبدي إعجابه بفلاسفة عصره الصيدونيين والصوريين ، فيذكر مثلاً بعض من عرفهم من فلاسفة صور بقوله «ومنهم انتيباتر (فيلسوف رواقي من صور) وأبولونيوس كبيرنا الذي لخّص مذاهب الفلاسفة أصحاب زينون وفهرس مصنّفاتهم»[١٨٤] .

وأخبار الكنعانيين في هذا الباب كثيرة غير أن آثار علمائهم ضاعت بضياع ملكهم إلاّ لمعاً حفظتها لهم أسفار اليونان . والواقع أن بلاد اليونان وبلاد الرومان تديننان إلى ما قدّمه الكنعانيون من مظاهر العمران الحضاري في جميع أشكاله ووجوهه ومعانيه ، وإن كان من الصعب على الباحث إحصاء العناصر الحضارية من العلوم والأفكار والمعتقدات والآداب التي اقتبسها اليونان والرومان عن السوريين القدماء . يقول شارل فيرولو «كانوا في العصر الروماني يتحدثون عن فينيقيا التي أعطت العالم مؤرخين وفلاسفة منذ حرب طروادة . والحقيقة أن فينيقيا أعطت منذ ما قبل حرب طروادة شعراء ومعلمين كان لهم تأثير كبير في عالم حوض المتوسط القديم»[١٨٥] .

والطريف أن هؤلاء المعلمين والفلاسفة أعطوا باللغة اليونانية ، باستثناء واحد منهم ـ أحيقار ، ما ساهم في إغناء الفكر العلمي اليوناني والفلسفة اليونانية . نذكر منهم الكاهن الكلداني برعوشا ، ولوسيان الأرامي ، وزينون وفيلون وأدريان وفرفوريوس الكنعانيين .

نبدأ بأحيقار الذي أعطى بلغته الأرامية ما ساهم في إغناء الأدب اليوناني ، خاصة باب الأمثال فيه . وما كان له أثر بالغ في التوراة اليهودية وفي إنجيل المسيح أيضاً .

عثر على قصة أحيقار في جزيرة الفنتين بالقرب من أسوان في مصر ، باللغة الأرامية ، ترجع إلى حوالي القرن الخامس ق.م. وخلاصتها أن رجلاً حكيماً فاضلاً يدعى أحيقار استطاع الوصول ببراعته في فن الكتابة إلى مكان مرموق في بلاط سنحاريب (٧٠٤ - ٦٨١ ق.م.) وبلاط أسرحدون (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م.) ملكي أشور . لم يكن له ولد ، فتبنّى ابن أُخته (نادان) ونقل إليه وظيفته . ولكن نادان جازاه شرّاً بإحسان ، فأغرى أسرحدون ، بنميمة خبيثة ، بالحكم على أحيقار بالموت . لكن أحيقار هرب بتواطؤ مع الجلاد ، وبعد فترة قصيرة استطاع أحيقار أن يستعيد مكانته وأن يفضح دسيسة ابن أُخته[١٨٦] .

تتضمن القصة تعاليمَ وعظاتٍ وأمثالاً كثيرة يلقيها أحيقار على ابنه (أو ابن أُخته الذي تبنّاه) . ويظهر أن المقصود من القصة بجملتها تدوين هذه الحكم التي يسميها صاحب القصة الأرامية «أمثالاً» . وجمع الأمثال والحكم قديم العهد في منطقة الشرق المتوسطي . وقد تكون القصة الأرامية مقتبسة عن رواية شفوية أشورية تدور حول رجل حكيم يصوغ الأمثال ويرسل الحكم . وأحيقار يمثّل هذا الرجل الحكيم الذي يحسن المشورة ويصوغ الحكمة في قول موجز بليغ . ويبدو أن حكم أحيقار وأمثاله استأثرت بكثير من الاهتمام والبحث التاريخي ، وبلغت شهرة واسعة في التاريخ القديم ، فتركت تأثيراً بالغاً في كتّاب أو جامعي الأمثال في الكتب المقدسة وفي الأدب الإغريقي الكلاسيكي وفي الآداب العالمية على اختلافها . فلسفر الأمثال وسفر الجامعة في التوراة (العهد القديم) شبه كبير بأمثال وحكم أحيقار . والواقع أن سفر طوبيا ، وهو أحد كتب الأبوكريفا Apocrypha أي غير المعترف بها على أنها من جملة أسفار التوراة ، هو قصة أحيقار بصيغة يهودية . كما أن مقابلة سفر يشوع بن سيراخ (أحد كتب الأبوكريفا) بحكم أحيقار وأمثاله ، تجعل المرء يشعر بأن مؤلفه كان على معرفة بأحيقار وأمثاله . وفي «العهد الجديد» أمثال وحكم تشبه أمثال أحيقار الحكيم . وفي القرن الخامس ق.م. ألف ديموقريطس كتاباً في المواعظ الأخلاقية البابلية تناول فيه قصة أحيقار وأمثاله .

وباختصار ، لقيت قصة أحيقار رواجاً قلّما ظفرت به قصة أُخرى . فقد عرفت في كثير من الآداب القديمة . كما ترجمت إلى عدد كبير من اللغات القديمة والحديثة . والواقع أن ما وضع في أحيقار وأمثاله من كتب ومقالات وتعليقات باللغات الأُوروبية يشكل مكتبة . أما في المكتبة العربية فلا نجد غير كتاب أنيس فريحة الذي كانت طبعته محدودة

النسخ فلم تطرح في المكتبات بشكل واف . والذين يلمّون بقدر ضئيل من قصة أحيقار أو أدبه هم نادرون بين الخاصة من الأساتذة والمثقّفين (بله عامة الناس) .

نماذج من أقوال أحيقار :

- يا بني ، نقل الحجارة مع رجل حكيم خير من شرب الخمر مع رجل لئيم .

- يا بني ، إذا أكل الغني الحية قالوا أكلها تطبّباً . وإذا أكلها الفقير قالوا أكلها جوعاً .

- لماذا يعاند الحطب النار ، واللحم السكين ، والإنسان الملك ؟ .

- يا بني ، لا تهذر كثيراً فتنطق كل كلمة تخطر ببالك . ففي كل مكان عيونهم وآذانهم . افرض على فمك حراسة أشد من كل حراسة ، وأغلق القلب على ما تسمع . فالكلمة كالطائر إذا أفلت من القفص فإنه يعسر عليك أن تقبض عليه ثانية .

- يا بني ، ارم حجارة على الكلب الذي يترك صاحبه ويجري خلفك .

* * *

قلنا إن جمع الأمثال والحكم قديم العهد في منطقة الشرق المتوسطي . وقد برع السومريون والبابليون والأشوريون في هذا الباب من الأدب . وتركوا لنا الكثير من الأمثال السائرة والأقوال المأثورة . والطريف أن أمثالهم تعبّر عن قيم أخلاقية رفيعة ، ومفاهيم حضارية راقية . وترمي إلى تنمية العادات الطيبة والسلوك الأخلاقي الفاضل . وهي تأخذ المرء بتعبيرها عن المشاعر الإنسانية العميقة ، وبدعوتها الخلقية السامية . ومن أمثال البابليين(١٨٧) :

- أحسن إلى من يسيء إليك .

- يأكل الثور الغريب الحشيش . ولكن ثور المالك يربض في المرعى .

- تسير البقرة في المستنقع ، لكنها تدفع العجل إلى اليابسة .

- الشعب بلا ملك كالغنم بغير راع .

- لم يقتنص الثعلب بعد ، لكنه نصب له فخّاً .

- يد ويد تبنيان البيت .

- من بنى كسيد يعيش كعبد . ومن بنى كعبد يعيش كسيّد .

ـ إنني جواد أصيل ، لكنني مقرون إلى بغل ، وعليّ أن أجرّ عربة .

برعوشا : عاش بين القرنين الرابع والثالث ق.م. غادر بابل إلى أثينا حيث تعلم اللغة اليونانية ، ودرّس العلوم الكلدانية في أثينا . وهناك وضع باللغة اليونانية مؤلفات عدة تناول في قسم منها جوانب من التاريخ البابلي ، مثل كتاب «الحكمة» في الميثولوجيا البابلية ، وآخر في تاريخ بلاد النهرين منذ بداية الخليقة حتى القرن الثالث ق.م. لم يصلنا من مؤلفاته غير ما نقله عنه بعض المؤرخين . أحبه الأثينيون حتى أنهم نصبوا له تمثالاً لسانه من ذهب .

فيلون الجبيلي : ولد حوالي ٤٢ م . أخذ بالثقافة الإغريقية وكتب بلغتها . ترجم العقائد الكنعانية إلى اللغة اليونانية ، ووضع في التاريخ الفينيقي تسعة كتب كان قد ترجمها عن مؤلف فينيقي قديم هو سنخونياتن . ضاعت كتبه في نقد حضارة الإغريق ، وفي التاريخ الفينيقي . ولم يصلنا عنه غير القليل القليل من الأفكار والمختصرات للنصوص التي عرضها في مؤلفاته ، من خلال كتاب «الاستعداد للحياة الإنجيلية» للمؤرخ الكنسي أوزابيوس (القرن الثالث للميلاد) .

أدريان الصوري : من أبناء القرن الثاني للميلاد . كان يحاضر باللغة اليونانية في بلدة أرسطو وأفلاطون . بلغ من الشهرة حداً جعل سيّد روما مارك أوريل يطلبه إلى جواره ، حيث غاص في الرفاه الروماني .

فرفوريوس الصوري : وُلد حوالي ٢٣٢ م في جنوبي حوران (في الجنوب الشرقي من سوريا) ، وأمضى شبابه في صور . ثم سافر إلى روما واتصل بافلوطين ، وبرع في الفلسفة الأفلاطونية المحدثة . يقول عن نفسه في ما كتبه من سيرة افلوطين «وأنا أيضاً فرفوريوس الصوري . كان أفلوطين يعتبرني من خاصة أصدقائه ، وقد عهد إليّ بتصحيح كتاباته» .

قال عنه ابن النديم في الفهرست «إن فرفوريوس من أهل مدينة صور ، فسّر كتب أرسطوطاليس ، وله من الكتب كتاب ايساغوجي (المدخل) إلى الكتب المنطقية . وكتاب العقل والمعقول وكتاب أخبار الفلاسفة . ونقل القفطي في «أخبار الحكماء» ما قاله ابن النديم ، وأضاف «له النباهة في علم الفلسفة ، والتقدم في معرفة كلام أرسطوطاليس» .

كان فرفوريوس يوضح مذهب أفلوطين بما وهب من سعة في المعرفة ودقة في العرض وصفاء في الذهن . ويلقي محاضرات عامة ملأت روما دوياً . وجرى اسمه على كل لسان وذاع صيته . قال له افلوطين يوماً «سوف تصبح نوراً للناس» . من أقواله «من

الخير للمرء أن يموت وهو يقول الحق» . «لا قيمة للأقوال بين يدي الله ، بل للأعمال . والحكيم هو الذي يعظم الله بالقلب لا باللفظ . أما الجاهل فإنه يدنس الأُلوهية حتى ولو قام بالعبادات وأدّى المراسيم . وليست التقوى في أن يتمتم المرء بالدعاء أو أن يذبح الضحايا» .

كان يؤمن بوجود الإله القادر على كل شيء ، الخالق لكل شيء ، المدبّر لكل شيء . وإيمانه صادر عن الحكمة لا عن الشريعة . استخدم المنطق النقدي الدقيق في كتاباته حول الدين والفلسفة والتاريخ ، مما أحفظ عليه المسيحيين الأول ، واستنفر نقمة ضيّقي الفكر منهم ، وحملهم على الحكم بالنار على آثاره الهامة سنة ٤٤٨ م .

أثّرت كتبه في فلاسفة العصر الوسيط ، وظلت عباراته متداولة وأفكاره سائدة عدة قرون .

نشر المفكرون الغربيون ما بقي من كتبه باللغة اليونانية مع تراجم لها . وعقد بيدز تحقيقاً وافياً لحياة فرفوريوس ومؤلفاته(١٨٨) .

لوسيان السميساطي : المفكر الإجتماعي والناقد الأدبي والأخلاقي . واحد من السوريين الكثيرين الذين نبغوا خارج الأرض السورية . ونشروا أفكارهم وكتبوا مؤلفاتهم بلغات غير اللغة السورية العربية . وُلد في سميساط (على الفرات) حوالي ١٢٥ م . برع في بلاغة لغته الأرامية . ثم قصد أيونيا فتعمّق في دراسة اللغة اليونانية وامتلك ناصية ألفاظها وصيغها ونبغ في بلاغتها . عمل محامياً في أنطاكية ، ثم غادرها إلى أثينا ومنها إلى إيطاليا ففرنسا . كان في جولاته يلقي المحاضرات في اللغة والبلاغة والنقد الاجتماعي . وضع باللغة اليونانية ما يقرب من ثمانين كتاباً طرق فيها مواضيع متعددة وعالج نواحي فكرية ودينية كثيرة ، منها مثلاً «مصرع الظلم» . «في مديح ذبابة» . «زلقة لسان» . «فلسفات للبيع» . «الطوائف» . «الكذّاب» . «حامل الكتب الأمي» . «رحلة إلى العالم الأسفل» . «العالم الجاهل» . «الحمار» . «الالهة تموت» . «الالهة السورية» . «مذاهب في المزاد» . «الطفيلي» . فهو يمثل عبقرية شعبه بمواهبه الجامعة وحبّه لشتى فنون الأدب ، وكأنه كان يأبى أن يحصر فكره بنوع واحد من أنواع التآليف ، أو يأسر قلمه في ضرب واحد من ضروب الإنشاء . ويمثل عبقرية شعبه أيضاً بمرونة فكره وحدة ذهنه وسرعة خاطره وقوة حافظته وخصب إبداعه .

اهتم في كتاباته ومحاضراته بنقد الأخلاق . ويبدو في مؤلفاته وكأنه أخذ على عاتقه هجاء الرذائل وعيوب البشر والغباوة في الإعتقاد . وقد أظهر الشيء الكثير من الذكاء

والفطنة ، وأصالة الرأي في نقده أخلاق معاصريه ، بأسلوب رشيق وروح خفيفة وصراحة لا تعرف المحاباة ولا الرحمة . وعمل بإخلاص على إصلاح الناس بنقده العيوب الشائعة والتشهير بها تشهيراً لاذعاً مؤلماً . قال «إن استئصال فكرة خاطئة من رأس مواطن لاجدى كثيراً من استئصال ورم في الجسد» .

ضمّن كتابه «محاورات الأموات» فكرة بارعة وطريقة طريفة مبتكرة في نقد أخلاق البشر وعاداتهم بأسلوبه الشائق الدال على خفة روحه وسعة خياله وفيض قريحته وعظيم اقتداره على التهكّم والسخرية مما كان شائعاً في عصره من خرافات وسخافات ومن أوهام وأباطيل .

نظر في هذا الكتاب إلى حياة الناس وأخلاقهم من عالم الأبدية ، حيث لا ظواهر مموّهة خلابة ولا أوهام مغرّرة خداعة تغشي على بصره فتفسد نظرياته وأحكامه . لقد نظر إلى الحياة مجرّدة من ذلك الطلاء الزائف الذي يطليها به المجتمع . وتوصلاً إلى غايته جعل الأموات أنفسهم يتكلمون .

ندّد بالمغرورين بمجدهم الزائف وعظمتهم الفارغة وإدعائهم السخيف . وسخر ما استطاع من العرّافين والدجّالين . واستخف بالمتفلسفين وجهلهم . وكشف بتهكمه واستهزائه النقاب عن زيف الصداقة المبنية على المصلحة ، وعن نفاق الدجالين وسخف الأدعياء المغرورين المتغطرسين .

وتناول بسخريته أيضاً غرور بعض البشر الساذج ، وطموحهم الحقير وجشعهم السخيف . واستقبح بأشد الألفاظ قسوة من كانوا يسخّرون أقلامهم للدفاع عن الظالمين من أصحاب النفوذ ، في سبيل اقتناص المنافع المادية . وقد شبّه هؤلاء الكتاب بمن يحمل في عنقه غلاً من ذهب . واستقبح أيضاً من كانوا يعيشون في ظل الأغنياء والمتسلّطين ، يتغنّون بما ينسب لهم من محاسن ، ويشيدون بما يسند إليهم من مناقب . كما وصف سوء مصير المنافقين من هذا النوع برسالة هامة صوّر فيها حياة «هؤلاء المهرّجين والدجّالين الجهّال الذين خلقوا ليزحفوا على بطونهم ، وولدوا للذل ، وعاشوا للهوان ، وفطموا على المسكنة» .

امتد أثره إلى الآداب العالمية خلال قرون طويلة . واختلفت قوة تأثيره تبعاً للزمان والمكان . ففي عصر النهضة مثلاً كان أثره قوياً . ثم خف وضؤل في القرون التالية . ولكنه لم يغب مطلقاً لمدة طويلة في عالم الغرب الأدبي . فقديماً تأثر به الأمبراطور يوليان والأديب ليبانيوس أستاذ يوحنا فم الذهب . وفي عصر النهضة استوحى كتابات لوسيان عدد

كبير من فنّاني ذلك العصر كبوتيشلّي ورفائيل ومانتينا في إيطاليا ، وهولباين في المانيا ، وغيرهم من مختلف البلدان الأوروبية . ومن الأدباء استوحى منه شكسبير في قصته «تيمون الأثيني» ، وبعض مشاهد «هملت» كمشهد حفار القبور . واستوحى منه الشاعر الإيطالي أريستو ، وغيرهم . ولعل أراسموس (١٤٦٧ ـ ١٥٣٦ م) كان أكثر أدباء عصر النهضة تأثراً بلوسيان . فهذا الأديب أحيا الأدب الوسياني في أوروبا ، ودفع دراسته أشواطاً إلى الأمام . ولقد استوحى أراسموس أسلوب لوسيان وفنه ، وترجم له عدداً من المؤلفات كمحاورة «الديك» و «اسكندر النبي الكذاب» و «المائدة» و «الأساتذة المأجورون» . وليس من شك في أن كتاب أراسموس «في مديح الحماقة» مشبع بالروح اللوسيانية .

ومن أوضح الدلائل على مدى تأثر أدباء عصر النهضة بأدب لوسيان ، ترجمة القديس توماس مور لكتابات لوسيان إلى اللغة الإنجليزية .

طبعت مؤلفات لوسيان لأول مرّة في فلورنسا عام ١٤٩٦ م. ثم تتالت الطبعات : في أمستردام ١٧٤٣ م مع ترجمة لاتينية وشروح . وفي ليبزغ ١٨٣٦ و ١٨٥٨ وفي برلين ١٨٦١ و ١٨٨١ و ١٨٨٦ و ١٨٨٩ . وفي لندن ١٩١٣ وفي باريس وفي أكسفورد ١٩٠٥ .

أما في وطنه سوريا فإن لوسيان مجهول ، نكرة . لم يترجم كتاب واحد من مؤلفاته التي تربو على الثمانين ، إلى لغة وطنه الأم ـ العربية . والدراسات عنه باللغة العربية مفقودة[١٨٩] .

والسؤال : لماذا لا نحاول التعرّف على لوسيان وعلى أدبه ؟ .

إن لأدب لوسيان قيمة كبيرة جعلته يخلد في عالم الغرب. وأثره في الأدب الأوروبي كبير ويحتاج إلى دراسة خاصة . ولوسيان أيضاً شخصية أدبية كبيرة ومن أعلام تراثنا الكبار . واحد من المصلحين الذين جذبتهم مثل الخير الرفيعة . وهو إلى جانب ذلك «ابن بلدنا» . وإذا كان قد اغترب فإنه لم ينس وطنه ولم يتنكّر له ولا لأصله . فلنذكره دائماً ولنحبه ، آمين[١٩٠] .

وأخيراً أود في هذه العجالة أن أقف عند واحد من الفلاسفة والأدباء السوريين الذين أضافوا الكثير إلى الفلسفة والأدب اليونانيين . زينون الذي يعتبر واحداً من السوريين الكثيرين الذين أبدعوا عبقرية وبراعة كبيرة خارج الأرض السورية . كنعاني وُلد حوالي ٣٣٢ ق.م. في مدينة سيتيوم Citium أو كيتيوم Kitiom التي أسسها الكنعانيون في جزيرة قبرص ، حيث كانوا يشكلون عنصراً أساسياً من سكان الجزيرة . وتشير «النقود والنقوش المكتشفة إلى أن الملوك الفينيقيين (الكنعانيين) ظلوا يحكمون مدينة كيتيوم حتى زمن

الإسكندر الكبير»[١٩١] . وفي العشرينات من سنيه سافر إلى أثينا ليدرس على خلفاء الفلاسفة الذين قرأ كتبهم . وحين نضج فكرياً راح يحاضر في «الرواق» في أثينا حوالي ٣٠٠ ق.م. فعرفت مدرسته بالرواقية . فالرواقية ليست يونانية الأصل وليست رومانية في نشأتها ، وإن كان زينون قد اتخذ من أثينا مركزاً لإلقاء محاضراته وإذاعة مبادىء فلسفته الأخلاقية . يقول بيار مكسيم شول[١٩٢] «تتجذّر في أساس المدرسة الرواقية التي وصل نفوذها إلينا شخصية عملاقة صارعت عصرها ، تلك هي شخصية زينون» . الذي حاول في محاضراته أن يخرج فلاسفة اليونان من دوائرهم الضيقة إلى الرحاب الإنسانية ، ومن أجواء اسبارطة شبه البربرية ، التي يعتبرها الفيلسوف أرنولد توينبي في عداد الحضارات المتجمّدة ، إلى عالم جديد تسود فيه القيم والفضائل الإنسانية المنفتحة على العالم كله . وعمل في محاضراته وفي كتبه على تحرير الفضيلة من سجن المدن اليونانية الخانق . وتحويلها إلى فضيلة إنسانية تمارس فعلها الإنساني في العالم كله . فقد كان يطمح إلى تبديل جوهر الإنسان الحضاري ومفاهيمه الاجتماعية . يقول الفيلسوف الالماني البرت شفيتسر «لم تبلغ الحركة الأخلاقية في الحضارة اليونانية أوجها إلاّ بما قامت به الفلسفة الرواقية من عمل عظيم في التربية»[١٩٣] .

كانت الفضيلة أهم القضايا عند زينون . ولذلك لم يبد اهتماماً بدقائق القضايا الميتافيزيكية (ما وراء الطبيعة) . وكان يقوّم الطبيعة وما وراء الطبيعة بقدر ما تساعدان على ممارسة الفضيلة في حياة الإنسان . فالفضيلة برأيه هي الخير الوحيد . وغاية الإنسان في الحياة هي ممارسة الفضيلة . من هنا كانت دعوته القوية والشديدة إلى الفضيلة الاجتماعية الكونية المطلقة التي تمارس فعلها الإنساني في العالم كله . ومن يمارس الفضيلة الرواقية لا ينتظر مكافأة ، لأن مكافأته تكمن في اغتباطه بممارسة الفضيلة . يقول زينون «إن ممارسة الفضائل هي غاية الإنسان في الحياة . والذي يمارس الفضائل يجد مكافأته في الممارسة ذاتها» . إنها المناقبية المطلقة التي تتفانى في سبيل الإنسان من غير أن تنتظر مكافأة أو ثواباً . وهكذا جعل زينون ممارسة الفضيلة مَثَل الإنسان الأعلى وخيره الأعظم . وبذلك كانت الفضيلة الرواقية أسمى أشكال الفضائل في تاريخ الإنسان . وكانت رواقية زينونِ أنبل وأفضل فلسفة ظهرت في العالم حتى اليوم . وكانت أرفع مناقبية من كل ما أعطى الإنسان من فكر فلسفي . ولم يصل فكر قبلها أو بعدها حتى يومنا إلى مستواها . كانت قدوة لجميع المذاهب والفلسفات الأخلاقية ، حتى للمسيحية ، في السمو والترفع عن كل غاية أنانية . والواقع أن الرواقية ، بتوكيدها على الفضيلة والحياة الخلقية والأخوة الإنسانية ، خلقت الجو الصالح لظهور المسيحية . أو قل كانت الرواقية قدوة للمسيحية في

الدعوة إلى ممارسة الفضائل وإلى التسامي على الذات والترفع عن الأنانيات . يقول الفيلسوف البريطاني بيرتراند رسل «لم يكن للديانات القديمة في اليونان وروما ما ادعته من مناقبية الإنسان الفرد إلاّ بعد أن حوّلها الرواقيون إلى ديانة مناقبية» . ويضيف «كان الرواقيون يفهمون الحياة الفاضلة على أنها علاقة النفس بالله ، أكثر مما هي علاقة المواطن بالدولة . وبذلك مهّدوا الطريق أمام المسيحية التي كانت كالرواقية على نقيض السياسة»(١٩٣) .

للرواقية ملامح روحية أخلاقية تؤلف خطوطاً رئيسية لمذهب أخلاقي . وهذا المذهب يقوم على دعامتين : الأولى مسلكية فردية تحدّد منهجية سير الإنسان في الحياة . والثانية جماعية تعيّن مركز الإنسان في الكون .

ترتكز الدعامة الأولىٰ على فكرة «الرجل الحكيم» الذي تبنى حياته على الفضيلة . ويكيّف سيره في الحياة وفقاً لمفاهيم الفضيلة . والفضيلة هي الحياة وفق الطبيعة . والطبيعة هنا تعني العقل . وقد كانت الرواقية تتخذ العقل الطبيعي محيطاً لها ، وتجعل السلوك الإنساني ضمن دائرة سلطان العقل الأول الذي ينظم أفكارنا ويحكم الكون . وتقول بعقل عام يتخلّل الطبيعية ويديرها . فكل شيء في هذا الكون يتّبع نظاماً عقلياً . ومن عرف الأنظمة العقلية للكون ، وعاش بفضيلة وفقاً للقوانين الطبيعية ، يحصل على السعادة ويكون الرجل الحكيم .

وترتكز الدعامة الثانية على إيمان زينون بوحدة الإنسان ، وبالمساواة بين الناس . فالحياة عنده واحدة ، والعالم واحد ، والبشر قطيع واحد ، يرعاهم نظام واحد هوالقانون الطبيعي . وكون العقل هو الحد المشترك بين جميع الناس ، يجعل الجميع متساوين في العقل ، وبالتالي في الإنسانية ، وفي الحقوق الإنسانية .

وباختصار ، عاش زينون مبشّراً بالفضيلة لأنها باعتباره الأساس في حياة الإنسان .. «وسار في حياته كلها على مقتضى الأصول التي آمن بها ودعا إليها . وقد دأب على حث تلاميذه على لزوم الفضيلة»(١٩٤) . والدعوة إلى التكيّف وفق مفاهيمها ، والتمثّل بالأخلاق الحسنة ، مشدّداً على الحكمة التي هي باعتباره أسمى ما تملكه النفس الإنسانية . مؤكداً على تضمين قاموس الفلسفة مفهومي «الواجب» و«الضمير» اللذين يشكلان الأساس في المعتقدات الأخلاقية التي تتكوّن تحت تأثيرها مختلف العلاقات في المجتمع ، على نحو يسمح للأفراد والشعوب بالتفكير الحر والتعبير الحر . مشدّداً على اعتقاده بأن اللاهوت فعل شامل منتشر في مادة الكون ، يعرف باسم «العناية» .

والخلاصة ، إن مستوى الفضيلة الذي بلغته الرواقية كان عالياً وعظيماً . وهي بتوكيدها على الأخوة الإنسانية والحياة الخلقية تعتبر أنبل فلسفة عرفها العالم القديم . فالفلسفة ليست مسألة مدارس فلسفية أو مناقشات بين قبضة من المثقفين . وإنما هي قبل كل شيء مساهمة كلية في حياة المجتمعات[١٩٥] . وإذا كان أرسطو يعتبر المعلم الأول في مجالي المنطق والفلسفة النظرية ، فإن زينون هو مبدع المذهب الأخلاقي الذي مهر الفلسفة اليونانية بالمناقبية الإنسانية . وقد ظل العالم القديم يأخذ به ويتغذّى منه حتى جاءت المسيحية التي لبثت أيضاً تتغذّى منه حقبة من الزمن ، وظل هو في جوهرها .

وبعد ، يكفي زينون فخراً أنه بشّر بالفضيلة التي تمارس فعلها في الإنسان أيّاً كان وأنى وجد . ودعا الإنسان إلى التكيّف وفق مفاهيم الفضيلة . وإلى ممارسة الفضائل الإنسانية المعبّرة عن الحياة المناقبية . وقد تحولت فلسفته مع تلاميذه وخلفائهم إلى شبه دين مناقبي . قال مونتسكيو في كتابه «روح القوانين» : «استطاعت الرواقية وحدها أن تربّي مواطنين أحراراً ، وأن تنشيء رجالاً عظماء ، وأن تخرج أباطرة كباراً» .

ويكفيه فخراً أيضاً أنه من كنعان . كتب على ضريحه «أما كفاك فخراً أنك من فينيقيا التي أنجبت قدموس الذي جاء إلى بلاد الاغريق وعلّم الناس الحرف»[١٩٦] .

كان زينون يؤثر الصمت على كثرة الكلام ، وكان في صمته وقلّة كلامه مضرب المثل ، فكان الأثينيون يقولون في معرض المدح «فلان أضبط لنفسه من زينون» . أو «فلان ضابط لنفسه مثل زينون» .

من سيرته أن الملك بعث له يوماً بجماعة لوضع تقرير عنه وعن سلوكه . وعلى المائدة بقي زينون ساكتاً . فسأله أحدهم عن سبب سكوته ، فأجاب : لكي تقول للملك : كان على هذه المائدة من يعرف أن يسكت .

من تعاليمه قوله «لنا أذنان وفم واحد ، لنصغي أكثر مما نتكلم» . وقوله «أبشع ما في الدنيا ثلاث : الثرثرة والعجرفة والشراهة» .

قيل له يوماً : أي الملوك أفضل : ملك اليونان أم ملك الفرس ؟ فأجاب : من ملك شهوته وغضبه .

ومن أقواله أيضاً : «لا سعادة من غير فضيلة» . «الإنسان المتفوق من يسمع الأقوال النبيلة ويعمل بها» .

ألف زينون كتباً كثيرة لم يبق منها إلاّ عناوينها . ذكر بعضاً منها ديوجين ليرسي . كان ضياعها خسارة فادحة للتراث السوري ، وزعزعة للفلسفة الرواقية .

كـان زينون قـد رفض لقب المواطن الأثيني ، وأصـرّ على لقبـه الفينيقي . فـاحتـرم الأثينيـون إرادته بعـد موتـه ، ومجّدوه بقبـر وتاج من الـذهب . ونقشوا قـرار تمجيـده على عمودين رفعا في مدرستي أفلاطون وأرسطو . ومما جاء في قرار التمجيد «بمـا أن زينون بن مناسياس أقام بمدينتنا هذه (أثينـا) عدة سنين يعلّم الفلسفـة . وقد اتضـح أنه كـان من أهل الفضل والاستقامـة في جميع الأُمـور . وأنه سار في حياته كلها على مقتضى الأُصول التي كـان يعلّمها ويـدعو إليهـا . وأنـه دأب على حث تـلاميـذه على لـزوم الفضيلة . فقـد رأى الشعب أن يمـدحه على رؤوس الأشهـاد ، وأن يمنحه تـاجاً من الـذهب ، استحقه لـورعه واستقـامته . وأن يشيـد له قبـراً بقرميـد أحمر من بيت المـال . وأن ينقش هذا القـرار على عمودين ، أحدهما في المدرسة الأفلاطونية ، والثاني في المدرسة الأرسطوطـاليسية . وأن المال يسلّم حالاً لمباشرة مصالح الدولة ، حتى يعلم الناس جميعاً أن أهالي أثينا يمجّـدون أرباب الفضل أحياء وأمواتاً»[١٩٧] .

وأهم الرواقيين السوريين بعد زينون هـو بوزيـدونيوس الأفـامي (١٣٥ ـ ٥٠ ق.م) . نشأ في أفاميا (حماه) ، ثم انتقل إلى جزيرة رودس حيث أخذ يلقي دروساً في الفلسفة وفي غيـرها من العلوم . وقـد تتلمذ عليـه في جـزيـرة رودس الخـطيب والفيلسـوف الـرومـاني شيشرون . كما استمع إليه القائد بومبي ، فاتح سوريا سنة ٦٤ ق.م.

والخلاصة إن سوريا أتحفت العـالم الغربي ، في الفتـرتين الهلينستية والـرومانيـة ، بجماعة من أبرز مفكريـه ومعلميه ومؤرخيـه . وهنا تبـرز أفاميـا التي تركت أثـراً واضحاً في الفلسفـة الهلينستية ، مثلمـا تركت بيـروت من بعـد أثـرهـا الـواضـح في الفكـر القـانـوني الروماني . فقـد عرفت أفـاميا بمحبـة أهلها للحكمـة . وفيها التقت العقـائد والحضـارات المختلفة ، فامتزجت وتفاعلت . وخرج منها كثير من الفلاسفة الذين كان لهم أثر فعّـال في الفلسفـة الهلينستية ، نـذكر منهم ، بـالإضافـة إلى بوزيـدونيوس ، نـومينوس ويـامبليخس وأماليوس . وكان منهم بعض رواد الفلسفة الأفلاطونيـة المحدثـة ، مثل نـومينوس الأفـامي الذي هو خير من يمثل في شخصيتـه وفي فلسفته الـدور الذي لعبـه الشرقيـون في الفلسفة اليونانية وتطورها . قال فرفوريوس في كتابه عن حياة أفلوطين : «إن أفلوطين كـان يستخدم كتب الأفامي وغيره من فلاسفة العصر» . وحديثاً يقول بعض الدارسين إن نومينوس الأفامي هو مؤسس الأفلاطـونية المحـدثة ، وأن أفلوطين الـذي تنسب إليه هـذه المدرسـة ، أسس فلسفته على تعاليم نومينوس .

والواقع أن مشكلة العلاقة بين نـومينوس وبين افلوطين هي مشكلة معقـدة . ولكن ما لا يمكن إنكاره أن هناك علاقة بين الاثنين وتلاقياً في بعض مرتكزات فلسفتيهما الأساسية .

ولا نستطيع هنا الدخول في بحث الأثر الذي تركته فلسفة نومينوس في مذهب افلوطين . وكل ما نستطيع قوله هو أن نردّد كلام مؤرخ الفلسفة الشهير تسلر : «إذا لم يكن نومينوس مؤسس الأفلاطونية المحدثة ، فهو الذي عبّد لها الطريق»(١٩٨) .

وبعد ، إن عناصر التأثير والتأثر بين حضارة الشرق المتوسطي وبين بلاد اليونان القديمة ، تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم . «ويمكن القول في اطمئنان إن الدراسات في هذا الموضوع ستحقق تقدماً عظيماً في المستقبل القريب ، وستبين ارتباط الحضارة اليونانية ارتباطاً عضوياً بالأسس الأدبية والدينية والعلمية التي سبقتها وجاورتها . ويمكن التنبؤ بأنه سيكون من نتائج هذا البحث الربط بين تراث الشرق المتوسطي وبين التراث اليوناني والروماني ربطاً وثيقاً . وبأن الحضارة الكنعانية ستكون على أعظم قدر من الأهمية في هذا البحث»(١٩٩) .

خلاصة

وفي ختام هذه المقدمة في تاريخ الحضارة السورية أود أن أنقل إليكم ما عبّر به المؤرخ ول ديورانت عن المقاييس الحضارية ، أعني وجوه السبق والتفوق والإبداع ، في هذه الحضارة . قال «لقد انقضى منذ بداية التاريخ المدوّن حتى اليوم ما لا يقل عن ستة آلاف سنة ، كان الشرق المتوسطي (سوريا الطبيعية) في ما يزيد على النصف من هذه المدة ، مركز الحضارة الإنسانية التي وصل إلينا إشعاعها . ففي هذه الأرض عرف الإنسان لأول مرة في التاريخ الزراعة والصناعة والتجارة . وفيها سكت النقود ، واستؤنست الخيول وصنعت لها المركبات . ووضعت الشرائع ، وانتظمت الشعوب في حكومات وقوانين . ونشأت الحرف والصناعات ، وعرفت العلوم على اختلافها : الرياضيات والطب والكيمياء والفلك والهندسة . ووضعت التقاويم وصنعت الساعات ، وصورت دائرة البروج ، وعرفت الحروف الهجائية والكتابة . واخترع الورق والحبر ، وأُلّفت الكُتب وشيدت المكتبات وأُنشئت المدارس ، وفي هذه الأرض نجد أوّل ما أسسه الإنسان من دول وامبراطوريات ، وأوّل نظام للري ، وأوّل العقود التجارية ، وأوّل استخدام للذهب والفضة في تقويم البضائع . وأوّل كتب القوانين ، وأوّل قصص الخلق والطوفان ، وأوّل أشكال الأدب والشعر والنحت والنقش ، وأوّل الهياكل والقصور» .

والواقع أن أُصول الحضارة السومرية ، البابلية ، الأشورية ، الأمورية ، الكنعانية ، والأرامية ، هي أقدم من ذلك بكثير ، لأن وجود شعوب متحضرة ودول ذوات أنظمة متقدمة

ومنجزات حضارية عظيمة ، لم ينشأ فجأة ، وإنما يمتد في أُصوله إلى فترات وعهـود تسبق التاريخ .

ويضيف ديـورانت «إن اليـونـانيين ، والأوروبيين بشكـل عـام ، لم يشيـدوا صـرح الحضارة ، وإنما اقتبسوا مظاهـرها عن بـابل ومصـر . وما ورثـوه منها أكثـر مما ابتـدعوه . وكـانوا الـوارث المدلّـل المتلاف لـذخيرة من الفن والعلم مضى عليهـا ثلاثـة آلاف سنة ، جاءت إلى مدنهم مع مراكب التجارة أو بغيرها من وسائـل الاتصال بين الشعـوب . فإذا مـا درسنا الشرق المتوسطي وعظّمنا من شأنه فإننا بذلك نعتـرف بما علينـا من دين لمن وضعوا الأُسس في صرح الحضارة الأُوروبية والاميركية . وهو دين كـان من الواجب أن يؤدّى منـذ زمن بعيد .

ومن هذا المنطلق جاءت الدراسات والأبحاث التي وضعها المؤرخون وعلمـاء الآثار الغربيون تزخر بوثائق عظمة سوريا وتفوقها الحضاري . وتؤكد على حقيقة مفادها أن سوريا الطبيعية كـانت مهد الحضـارة الأُولى ، وبـاعثـة أكثـر الأفكـار والمعتقـدات والمعـطيـات الإجتماعية والمبادىء الخلقية قـابلية لـلاستمرار في مجـاراة الحياة ، والتعميم بين مختلف الشعـوب . وإذا كانت الحضـارة تقاس بشـروط السبق والتفوق والإبـداع ، فـإن الحضـارة السورية هي المقياس . أي أن الحضارات البشرية جميعهـا تُقاس بمـا انتظمت بـه شعوب سوريا القديمة من شرائع وأحكام ومؤسسات . وبما تحلّت به من فضائل . وبما أبدعته من ضروب الأدب والفن والعلم . وبما وضعته وآمنت به من معتقدات ميثولوجية وقيم خلقية .

ويبـدو أن الغربيين أخـذوا يؤدون الدين الـذي يتحدث عنـه ديورانت ، منـذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي . فقد أقبل علماء الآثار والمؤرخـون الغربيـون على التنقيب عن آثـارنا ، وقـراءة ألسن مجتمعاتنـا القديمـة ، وتـدوين وتحليـل النصـوص التي كشفت عنها الحفريات في بعض منائر الأرض السورية . وقدموا لنا خدمات جلّى في مجال الكشف عن تراثنا المدفون تحت أطبـاق الثرى منـذ نيّف وخمسة آلاف سنـة . قرأوه ونقلوه إلى لغتهم ودوّنوه في مصنّفات ، ووضعوا فيه دراسات متنوعة بعيدة الأغوار عميقة الأبعاد . فقبل نيّف وقرن لم يكن أحد يعرف شيئـاً عن السومـريين مثلاً وحضـارتهم . وعندمـا بدأت البعثـات العلمية تنقب وتبحث منـذ نيّف ومائـة عـام في بـلاد النهـرين ، لم تكن تنقب عن السومريين ، وإنما عن البابليين والأشوريين . وكان لدى الباحثين أخبار غير قليلة عن هذين الشعبين وعن حضارتيهما ، استقوها من المصادر الإغريقيـة . أما عن بـلاد سومـر وحضارة السومريين فلم يكن لديهم أي إشارة أو لمحة . فلم يرد ذكـر لسومـر في المصادر المتـوافرة لدى الباحث . واسم سـومر ذاتـه كان قـد أمّحى من ذهن الإنسان وذاكـرته لأكثـر من ألفي سنة(٢٠٠) .

«لقد كان اليونان والرومان واليهود ، وهم الذين ننعتهم (الكلام لديورانت) بالقدماء جهلاً منا بحضارات الشعوب القديمة ، لا يعرفون شيئاً عن سومر . ولعل هيرودتس لم يصل إلى علمه شيء عن أولئك الأقوام لأن عهدهم كان أبعد إليه من عهده إلينا»[٢٠١] . أما اليوم فقد صرنا نعرف ، بفضل ما أكتشف من آثارهم كالمعابد والقصور والتماثيل والألواح الموزعة في شتى متاحف العالم ، الكثير عن مناحي حياتهم الاجتماعية والأدبية وحضارتهم العمرانية . إن الإنسان الذي استقر في هذه الأرض (حوض النهرين) منذ ما قبل التاريخ ، يطلع علينا مع بداية العصور التاريخية (الألف الثالث ق.م.) وقد قطع شوطاً بعيداً في ميادين التحضّر . فهو يفرض قوته وإرادته على مناطق من عالم الطبيعة ، كانت من قبل مستعصية عليه . ويقيم المعابد ويشيد القصور ويختط المدن وينشىء الصناعات ويضع القواعد للتنظيم الإجتماعي ، ويلبّي متطلبات الحياة الحضرية من تنوّع النشاط في التنظيمات السياسية والمؤسسات الاجتماعية العامة والخاصة ، وضبط وسائل الإنتاج والتجارة ، وتحديد الحقوق والواجبات . وباختصار ، إن الآثار المكتشفة في سومر تشهد على تقدم حضاري عريق عرفته البلاد منذ الألف الثالث ق.م. وتشير إلى تنوّع الحضارة وإرتقائها في جميع مظاهر الحياة .

وهكذا صرنا نعرف أن السومريين أقاموا صرح حضارة عظيمة امتازت بالعمق والنضج والشمول . تجلّت فيها المزايا الإنسانية النبيلة ، واكتملت فيها النوازع الأخلاقية . وكانت أساساً لجميع حضارات العالم القديم ، حتى ليعتبر إكتشاف هذه الحضارة المنسيّة من أروع الإكتشافات في علم الآثار .

وقبل الاكتشافات التي تمت في القرنين التاسع عشر والعشرين ، لم يكن أحد يعرف قيمة الحضارة السورية من حيث فضلها الكبير وعطاؤها العميم نحو العالم القديم في مسيرته نحو التمدّن والرقي . أو يعرف أن الحضارة الأوروبية القديمة ارتكزت في نشأتها على ما اقتبسه اليونان والرومان القدماء من مقومات الحضارة السورية . وبالتالي لم يكن يعرف مبلغ الدين الحضاري الذي كان للمدنية السورية على الإغريق بشكل خاص .

يُضاف إلى ذلك أن قيمة الآثار المكتشفة في العربيتين الجنوبية والشمالية تكمن في كشفها القناع عن فترة من تاريخ بلاد العرب تبلغ نحو ألفي سنة ، كانت مجهولة من قبل ، وهي سابقة للعصر الذي كنا نؤرخ به البلاد العربية . وهذه الآثار الأصيلة تلقي شعاعاً قوياً على دياجير الظلام فتنيرها ، وتعيننا على إبصار هذا التاريخ وإدراك كنهه . وبفضلها نستطيع أن نقرّر اليوم أننا نقف في وسط ثقافة أو حضارة لم نكن نعرف عنها قبل الإسلام شيئاً ، أو قل كان المعروف عنها قليلاً جداً .

ودراسة هذه الحضارة القديمة ضرورية جداً ، فهي تطلعنا على التراث الأثري الـذي تحتضنه الجزيرة العربية ، والذي يستحق كل عناية واهتمام لأنه يجلو لنا صفحة شغلت من عمر الدهر ما يزيد على ألفي سنة (١٤٠٠ ق.م. ـ حتى ظهور الإسلام) .

وباختصار ، كان لعلماء الآثار والمؤرخين الغربيين جهـود فاضلة في التنقيب والنقـل والتصنيف والتحليـل . يحـدوهم الـطمـوح والفضـول العلمي للكشف عن مـآثـر الأمم القديمة . وقد كانت محاولاتهم رائعة في بعث تاريخنا ونفض الغبار عن حقائقه المجيدة . وفي توضيح جوانب مهمة من حضارتنا .

أما نحن فما زلنا ننهل من معارفهم التي دوّنوها في بحوثهم ومؤلفاتهم . ونعيد نشرها في مؤلفاتنا وبحوثنا . لم نجهد أنفسنا في دراسة تاريخنا الحضاري دراسـة نقديـة جادة من خلال المادة الأثرية التي توفرها لنا أرضنا .

والسؤال : لماذا لم يكن لابناء هـذه الأرض أي اهتمام بمـا ترك آبـاؤهم من الأمجاد الحضارية والعمرانية ، والمآثر الأدبية والفنية والأخلاقية ، تنقيباً أو درساً وتحليـلاً . أو على الأقل نقلاً وتصنيفاً ؟ . لماذا لا تكـون لدينـا الرغبـة في معرفـة مآثـر أمتنا التي كشف عنهـا أولئك العلماء في حفرياتهم وتنقيباتهم ؟ . إننا لم نحفل حتى اليوم (العقد الأخير من القرن العشرين) بما اكتشفوا ونقلوا وصنّفوا . ولم نعمـل على ترجمتـه إلى لغتنا ، أو على الأقـل تصويره وخزنه في مكتباتنا العامة ، كي يستفيد منه بعض طلاب العلم الفقراء الذين لا قدرة لهم على تكاليف السفر إلى الجامعات الأوروبية والأميركيـة لنقل أو دراسـة بعض الجوانب من تـراثنا المخـزون في مكتباتهم . أمـا الطلاب الـذين تـوفـرت لهم ظـروف الإيفـاد إلى المعـاهد والجـامعات الأوروبيـة والاميركيـة ، فكانت مـواضيع أطـروحاتهم تـافهـة . ولم يستطيعوا أن يكتسبوا من المشرفين على مواضيعهم الدقة الموضـوعية والتحليـل العميق في كثير من الأحيان . وظل ينقصهم للأسف الشـديد الـوجدان العلمي المتمثّـل في التوق إلى الكشف عن المجهول في حياتنا الماضية ، والرغبة العلمية في معرفة مآثر الأمم القـديمة ، وهو نوع من الفضول العلمي الذي لا علم من دونه .

في المكتبة العربيـة عشرات الآلاف من المجلدات التي تبحث في التـاريخ العـربي منـذ ظهور الإسـلام ، أو قبل ذلـك بقليل (الجـاهليـة) . ولكن لم يبحث مؤرخ عـربي في التاريخ السوري الحضاري أو في التاريخ العربي القديم على ضوء المكتشفات الآثارية .

وبـالمقابـل أقبلت البعثات العلميـة الأجنبية على التنقيب في مـا اكتشفـوه من منـاثـر حضارتنا . واجتهد العلماء الأجانب بقراءة كتـاباتنـا القديمـة . وعمل المؤرخـون الأجانب

أيضاً على كتابة تاريخنا .

أما نحن فلم ندرس تاريخنا بأنفسنا ، ولم نقرأ كتاباتنا القديمة ، ولم نستقص أسرار حضارتنا العميقة ، ولم نستجل غوامضها الدقيقة . نحن نقلنا عنهم تاريخنا ، وعرفنا من مؤلفاتهم قيمة حضارتنا . وما زلنا نقرأ ألسنتنا القديمة بلغاتهم ، ونقتبس من مؤلفاتهم ، ونعيد صياغة ما وضعوه أو نتبنّى ما طرحوه .

إن السطور الأُولى في تاريخ الحضارة الإنسانية خطّتها المجتمعات السورية القديمة . والطريف أو المؤسف أو المؤلم ، لا فرق ، أن أحفاد تلك المجتمعات من الجيل المعاصر (العقد الأخير من القرن العشرين) يجهلون تلك الصفحات المشرقة التي خطّها أجدادهم في تاريخ الحضارة ، أو يتغافلون أو يتعامون عنها . إنهم لا يعرفون تاريخهم الحقيقي الأصيل ، ولا يدركون شيئاً من المعاني الحضارية والقيم الإنسانية والمنجزات العلمية التي تميّزت بها سوريا في تاريخها القديم ، وبشّرت بها في العالم القديم أيضاً . وما يثير الأسى والأسف في نفوسنا أن نرى اهتمام الغربيين بالتنقيب في أطلال حواضرنا ، وقراءة كتاباتنا القديمة ، وجمع وتصنيف تراثنا ، وتدوين تاريخنا قبل الإسلام ، ونشره بلغاتهم . ولا نرى في الحكومات العربية أو في جامعاتها ومؤسساتها الثقافية ، الميل على الأقل إلى جمع ما دونوه وتصنيفه في المكتبات العربية .

إن النتائج العلمية للبعوث الأُوروبية في العربيتين الشمالية والجنوبية وفي حواضر سوريا الطبيعية ، نشرت في مختلف البلدان وبشتى اللغات . ولكن للأسف الشديد الشديد ، لم يظهر في العربية من هذه المصادر والمراجع إلا القليل ، أو قل النادر . وفي كثير من الدول العربية لم يظهر شيء منها على الإطلاق .

إن السوريين (المقصود سوريا الطبيعية) يجهلون تراثهم القديم ، ولا سيما في الأُصول . فكم سوري يحسن قراءة الكتابات القديمة باللسان الأكادي أو الأشوري أو الكنعاني أو الأيبلاوي أو الأرامي ، والإستفادة منها مباشرة دون وسيط أجنبي يكشف التراب في بلادنا عن آلاف الرقم والنصوص المختلفة . وإذا ما أراد أحدنا الكتابة حولها والتنويه بها ، كان لا بد له من الرجوع إلى عبقريات ضحت بالنفيس حبّاً بالمعرفة .

وكم هو رائع أن يحسن المثقف فينا أو الأُستاذ أو المحاضر الجامعي (بله عامة الناس) قراءة ألس لغتنا القديمة ، فيرى نفسه بعينيه لا بأعين الآخرين . ويقرأ تاريخه وإرثه الثقافي بلغته ولسانه لا بألسنة الآخرين ولغاتهم .

والسؤال الإستنكاري : «كم سوري يحسن قراءة التراث السوري العظيم بألسن لغتنا

القديمة؟» ، ذكرني بما كتبه المؤرخ سايروس غوردون عن الأوغاريتية التي أضحت موضع اهتمام المحافل العلمية والتاريخية واللغوية في كثير من دول العالم . فهي تدرّس مثلاً في نيّف ومائة جامعة في أوروبا وأميركا . والحقيقة ، في نوع من الجزم أو التأكيد ، لا تخلو جامعة في أوروبا وأميركا من كرسي أو دائرة مخصّصة لتحصيل الأوغاريتية ، أو لتراث سوريا الطبيعية بشكل عام . والطريف أن هذا الاهتمام غير العادي بالأوغاريتية وصل إلى الكيان اليهودي في أرض فلسطين . يقول غوردون «والاهتمام بالأوغاريتية غير عادي ، أو قل إنه رائع ولافت للنظر . من أمثلة ذلك أني حين كنت في إجازة في أورشليم سنة ١٩٤٥ اكتشفت أن لا شيء غير عادي بالنسبة لأكثر من ٤٠ طالباً تسجلوا في الجامعة العبرية لتحصيل الأوغاريتية» . وإليك كلمات غوردون[٢٠٢] :

1.2. The interest in Ugaritic is remarkable . For example , while on furlough in Jerusalem during 1945, I discovered that it is nothing unusual for as many as forty students to enroll for Ugaritic at the Hebrew University .

واسمحوا لي أن أطرح سؤالاً استنكارياً آخر : كما جامعة في الأقطار أو الأقاليم أو الكيانات التي تشكل سوريا الطبيعية ، (بله جامعات العالم العربي) خصّصت دائرة أو على الأقل قرّرت تدريس مادة لغة أو لسان أوغاريت في دائرة أو كلية ما ، كما فعلت الجامعة العبرية في القدس المحتلة ؟ .

والطريف أو المؤسف أو المؤلم ، لا فرق ، أن سؤالي الاستنكاري ليس مطروحاً عام ١٩٤٥ ، قياساً على الجامعة العبرية (فقد كنا نعاني من استعمار واستبداد وجهل وتخلف وفقر وجوع وقهر وإلى آخر ما هنالك من أشكال التخلف الاجتماعي والسياسي والفكري والأخلاقي والديني) ، بل مطروح اليوم (العقد الأخير من القرن العشرين بعد الميلاد) .

إن البحاثة والمؤرخين في الأقاليم أو الدول أو الأقطار التي تشكل سوريا الطبيعية (بله البحاثة والمؤرخين في بقية أقطار العالم العربي) لم يطّلعوا بغالبيتهم على ما صدر في الغرب الأوروبي والأميركي من أبحاث بعيدة الاغوار في بعث تاريخنا وتوضيح أحداثه ونفض الغبار عن حقائقه المجيدة . ومن دراسات في تاريخ المدنية السورية ، لغة وفكراً وأداباً وعلوماً ومعتقدات . والواقع أن الباحث المتخصّص يستطيع أن يصنّف مجلّداً ضخماً في أسماء المؤلفات (فهرست Bibliography) التي وُضعت في حضارة المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية . وإذا شاء القارىء الإطلاع على ما وضعه الغربيون من مؤلفات تزخر بوثائق عظمة سوريا وتفوّقها الحضاري ، فأمامه الفهرست الذي صنّفه ج . هوسبرس

بعنوان «فهارس أساسية من أجل دراسة اللغات السامية»(*١) . وإذا شاء شواهد أخرى في الموضوع فأمامه مراجع المؤرخين وهي كثيرة . خذ مثلاً المؤرخ ج . ستارك الذي وضع مجلّداً في «الأسماء الشخصية في نقوش تدمر»(*٢) ، أفرد للمراجع عشر صفحات في كتابه . والمؤرخ هـ . هوفمون الذي وضع مجلداً ضخماً في «الاسماء الشخصية في نصوص ماري»(*٣) ، أفرد للمراجع عشرين صفحة في كتابه . والمؤرخ موريس جاسترو الذي أفرد في كتابه «ديانة بابل وأشور»(*٤) اثنتين وثلاثين صفحة للمراجع . أما المؤرخ س . سيجرت فقد وضع مجلداً ضخماً في لسان من لغتنا ـ لسان أوغاريت(*٥) ، تحدث فيه عن الكنعانيين «الذين ندين لهم بإبداع الأبجدية» كما يقول . وفي حديثه عن النصوص الكنعانية اعتبرها «وثائق أساسية تمدّنا بالمعطيات اللازمة والضرورية عن الأصول الكنعانية للثقافة والديانة الإسرائيلية» . ثم تحدث عن اللغة الكنعانية ولهجاتها ، وعن مكانة هذه اللغة (اللسان) بين اللغات (والصحيح الألسن) السامية (والصحيح السورية العربية) . وتحدث عن تطوّرها التاريخي ، وعن مصادرها ، وعن الدراسات الحديثة حولها . وفي حقل الكتابة تحدث عن الأبجدية الكنعانية ، وعن استعمال اليونان والرومان لهذه الأبجدية . ثم تحدث عن علم الأصوات : المصطلحات الفنية ، الحروف الساكنة واللّينة ، الأنظمة الساكنة ، والأنظمة المعلولة . وعن تحولات في الحروف الساكنة . تحولات في حروف اللين والإدغام . المقاطع اللفظية ، ونبرة الكلمة .

ثم تحدث عن تشكيل الكلمة ، وأصناف الكلمات . وعن الجذور . وأشار إلى نماذج اسمية . وبنى الأفعال ، وتشكّل الضمائر والأدوات . وبحث في تشكيلات الضمائر والأسماء والأفعال والظروف ، ووظائف الكلمات في الجمل . وفي وظائف الضمائر . وظائف الأشكال الاسمية . أبنية الأعداد . وظائف الأشكال الفعلية . استعمال الظروف . استعمال حروف الجر . تصريف الأفعال . صيغ التعجب . بناء الجملة . إلى ما هنالك من تفصيلات ، وكأن اللغة لغته ، أو أنها وجه مشرق في تاريخ حضارته . وقد أفرد للمراجع أربعاً وعشرين صفحة في كتابه .

والطريف أن مؤلفات لوسيان السميساطي المجهول في وطنه ، ترجمت إلى لغات عالمية كثيرة ، وبلغت شهرة عالمية واسعة . ويكفي أن يكون المؤلف هانز ديتشر بيتز(*٦)

1* - J . Hospers . A Basic Bibliography for the Study of the Semitic languages , Leiden 1973 .

2* - J . Stark , personal names in palmyrene inscriptions , Oxford 1971 .

3* - H . Huffmon , Amorite personal names in the Mari texts , Baltimore 1964 .

4* - M . Jastrow , The religion of Babylonia and Assyria , N . Y . 1898 .

5* - S . Segert , A Grammar of phoenition and punic , Germany 1976 .

6* - H . D . Betz , Lukian von Samosata , Berlin 1961 .

قد وضع مجلّداً ضخماً في لوسيان ، أفرد فيه ستاً وثلاثين صفحة للمراجع ، تضم ما يزيد على خمسمائة مرجع ، لا تجد كتاباً واحداً منها في وطن لوسيان (سوريا) .

والأطرف أنك لا تجد في واحدة من جامعات العرب قاموساً واحداً من القواميس الكثيرة التي وُضعت في ألسننا ، من مثل «القاموس الأشوري» بمجلداته المتعددة والضخمة ، و«القاموس السرياني» ، الذي يورد واضعوه للفظ السرياني (الأرامي) معناه بالانجليزية والافرنسية والعربية . و«قاموس اللهجات السورية العامية» ، الذي يورد واضعوه للفظ السرياني (الأرامي) معناه بالإنجليزية والعربية . و«القاموس السرياني» .

أما الدوريات المكرّسة لتراثنا فهي تروع المرء بكثرتها وضخامتها .

وبعد ، نحن لا نسأل : لماذا كُتب تاريخنا باللغات الأجنبية ؟ . ولكن السؤال الذي يُطرح بالحاح : لماذا لم يكتب إلى الآن ، أوعلى الأقل ، لماذا لم ينقل إلى اللغة العربية ؟ .

أليس من المدهش أن تبقى دراسة حضارتنا القديمة ضعيفة الجانب مخفوضة الشأن في بلادنا ، مع ما لها من علو المنزلة لدى الغربيين ؟ .

والمؤسف أن الشعوب والأنظمة في البلدان العربية لم يدركوا حتى اليوم (العقد الأخير من القرن العشرين بعد المسيح) أهمية دراسة التاريخ في تربية المواطن بما يساعد على تماسك المجتمع وازدهاره . وفي توجيه الأُمة ، والآثار المصيرية لهذا التوجيه .

ويبدو أنهم لا يدركون أن من أبشع مظاهر التخلّف انسلاخ الأُمة عن تراثها ، وتركه لأيد أُخرى غريبة تستأثر به لفحصه وجمعه وتدوينه . وأن الأُمة التي تجهل تاريخها لا مستقبل لها . وأنها متى عرفت تاريخها واتضحت لها معطياته الحضارية والقيم والفضائل والمفاهيم الخلقية التي تميّزت بها هذه الحضارة ، يبزغ في صدور أبنائها الإيمان بنفسهم وبقدرتهم على التجدّد والتفوّق والعطاء . وأن من أعظم الدواعي إلى محبة الوطن أن يقف الإنسان على تاريخ بلاده القديم . وأن دراسة تاريخنا القديم تبدّل مفاهيمنا وتنقض الكثير الكثير منها . وربما أدّت إلى تحوّل جذري فيها . وأن الوقوف على الكنوز الحضارية المدفونة في هذه الأرض منذ خمسة آلاف سنة يشكل حافزاً حضارياً قوياً للوعي والنهوض والتجدّد . وأن الاغتراف من المنابع الحضارية التي جرت في هذه الأرض منذ أكثر من أربعة آلاف سنة ، يروي وجداننا بالقيم والفضائل والمفاهيم الإنسانية النبيلة . وأن الماضي لا ينفصل عن الحاضر . والإنسان لا يفهم حاضره إلاّ بماضيه . وأن إلقاء بقعة من الضوء على الماضي ينير الحاضر ويرفد المستقبل بوسائل الاستشراف والفهم .

إن تنبّهنا لماضينا هو من أعظم العوامل في نهضتنا الحديثة . والتنبّه للماضي لا يعني أن يكون البحث التاريخي سرداً لبعض الوقائع والأحداث أو سجلاً للحكام والحروب . بل أن يكون سعياً لإدراك ماضينا الإنساني وإحيائه . والإدراك يعني دراسة المقومات التي تمثّلت في حياة المجتمعات السورية القديمة ، من نظم في الحكم ، وسبل في تحصيل المعاش ، وعلاقات اجتماعية ، ومعرفة نظرية وعملية ، وقواعد سلوكية و . . والوحدة الحضارية التي تسري في هذه المقومات جميعها . وعندما نقول «ماضينا الإنساني» نعني بذلك أفكار الإنسان التاريخي في سوريا الطبيعية وعواطفه وإبداعاته المادية والروحية والأدبية ، وسلوكه في مجتمعاته ، ومدى إسهامه في تنمية تراث الإنسانية الفكري والمادي . والإحياء يتحقق بالإقبال على البحث في مصادر الماضي وآثاره ، وجمعها وحفظها ونشرها .

يُضاف إلى ذلك أن إدراك الماضي وإحياءه يبعثان في النفس إحساساً عميقاً بالجذور المتأصلة والأُسس الراسخة . وشعوراً بالثقة والإطمئنان ينمّي المناعة والصلابة في وجه الأحداث . ويؤديان إلى تكوين مشاعر الإنسان الحي الناهض ، وبالتالي مشاعر الأُمة الحيّة الناهضة . وإلى تقوية الأصالة الفردية والقومية والإنسانية وتنقيتها . وإلى تنمية الشعور بهذه الأصالة ، وجعله عامل استقرار وثقة بالنفس ومبعث تجدّد وتقدم في الوقت ذاته[٢٠٣] .

إن النهضة القومية التي نحيا تدفعنا إلى إقامة حياة جديدة ، وتدعونا في الوقت ذاته إلى أن نستلهم الماضي ونستمد منه عناصر القوة والفخر والاعتزاز . والعود إلى التاريخ طبيعي في كل آن ومكان ، ولكنه يشتد بصفة خاصة في عهود النهضات القومية عندما تهب الشعوب لتنشد حياة الوحدة والقوّة ، فتجد أن من أهم مقومات وحدتها تراثها ، فتعود إلى هذا التراث لتتقوّى به ولتفيد منه العضد المعنوي والروحي في نهضتها المتوثبة وفي سعيها لبناء حياتها القومية الجديدة .

ثم إن القلق والاضطراب (سمة العصر الذي وجدنا فيه) ليفعلان فعلهما اليوم في تنبيه الوعي التاريخي عند الأُمم السائرة في طليعة ركب المدنية الحديثة في الغرب والشرق . فهما يهيبان بالمفكرين والفلاسفة والعلماء إلى المزيد من التساؤل عن الماضي واستجلاء معانيه ، وإلى التطلّع بشوق وإلحاح إلى استكشاف ما يتضمّنه هذا الماضي من عناصر استقرار ، يمكن أن يركن إليها في خضم الاضطراب الشامل . ومن عوامل تقدم ورقي يمكن أن يسعى إليها ويتمسك بها في تيار القلق الجارف .

ونحن الذين يفت القلق في نفوسنا ، ويشلّ الاضطراب قوانا ، ربما أكثر من غيرنا ،

أحوج ما نكون إلى دراسة ماضينا ، تفسيراً وتعليلاً . واستجلاء تراثنا ، وتبيان آثاره في مشكلات حياتنا الحاضرة وفي المصير الذي نتوجّه إليه أو نهيئه لأنفسنا ولأبنائنا من بعدنا . فمسألة الفهم والإفهام تغدو في أوقات القلق والاضطراب وفي أزمنة الإنحطاط الفكري والنفسي ، أبلغ منها في سواها . ويكون أثرها أعظم وأعمق .

ومن المؤسف حقاً أن السوريين لا يزالون حتى اليوم (العقد الأخير من القرن العشرين) يجهلون تاريخهم القديم . يجهلون المآثر التي خطّها أجدادهم في تاريخ حضارة الإنسان . في وقت لا يزال علماء الآثار الغربيون يكشفون كل يوم نواحي جديدة من مآثر السوريين القدماء ، تلقي ضوءاً جديداً على الزوايا الغامضة والجوانب الخفية من تاريخ الحضارة التي شعّت أنوارها على العالم من هذه الأرض ، وما فتئت كتب التاريخ وأمهات المجلات المتخصّصة والدوريات تعقد الفصول الطوال أو تفرد المقالات للحديث عن تلك المآثر ، ولإيضاح الخطوط الكبرى والأساسية للدور الذي مثّلته سوريا في تاريخ الحضارة ، وبالأخص في تكوين وتطوير مجموعة مدنيات البحر المتوسط القديمة .

والأطرف كما يبدو أنهم يجهلون ، أو لا يدركون ، أن تاريخ سوريا الطبيعية هو تاريخ العالم المتمدن . هو ذاكرة الحضارة والقيم الإنسانية الرفيعة . وأن الأرض السورية أطلقت شعلة الحضارة الأُولى وغذّتها . وحمل السوريون أنوارها إلى مختلف أنحاء العالم القديم ، فأضاؤا كثيراً من ظلمات الوجدان البشري . فيها اختمرت أول تجربة حضارية فريدة ، قدمت خدمات جليلة للإنسانية من خلال هندستها الذهنية وقناعاتها الفكرية نحو الكون ومعنى الإنسان فيه . وفي منائرها تفجرت ينابيع حضارية رفدت الإنسانية بعطاء ثرّ من الإبداع المادي والروحي ، كان له أبعد الأثر في تنمية التراث الحضاري للبشرية . ومنها انبثقت المبادىء الإنسانية والقيم الخلقية والفضائل والمفاهيم الإجتماعية التي غذت الفكر القديم ودامت أكثر من غيرها في مساحب التاريخ . ودورها العظيم أنها قدّمت إلى الإنسانية عناصر حضارية غاية في السمو والرقي ، كان لها أثرها الكبير في نشوء وتطور حضارة الإغريق التي ارتكزت عليها الحضارة الأُوروبية الحديثة . يقول المؤرخ أنطون مورتغات «من الصعب فهم أنفسنا ما لم نفهم حضارات بلدان الشرق المتوسطي . فمقومات الحضارة التي نرغد بها ، كبيرة كانت أم صغيرة ، يعود الفضل فيها إلى تلك البلدان»[٢٠٤] . ويقول المؤرخ وارنر كيلر «كان نصف الدائرة العظيم هذا ، المحيط بالصحراء العربية ، يضم عدداً من الحضارات التي يقع بعضها إلى جانب بعض في نظام كأنه اللؤلؤ المضيء ، يرسل الأشعة إلى الظلمة البشرية المحيطة به ، لقد كان هذا مهد الحضارة من العصور الحجرية إلى العصور الذهبية للحضارة اليونانية»[٢٠٥] . ويتحدث

البرايت عن الدور المهم الذي كان لسوريا في الألف الثالث ق.م. في السياسة العالمية وفي حقول الحضارة كافة ، فيقول «كان لسورية دور مهم وأساسي في السياسة العالمية منذ الألف الثالث ق.م. وكانت المدنية فيها على غاية من الرقي . ومنذ العصر البرونزي الأوسط (١٧٠٠ ق.م) نلمس تطوراً منتظماً ومدهشاً لحضارة هامة منتشرة من أوغاريت على الساحل السوري حتى الجنوب الفلسطيني ، ومن البحر إلى الصحراء»[٢٠٦] .

والواقع أن سوريا الطبيعية كانت مهد الإنسان العاقل . ومنها انبعثت الحضارة الإنسانية لتشع على العالم . يقول المؤرخ إ. جيمس «إن ما كشفت عنه الحفريات في السنوات المائة الأخيرة يثبت بغير تردّد أن فجر المدنية انبثق في منطقة الشرق المتوسطي»[٢٠٧] .

وعي «السيّد» «العالي» ـ (اللّه)
في ذهن الانسان القديم
في سوريا الطبيعية

ظل الإنسان في أثناء المراحل الحجرية الأُولى أسير المحيط المادي الذي عجز عن فهمه أو تفسيره ، فعاش ظواهره الطبيعية منفعلاً بها ، لا فاعلاً فيها . ووقف أمام القوى الطبيعية مشدوهاً وخائفاً ، تستبد به الرهبة ويملك الوجل عليه لبّه . يعاني وبأشكال متباينة من الشعور بالقلق أو عدم الشعور بالأمان . ولكن الطبيعة الإنسانية تحمل في طياتها بذور الوعي التي تتفتّح بنسب متفاوتة وفي حدود معينة بحسب الزمان والبيئة . ومحاولات التفسير والتعليل قديمة قدم الإنسان . ومن الممكن القول إن بداية وعي الإنسان مرتبطة بإحساسه بالسؤال : لماذا ، وكيف ؟ .

ويبدو أن الإنسان القديم في سوريا الطبيعية (البيئة) بدأ في وقت مبكر جداً (الزمان) ، بالقياس إلى غيره في المجتمعات الأُخرى ، يتأمّل (تفتّح بذور الوعي) في الكون المحيط به ، وفي الظواهر الطبيعية الفاعلة في بيئته ومحيطه ، وما يعتورها من تغيّرات راتبة دورية وأُخرى عنيفة فجائية . ولعل الشعور الأول الذي خالجه في مراحل وعيه الأُولى هو شعوره بأنه متصل بالوجود وقائم فيه . وأن هذا الوجود لغة ، ولكنها لغة غامضة ومعقدة يصعب فهمها أو استبصار معمّاها . فالانطلاق الأزرق الرحب الذي يلف الكون بسعته وعلوّه ، يشرق من أفقه اللامتناهي كوكب الشمس حيناً ، وآناً يبزغ القمر بوجهه النوراني وتسرح النجوم المتلألئة ، ألقى في نفسه الرعب والرهبة بقوته وجلاله . أما العوارض الجوية التي يضطرب بها النظام العادي ، كالبروق والرعود والصواعق والعواصف ، والحوادث الأرضية المفاجئة كالطوفان والزلازل وغيرها ، فكان تأثيرها في مشاعره كتأثير قرع الجرس في تنبيه الغافل وإيقاظ الوسنان . وهكذا شدهته القوى الطبيعية بظواهرها الخارقة بالنسبة إليه في مراحل وعيه المبكرة ، وبدورها المهم في حياته . فاندمج في هذا الميدان المفتوح أمام الشعور بالإعجاب والخوف ، متأملاً بحسه الطبيعي وانفعاله الحي . يثير التأمّل في نفسه أسئلة بسيطة في وضعها ، واضحة في ظهورها ،

ولكنها عميقة في مراميها وأبعادها . أسئلة من مثل : من خلق الوجود ؟ ومن نظّمه ؟ . من يحرك قوى الطبيعة ؟ . وهل في الطبيعة قوى تسيّرها ، أم أن القوى خارجة عنها ؟ . وأين تكمن هذه القوى ؟ .

ففكره التأمّلي لم يكن انسراحاً طليقاً للذهن ، وإنما ارتبط بالواقع مستقرئاً الظواهر الغامضة التي تطرح أمام إدراكه ، مستوعباً حركات الطبيعة في محاولة لتفسير الوجود وكشف غوامضه المثيرة للتساؤل . والتفكير بالقوى الفاعلة وكيفية عملها ومدى تأثيرها في الحياة والعالم .

ويبدو أن محاولاته الدائبة لتفسير مبادىء الطبيعة وتصنيفها ، وإيجاد رابطة ما بين البواعث وبين الظاهرات الطبيعية المتمثلة في حركات العالم الخارجي ، ظلت تشغل ذهنه منذ استيقظ فكره وبدأ يرقى في مدارج الوعي(٢٠٨) ، آملاً الوقوف على مخطط سيرها مما يتيح له التحكّم ، بإمكاناته المحدودة ، بالطبيعة أو بظواهرها ، أو توجيه قدرها تجنّباً لخطرها . أو على الأقل الوصول إلى نوع من الشعور بالإطمئنان تجاه بواعث حركات الطبيعة . وظلت رغبته العارمة تحدوه للتعرّف على نظم الكون ورصد حركات الطبيعة وتنظيم نوازع الوجود الغامضة وتعليل الظواهر المختلفة أو ردّها إلى أسباب معقولة وعلل مقنعة .

وبمقدار ما كان البحث عن العلل يلحّ عليه ، ويضنيه التساؤل عن المسببات ، ويؤرقه تعليل ظواهر الكون وأحداثه ، والتفكير في مبدأ الإنسان ومصيره ، بمقدار ما كان يعاني من الشعور بالقلق والعجز والضعف . ورغم أن الشعور بالقلق هو سمة من سمات النفس في تلمّسها الحقائق تحت وصاية العقل ، فإن القوّة العقلية الواعية لم تكن قد نمت لديه بما يكفي لتفسير الظواهر الطبيعية وتحولاتها حوله . ولذلك وقف حائراً عاجزاً عن تعليل أي ظاهرة من ظواهر هذا الكون الهائلة المرعبة . وظل عاجزاً أيضاً عن تنسيق مبادئها وسببياتها لبعد سلطة هذه الحركات عن متناوله .

ويوم كان النشاط العقلي محدوداً ، وكان مجاله قصيراً وكانت معطياته ساذجة بسيطة . وبالتالي كان الإنسان يعاني من الشعور بالضعف والعجز في وعيه للمبادىء غير المحسوسة ، أو وعيه للأسباب والعلل . وقبل أن تنمو لديه رقابة العقل ودلائل المنطق ، كان الحسّ الإنساني يقفز إلى المطلق ، وينسب كل شيء عجز عن تفسيره إلى القدر الغامض أو إلى عالم الغيب .

ويوم لم تكن له الإمكانات الذهنية القادرة على فهم العلل والأسباب . ولم يتوافر له

من العلم مـا يمكنه من ربط العلة بـالمعلول ، على الرغم من إدراكـه بالغـريـزة استحـالـة حـدوث شيء من لا شيء . ولم يكن لـه في مـراحـل وعيـه الأولى المعـارف الضـروريـة والخبرات العقلية التي تؤهله لفهم قوانين الطبيعة . ولم تكن القدرة على التأمل الـذهني أو التفكيـر العلمي قد استيقـظت في نفسه . ولـم يكن تفكيـره في تحوّلات الـطبيعة أو تعليـل ظواهر الكون قد وصل به إلى شعور مقنع مـطمئن . ولم يكن وعيه للسببيـات قد نضـج في ذهنه ، وبالتالي لـم ير سبباً ظاهـراً للحوادث التي تشـدهه وتؤثـر في حياتـه . فلذلك وغيـره نسبها إلى أسباب خفية ذوي قوات هائلة ، أو كائنات موفورة الفطنـة واسعة المقـدرة . ومن الـطبيعي أن عجزه عن تعليـل الحوادث الـطبيعية ، وعـدم قـدرتـه على إدراك الأسبـاب أو الوقوف على المسببات ، ساقه إلى افتراض وجود قوى غيبيـة تقف وراء الحوادث الـطبيعية التي عجـز عن تفسيرهـا أو إدراك عللها ، تسيـطر عليها وتتحكم بهـا ، معتقـداً أن تقلّب أو تشكّل المظاهر الطبيعية المختلفة إنما يعزى إلى تلك القـوى . أو مفترضـاً أن في الظاهـرة الطبيعية وفي العنصر الطبيعي قوة عليا مدركة واعية تؤثر وتفعل . وهكذا راح يضـع في مبدأ كل فعل فاعلاً ، معتقداً أن لا شيء يقع في الكـون من دقيق الحوادث أو جليلهـا إلاّ وللقوة العالية المطلقة فيه قضاء وتـدبير . وحتى اليـوم (العقد الأخيـر من القرن العشـرين) لا يزال بيننا من يعرض للأحداث السعيدة التي تتمخّض عنها نواميس الطبيعة ، فيذكرها على أنهـا عناية إلٰهية ومرحمة سماوية .

والطريف أنه أدرك في وقت مبكر من تاريـخ الحضارة أن القـوى الكامنـة في ما وراء الـطبيعة ليست من جنس الـطبيعة المـادية المنفعلة . وإنمـا هي قوى فعّـالة ومؤثـرة ، لهـا أسلوبها في تصرفاتها مباين للطرائق التي تؤثر بها المادة في ما حولها . فالمـواد في الطبيعـة يصدر أثرها عنها دون شعور منها ، ولا اختيـار لها في صـدوره . أما القـوى الكامنـة في ما وراء الطبيعة فهي قوى عاقلة تقصد ما تفعل وتتصرّف بمحض إرادتها واختيارها .

ويوم وصل به التأمل في ظواهر الطبيعة إلى درجة الإحساس أو الإعتقاد بـأن في تلك الظواهر وجوداً حيوياً أو فعلاً حيّاً ، أو أن وراءها قوى حيوية هي سبب كل مـا يحدث أو مـا تحـدثه الـظواهر في الـطبيعة : رعـد ، برق ، هبـوب الريـاح ، هطول الأمـطار ، فيضـان الأنهار . . وأن هذه القوى أبعد وأعـظم مما تستـطيع مـداركه أن تحيط بـه ، بدأ يتجـه إلى تعريف وتصنيف العناصر الطبيعية الظاهرة الأثر في الوجود ، وبالتالي ينتقل تأثيـر فعلها إلى الإنسـان الذي يعيش تحت رحمـة هذه الـظواهر . أو الفـاعلة مباشـرة في مسيـرة يـوميـات الإنسان . فخلع عليها الألقـاب بحسب مفهومـه لها ، أو أطلق عليهـا صفات تعين سمـاتها وأفعالها وعلاقته بهـا . أو نسب لها الصفـات التي يتخيّلها ويشعـر بعجزه عن التمتـع بها .

وغالباً ما كان يلجأ إلى تشخيص الظواهر الطبيعية وإلى تحديد معالم فعل حي لكل منهـا ، باطلاق صفة عليها .

ومن الواضح أن علاقته كإنسان مع الطبيعـة وقواهـا هي التي كانت تعيّن الصفـة التي يضفيهـا على القوة أو الفعـالية ، وتحـدّد درجة أهميتهـا . وأن الصفـات التي أطلقهـا على القـوى الرئيسيـة في الطبيعـة أو في مظاهـرها ، تعبّـر عن أقرب مـظاهـرهـا شبهـاً بـأعمـال الإنسـان . وهي نـوع من عملية تصنيف للمبـادىء التي تعمـل بهـا الـطبيعـة ويـلاحـظهـا الإنسـان . وأعتقد أن فهمنـا للصفات التي أطلقهـا على مبادىء الـطبيعـة ، يسـاعـدنـا في التعرّف إلى العلاقة العملية بين يوميات الإنسـان وبين اجتهاداتـه الذهنيـة ومعتقداتـه الغيبية (اللاهوتية) .

فحين بـدأ الإنسان حيـاته المستقـرة بالـزراعة . ونشـأ لأول مرّة المجتمـع الـزراعي المستقر المعتمد على ضمان توفير مياه الري ومساعدة العوامـل الطبيعيـة المختلفة الـلازمة للإنتاج الزراعي . وشعر الإنسان من خلال تجـاربه بضـرورة ضمان ذلـك الاستمرار الـذي ينضح في صدره الطمأنينة على حياته في غده ومستقبله . وعى حقيقـة إرتباط الحيـاة ودوام الحياة بالظواهر الطبيعية المحيـطة به والمسيـطرة على بيئته ووجـوده . فأدرك مثـلاً العلاقـة السببية بين الشمس وبين الأحياء نشـاطاً وذبـولاً . ورأى أن الشمس هي علة الخيرات التي تدرّها الأرض . وهي التي تحدّد بسيرها فصول البذار والزراعة والحصاد . فـاعتبرهـا كائنـاً «عالياً» «سماوياً» ، مضيفاً في كتابته للإسم إشارة النجمة كـرمز لقـوة مستترة خلف المـظهر المـادي ، لها فعـل وتأثيـر غير محـدودين . أو باعتبـاره لا شبيـه لهمـا في عـالمـه المـادي المحدود . فهي ، بالإضافة إلى كونها وجوداً مادياً ، قوة «عالية» . ولكن لا فرق في مفهومه بين الشمس كمادة ضوئية وبين الشمس كقوة «عالية» أو «سماوية» .

وأدرك أيضاً العلاقـة السببية بين العـواصف الرعـدية وبين السحـاب الماطـر السخي الذي يخصّب الأرض ويشكّل الينابيع والأنهار . وقد يكـون غزيـراً فيغرق الحقـول ويجرف المحاصيل ، ويتشكل منه طوفان يقتلع السدود ويمحو معالم العمران .

هـذه القوة التي تهـدّ في السماء هـدّاً أطلق عليها صفـة «هدد» . فـ «هـدد» بـاعتبـار شعـوب سوريـا القديمـة قوة سخيـة حيناً بـالمطر الـذي يحمل الخصب ويبعث الحيـاة في المخلوقـات جميعاً . وحينـاً آخر قـوة مخرّبـة مدمّـرة . وقد عبّـر أمـورابي عن قـوّة «هـدد» بمظهريها في معرض دعوته على من ينتهك حرمة قوانينه بقوله «ليحرمه رب الفيض ، ساقي السمـوات والأرض ، هدد ، من أمـطار السماء وجـريان الينـابيـع . ويهلك أرضـه بـالفقـر

والجوع . وليرعد بعنف فوق مدينته . ويجعل الطوفان أرضه خراباً»[٢٠٩] .

وأدرك أيضاً وأيضاً العلاقة السببية بين الشمس والرعد (هدد) والمطر والينابيع وبين خصب الأرض واخضرار المراعي وازدهار الزروع والمواسم . وبالمقابل أدرك العلاقة بين الشمس والجفاف واليباس وبين الفناء (موت) .

يُضاف إلى ذلك أنه عكس أفعال الطبيعة على حياته مذ وعى الكون حوله . فأفعال الطبيعة الملائمة له ولحياته : بذور وزروع وطقس معتدل فمواسم خيّرة ، رأي فيها الخير . وأفعال الطبيعة المؤذية له : طوفان ، زلازل ، أو جفاف ويباس (موت) رأى فيها الشرّ . والطريف أنه أسكن قوى الخير في الأعالي ـ السماء ، بينما أسكن قوى الشر في العالم السفلي ـ الجحيم .

والواقع أن تحليل صفات القليل من القوى العالية المتعددة لدى الإنسان القديم في الشرق المتوسطي ، يعكس لنا التأثير البالغ الذي تركته الكواكب كالقمر والشمس ، والظواهر الطبيعية كالرعد والمطر والنهر واليم ، في نفسه ، والأثر الكبير في حياته . فهو لم ير الطبيعة جماداً أو فراغاً ، بل رأى كل شيء نابضاً بالحياة . فكانت الأشياء والظواهر المحيطة به تتشخّص بنظره في أشكال حية ، لكل منها شخصية محدّدة ، له انفعالاته وفواعله ، وله إرادته الخاصة وذاته المميّزة . وحين اعتبر الطبيعة حياة ، وبالتالي رأى في كل ظاهرة طبيعية إرادة وشخصية «قوة» ، أخذ ينفعل بتحولاتها ويواجهها بانفعالاته النفسية : تقرّب منها وانسجم معها ، ثم راح يحاول تصنيف حركاتها وتنظيم علاقته بها ، مضفياً عليها الصفة بحسب إحساسه بها أو مفهومه لها .

ورأى أن وظائف القوى العظيمة والفعاليات غير المنظورة ، التي تثير في نفسه الرهبة والمهابة ، هي إدارة شؤون الكون ، كل وفق اختصاص معيّن ونواميس معروفة . ومن هنا كان اعتقاده بوجود تنظيم جماعي كبير لطاقات القوى العالية التي تقرّر المصائر وتصرّف الأُمور على الأرض وفي الكون . وكان حديثه ، في ما وصلنا عنه من نصوص ، عن العلاقات بين ظواهر الطبيعة وكأنها علاقات اجتماعية . وحديثه عن نظامها في أداء وظائفها وكأنه نظام من الإرادات ، أي كدولة .

والملاحظ أن اطلاقه الصفات على قوى الطبيعة هو نوع من التشخيص المجازي بهدف تعيين مظاهرها ، أو شكل من أشكال التعبير عن تفكيره في مبادىء الطبيعة . وأن رسم النجمة الذي كان يضيفه إلى القوة أو الظاهرة الطبيعية يعني النظام الذي يعنى بالوجود المادي الطبيعي ويحفظ خواصه ويوجه فعاليته . ويشير إلى القانون المستتر خلف

المظهر ، والسلطة الكامنة خلف المادة . ويرمز إلى قوة الفعل في الظاهرة الطبيعية . وأن عملية التصنيف للقوى والفعاليات غير المنظورة ، الكامنة خلف الظواهر ، كانت تتم بعد الملاحظة وتكرار الملاحظة ، وفق المبدأ ذاته الذي يصنّف به الذهن العلمي قوانين الطبيعة ويتعرّف إلى علاقاتها .

والقوى الخفية التي أحسّ بوجودها في ظواهر الطبيعة المختلفة ، آمن بقدرتها وفاعليتها في مقومات الطبيعة . فهي باعتباره تسيّر الطبيعة وتوجّه قدرها وتتحكّم بصيرورة العالم الأرضي وتجعله تابعاً لها ينفّذ الإرادات الصادرة عنها ويسير بموجب الأحكام التي تقررها . ونسب إلى كل منها جانباً واحداً أو أكثر من الجوانب المؤثرة في حياته . وأضفى عليها صفاته وأخلاقه . ولكنه ميّزها عن البشر بالخلود . واعتقد أن هذه القوى تستقر في السماء . فجسّدها بهيئات بشرية ذكرية أو أنثوية ، أو بهيئات حيوانية ، أو بهيئات مركبة من صفات بشرية وحيوانية . أو اتخذ لها رموزاً معيّنة ، وضعها في المعابد ، واعتبر هذه المعابد بيوتاً مقدسة تستقر فيها القوى في أثناء وجودها الرمزي على الأرض .

ومن الطبيعي أن تكون السماء كـ «قوة» على رأس القوى الكامنة خلف الظواهر الطبيعية . وأن تكون بالتالي أكبرها شأناً وأشدها نفوذاً وأبعدها تأثيراً وفعلاً .

ولكن «ما هي السماء؟» .

قبل أن ينداح في خاطره هذا السؤال كان يعلّل حياته بهذه القوّة أو تلك من العلل الكونية . وحين بدأ يعلّل ظواهر الطبيعة افترض وجوداً غامضاً كامناً خلف الوجود الواقعي ، راح ذهنه يلجأ إليه لتفسير كل ظاهرة لا يجد تفسيراً لها في التجربة الحسية . وبقدر ما كانت المفاهيم العلمية لظواهر الطبيعة وحوادثها الطارئة ، ضئيلة وغامضة ، بقدر ما كانت سلطة هذا الوجود الغيبي تكبر وتتسع ، حتى غدت العلاقة بين الإنسان القديم وبين الوجود الغيبي يومية وحميمة . وهي في الواقع لم تكن غير علاقة الأشياء والأحداث بمبادىء الطبيعة وأسبابها . وإذا كان الفصل بين الأشياء وحركاتها وبين المبادىء والأسباب غير ممكن ، كذلك لم يكن ممكناً الفصل بين ذهن الإنسان القديم وبين مشاعره العلوية الغيبية ، في وقت كان مفهومه للوجود الغيبي المطلق مرجعاً يفسّر المبادىء والأسباب جميعها[٢١٠] .

أما الآن ، وبعد أن انداح في خاطره السؤال ، فقد راح يندمج في عالم الغيب بحس عفوي طبيعي ، يشدّه إليه ميول غامضة لاستشراف العلاء ، ونوازع مبهمة إلى استكشاف سرّ السماء ، والوقوف على حقيقة هذا الكون العظيم . وعندما اندمج الإنسان القديمة في

الشرق المتوسطي بالغيب، وتفاعل مع الطبيعة في شبه تواجد حميم ، تجلّت له عظمة الطبيعة في نظام عجيب خارق خاضع لقوى منظمة بواسطة توازن ظاهراتها (حركات الكواكب، ومدارات الفصول) . تلك الظاهرات التي تمتاز بفاعليتها المعطاء (إخصاب اللقاح الأنثوي ، والحياة في نور الشمس وحرارتها) . وتجلّت له أيضاً في هذا العلو الرهيب العميق الذي كان في كثير من الأحيان يفعل في نفسه ويستثير خوفه ، فيغمره الإحساس بالجلال والعظمة ، ويحيا حالة ذهنية فائقة الحساسية ، فتتكشّف له السماء بعلوها الهائل وامتداداتها اللانهائية وسرِّها العميق في تجربة نفسية فريدة تكاد تكون رهيبة . تجربة المهابة والجلال ، والقوّة المستقرة الهادئة الكامنة في المهابة والجلال ، والتي تظهر له كنظام ، ومن ثم كأساس الحياة البيولوجية .

وإلى جانب ما أوحت به السماء إليه من إحساس بالرهبة والعظمة والجلال ، وجد أن للسماء في هذه البقعة من الأرض سلطة تفرض نفسها عليه كما تفرضها على الطبيعة ومظاهرها . وهكذا اندمج مفهومه للقوة الجبارة التي تدير شؤون الكون الإنسانية والطبيعية بالعلو والسماء . وظلت مشاعره مشدودة أبداً نحو الجلال والسلطة المطلقة اللذين توحي بما السماء . وهنا اتسعت الدنيا بنظره ، وراح ينغمر في استقراء الأحداث الكونية بنظرة شمولية وتسلسل منطقي ، مستخرجاً القوانين الشاملة بالمقارنة حيناً وبملاحظة تكرار الحوادث أحياناً .

وفي هذه المرحلة من وعيه أدرك ذاته ككائن زمني وتاريخي . وترافق وعيه لذاته مع وعيه للكون والقوى الجبّارة الفاعلة فيه . ومع اتساع المدى الذهني بتجارب الذات ، ونمو الوعي ونضج الفكر مع تنوّع التجارب وإتساع الخبرة في تصنيف الأشياء ، ووصوله إلى درجة من وعي الأسباب والعلل ، ووعي المبادىء غير المحسوسة ، ارتفع بنظرته إلى الأعالي متأملاً بالفارق العظيم الذي يفصل الأرض عن السماء . والتأمل طريقة حدسية من طرق الإدراك ، تكاد تكون أقرب إلى الرؤيا . وحين اقترب الإنسان في الشرق المتوسطي ، في تأمّله من حافة الرؤيا ، استوعب الكون بنظرة شاملة ، وراح يلتمس له سبباً واحداً لـ «الحصول» كما حصل . فخالجه شعور بأن مركز الوجود ومغزاه بعيدان عن الإنسان ومنجزاته . ويقين بأن في السماء قوة عالية مستقلة عن إرادة البشر ، صنعت الكون ونظّمته وخلقت الإنسان . يخضع الجميع لتأثيرها ، ولا قدرة لهم على تحويل سيرها أو تعديل نظامها . افترض فيها القوة المطلقة ، قوة الخلق وقوة الإفناء . وافترض أنها ترعى شؤونه . وفي محاولته التقرّب إلى هذه القوّة الكامنة وراء تنظيم الكون ، قفز من المحسوس إلى ما وراء الطبيعة ، فالتقى مباشرة بالمطلق الذي تمثّل له في أسمى صورة

من الجلال والرهبة والعظمة والقدرة .

ومن الواضح أن اندماج فكرة هذه القوة بالعلو والسماء في الذهن المشرقي القديم ، ذو دلالـة عميقة على العـلاقة المـرهفة التي تـربط الإنسان بـالوجـود الكوني البعيـد . هذه العلاقة التي تعبّر عن ذاتها بالمشاعر العلوية السامية المشدودة أبداً نحـو المطلق الكـوني . وهذ ما نراه عند سـائر البشـر ، فإن مسكن «الآلهـة» بمفهومهم هـو السماء ، أي العـلاء . والسماء مأخوذة من سما أي علا وارتفع . واسم السـماء مرادف لاسم الإله في لغات العالم بغالبيتها . وإذا ما أراد الناس ، بسطاء كانوا أم علماء ، الإشارة إلى اسم الإله رفعوا أيديهم إلى السمـاء . ثم إن الصلوات الشعبية في العـالم بمجملهـا مـوجهـة إلى «أبينـا الـذي في السماء» . والطريف أن صلوات الإنسـان المبكّرة كـانت توجّـه إلى الأب السماوي ذاتـه . تقول صلاة افريقية قديمة «حيث تكون السماء يكون الإله أيضاً»(٢١١) . ومن هنا كان ، ولم يزل ، ارتباط مفهوم الألوهة بالعلو والسماء .

هذه القوّة وهذه السلطة المطلقة اللتان توحي بهما السماء ، أطلق عليهما السومريون في حـوض النهرين الأدنى صفـة «ان» ـ (السيد ـ السمـاء) . وأطلق عليهما الأكـاديـون في البـادية السـورية ، وهم في حـالتهم الفطريـة قبل الأزمنـة التاريخيـة ، صفة العلو «عـلْ» ـ (العالي) . واطلق عليهما البابليون صفة «ماردوك» ـ (السيـد العظيم) . والأشـوريون صفـة «أشور» ـ (السيد) .

والملاحظ أن السومريين اعتبروا السماء في البداية كياناً قائمـاً بذاتـه ، وقوة أيضـاً . فكان اللفظ «ان» يعني «السيد» ويعني «السماء» في الوقت ذاتـه . وبمرور الـزمن انفصلت السماء ككيان عن السماء كقوة ، وأصبحت السماء موطن القـوة «ان» . أما الأكـاديون فقـد رأوا منذ البداية أن السماء كيان قائم بـذاته ، وهي مـوطن «علْ» ـ (العـالي) . ولعل الـدور الذي تمثّله السماء في تركيب الكون المرئي ، والمحل العالي الذي تتبوأه بكونها فوق كـل شيء ، يفسّـر اعتبار السـومريين «ان» ـ (السيـد ـ السمـاء) أهم قـوة في الكـون . واعتبـار الأكاديين السماء موطن «علْ» ـ (العالي) .

الفكر الميثولوجي

التكوين والخليقة

إن تفسير مفهوم اجتماعي معيّن (العالي ـ ايل ـ الله) معناه البحث عن أسباب نشأته وتطوره ، وبيان سعة انتشاره بين الشعوب ومدى انغراسه في الأذهان . ولا سبيل إلى ذلك إلّا بالإنتقال إلى البرهات الأُولى ، حيث وجدت الأسباب الداعية إلى ظهور المفهوم ، والدافعة إلى الإعتقاد به أو إلى انغراسه في الأذهان . ولكننا لا نستطيع كشف النقاب عن مفهوم العالي في الأزمنة الغابرة لأن أصحابه لم يتركوا لنا آثاراً نستدل بها على علاقتهم بالعالي ، المطلق . ويعسر على الباحث تقصّي البدايات أو الأطوار الأُولى التي مرّ بها هذا المفهوم ، لأنها تسبق المرحلة التاريخية الأُولى التي حدّدها المؤرخون بالألف الرابع ق.م. وعندما يصبح التعرّف على المعتقدات في سوريا الطبيعية ممكناً في أواخر الألف الرابع ق.م. فإنها تظهر تامة التكوين واضحة المعالم . أو قل إن التاريخ يفتح عينيه على الشعوب القديمة في سوريا الطبيعية وقد بلغت مراحل متقدمة في النضج والتطور . ومنذ بداية التاريخ المدون (٣٥٠٠ ق.م.) نقف على مفهوم اعتقادي ناضج ومعقّد . والملاحظ أن معتقداتهم التي بلغت طور النضج في الألف الثالث ق.م. ظلت من حيث أُسسها وأُصولها طوال العصور التاريخية حتى فجر الإسلام : الأسماء ذاتها ، والطقوس والشعائر والتراتيل عينها .

عاش الإنسان القديم في سوريا الطبيعية على أرضه منذ أقدم العصور . وعرف «زمن البدء» ، وفسّر الكون ، واتصل حاضره منذ الألف الرابع ق.م. بماضيه الميثولوجي . وكانت النظرة الأُولى التي ألقاها على كونه وعالمه ، والقصص التي فسّر بها الكون وأصل الوجود ، والحوادث البدئية التي رافقت مرحلة التكوين ، قد شكلت الأُصول الأُولى في فكره الميثولوجي . وحملت إلينا قصصه الميثولوجية التي وصلتنا عنه ، بالإضافة إلى تفسيره الكون والخليقة ، ذكرى أزمنة كمال البدء ، وذكرى جنة مفقودة ، حيث لا يشيخ

الإنسان ولا يمرض . كما حملت فكرة تجديد الكون وإعادة خلقه بواسطة الطقوس . وكذلك قصص تدخّل قوى عالية (آلهة) على الأرض لمصلحة الإنسان : تحضيره وتنظيم حياته وتدريبه على أعمال الزراعة والري والعمارة وسائر الفنون .

وقد دفع بهم التفكير في الكون والحياة والمصير إلى دوائر من الشك والحيرة والتساؤل . ويعكس ما وصلنا عنهم من قصص ميثولوجية مقدسة أقدم المحاولات المتضمّنة بحث ومناقشة أهم القضايا الفكرية التي شغلت عقل الإنسان القديم، من مثل : خلق الإنسان ، والكون ، وأسرار الطبيعة ، وحتمية الموت ، وقضية البؤس والشقاء وعلاقتهما بالبر والإستقامة في الحياة ، وغير ذلك من قضايا فكرية ما فتئت تشغل بال الإنسان حتى اليوم (العقد الأخير من القرن العشرين) في شتى المجتمعات .

المهم أن الإنسان القديم على أرض سوريا الطبيعية ، وخاصة في وادي دجلة والفرات ، وعلى امتداد العاصي وبردى ، في ماري وايبلا وافاميا ودمشق . وعلى الساحل السوري من غزة جنوباً إلى أوغاريت شمالاً مروراً بصور وصيدون وجبيل . وعلى أرض فلسطين في أريحا وجازر والقدس ، ترك لنا فكراً ميثولوجياً غنياً وفعّالاً كان له أثر كبير في تاريخ الحضارة الإنسانية وتاريخ الفكر الديني .

وعندما نقول «فكراً ميثولوجياً» لا نعني به القصص الخرافية بالمفهوم اليوناني القديم . وإنما نقصد التعريف الجديد لتعبير «ميثولوجيا» ، أي القصص والأحداث التي عاشتها الشعوب القديمة باعتبارها قصصاً «حقيقية» و«مقدسة» أحياناً . أبطالها قوى عالية (آلهة) وزمنها وهو زمن البدء أو الزمن المكثّف أو الزمن المشبع بالقوى الفعّالة الخلّاقة .

الأفكار الميثولوجية قصص مقدسة وحوادث وقعت في زمن البدء ، تروي أعمال القوى العالية أو من هم فوق الطبيعة ، حين ظهروا وفعلوا وأظهروا قوتهم المقدسة ، سواء أكان ما فعلوا أو ما أتى إلى الوجود هو الكون أم جزء منه . وهذه الأفكار لا تروي إلّا ما حدث فعلاً ولا تفسّر إلّا ما هو كائن وموجود . ولذلك فهي قصص حقيقية من وجهة نظر الأولين الذين صاغوا هذه القصص الميثولوجية وقدّسوها[٢١٢] .

فالميثولوجيا هي تاريخ أعمال الكائنات السامية . وهذا التاريخ يعتبر صادقاً ومقدساً . والميثولوجيا ليست قائمة في التاريخ ، بل هي التي أسسته في زمن معين ، الزمن الميثولوجي ، زمن البدء . وبالتعرّف إلى الميثولوجيا نتعرّف إلى أصل الأشياء .

والملاحظ أن الإنسان البدائي أطل على عالم ما فوق الطبيعة بهذه القصص الميثولوجية . وعبّر عن شعوره إزاءه . وانفتح ذهنه على حقائق مطلقة هي في أساس

الوجود البشري ، وفي أساس مشاعر الإنسان وتصرفاته . ومن تجربة التعرّف على الحقائق المطلقة توصل الإنسان إلى إدراك القيم المطلقة التي تعطي معنى لوجوده .

والمهم هو ما كان لهذه القصص من دور هام وفعّال في حياة الإنسان . فقد ألقت لأول مرة في التاريخ بقعة من الضوء على القيم العلوية ، وساهمت في إرساء قواعد أخلاقية لحياة الإنسان ، وشكّلت التاريخ المقدس للمجتمع بتعبيرها عن تكشّف الإله للبشر وعن نواياه تجاههم . وهي من جهة أخرى بداية تاريخنا الفكري والثقافي ، والأساس الذي قام عليه تاريخنا الديني .

إن الفكر الميثولوجي هو أول نظرة ألقاها الإنسان على كونه وعالمه في مراحل وعيه المبكرة . وفسّر أو حاول أن يفسّر الكون وأصل الوجود . فحين كان الإنسان القديم يضع الخطوة الأولى في طريق التطور والنضج الفكري لم يكن يملك من أدوات البحث ووسائل التفكير ما يعينه على النفاذ إلى أعماق الوجود واستخلاص الحقائق الموضوعية . فكانت القصص الميثولوجية أسلوبه في التفكير بالقوى البدئية الفاعلة ، الغائبة وراء مظاهر الوجود ، وبطرائق تأثيرها وفعلها في حياتنا ووجودنا . وهي أسلوبه في المعرفة والكشف للتوصّل إلى حقائق يقتنع بها ويجد دوره الفعّال فيها .

في هذه القصص المقدسة نقف على الخطوط الكبرى للتفكير المبدع الخلّاق ، وللجهد المنظّم الهادف إلى درس الحياة والطبيعة والإنسان . إنها تعبير عن توق الإنسان الأبدي إلى كشف الغوامض التي تطرحها الحياة ، والأسرار التي تواجهه في الكون .

والواقع أن المتأمّل في الحياة الماضية يلاحظ أن الإنسان ما فتىء مذ وعى ذاته وبدأ عقله يتدرّج في مراحل الوعي ، يتأمل في الكون المحيط به ، محاولاً تفهّم البداية المطلقة للوجود وجوهره . وتفهّم القوى التي عملت في التكوين والخليقة . وفي أول نظرة تأمّل ألقاها على كونه وعالمه ، واجهته طبيعة عميقة الأسرار زاخرة بالقوى . وشدهته عظمة الكون وضخامته . وأخذه الغموض الذي يلفّه والأسرار التي ينطوي عليها . وانداحت في ذهنه التساؤلات عن مصدر هذا الكون ، وعن العلاقات التي تربط أجزاءه بعضها ببعض . وعن القوى الفاعلة والمحركة في الكون . وعن المصير الذي يسير إليه والقدر المخبأ له . فحاول تفسيره أو تفسير بعض ظواهره ، وتفسير الأشياء التي شغلته في الوجود ، أو تفسير القضايا التي تتعلق بحياته ووجوده : الحياة والموت ، المصدر والمصير ، الطبيعة والكون . فكانت محاولاته التفسيرية من قبيل «التلمّس» البديهي للقوة الكونية التي كانت وراء عملية الخلق . كانت من قبيل الهداية المتدرّجة في طريق البحث الصادق عن الحقيقة . وحين راح يصوغ ما توصّل إليه من تفسيرات ، لم يكن لديه القدرة على التعليل

المنظم المتماسك . أو قوة الإدراك المقرونة بالتفكير . ولا القدرة على التأمل الذهني الذي نعرفه اليوم . فعمد إلى صياغة أفكاره أو تفسيراته للكون والخليقة في قالب قصصي خيالي هو ما ندعوه اليوم ميثولوجيا «التكوين» و «الخليقة» و «الأُصول» ، أُصول الأشياء التي يندر أن يخلو منها تراث شعب .

ويبدو من النصوص الميثولوجية التي وصلتنا من حوض النهرين ، أن الإنسان القديم في تلك المنطقة توصّل في محاولاته التفسيرية إلى اعتقاد راسخ مفاده أن الكون والخليقة التي فيه من صنع قوة أو قوى فوق طبيعية ، تجلّت بأقوى مظاهرها في زمن البدء ، فأخرجت الكون من العماء ، ومن ثم أوجدت الإنسان ، وساعدته من بعد على تفسير الكثير منْ أُصول الموجودات . وقد عرفت تلك القوى الخلاقة لدى مختلف المجتمعات القديمة بأسماء متعددة ، أدى بعضها معنى الخالق ، وصانع الكون ، أو معنى «السيد» و «العالي» أو «السيد العالي» .

ويبدو أن السومري في حوض النهرين الأدنى كان أول من فكر في طبيعة الكون وفي مصدره وفي نظامه وطريقة سيره . وفي العلاقات القائمة بين أجزائه . وحاول في أول نظرة ألقاها على كونه وعالمه ، التعرّف على البداية المطلقة للوجود ، وتفهّم القوى التي عملت في التكوين . والوقوف على جوهر الوجود وأُصول الأشياء ، وما إلى ذلك من العناصر الأُولى التي شغلته كما شغلت غيره من البشر في مختلف المجتمعات والأزمان .

ويبدو أيضاً أن شكل الحضارة في حوض النهرين تكامل بوجه عام حوالي منتصف الألف الرابع ق.م. وفي هذه الفترة اتخذ فهمهم للكون شكله الخاص ، فوضعوا نظرية في «البدء والتكوين» تبنّتها شعوب الشرق المتوسطي ، وكانت من بعد في أساس الديانات التاريخية . وقد حاولوا في هذه النظرية أن يفسّروا مصدر العناصر الكونية ، وأن يضعوا لها نظاماً مترابطاً متسلسلاً . قالوا إن هناك بداية ، جعلوا منها نوعاً من «علّة أُولى» . وهذه البداية لم تكن غير العماء (شيء غامض مختلط غير محدّد ولا معيّن) . والسؤال : كيف خرج الكون من العماء؟ . وكيف صار على ما هو عليه الآن؟ . ثم أخذتهم الحقيقة الجوهرية : الخلق والخليقة . وبدأت تراود ذهنهم الرغبة الملحة في استقصاء هذه الحقيقة : كيف حدثت وكيف تمّت ؟ .

فالبداية (حالة العماء) التي سبقت التكوين والخليقة هي نوع من المياه الأُولى ، أو البحر البدئي . لم يرد في ما وصلنا عنهم من نصوص ميثولوجية أي حديث أو تساؤل عن مصدرها . وربما كانوا يعتقدون بوجودها الأزلي . ومن حضن هذه المياه البدئية انبثقت الكتلة الكونية المؤلفة من السماء والأرض . عمل انليل (السيد العالي) ـ (الله بمفهومنا)

على فصلهما . ومن ثم أغنى السماء بـالكواكب والنجـوم ، وأغنى الأرض بالمخلوقـات . يتحدث نص سومري عن :

السيّد الذي خلق كل شيء نافع
السيّد الذي لا رادّ لقضائه
انليل الذي أنبت الحب والمرعى
رفع السماء وأبعدها عن الأرض(٢١٣) .

فالإله الذي خلق كل شيء نافع أبعد السماء عن الأرض لكي يتسنّى للحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية أن تظهر على الأرض .

من الواضح أن هذه النظريـة التي تمثّل أولى مـدارك الذهن الســومري ونضـوج آرائه وتأملاته في قوى الطبيعة ، تعي الوجود منبثقاً من غمر بدئي سائل . أي أن العالم كـان قبل أن يأخذ شكله التكويني في حالـة من العماء المـائي المطلق السـاكن ، لا يميّزه شكـل ولا تحـدّه أبعاد ولا يقيّـده زمن . وآن يقرّر الخـالق الأوّل التمـرّد على قـوى العمـاء والسكـون والفوضى ، لتكوين الوجود وخلق العالم ، ينبثق الكون من لجة العماء وتتحدّد الموجودات بالشكل وتنظم الأشياء ويبدأ الزمن .

والمعـروف أن البابليين والأشـوريين تبنوّا المعتقـدات (الميثولـوجيا) السـومـريـة في «البدء والتكوين» . فوصلت إلينا هذه المعتقدات (الميثولوجيا) بتفاصيل واضحة ونصـوص شبه كاملة . وأشهر نص وصلنا عن التكوين والخليقة هـو ملحمة «الاينـوما ايليش» ـ (بينمـا في الأعالي) التي وجدت في مكتبـة الملك الأشوري أشـور بني بعل(٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق.م.) في نينوى .

تطالعنا الملحمة بصورة المياه البدئيـة في فوضى غـامرة واضـطراب عظيم ، تخـرج منها كائنات بدائية إلى الوجود ، على رأسها كائن مخيف في هيئة تنين هو تعامت .

ومـرّت الدهـور ، إلى أن قررت القـوة العـاليـة «مـاردوك» ـ (السيـد العـظيم) ـ (الله بمفهومنا) أن تضع حداً لفـوضى العماء ، وأن تحـلّ النظام في الكـون . فينشب صراع بين «ماردوك» وبين «تعامت» التي تمثّل الفوضى في قوّة هيولانية غشيمة . ينتصر فيه «مـاردوك» المتسلّح بعناصر الطبيعة المكيّفة بالعقل والحكمة . فحين تفتح تعامت فمهـا لتبتلعه يـدفع في وجهها الرياح فينتفخ بطنها وتعجز عن اقفال فمها . عندهـا يطلق مـاردوك سهماً يخـرق جوفها ويمزق قلبها ، فيفصل جسدها إلى شطرين رفـع الأول سماء ووضـع الثاني أرضـاً ، ثم التفت إلى خلق الكائنات ، فصنع النجوم والكواكب وشكل الليل والنهار وخلق الإنسان

والمخلوقات الأُخرى سائرها .

والجدير بالذكر أن الكاهن البابلي برعوشا(*) Berossus لخّص لنا مفهوم البابليين في التكوين والخليقة بقوله «في البدء كان الظلام والماء . ظهرت مخلوقات غريبة التكوين (يذكر نماذج من أشكالها) على رأسها امرأة تدعى في الكلدانية «تامت» (Thamte) التي تعني في اليونانية البحر . جاء البعل ـ (السيّد) ـ (الله بمفهومنا) فشطر المرأة إلى نصفين ، شكّل من الشطر الأوّل الأرض ومن الثاني السماء . ثم قضى على المخلوقات العجيبة ، وأحل النظام في الكون . وبعد ذلك أمر بأحد القوى العالية (إله) فقطع رأسه ومزج دمه بتراب الأرض . ومن هذا المزيج كوّن الإنسان . ثم صنع الحيوانات وشكل النجوم : الشمس والقمر والكواكب الأُخرى»(٢١٤) .

والملاحظ أن عماء البدء في ميثولوجيا التكوين السومرية والبابلية والأشورية والكنعانية مثّل بتنّين يقتله «السيّد العالي» ـ (الله) قبل القيام بعملية التكوين وتنظيم الكون، ففي الميثولوجيا السومرية ينتصر «انكي» على تنين العماء «كور» Kur . وفي الميثولوجيا البابلية يقتل «ماردوك» «تعامت» وينظم الكون . وكذلك فعل «أشور» في الميثولوجيا الأشورية . وفي الميثولوجيا الكنعانية مثّل عماء البدء بـ «الحية الملتوية ذات السبعة الرؤوس لوياتان» . و «الحية الملتوية الهاربة» . قتلها البعل (السيّد) ـ (الإله) قبل القيام بعملية التكوين .

جاء في قصة التكوين والخليقة (اينوما ايليش) وصف تعامت ومن حارب معها بتعابير تفحّ بالشرّ والشراسة : «تعامت تزأر» . «غضبها مخيف» . «تنوي الشرّ» . «تخلق لمعركتها أفاعي مرعبة» . «أسنانها حادة . تملأ عروقها بالسم . ولديها تنانين هائلة» .

والجدير بالملاحظة أيضاً أن كهنة بني إسرائيل حين بدأوا بوضع تاريخهم ـ كتابهم المقدس (التوراة) في السبي البابلي ، اقتبسوا من التراثين البابلي والكنعاني من جملة ما اقتبسوا قصة التكوين والخليقة . وكان من الطبيعي أن ينسبوا دور قتل تنين العماء إلى إلههم (يهوه) . يقول اشعيا النبي «يعاقب يهوه بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياتان ، الحية الهاربة . لوياتان الحية المتحوّية . ويقتل التنين الذي في البحر . الاصحاح ٢٧» .

---

* ـ عاش في القرن الثالث ق . م . كتب تاريخ بابل معتمداً على الوثائق البابلية القديمة. نشره باللغة اليونانية عام ٢٧٥ ق . م . ضاع تاريخه ، ولكن مقتطفات منه حفظت لنا في اقتباسات الكسندر بوليستر في القرن الأول ق . م . نقلها الينا المؤرخ الكنسي أوزيبيوس EUSebius (٢٦٠ ـ ٣٤٠ م) . انظر :

A . Heidel , The Babylonian Genesis , london 1963 p . 77 .

G . Rawlinson , The Religions of The ancient world , N . Y . 1883 P . 65 .

وجاء في المزمور ٨٩ قول الكاتب :

«أنت (يهوه) أخضعت البحر
أنت سحقت رهب مثل القتيل» .

وفي المزمور ٧٤ قول الكاتب :

«أنت (يهوه) كسرت رؤوس التنانين
أنت رضضت رؤوس لوياتان» .

وجاء في سفر أيوب ٢٦ قول الكاتب عن يهوه :

«بقوته يزعج البحر ويسحق رهب
ويداه محقتا الحية الهاربة» .

والملاحظ أن وصف كتّاب التوراة لتنين العماء(لوياتان) جاء في تعابير تشبه إلى حد بعيد التعابير التي وردت في وصف تنين العماء في التراثين البابلي والكنعاني . أو قل إنهم اقتبسوها عنهما . من أمثلة ذلك ما ورد في سفر أيوب ٤١ من وصف لتنين العماء :

«دائرة أسنانه مرعبة
من فيه تخرج مصابيح
ويتطاير شرار نار
من منخريه يخرج دخان كأنه من قدر منفوخ أو من مرجل
نفسه يشعل جمراً . ولهيب يخرج من فيه» .

وهنا تجدر الإشارة إلى جملة أُمور على جانب كبير من الأهمية في عقيدة البابليين في التكوين والخليقة ، منها :

١ ـ أن البابلي توصّل بالتفكير والتأمل إلى مفهوم مفاده أن الحالة التي سبقت التكوين والخليقة هي حالة من العماء (غمر مطلق ، مياه أولى) .

٢ ـ وأن المياه الأُولى متشبعة بمبدأ الحياة .

والملاحظ أن هذا المفهوم كان معروفاً لدى الكنعانيين في سوريا الغربية ، فقد كانوا يعتقدون أو يقولون بأن الماء مصدر كل شيء حي . وقد عبّر سنخونياتن الكنعاني(*) عن

* ـ سنخونياتن Sanchoniathon ولد في بيروت (القرن الحادي عشر ق . م .) نسب له فيلون الجبيلي (القرن الأول ق . م .) كتاباً في تاريخ فينيقيا من تسعة أجزاء ، لم يسلم منها غير مقاطع قليلة ذكرها أوزيب في معرض تشهيره بأفكار فيلون .

انظر كتاب الدكتور يوسف الحوراني ـ نظرية التكوين الفينيقية ـ بيروت ١٩٧ .

نظرتهم الفلسفية إلى أصل الأشياء بقوله «إن غمراً كان في البدء» . وشرح هذه النظرة طاليس المالطي الكنعاني (٦٣٩ ـ ٥٤٦ ق . م .) مؤسس المدرسة الأيونية ، وعلّمها للإغريق ، وبالتالي إلى الغرب .

٣ ـ وأن الكون انبثق من لجة العماء ، وأنه أبدي وحيوي .

٤ ـ وأن في السماء العالية قوة نظّمت الفوضى ، فتحدّد شكل الكون وتميّزت أشياؤه . لكنهم لم يذكروا أن القوة العالية كانت قبل الفوضى أم بعدها .

٥ ـ وأن القوّة العالية وضعت للكون نواميس أو قوانين طبيعية ، يسير وفقها من دون تدخل العالي .

٦ ـ وأن المياه الأُولى كانت مضطربة وغير منظمة . وأن عملية الخلق وتنظيم الكون لم تتم بشكل هادىء (كما هو الأمر في الميثولوجيا المصرية مثلاً) ، وإنما صحبها صراع . وكأن البابليين كانوا يدركون أن الخلق والتنظيم لا يتمّان إلّا بعد مجاهدة مع المادة الأولى (الهيولى) ، وصراع مع قوى الفوضى . فحين وصل بالبابلي وعيه إلى مرحلة التفكير في تحولات الطبيعة أدرك أن الحركة المستمرة هي جوهر الحياة . أو قل إن الطبيعة الحية تقوم على مبدأ الحركة المستمرة . وكل حركة في الحياة تعبّر عن صراع بين قوتين ، والأحرى أن في أساس كل حركة صراع . وبما أن الحياة حركة مستمرة فالصراع قائم في أساس الحياة . وأول صورة تجلّى فيها الصراع في الميثولوجيا البابلية كانت بين الفوضى وبين النظام . وأن الخلق كان نتيجة صراع كوني ، تحدّد فيه الشكل من الهيولى ، وبدأ النظام يعمل في الفوضى . فهم لم يفترضوا الخلق من العدم ، وإنما افترضوا الوجود ، ولكن في حالة من الفوضى وعدم الانتظام . وبهذا فإن الكون لا يبدأ بـ «خلق» ، وإنما يبدأ بتنظيم ما هو في حالة الفوضى . وهذا الجانب في الملحمة يعبّر عن إحدى الأفكار الأساسية التي سادت حوض المتوسط الشرقي قديماً وهي انتصار الكون كلاً منظّماً على الفوضى . فقد كان يُنظر إلى الخلق على أنه إشاعة النظام في الفوضى التي كانت سائدة من قبل[٢١٥] . والطريف إدراكهم أن العنف ليس شرطاً للانتصار في الصراع ، وإنما يكون الانتصار بالعقل والحكمة المتمثّلين بالمعرفة والاستبصار .

٧ ـ وأن البابلي القديم كان ينفعل ببعض الحوادث الطبيعية ، وكان يفعل في غيرها . لكنه في انفعاله لم يكن عبداً ، وفي فعله لم يكن مقلداً . فهو لم يرهب الطبيعة رهبة استسلام مطلق لقواها واقدارها ، بل جعل همه المشاركة في إدارة شؤونها ، وإدارة شؤون العالم الذي خلقه بإمكاناته الذهنية .

وبعد ، صحيح أن المعطيات التي انطلق منها المفكرون السومـريون والأكـاديون في نظرتهم إلى الكون والحيـاة في الألف الثالث ق.م . لم تكن عمليـة بمفهومنـا اليوم (العقـد الأخيـر من القرن العشـرين) ، ولكنها كـانت موضـوعيـة ، وحسيـة نسبيـاً . أي منبثقـة من المظهر الذي بدا لهم فيه العالم الذي يحيط بهم والمجتمع الذي يعيشون فيه .

وصحيح أنهم لم يتوصلوا إلى وضع فلسفة منظمة بـالمعنى الذي نفهمـه اليوم . ولم تتخـذ بحوثهم في الكـون والحياة صيغـاً متسلسلة أو تنظيمـاً فكريـاً فلسفيـاً ، بحيث يمكن اعتبارها مـدارس أو أنظمـة فلسفية . ولكنهم فكـروا وبحثوا في طبيعـة الكون : مصـدره ، نـظامه ، وطـريقة سيـره . وفي الخليقة وأُصـول الأشيـاء . وتـوصلوا في تفسيـرهم الكـون والخليقة إلى افتراض وجود قوة أو قـوى فاعلة خـلّاقة في أزمنـة البدء ، أبـدعت الكون من لجّة العماء ، وخلقت الحياة ونظّمت الأشياء ، فصار الإنسان على ما هو عليه اليـوم : يحيا مفـروضاً عليـه الموت ، يتكـاثر بـالجنس وينتظم في مجتمـع ويضطر للعمـل كي يعيش ، ويعمـل بطريقـة معينة وحسب قـواعد معينـة . وبـذلـك يمكننـا الافتـراض أن جمهـرة من المفكرين والمعلمين السومريين والأكاديين قد نظّموا خلال الألف الثالث ق.م . أو قبل هذا التاريخ ، نظرية لنشوء الكون والخليقة ، وصلوا فيها إلى مستـوى من الموضـوعية والإقنـاع جعل كثيراً من شعوب حوض المتوسط تتأثر بهم وتنحو نحوهم[٢١٦] .

والجدير بالملاحـظة أن البابلي القـديم لم يتوصّـل إلى هذه المعتقـدات بالـوحي أو بتقبّـل الأسرار ، كمـا هي الحال في الكتب المقـدسة لـدى الديـانات التـاريخيـة ، وإنمـا بالتفكير والتأمل ، فقد كان لديه مقدرة فائقة على الملاحظة الذكية واستخلاص النتـائج من الأسباب والدواعي .

تجديد العالم

كان البابلي القديم يعتبر نفسه صنيعة حوادث معينة وقعت في «زمن البـدء» . ويعتقد أن ممارسته نوعاً من الـطقوس الـدينية تجعله يعـايش ماحـدث في أزمنة البـدء . وبواسـطة الطقوس يتصل روحياً بالخالق وبزمن البدء لكي ينغمر في طوباوية ذلك الزمن ويغتسيل بقوة معانيه وبقدسيتها .

وكـان البابلي القـديم يشعـر بضـرورة تجـديـد العـالم ، أي خلق العـالم دوريـاً في مناسبات سنوية ، على اعتبار أن العالم كان في زمن البدء في حالة أسمى مما هو عليـه في يومه . ففي ذلك الزمن لم يكن «حيـة أو عقرب ، ولا ضبـع أو نمر ، ولا كلب متـوحش أو ذئب . ولم يكن هنـاك خوف أو رعب» . وتتحـدث النصوص في الميثـولوجيـا السـومـريـة

والأكادية عن دور ذهبي عرفته الإنسانية قبل «سقوط البشر» ، عمّ فيه الرخاء والسَّلام ، وعاش الإنسان فيه في جو من الغبطة والسعادة البالغة (الطوباوية) . كما تتحدث عن «جنة أرضية» في بلد صاف طاهر ومشع «حيث لا ينعق الغراب ، ولا الذئب يفترس . وحيث لا أوجاع ولا أمراض ولا شيخوخة»[٢١٧] .

وزمن البدء يمكن استعادته دورياً بواسطة الطقوس . ومن هنا كانت احتفالات رأس السنة لدى المجتمعات القديمة تعبيراً عن رغبتها بتجديد العالم أو خلقه من جديد ، على اعتبار أن تجديد العالم دورياً بممارسة الطقوس ينقذه من الفناء والهرم ، ويعيد للإنسان أمله في استعادة زمن البدء الذي يحمل بالنسبة إليه معنى الكمال ، أو قل يمثّل النموذج الأكمل لكل ما يريد الإنسان أن يعمله . وفي معايشته من جديد بالإنغمار في تجربة روحية ينعتق خلالها من الزمن الكرونولوجي ، فتخرج به من تيار الحياة العادية لتحط به في زمن البدء حيث يندمج بقدسية ذلك الزمن وينغمر في صفاء البدء ونقائه الطوباوي ، فيحيا في وهج التجربة الحية ، ويتصل بـ «ان» ، «العالي» ـ (الخالق) روحياً ويتحد معه .

والعودة إلى زمن البدء تعني العودة إلى الينبوع المتفجّر ، حيث انطلقت قوى الحياة وقوى الخصب في أثناء عملية التكوين والخلق . وعلى هذا الأساس فإن الزمن العادي لا قيمة له ، وينبغي هدمه دورياً ، والعودة إلى زمن البدء لتجديد العالم . ففي بابل مثلاً كانت طقوس عيد رأس السنة تتضمّن إعادة العالم رمزياً إلى فوضى العماء الكوني القديم قبل إعادة تكوينه ، ومن ثم تجديد الخصب . وكان يوم رأس السنة بمثابة يوم تطهير مطلق وشروق فجر جديد على العالم .

وباعتقاد البابلي القديم أن تجديد العالم الدوري يتم بواسطة الطقوس في احتفالات رأس السنة (الاكيتو) التي تستعيد البدء بعمائه ، والصراع البدئي الذي سبق التكوين والخليقة وتنظيم الوجود . فكان المشاركون في الطقوس التمثيلية يستعيدون بعض مشاهد الصراع بين ماردوك (الإله) وبين تعامت (التنين) التي تمثل العماء . كما يستعيدون مشاهد من انتصار ماردوك (الإله) وعمله التكويني .

ومعايشة البابلي بالطقوس لعملية الخلق التي قام بها الإله في زمن البدء يعني بالنسبة إليه تجديد العالم دورياً ، فيعود نضراً زاهياً كما كان لحظة خرج به الخالق من حالة العماء .

كانت احتفالات رأس السنة في حواضر سوريا الشرقية تبدأ في اليوم الأول من كل سنة جديدة . وتستمر بضعة أيام ، يقيم فيها الناس مجموعة من الطقوس والاحتفالات

الدينية ، يعيدون في بعض مشاهدها استحضار لحظة الخلق الأُولى ، وتمثيل فعل الخالق الأول في اطلاقه العالم من السكون ، وتنظيمه الوجود من فوضى العماء . وكانت قصة التكوين تتلى في هذه الاحتفالات ، ويجري تمثيلها درامياً ، وكأنهم كانوا يرمون من ذلك إلى استحضار زمن الخلق ، والتوحّد معه والذوبان فيه لمعايشة عمل الخالق والتشبّع بفعل الخلق . وبهذا يكون دورهم في احتفالات رأس السنة التمثيلية إيجابياً وفعّالاً يساهم في استمرار الوجود والعالم في كل مرة يمثّلون دور الخالق في خلق الوجود والعالم .

والطقوس التي تمثّل العودة إلى عماء البدء في احتفالات رأس السنة ، وانتصار ماردوك (الإله) على قوى العماء ، تعني أن النهاية ضرورية لأي بدء . ومن هنا كان البابلي القديم يعتقد بإمكانية استعادة كمال البدء بالطقوس التي تجدّد العالم دورياً . ففي رأس كل سنة تكون السنة السابقة قد أصابها الاهتراء والهرم والتداعي فالاضمحلال . ومع السنة الجديدة يبدأ الأمل بتكوين جديد يتميّز باستعادة طوباوية البدء وكماله . ولكي يتم تجديد العالم يجب أن ينهدم العالم الهرم . وقد استمر الملك في بابل حتى نهاية الحضارة البابلية القديمة (قبل الميلاد ببضعة قرون) يقوم بتقمّص شخصية ماردوك كل سنة ، ومحاربة «كنغو» قائد جيوش «تعامت» ، والتغلّب عليه بحرق حمل كتجسيد له . وبهذا كان البابليون يساهمون في السيطرة على الطبيعة ، وإدامة الكون المنظّم . وفي هذه المراسم يضمن الإنسان بعث الطبيعة في الربيع ، ويكسب المعركة الكونية ضد الفوضى ، ويخلق الدنيا المنظمة من الفوضى كل سنة .

والعودة الحقيقية إلى البدء المطلق لا تتم إلاّ بعد أن ينتهي العالم بكامله . والنهاية يتبعها تكوين جديد . ومن هنا ظهرت فكرة النهاية الايسكاتولوجية (الأخروية) التي تعود بالعالم إلى البدء ، إلى حالة العماء التي يتبعها تكوين جديد مرتبط بعصر ذهبي يتميّز بطوباوية البدء وكماله .

وفي معتقدات البابليين أن نهاية العالم كانت بالطوفان . وقصص الطوفان التي انتشرت كثيراً في المجتمعات البدائية تروي في معظمها قصة اغراق العالم ، وبالتالي إبادة البشرية باستثناء زوجين معيّنين . والملاحظ أن اغراق الأرض بالطوفان ، ثم ظهورها من جديد ، يرمز إلى العودة إلى حال العماء وإلى التكوين الجديد .

فالطوفان بمفهوم الشعوب القديمة يعتبر حادثاً مهماً رُمز بواسطته إلى تجديد الكون والبشرية . ويرتبط سببه على الأغلب بخطيئة ارتكبها الإنسان ـ البشر ، استوجبت غضب «السيد» ـ (الإله) . وفكرة العقاب بسبب الخطايا ترتبط بصورة عامة بفكرة خلق جديد

لبشرية جديدة . ونهاية العالم باعتبارهم مقدمة ضرورية لإعادة الخلق المنتظرة . وهي ترتبط بكمال البدء وباسترجاع الجنة المفقودة .

والاعتقاد بكمال البدء حيث لا مرض ولا شيخوخة ولا خوف ، قاد الإنسان القديم إلى التساؤل عن أصل الموت ، وكيف وصل إليه مصير الإنسان ، فخسر به ميزة الخلود التي كان يتمتّع بها في أزمنة البدء . وشعوره بمصيره الآيل إلى الموت ، أو ارتباط مصيره بالموت، حدا به إلى بذل المحاولات للانتصار على الموت ، والتوصّل إلى سرّ الحياة الأبدية . (آدابا وجلجامش) .

كانت إقامة الاحتفال السنوي أمراً ضرورياً وحيوياً من وجهة نظر الفرد في العصور القديمة . فقد كان في فهمه وتفسيره للظواهر الطبيعية والحضارية ينطلق من منطق يختلف عن منطق الإنسان المعاصر . فالإنسان المعاصر يعتبر نفسه حصيلة «التاريخ» . بينما كان إنسان العصور القديمة يعتبر نفسه حصيلة أحداث ميثولوجية معيّنة . الإنسان المعاصر مدين في واقعه الفكري والمادي إلى سلسلة متواصلة من المنجزات والأحداث التي وقعت عبر تاريخه الطويل ، فأسهمت في تطوره العلمي والفني والأدبي . أما إنسان العصور القديمة فقد كان حاضره آنذاك يرتبط بسلسلة أحداث صنعتها قوى خارقة في البدء . أي أن الأبطال الذين صنعوا تاريخه كانوا قوى عالية (آلهة) . ولذلك فإن تاريخه مقدّس . ومن هنا كان شعوره بضرورة إعادة هذا التاريخ ، وليس الاكتفاء بمعرفته فقط .

والحقيقة أن وقائع الاحتفالات وإقامة الطقوس في أعياد رأس السنة في العصور القديمة ، تعبّر عن مشاعر دافقة وأحاسيس نابضة بالحياة . فحين كان المحتفلون يشاركون رمزياً في افناء العالم وإعادة تجديده ، يشعر المشارك أنه يتجدّد هو نفسه ، ويحسّ بالطهارة والنقاء . ومثل هذه المشاعر والأحاسيس نفتقده نحن في العصر الحاضر (العقد الأخير من القرن العشرين) بفعل نمو منطقنا العقلاني واتساع أفق التفكير في ذهننا .

الأصول

ذكرنا أن السومري حاول في أول نظرة ألقاها على كونه وعالمه ، تفسير الكون المحيط به ، وتفهّم البداية المطلقة للوجود ، والقوى التي عملت في التكوين والخليقة . ورأينا أنه توصّل في محاولاته إلى مفهوم مفاده أن الكون والخليقة التي فيه من إبداع قوة خلّاقة ، فوق طبيعية ، «ان» ـ (السيد) ، تجلّت بأقوى مظاهرها في زمن البدء فأخرجت الكون من العماء وخلقت الإنسان والكائنات الأخرى سائرها .

ويبدو من النصوص الميثولوجية التي وصلتنا من حوض النهرين ، أن البابلي القديم

اتجه أيضاً في محاولاته تفسير الكون والخليقة ، إلى تفسير أُصول كل شيء شغله في العالم ، عالمه . وما كان له من أهمية في حياته . فأضاف إلى ميثولوجيا التكوين ميثولوجيا الأُصول المكمّلة لها التي تتضمّن أُصول الأشياء ، أُصول المقومات الأساسية التي تؤثر في حياة الإنسان ، كالزراعة وأدواتها والسدود والقنوات والبناء والكتابة ، وما إلى ذلك من الأُسس والمقومات التي تعتبر وسائل حضارة . فهناك نصوص ميثولوجية كثيرة تشير إلى أن الأشياء خلقت استمراراً لما تمّ في البدء من تكوين وتنظيم . وفي اعتقاده أن القوة العالية «ان» «انليل» «ماردوك» هي التي ساهمت في خلق كل ما يلزم لإكمال عملية التكوين وتوفيره . فجاءت مقومات الوجود والكون وقوى الطبيعة وعناصر الحياة متكاملة النظم . وأن وسائل الحضارة التي بين يديه هي من وحي أو تصميم أو ابداع القوة العالية ، تعبيراً عن الطاقة العلوية في الوجود . وبذلك أعطت الإنسان تصميماً مثالياً كاملاً للعمل بموجبه ، ونموذجاً مقدساً يقلّده ليخلق بدوره من جديد غذاءه وينظم حياته . وليخرج بدوره أيضاً من عماء الجهل . تتحدث النصوص الميثولوجية عن ماردوك مثلاً الذي :

«خلق الإنسان
ثم خلق حيوانات سموق ان[٢١٨]
وخلق الدجلة والفرات وحدّد مجراهما
ثم خلق الأعشاب وقصب المستنقعات ، والغابات
خلق المراعي ، أشجار البساتين
البقرة وعجلها ، النعجة وحملها
بنى البيوت وأقام المدن
بنى ايكور وبنى نيبّور»[٢١٩] .

وتتحدث عن انليل الذي مجّدته شعوب حوض النهرين باعتباره «السيد» المحسن الرحيم الطافح الصدر بالحنان الأبوي ، والمعني أبداً بخير البشر وسلامتهم . وإليه يُعزى تدبير وخلق أهم العناصر المنتجة في الكون . فهو الذي يخرج النهار من الليل . وهو الذي يحبو البشر بشفقته وعطفه . وهو الذي أخرج البذور والنباتات والأشجار من الأرض . وهو الذي يحمل الخير والبركة إلى البلدان جميعها. وهو الذي صنع ، باعتبارهم ، المحراث والفأس وغير ذلك من الأدوات لتكون نماذج أُولى للآلات الزراعية التي ينبغي للإنسان تعلّمها واستعمالها .

وهناك نصوص ميثولوجية كثيرة تتحدث عن انليل الذي يسهر على إخصاب الأرض بالأمطار وإغنائها بالأشجار ، وعلى إكثار الحبوب وإنضاج الأثمار . فهو يبارك الأرض

ويبارك العامل وآلة العمل . يبارك الأرض لإنتاجها الوافر ، ويبارك الأرض التي يقوم عليها البيت الثابت الذي يعمر ويدوم . ويبارك الفأس التي تبني البيت . وكلمة انليل :

«تقارب السماء فينزل المطر
تلامس الأرض فتكون الوفرة
كلمته هي الزرع هي الحبوب
كلمته هي المياه الغامرة
حياة البلدان جميعها»(٢٢٠) .

وكلمة «انكي» في نص آخر :

«عندما قاربت الأرض فاضت الينابيع
وعندما جاست في مروجها الخضر تكدّست الحبوب»(٢٢١) .

وهكذا كان اعتقاد السومريين والبابليين بأن مدنهم تنعم بالوفر والرخاء من بركات انليل . ومن دون انَليل ، وباعتقادهم أيضاً :

«لا تؤسس البيوت ولا تشيّد المدن
لا تبنى الزرائب أو ترفع حظائر الغنم
ولا تجلب الفيض الأنهار
ولا يعطي البحر كنوزه الوفيرة
ولا يضع السمك بيضه في الأحواض
ولا تنشر الطيور أعشاشها في الأرض الرحيبة
من دون انليل لا تفتح أفواهها الغيوم المحملة بالغيث
ولا تمتلىء الحقول بالحب الكثير
ولا تنبت الأعشاب في السهوب
ولا تضع البقرة عجلها
أو تلد النعجة حملها»(٢٢٢) .

ويبدو أن انليل ، وباعتقادهم أيضاً ، هو الذي أوحى لقوتي الحياة في الحيوان والنبات : اينتين Enten وايميش Emesh كي تخصّبا الحقول والأرحام ، وتحقّقا الوفر والرخاء على وجه الأرض . فاينتين :

«جعل الشاة تلد الحمل ، والمعزاة تلد الجدي
جعل البقرة والعجل يتكاثران ، واللبن والقشدة يزيدان

في السهل أدخل المرح إلى قلب المعزاة والخروف والحمار
ومكّن طيور السماء في الأرض الرحيبة من بناء أعشاشها
ومكّن سمك البحر من وضع بيضه
جعل العسل والخمر وفيرين في بستان النخيل ومزرعة العنب
وجعل الأشجار ، حيثما غرست ، تحمل الأثمار
وأخصب الحقول فاكتست بالإخضرار»[٢٢٣] .

وايمـيش :

«أوجد الأشجار وأكثر من الزرائب والحظائر
وفي المزارع حقّق الوفرة
فملأ الأهراء وكدّس الغلال في البيوت»[٢٢٤] .

وقد عبّر الشاعر السومري أيضاً عن فعل لاهـار وأشنان (الـراعي والمزارع ، أو فعلي الرعي والزراعة) وبوحي أو إيحاء من انليل ، فقال :

«لاهار الراعي يزيد في عطاء الزريبة
اشنان يقف بين الغلال
إنها خير السماء
لقد دفقا في الأرض نفس الحياة
وقد نفّذا أحكام انليل ، وضاعفا المخزون من القمح»[٢٢٥] .

وهكذا كان البـابليون القـدماء يعتقـدون بأن مـظاهر الحضـارة وفنونهـا هي من صنع وإبداع القوة العالية «ان» ـ (السيّد) أو «انليل» ـ (السيّد العالي) أو «انكي» ـ (سيّد الدنيا) أو «مـاردوك» ـ (السيّد العـظيم) . وبتعبير آخـر فإن مـا يـزخـر بـه المجتمـع البشـري من قيم ومفاهيم ، سواء أكان في نطاق النظم والعادات والفنـون والصناعـات ، أم في نطاق العلوم والآداب ، هو من صنع هذه القوة وإبـداعها . فبعـد أن قضى «انكي» ، باعتقـادهم ، على تنين العمـاء «كور» ، قـام بجمع الميـاه التي غمرت الأرض وسلّطهـا نحو دجلة . وبـذلك تمكن من إرواء الحقول بالمزيد من المياه . يقول الشاعر :

«أخذت المياه العليا تنساب إلى المزارع
فأنتجت الحقول مزيداً من الغلال
وأثمرت بساتين النخيل ومزارع العنب
وتكدّست في الأهراء والتلال

والرب جعل الحزن يمّحي من على وجه الأرض»[٢٢٦] .

وفـي نصّ آخر يتوجّه المتعبّدون إلى «انكي» وقلوبهم تطفح بالرجاء ، بأن :

«ينقّي الفمين الطاهرين من دجلة والفرات
وأن يُكثر اليانع من الخضرة ويكثّف الغيوم
ويغدق الماء على الأرض الحريث
فتنبت الفسائل في المزارع والحدائق
وعندما يتوطن آلاف الناس في طول البلاد وعرضها
أنت الذي يعنى بقوتهم
لأنك في الحقيقة أب لهم
وإنهم ليسبّحون لجلال سيّدهم»[٢٢٧] .

وفي نص «انكي وتنظيم الكون» يتحـدث الشاعـر عن قيام «انكي» بـرحلة إلى أجزاء العالم المعروفة آنذاك لتنـظيم شؤون المجتمعات وتـأسيس القوانين والنـظم فيها ، وتيسيـر أسباب الحياة والحضارة ، ونشر عوامل الرخاء والتمـدّن . وفي طريقـه يتريث في كـل قطر فيباركه ، وببركته هذه يغدق على البلد الرخاء . فهو مثلاً يملأ دجلة والفرات بالماء العذب والأسماك ، ويملأ الأهوار بغابات القصب . وينظّم الرياح ويحمّلها بالأمـطار . ثم ينصرف إلى شؤون الزراعة فيملأ الجبال والغابات والسهـول بالنبـاتات . «ففي الحقـل ينبت الحب الوفير» . وفي البيدر «كدّس السنـابل وكـوّم الحبوب» . ويعنى بـالمحراث «يشق الأخـاديد المباركة» . وبالفأس وأقنية الري . ومن الحقول يولي وجهـه شطر المـدن والقرى . فيعنى بقالب الآجر وحفر الأُسس ورفع الجدران . وقد عبّر شاعـر سومـري عن بركـة «انكي» في تقرير مصير سومر بقوله :

«سومر، أيها البلد العظيم
المغمور دوماً بالنور
الناس من مشرق الشمس إلى مغربها هم طوع شرائعك المقدسة
شرائعك سامية لا يكن إدراكها
وقلبك عميق لا يمكن سبر أغواره
وكالسماء لا يمكن بلوغها
إيه يا دار سومر ، عسى أن تكثر زرائبك
عسى أن تكثر أبقارك
عسى أن تزداد حظائرك ، وعسى أن تكثر أغنامك»[٢٢٨] .

وفي تقرير مصير أور يقول الشاعر :

«أيتها المدينة الموفورة بالمياه الثرّة والثيران القوية
مقدس رزقك أيتها الخضراء
أي أور المقدسة فلتشمخي برأسك نحو السماء»(٢٢٩) .

وقد عبّر شاعر سومري عن النعم في بركة «انكي» بقوله :

«انكي غنى للغلّة الطاهرة
جعل البذور تنبت وتنمو في الحقل الخصيب
انكي دعا الحقول كي تنتج المزيد من القمح
انكي أضاف أهراء إلى أهراء
وجعل الخيرات وافرة في الأرض»(٢٣٠) .

ولما كانت المياه العذبة أساس الحياة النباتية والحيوانية رأى الإنسان القديم في حوض النهرين أن «رام ان» ـ (سيّد العلا ـ الرعد) و «انكي» سيّد المياه العذبة ، هما القوة الحية الكامنة في المياه التي توزع الخصب والحياة مع توزعها في الأنهار والسواقي والمستنقعات . وهما يكمنان في أساس كل خصب في الحياة . يخصّبان الأرض فتثمر ، والحيوانات فتلد . جاء في أحد النصوص ذكر لبعض وظائف الخصب الخاصة بانكي ، قول الشاعر :

«حين ظهر الأب انكي في الأرض المزروعة انتجت الحب
وحين ظهر في النعجة الولود وضعت الحمل
وحين ظهر في البقرة الملقّحة ولدت العجل
وحين اقترب من السماء سقط مطر الرخاء
وحين دنا من الأرض اكتست مروجها بالنباتات
وأنت حين تذهب إلى الحقل المزروع
فإنك تجمع السنابل وتكوّم الأكداس»(٢٣١) .

وجاء في ترنيمة إلى «رام ان» :

«أي رام ان
اسمك هو الثور العظيم
يا ابن السماء
رب الوفرة ، اسمك يفتن الأرض ويغطّيها كثوب

رعدك يهز الجبال العظيمة»[٢٣٢] .

وفي نص «انكي وانانا» يتحدث الكاتب عن انانا Enanna سيّدة مدينـة أوروك Erech التي كانت متلهّفة لتوفير المزيد من الوفر والرخاء في مدينتها . فصمّمت على الـذهاب إلى أريدو ، موطن الحضارة السومرية ومدينة «انكي» الذي تصدر عنه النواميس العالية (الإلهية) المبدعة لأسباب الرخـاء وفنون الحضـارة . وفي أريدو يقـدم لها انكي مـا يزيـد على مائـة نـاموس مقـدس ، منها مثـلاً : السيادة ، الملوكيـة ، الرعـاية ، الحقيقـة والصـدق ، الفن والموسيقى ، الإستقامـة ، الصلاح والعـدل ، صفة التجـارة ، صفة المعـادن ، الكتابـة ، الحدادة ، صفة الجلود ، البناء ، الحكمة ، الفهم ، والمشـورة . . ومن الطبيعي أن هـذه العناوين تعتبر نموذجاً من نسيـج الحضارة السـومريـة ، وخير دليـل على التقدم الحضـاري الذي بلغته سومر ونعمت به .

فـانكي في مفهـوم البـابليين هـو الـذي انشـأ كـل عمـل ذي شـأن في حيـاة حـوض النهرين ، وعهد به إلى «قوة» سماوية للسهر عليه والاهتمام به . فكان «أن بلولو» قوة الحياة في الأنهـار . و «أن كيمدو» قـوة النمو في الحيـاة الزراعيـة . و «دموزي» قـوة الخصب في الأرض . و «سموق ان» قوة الحياة في الماشية . وهكذا يكون انكي قد نشر أسباب الـرخاء في الأرض بتنظيمه مظاهر الطبيعة وتوزيعه المسؤوليات بين القوى السماوية . وكـأن الكون في ذلـك أشبـه مـا يكـون بـدولـة نـظّمتهـا يـد إداريـة قـديـرة ، على حـد تعبيـر المؤرخ جاكوبسن[٢٣٣] .

وانكي في مفهـوم البابليين أيضـاً هو الـذي علّم البشـريـة أنـواع الفنـون جميعهـا ، والصنـائع الضـرورية لـرخاء الإنسـان . فهو الـذي كشف للناس مثـلاً عن أسـرار الكتـابـة والعمارة والزراعة . والطريف اعتبارهم انكي سيد الحكمة والمعرفة Ba'l nimeqi «Lord of Wisdom» . وكأنهم كانوا يعون الحقيقة الجوهرية ومفادها «لولا الحكمة والمعرفة لمـا ساد الإنسان في الأرض وفي الكون» .

وفي اعتقادهم أيضاً أن انانا سيدة مدينة أكاد تسهر على العناية بمدينتهـا ، فهي تريـد أو تطلب إلى انليل :

«أن تجمع الخيرات في مخازنها
وأن تكون موطناً راسخ الأركان
وأن يأكل أهلها الطعام الوفير
وأن يشربوا الماء العذب

وأن يشيع أهلها البهجة في الساحات»[٢٣٤] .

ويبدو أن إرادة انانا (السيّدة) قد تحقّقت ، أو ان انليل حققها ، ولذلك يقول الشاعر :

«في تلك الأيام امتلأت أكاد بالذهب
وامتلأت بيوتها المضيئة بالفضة
وجيء بالنحاس وحجر اللازورد إلى عنابرها
أما صوامعها فقد فاضت بالخيرات من كل جانب»[٢٣٥] .

والملاحظ في هذه النصوص هو التشابه البليغ في المعنى والمبنى . أي في الموضوعات المتناولة وفي طريقة تناولها . فقد كانت «سيدة» كل مدينة ، كما يبدو ، تذهب إلى معبد «السيّد العالي» أو «سيّد الدنيا» ، وغالباً ما يكون في مدينة أُخرى ، فترفع الصلوات وتقدم القرابين على أمل الحصول على بركاته . وهذا ما فعلته ننّا Nanna أيضاً سيّدة أور التي سافرت إلى نيبور Nippur التي يبدو أنها كانت مقر انليل لـ «المثول أمام أبي» كما تقول . وفي المعبد يطفر قلبها بالدعاء :

«في النهر اعطني فيضاً من الماء
وفي الحقل اعطني المزيد من القمح
في الأرض السبخة اعطني العشب والقصب
في الغابات اعطني وفي السهول اعطني
في بستان النخيل ومزرعة العنب اعطني العسل والخمر»[٢٣٦] .

ويبدو أن انليل استجاب لالتماس سيدة أور ، ولذلك يقول الشاعر :

«في النهر اعطاها فيضاً من الماء
وفي الحقل اعطاها المزيد من القمح» .

وما فعلته سيّدة دلمون التي التمست من انكي أن يوفّر الماء والرخاء إلى مدينتها . فاستجاب انكي إلى دعائها، وأصبحت :

«مدينتها تشرب ماء الرخاء
آبارها ذوات الماء المر ، أصبحت مياهها عذبة
حقولها ومزارعها أنتجت الغلّة والقمح»[٢٣٧] .

وسيّدة جرسو «نن جرسو» تخاطب حكيم لاغاش ورجلها الصالح ، غوديا (حوالي

٢٤٥٠ ق.م.) ، فتقول :

«أيها الراعي الأمين غوديا
سأدعو السماء لكي تمطر
فينزل الفيض من السماء
وينعم الناس
ويطول الزرع في الحقول الفسيحة
وتفيض الأقنية عن جوانبها
وسومر سوف تسكب كثيراً من الزيت
وسوف تزن المزيد من الصوف»(٢٣٨) .

وقد عبّر غوديا عن الفعل الإلهي ذي الأهمية الأُولى في حياة كل مدينة سومرية ، أعني به فيض النهر الذي يغني التربة وهو المصدر الأساسي لرخاء الناس ورفاهيتهم ، فقال :

«عندما بدأ انليل يقرّر مصير السماء والأرض
رفع رأس لاغاش عالياً نحو السماء
ونظر بعين المحبة إلى نن جرسو
وأظهر للوجود كل ما يحيي المدينة
مياه الفيضان أشعت ضياء نحوها
قلب انليل الجليل ، ونهر دجلة جلبا إليها عذب المياه»(٢٣٩) .

فاهتمام السومريين والبابليين الشديد بالحقول الطافحة بالحبوب ، والبساتين اليانعة بالخضرة ، والزرائب والحظائر الممتلئة بالماشية ، والمخازن المترعة بالقشدة واللبن والجبن ، هو الذي جعلهم ينسبون إلى انليل (السيّد العالي) أو انكي (سيد الدنيا) مهمة السهر على خصوبة الأرض ووفرة المحاصيل وتكاثر الماشية .

والواقع أن المتأمل في النصوص التي وصلتنا في هذا الموضوع يجد أن عملية تنظيم انليل لقوى الطبيعة ، وتعليمه الإنسان أنواع الفنون والصنائع الضرورية ، وكشفه للناس عن أسرار الكتابة والعمارة والزراعة ، وإلى آخر ما هنالك من «أسرار» حضارية ، هي في الحقيقة وسائل حضارية اكتشفها السومريون والبابليون صانعو حضارتهم في وادي النهرين .

مفهوم «السيّد» «العالي» ـ (اللّه)
في ذهن الانسان القديم في سوريا الطبيعية

الصفة والموصوف

ذكرنا في ما تقدم أن المؤرخين والباحثين في حضارة الشرق المتوسطي ، يجمعون على القول بدور السومريين الريادي في تاريخ الحضارة . ولعل الجانب الأهم في هذا الدور هو ما أثر أو ما وصلنا عنهم من مفاهيم وأفكار كانت الأُولى في ما بقي لنا من تراث ميثولوجي ، في الإشارة إلى تعرّف الإنسان إلى «القوة العالية» الخلّاقة (إلـه) في «زمن البدء» . وإلى دور هذه «القوة» في عملية التكوين والخليقة ، وتنظيم الحياة على الأرض . وإلى تقرّبها من الإنسان والاعتناء به وتوجيهه وتعليمه أُصول الزراعة والتدجين والبناء والكتابة . وباختصار ، مساعدته في التعرّف على وسائل الحضارة .

فحين بدأ الإنسان القديم في سوريا الشرقية يتأمل في الكون المحيط به ، ويرتفع بنظرته إلى الأعالي ، أحسّ بالكمال والمطلق غير المحدودين بالصورة ، والمتعاليين على تجربة الحواس . وخالجه شعور بأن للسماء سلطة تفرض نفسها عليه كما تفرضها على الطبيعة ومظاهرها . وشعور بأن «القوة العالية» المطلقة الكامنة في عالم غير العالم المنظور ، لعله في السماء العالية ، هي فكرة مجرّدة ، صورة عقلية خالصة ، حقيقة جوهرية ، قوّة خفية مستقلة عن إرادة البشر . لها عناية مستمرة بشؤون العالم الذي تديره حسب مشيئتها ووفق إرادتها . وهكذا اندمج مفهومه للقوّة الجبارة التي تدير شؤون الكون الإنسانية والطبيعية بالعلو والسماء . وظلت مشاعره مشدودة أبداً نحو القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء .

هذه القوّة وهذه السلطة المطلقتان اللتان توحي بهما السماء ، أطلق عليهما السومريون في حوض النهرين الأدنى صفة «ان» ـ (السيد) . وأطلق عليهما الأكاديون في البادية السورية صفة «عل» ـ (العالي) .

ويعد اختلاط الأكاديين بالسومريين ، ووصول المجموعتين إلى درجة الإنصهار ، أخذ الأكاديون عن السومريين الكثير من طرائق التفكير والتعبير . وفي اتخاذهم الخط السومري وسيلة للتعبير عن لسانهم فقدت الأكادية كثيراً من الأصوات الحلقية التي لا وجود لها في نطق السومريين . فحين لم يتمكنوا من تدوين حرف العين مثلاً راحوا يكتبون هذا الحرف همزة من باب الضرورة . والكتابة تؤثر في النطق . يُضاف إلى ذلك أن السومريين الذين نزل بهم الأكاديون ، ساعدوا بنطقهم ، بالإضافة إلى حروفهم ، على تشويه الأكادية . ذلك أنهم كانوا عاجزين عن نطق بعض الحروف ومنها العين ، فكانوا يتلفظون بالهمزة ما كان يعرض لهم من كلمات وأسماء أكادية تشتمل على حرف العين . ولعلهم هم الذين ساعدوا على خلق نزعة إبدال العين بالهمزة في الألفاظ الأكادية .

وسقوط الحلقيات في الأكادية لا يخلو من التأثير في الحركات الخاصة بها ، والتي تجاورها . فعندما تقوم الهمزة مثلاً مقام الحاء أو العين فإن حركتها تتحوّل إلى إمالة بعد أن كانت فتحة . من أمثلة ذلك edêšu عوضاً عن 'adašu من الأصل Ḥadašu (حدث) . وهكذا يمكن اعتبار أصل كل همزة محركة بالامالة أو الكسرة إحدى الحلقيات في الغالب . وعليه يمكن القول إن العين سقطت من اللفظ الأكادي «عَلْ» في البيئة السومرية ، وقامت مقامها الهمزة ، فأصبح « 'al» . واقتضى ذلك تحويل حركة الهمزة من الفتحة إلى الامالة ، فصار «El»(٢٤٠) .

ويبدو أن حال الاختلاط بين الأكاديين والسومريين وصلت في مراحل لاحقة إلى درجة الإنصهار التام اجتماعياً وفكرياً . ومن الطبيعي أن كل انصهار اجتماعي بين مجموعتين من البشر يؤدي إلى انصهار في عناصر الاعتقادات أيضاً . وقد ينصهر مفهوما المجموعتين الإعتقادي أو الغيبي في مفهوم واحد . ومن هنا أظن أو قل يبدو أن صفة القوة العالية «ان» - (السيد) بمفهوم السومريين ، اندمجت بصفة «عَلْ» - (ايل) بمفهوم الأكاديين ، في الأجيال المتأخرة عن عهد الاختلاط والإندماج ، فكان من اندماجهما صفة «انليل» التي تعني «السيد العالي» .

أما المجموعات البشرية التي تسرّبت من البادية السورية إلى الحزون الشمالية المتصلة بسفوح الهضاب التي تشقّها روافد دجلة ، منذ بداية التاريخ المدون (أواسط الألف الرابع ق.م.) . فقد أطلقت على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء صفة «أشور» أي «السيد» . ثم صارت الصفة علماً لهم ولبلادهم ، فقيل شعب أشور ، وبلاد أشور .

هذه فكرة طرح أي مطروحة لأول مرة ، إذ لم يسبق لباحث أو مؤرخ غربي (أُوربي أو اميركي)[٢٤١] أن اهتدى إلى مدلول لفظ «أشور» . وأزيد كلمة «يبدو» أن «أشور» تعني «السيد» بالاستناد إلى جملة أمور :

أ ـ أن لفظ «شار» في اللغة السورية العربية الأُم يعني «السيِّد» . ولا يزال هذا اللفظ في اللسانين الكنعاني والأرامي ، وفي اللغة العربية الحالية أيضاً ، مع بعض الاختلاف في النطق بفعل البيئة واللسان وتطور التاريخ ، فهو «سار» أو «شار» أو «سري» . ففي المعجم الكنعاني مثلاً نجد שר (سَرْ) تعني السيد الأمير . والمعاجم العربية تجمع على القول في مادة «سري» ما يلي : السري : السيد الشريف السخي . سرا الرجل يسرو سرواً . وسري يسرى ، كان سرياً أي ذا مروءة أو شرف أو ذا سخاء في مروءة .

وفي الحزون الشمالية من بلاد النهرين كان لفظ «شار» على ألسنتهم بامالة مضمومة «شور»[٢٤٢] . أما الألف المهموزة فربما كانت في لسانهم بمثابة أل التعريف «أشور» ـ (السيد) . ومثل ذلك نراه في «أرام» . فـ «رام» تعني «عالي» . و «أرام» ـ العالي ، الصفة التي أطلقها البابليون على الشعب الذي كان متوطناً في المناطق العالية من سوريا الوسطى .

ب ـ تتضح هذه الإمالة المضمومة في ألفاظ أُخرى كثيرة ،نذكر منها مثلاً ما يدخل في صلب موضوعنا . فالمعروف أن السومريين في حوض النهرين الأدنى أطلقوا على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء صفة «ان» . وقد ظلت هذه الصفة بلفظها السومري «ان» على ألسنة الشعوب التي أخذت بمفهوم «ان» ـ (السيد) ـ (الله) في سوريا الشرقية والشمالية والوسطى والجنوبية الشرقية . وعلى ألسنة الشعوب في العربيتين الشمالية والجنوبية اللتين ساد فيهما هذا المفهوم أيضاً . ولكنها كانت على ألسنة الكنعانيين في سوريا الغربية «أُون» .

والمعروف أن الأموريين في سوريا الوسطى أطلقوا على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء صفة «مارديخ» أو «مارديك» أي «السيّد العظيم» . وفي تل مارديخ أي تل «السيد العظيم» ـ (الله بمفهومنا)اكتشف المنقّبون وعلى رأسهم عالم الآثار الإيطالي باولو ماتييه مدينة ايبلا التي كانت عاصمة امبراطورية عظيمة . ويكفينا فخراً العنوان الذي وضعه ماتييه لمجلده : «ايبلا ، الامبراطورية المكتشفة»[٢٤٣] . وعندما امتد نفوذهم إلى سوريا الشرقية (بابل) ساد هذا المفهوم مع سيادة نفوذهم ، ولكن لفظ الصفة كان على ألسنتهم هناك «ماردوخ» أو «ماردوك» .

جـ ـ أن القدماء في سوريا الطبيعية أطلقوا على القوّة والسلطة المطلقتين اللتين

توحي بهما السماء صفة «السيّد» ، أو صيغة مرادفة لهذه الصفة . فالصفات : «ان» «شار» «رب» «بعل» «أدون» «مار» «ذو» تعني «السيد» . ومن الصفات المرادفة لصفة السيد نذكر مثلاً : «ملك» و «ملك القرية ـ المدينة» «ملقارت» و «يشع» (المخلّص) و «شيع القوم» (مخلّص القوم) و «عطرسم» (مجد السماء) و «ايل» (العالي) التي تطورت صيغتها إلى «الله» وأصبحت في الألف الأول ق.م. اسماً للقوة العالية .

وخلاصة القول أكرر القول إن السومريين في حوض النهرين الأدنى أطلقوا على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء صفة «ان» . وأطلق عليهما الأكاديون في البادية السورية صفة «عَلْ» (العالي) التي تحوّل لفظها بعد اختلاط الأكاديين بالسومريين إلى «ايل» . فـ «ان» ليس اسماً للقوة العالية كما يزعم المؤرخون والباحثون جميعهم في الغرب الأوروبي والأميركي[٢٤٤] . وإنما هو صفة تعني «السيّد» . وكذلك فإن «عل» (العالي) (ايل) ليس اسماً وإنما هو صفة . وأعتقد أن القارىء يشاطرني رأياً مفاده أن السومريين في حوض النهرين الأدنى والأكاديين في البادية السورية كانوا منذ أكثر من خمسة آلاف سنة أكثر تيقّظاً وأشد وعياً منّا اليوم ـ نحن أجيال الثقافة العلمية والفكرية في الربع الأخير من القرن العشرين بعد المسيح ، على الأقل في طرحهم هذا المفهوم أو أخذهم به . فهم لم يطلقوا على القوة العالية اسماً كما نحن اليوم . وإنما أضفوا عليها صفة . ومن الطبيعي أن الصفة تسبق الاسم ، لأن الإحساس بالمعاني يسبق اختراع الأسماء والكلمات .

والحقيقة إن في التعبير عن الإله بالصفات ، والاكتفاء في تمثيله بالصفات التي تدل عليه أيضاً ، تنزيهاً للإله عن المادة ، وتجريداً له أهميته البالغة في تاريخ الفكر الديني .

وأنت أخي القارىء ، سواء أكنت من عامة الناس أم كنت من خاصتهم ، هل طُرح عليك ، أو خالج ذهنك يوماً ، سؤال : من أطلق على القوة العالية اسم «الله» ؟ . وهل للقوة العالية اسم كأشياء الطبيعة ؟ .

والأمر الجدير بالانتباه إليه أيضاً أنهم أخضعوا القوة العالية «ان» «ايل» «اشور» «ماردوخ» ـ (الله بمفهومنا) لنواميس الحياة ، وفي رأس هذه النواميس اجتماع عنصري الحياة : الذكورة والأنوثة ، لكي تولد الحياة وتتجدّد ، التجدّد الدائم في الخلق والتكوين . فوضعوا «نن» إلى جانب «ان» . و «ايلات» إلى جانب «ايل» . و «ننليل» إلى جانب «انليل» . و «ننكي» إلى جانب «انكي» . و «البعلة» إلى جانب «البعل» . و « عشتار ـ عشتروت» ـ (العشيرة) إلى جانب كل من أشور وأدون وماردوخ . .

وقبل الحديث عن مفهوم الإنسان القديم في سوريا الطبيعية لـ «السيِّد» «العالي» ، وعلاقته به كإنسان ، أرى من الضروري التوقف قليلاً عند الدلالة الوحيدة التي بقيت لنا سليمة إلى حدّ ما من مفهوم «ان» ، والتي تشير إلى مدى ترسّخ هذا المفهوم في ذهن الإنسان القديم في سوريا الطبيعية لأكثر من ألفي سنة . وإلى مدى اتساع دائرة شعاعه التي شملت الشعوب القديمة في العربيتين الشمالية والجنوبية . وربما وصل هذا المفهوم جنوباً إلى الحبشة وغرباً إلى بلاد الإغريق[٢٤٥] . وهذه الدلالة هي الأسماء المقترنة بالصفة «ان» (السيد) في مركب إسنادي أو إضافي .

أما «ايل» فقد وصلتنا نصوص غير قليلة يمكن للباحث أن يستخلص منها خطوط هذا المفهوم وأبعاده في ذهن الإنسان القديم في سوريا الطبيعية ، وتطوّر صيغته إلى «الله» .

يُضاف إلى ذلك أن الأسماء المقترنة بالصفة «ايل» كثيرة جداً . وما بقي لنا منها يشير إلى سمو معانيها وعمق دلالاتها وإتساع دائرة شعاعها التي شملت ، بالإضافة إلى سوريا الطبيعية والعربيتين الشمالية والجنوبية ، بلاد الإغريق .

والجدير بالذكر أن أسماء الأعلام من المصادر التي ترجع في مدلولاتها إلى عصور قديمة . أعني أقدم من المسميات ، وذلك لأن المسمّى عادة يتخذ اسماً كان معروفاً ومشهوراً من قبل .

يبدو أن مفهوم «ان» ـ (السيد) ظهر في التاريخ في حوض النهرين الأدنى قبل الألف الرابع ق.م. وظل كصفة للقوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء (الله بمفهومنا) مترسّخاً في الذهنية الحضارية السورية لأكثر من ألفي سنة . وفي عصور متأخرة ساد هذا المفهوم أيضاً في العربيتين الشمالية والجنوبية .

ولكن المؤسف أو المؤلم أن عاديات الزمن وبربرية الغزاة (وما أكثر ما ابتليت هذه الأرض بالغزاة البرابرة) لم تبقيا شيئاً يفصح عن معتقدات الشعوب القديمة وطقوسها . ولم يسلم لنا من العهود التاريخية الغامضة أو النادرة الوثائق والمستندات إلّا اسماء تحمل في تركيبها الصفة «ان» ـ (السيد) ـ (الله بمفهومنا) منقوشة في صخور مبعثرة في العراء ، أو محفورة في ألواح من الطين سلمت من عوامل الدهر ومن سنابك خيول الغزاة . أو تسم مدناً منائر أو مظاهر في الطبيعة (جبال أنهار وديان) لم تقو على محوها العوامل الطبيعية أو الجيوش البربرية .

ومن الطبيعي أن الأسماء المقترنة بالصفة «ان» كان لها مدلول معتقدهم الديني :

التقرّب من «ان» ـ(السيد) ـ (الله بمفهومنا) ، والتيمّن بـه . ولها معـان جميلة وساميـة تعبّـر عن الصفات الكمالية في المحبة والـرحمة والحنـان والرأفـة والقابليـة للعطف والاستجـابة للتوسل والشعور بالواجب ، التي أسبغتها شعوب سوريا القديمة على «ان» ـ (السيد) .

فمن أسماء الملوك المقترنة بالصفة «ان» ـ (السيد) التي وقفنا عليها في منطقة حوض النهرين مثلاً ، نذكر :

ان مركر (حوالي ٢٧٥٠ ق.م.) ثاني ملوك سلالة أوروك الأُولى .
ان مبرجسي (٢٦٣٠ ـ ٢٦٠٠ ق.م.) ملك كيش .
ان شكشنا (٢٤٣٢ ـ ٢٤٠٣ ق.م.) ملك سومر .
ان هجل (حوالي ٢٥٧٠ ق.م.) ملك لاغاش .
ان أنتم الأول (٢٤٢٤ ـ ٢٤٠٥ ق.م.) ملك لاغاش .
ان تمنا (٢٤٠٤ ـ ٢٣٧٥ ق.م.) ملك لاغاش .
ان أنتم الثاني (٢٣٧٤ ـ ٢٣٦٥ ق.م.) ملك لاغاش .
ان انترزي (٢٣٦٤ ـ ٢٣٥٩ ق.م.) ملك لاغاش[٢٤٦] .

والملاحظ أن هناك اختلافاً في التواريخ المنسـوبة إلى كـل من هؤلاء الملوك بين كل من أواتس وجاسترو .

ومن التـراث الذي اكتشف في مـدرسة المعبـد في نيبّور Nippur (حـوض النهـرين) عرفنا كثيراً من الأسماء الأكادية المقترنة بـالصفة «ان» في مـركب اسنادي أو اضـافي ، منها مثلاً :

انو دان	انو مالك	انو لبت	انو نمق	انو زنين
انو ندا	انو متبل	انو نور	انو دمق	انو قردو
انو ناصر	انو اربم	انو توكلت	انو شالم	انو حازر
انو ابلم	انو ادنّم	انو بلطي	انو شمخ	انو وقر
انو نقد	انو اقشم	انو لمزي	انو اشمو	انو وتر
انو شمع	انو اتشو	انو امدي	انو اشمعني	انو صل
انو مجر	انو رعو	انو زمدي	انو اشتمر	انو منسي
				أنو زيد[٢٤٧]

ومن الأسماء المعبّرة التي وردت في المراسلات الملكيـة الأشوريـة نذكـر اسم «أرد انو» الذي يعني «عبد انو»[٢٤٨] .

ومن الأسماء التي وردت في ما اكتشف من تراث ماري Mari (في الشمال السوري) نذكر :

يبني ان	خبد ان	سلم ان	يخزب ان	يرب ان
أبم ان	خبن ان	سمخلي ان	يخن ان	يسكر ان
أدي ان	خلم ان	صدق ان	يخسي ان	يرق ان
أخم ان	خنت ان	صوري ان	يختي ان	يرش ان
أكي ان	يدي ان	شوبنا ان	يملك ان	يشوب ان
أرسي ان	خقب ان	شبطي ان	يمرص ان	يخزر ان
اتمري ان	ارخم ان	يوش ان	ينتن ان	يخقب ان
اخقب ان	لما ان	يجمران	يسم ان	يصدق ان
املك ان	ذكر ان	بدر ان	يسمخ ان	يخمص ان
ان مالك	زمري ان	يزرخ ان	يسبك ان	يرخم ان
داني ان	قمت ان	يخد ان	يصب ان	انو نيري[٢٤٩]

وفي القليل الذي نشر من تراث ايبلا Ebla عرفنا أسماء :

ان دامو	ان بومالك	ان بوشالم	ان چالم	ان زالم[٢٥٠]
ان أرليم	ان زند	ان چاند	ان زيدامو	

ومن مظاهر الطبيعة في سوريا نذكر مثلاً :

سيح ان (نهر في الشمال السوري) .
نعم ان (واد قريب من الفرات) .
جوز ان (على نهر الخابور ـ من روافد الفرات) .
جرم ان (جرمانا من ضواحي دمشق) .
زبد ان (زبداني ٢٠ ميلاً إلى الغرب من دمشق) .
سكر ان (واد قريب من دمشق) .

وقد شعّ مفهوم «ان» ـ (السيد) إلى الجنوب الشرقي من سوريا الطبيعية . والنقوش المحفورة على صخور هذه المنطقة كثيرة . فمن نقوش منطقة الصفا Safa نذكر الأسماء :

حي ان	ظفر ان	نعم ان	سكر ان	عوذ ان
حن ان	ودّ ان	ذكر ان	خير ان	رام ان
وهب ان	تيم ان	حرش ان	داني ان	سعد ان[٢٥١]

ومن نقوش تدمر :

حن ان	خيران	سلم ان
نتن ان	ظفر ان	سمع ان[٢٥٢]

ومن نقوش حوض الأردن :

لعس ان	حن ان	كهل ان	عمر ان	عز ان
مار ان	عدن ان	حرم ان	وهب ان	مضع ان[٢٥٣]

ومن نقوش ديدان وثمود :

اب ان	حن ان	نشو ان	قين ان	ترب ان
أوس ان	حقل ان	سلم ان	قلع ان	تيم ان
أيم ان	حدّ ان	سعد ان	قسم ان	يشع ان
بسّ ان	حلب ان	عمي ان	قفل ان	يعد ان
بول ان	حمّ ان	عرب ان	ري ان	فهر ان
جاد ان	حرّ ان	عضو ان	رحل ان	عقب ان
غيل ان	لوذ ان	عصم ان	ربّ ان	وسع ان
جرم ان	محب ان	عله ان	رفّ ان	حق ان
ديد ان	مسم ان	عم ان	رحم ان	كمل ان
ظفر ان	مأق ان	علم ان	شبط ان	ودّ ان
ذيب ان	منّ ان	عزّ ان	شوق ان	عبد ان[٢٥٤]
ذود ان	مثب ان	عدو ان	شبب ان	
زمّ ان	معد ان	سمّ ان	تب ان	

ومن النقوش المكتشفة في منطقة السويداء (٥٠ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من دمشق) :

عوذ ان	حن ان	زهر ان	ربّ ان
ظن ان	ذهو ان	بدر ان	مع ان
شبع ان	نعم ان	وهب ان	عدي ان[٢٥٥]

ومن النقوش المكتشفة في مناطق الجوف وتيماء والعلا في العربية الشمالية ، نذكر الأسماء :

صدق ان . حي ان . سرح ان . ذيب ان . مار ان[٢٥٦] .

ومن النقوش المكتشفة في منطقة لحيان في العربية الشمالية :

عله ان	عم ان	نعم ان	ارز ان	عبد ان
اسم ان	مار ان	ديد ان	عزر ان	عدو ان
نور ان	لوذ ان	أرش ان	سلم ان	محنّ ان[٢٥٧]

وفي منطقة ديد ان في العربية المشالية :

يفع ان . رضو ان . شهر ان . كنع ان . عوذ ان . عمّ ان . حيّ ان . سلم ان . مار ان . وهب ان . حنّ ان[٢٥٨] .

ومن مظاهر الطبيعة في العربية الشمالية :

ظهر ان (منطقة ومدينة) .
ري ان (وادي) .
ثهل ان (جبل في نجد) .
غمر ان (ماء بين نجد والحجاز) .
جيز ان (منطقة) .
سعد ان (٢٠ ميلاً إلى الشمال الشرقي من حايل)
جِلذ ان (موضع قرب الطائف) .

ومن الأسماء المشهورة في العربية الشمالية :

رضو ان	حنّ ان	سلم ان	عمر ان
عثم ان	عفّ ان	شمر ان	سحب ان
لحي ان	صفو ان	زيد ان	حيّ ان

وفي العربية الجنوبية ظهرت الأنظمة الملكية على مسرح التاريخ منذ أواسط الألف الثاني ق.م. ومن الثابت للمؤرخين والآثاريين أن حضارة الشعوب التي اسّست تلك الممالك هي أقدم من هذا التاريخ . وقد ترجع إلى الألف الثالث والرابع ق.م. والحقيقة أن الآثار التي اكتشفت والنقوش التي تم العثور عليها في العربية الجنوبية تعبّر عن حضارة مجيدة شعت أنوارها ما يقرب من ١٥٠٠ سنة ق.م. ولعل الجانب المهم في تلك الحضارة ، كما عبّرت عنه النقوش ، هو المعتقدات التي بلغت طور النضج في الألف الثاني ق.م. والطريف أن جوهر تلك المعتقدات أي مفهومهم للقوة العالية (الله) هو الجوهر ـ المفهوم ذاته الذي ساد في سوريا الطبيعية سائرها . وهذا يعني أن المقومات الحضارية ، ومن ضمنها المعتقدات ، التي ازدهرت في سوريا الطبيعية ، شعّت جنوباً إلى

العربية الجنوبية بفعل عوامل كثيرة ، لعل أهمها الأصل المشترك ، والألسن المتفرعة من لغة واحدة ، والتجارة التي قامت بالدور الهام في ذلك الإشعاع . فقد كانت ممالك معين وسبأ وقتبان وحضرموت تلعب دوراً بارزاً في تجارة العالم القديم ، وبخاصة مع الدول المطلة على المحيط الهندي ومع الممالك القائمة في سوريا الطبيعية .

وضع المؤرخون الغربيون مؤلفات كثيرة في معتقدات العرب الجنوبيين . وظهر في النقوش المكتشفة الكثير من الأسماء المنسوبة أو المضافة إلى «ان» ـ (السيد) . فمن النقوش السبأية في قصر بلقيس[٢٥٩] (بالقرب من مأرب) استطعنا التعرّف إلى أسماء كثيرة . منها مثلاً :

أوس ان	جمل ان	حلم ان	سنح ان	رمد ان
أوت ان	غيم ان	حدق ان	سلم ان	ريم ان
أيم ان	غيل ان	حمدان	سبع ان	رفش ان
ارز ان	ذرح ان	حنّ ان	نهي ان	رشو ان
بعد ان	ذكر ان	حمل ان	بزّ ان	رفد ان
بري أن	ذيب ان	حدل ان	عقب ان	شمت ان
برت ان	هلت ان	خيو ان	عوذ ان	شرو ان
بقي ان	هوت ان	خير ان	عمر ان	شبع ان
بيد ان	همد ان	خلف ان	عرج ان	شرق ان
برأ ان	هرّ ان	لحي ان	عله ان	وتر ان
بيح ان	هوف ان	لقظ ان	عزّ ان	يزع ان
جاد ان	زمّ ان	نهف ان	عرم ان	يسر ان
غضر ان	زلت ان	نجر ان	قين ان	يدع ان
جنّ ان	خول ان	سخم ان	رضو ان	شوب ان
جلد ان	حضر ان	صلح ان	رام ان	
جنأ ان	خبت ان	سقر ان		

ومن النقوش المكتشفة في منطقة تمنع من العربية الجنوبية نذكر الأسماء[٢٦٠] .

أوس ان	وذر ان	نضر ان	رفأ ان	زمر ان
غضر ان	زخن ان	نضح ان	رحب ان	شوع ان
ذيب ان	ظبي ان	عرب ان	رذح ان	رضو ان
ذرأ ان	ظهر ان	عقب ان	شعب ان	عذر ان
ضمر ان	يثع ان	عمّ ان	شيم ان	زهر ان

ذرح ان	ملك ان	قرض ان	ثوب ان	حذر ان
هرّ ان	معد ان	قبر ان	كحل ان	يثع ان
	نعم ان	رحّ ان		

ومن الأسماء التي وردت في سلاسل ملوك معين وسبأ وذي ريدان وحضرموت ، نذكر(٢٦١) :

عمد ان	نهف ان	عزّ ان	سخم ان	يثع ان
ايم ان	نوف ان	بيح ان	أوس ان	ريد ان
عله ان	رفش ان	غيل ان	يدع ان	

ووردت أسماء كثيرة في النقوش التي صنّفها أغناطيوس غويدي(٢٦٢) من العربية الجنوبية ، منها مثلاً :

عذر ان	شعب ان	عله ان	خول ان	غيل ان
رفش ان	همد ان	نهف ان	ريد ان	علي ان
ايم ان	ثوب ان	سنح ان	شرق ان	كحل ان

وفي النقوش التي صنّفها ويلر(٢٦٣) من مناطق متفرقة في العربية الجنوبية :

عزّ ان	همد ان	شبع ان	عله ان	عمد ان
غيل ان	مع ان	صلح ان	نهف ان	أوس ان
كحل ان	نعم ان	ذبي ان	غوث ان	

أما ج . ركمانز(٢٦٤) فقد صنّف نقوشاً كثيرة من العربيتين الشمالية والجنوبية ، وقفنا فيها على أسماء كثيرة ، منها مثلاً :

أهل ان	داي ان	مجد ان	عمد ان	شهر ان
ادب ان	دهن ان	مجن ان	عرف ان	شرق ان
أوس ان	دوم ان	معز ان	عبد ان	شبع ان
أمر ان	ديب ان	معد ان	عقب ان	شبث ان
احص ان	هر ان	مروان	عرب ان	شوق ان
أيم ان	هوف ان	مهدان	عرم ان	شيع ان
أمة ان	وصل ان	مع ان	فرز ان	تيم ان
	وقر ان	ملك ان	قين ان	توب ان
			قيض ان	ذبي ان

اسم ان
أصح ان
أجل ان
أسد ان
بعد ان
بارّ ان
بهر ان
بيح ان
بلح ان
بعط ان
بعران
بضع ان
برق ان
برت ان
تبل ان
باري ان
جبر ان
جلح ان
جنأ ان
جرد ان
جرم ان
جدد ان

زهل ان
زمّ ان
زعق ان
حجّ ان
حلف ان
حرم ان
حبب ان
حبك ان
حزل ان
حمز ان
حنّ ان
حسّ ان
حضن ان
حضر ان
حور ان
حمدان
يفع ان
يسر ان
يثع ان
كبر ان
كرب ان

عز ان
نسب ان
نعم ان
نشأ ان
نسم ان
نضح ان
نضر ان
نجر ان
سمع ان
سكر ان
سلم ان
سعد ان
عوذ ان
عمّ ان
عدن ان
عذر ان
عهد ان
عله ان
علي ان
علق ان
لحي ان

قلب ان
قلع ان
قمر ان
قعس ان
قتب ان
قدم ان
ريع ان
رحب ان
رامّ ان
رهب ان
رزح ان
ركب ان
رفش ان
رشو ان
ردم ان
ريد ان
رمض ان
رفأ ان
رضو ان

ذهو ان
ذكر ان
ذمر ان
ذرأ ان
ذرح ان
خطب ان
خلب ان
خضر ان
خول ان
خدن ان
ظهر ان
ظنّ ان
غضر ان
غيل ان
غضب ان
ضمر ان
ثمر ان
ترب ان

والجدير بالذكر ان «ان» ـ (السيّد) يدخل في تركيب الكثير من اسماء الأقاليم والمناطق في العربية الجنوبية . وهذه الاسماء ترجع في مدلولاتها إلى عصور قديمة ، أعني أقدم من المسميات ، لأن المسمّى يتخذ عادة اسماً معروفاً ومشهوراً من قبل . ويدخل أيضاً في تركيب الكثير من أسماء المدن والممالك التي قامت في العربية الجنوبية منذ أواسط الألف الثاني ق.م. وهذا يعني أن مفهوم «ان» والحضارة المرافقة له شعّا من سوريا الطبيعية جنوباً قبل الألف الثاني ق.م. ومن أمثلة هذه الأسماء نذكر :

أوس ان — نجر ان — قتب ان — عمد ان — حلب ان
لحي ان — ذو ريد ان — بيح ان — همد ان — وهر ان

ومن اسماء المظاهر الطبيعية في العربية الجنوبية التي يوردها الهمذاني (المتوفي ٣٣٤ هـ) في كتابه (صفة جزيرة العرب) ، نذكر :

حدق ان	نعم ان	ترب ان	غيل ان	شهر ان
ذبي ان	رامّ ان	نهل ان	جرب ان	جيز ان
ريع ان	صعد ان	ضحي ان	جهر ان	خول ان
فرع ان	صفو ان	عبد ان	لحي ان	

وفي سوريا الغربية لحق لفظ «ان» بفعل البيئة واللسان ، امالة مضمومة ، فصار «أون» . ومن أسماء المناطق الطبيعية والمدن المنسوبة إلى «أون» نذكر :

ليل ون (جبل بين حلب وبين انطاكية) .
صهي ون (جبل مرتفع إلى الشرق من اللاذقية) .
صاف ون (جبل على ساحل سوريا الشمالي) .
شقيق ارن ون (الشقيف كالكهف . قلعة حصينة في كهف من الجبل قرب بانياس) .
قاسي ون (جبل تتكىء عليه دمشق) .
شقيق تير ون (حصن وثيق بالقرب من صور) .
بردون (بردوني - نهر في زحلة) .

كفر ون . عرم ون . قاب ون . يا رون . عذن ون . بيت ياح ون . صيد ون . عين هرم ون . زين ون . عين قطم ون . فيطر ون . بتل ون . اشم ون . درع ون . دف ون . بشم ون . عجلة ون . كيف ون . ميد ون . بحمد ون . بتر ون . ياخ ون . بداد ون . قلم ون . بزع ون . شرت ون . عيتر ون . حصر ون .

ومن اسماء المدن والمظاهر الطبيعية في إقليم فلسطين نذكر :

بير ون	شمر ون	شمع ون	ايل ون	عبد ون
جبع ون	يان ون	حبر ون	شلع ون	عيلب ون
عدل ون	عقر ون	صهي ون	حنّ ون	لج ون
قطم ون	شار ون	جيح ون	يمان ون	داج ون
بيت حور ون	بيت أون	حشب ون	جلّ ون	شرت ون
	مرج أون	حرم ون		درع ون

ومن الأسماء المنسوبة إلى «أون» المشهورة في سوريا الغربية ، نذكر : شمع ون .

مار ون. هلّ ون. رحم ون. عبد ون. جدع ون. رام ون.

* * *

ذكرنا في ما تقدم أن مفهوم «أن» ـ (السيد) ـ (الله بمفهومنا) ظهر في التاريخ في حوض النهرين الأدنى في الألف الرابع ق.م. وربما قبل ذلك. وظل، كصفة للقوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء، مترسّخاً في الذهنية الحضارية السورية لاكثر من ألفي سنة. وفي عصور متأخرة ساد هذا المفهوم أيضاً في العربيتين الشمالية والجنوبية.

أما المفهوم «ايل» ـ (الله) الذي ظهر مع الأكاديين في البادية السورية في الألف الثالث ق.م. وربما قبل ذلك. فقد كان أكثر ترسّخاً في الذهنية الحضارية السورية وأكثر إشعاعاً في أرجاء العالم القديم. والاسماء المقترنة به في مركب اسنادي أو إضافي كثيرة جداً. وضع فيها المؤرخون وعلماءالآثار الغربيون الكثير من المؤلفات. فمن التراث الذي اكتشف في مدرسة المعبد(٢٦٥) في نيبّور (حوض النهزين) عرفنا كثيراً من الأسماء الأكادية المقترنة بـ «ايل»، منها مثلاً:

دان ايلي	ايلي آتي	فنو ايل	ملك ايل
دان ايليشو	سمو ايل	ايل حنن	يحيى ايل
نور ايلي	يرحم ايل	حنن ايل	يحز ايل
نور ايليشو	يملك ايل	يشمع ايل	يحل ايل
طاب ايلي	جرم ايل	مجد ايل	

ومن نقوش حجر نبوخذ ريسّر الأول في نيبّور(٢٦٦) عرفنا أسماء: مشبشي ايلو. برك ايلو.

ومن تراث الحاضرة التي شعّت في التاريخ القديم ـ نوزي(٢٦٧) (حوض النهرين) عرفنا كثيراً من الأسماء الأكادية المقترنة بـ «ايل»، منها مثلاً:

بركو ايليشو	ورد ايلو	اريم ايلو	ايلو أخي	ايلو دانو
ايلو ندا	ايلي بشرو	شلم ايلو	ايلو ارش	شار ايلي
نور ايلو	ايلي ايبّاشرا	ماصي ايلو	ايلو قرّاد	توكول ايلي
ايلي إدّينا	ايلي نبشر	ايلو ملك	ايلو طابو	أمر ايلو
دمق ايلو	اريب ايلو	دور ايليشو	ايلي اشمعني	دان ايلو
برك ايلو				

ومن أسماء الملوك المشعّين في تاريخ حوض النهرين(٢٦٨) :

جمل ايليشو (حوالي ٢١٤٥ ق.م.) من ملوك ايسين .
شو ايليشو (١٩٨٤ ـ ١٩٧٥ ق.م.) من ملوك ايسين .
دمق ايليشو (١٨١٦ ـ ١٧٩٤ ق.م.) من ملوك ايسين .
سمو ايل (١٨٩٤ ـ ١٨٦٦ ق.م.) من ملوك لارسا .
سمسو ايلونا (١٧٤٩ ـ ١٧١٢ ق.م.) ملك بابل .
ايلو شوما (٢٠٦٠ ـ ٢٠٤٧ ق.م.) ملك أشور .
اريك دين ايلي (١٣١٩ ـ ١٣٠٨ ق.م.) ملك أشور .

ومن الأسماء الأكادية من عصر فجر السلالات(٢٦٩) :

دمق ايلوم	ايلشو دان	ايلشو أخا	ايلوم ناصر	أخو ايلوم
ربي ايلوم	ايلوم دان	وتر ايلي	اشطب ايل	شادو ايلوم
ايلوم دمق	ايلو دانو	ايلي وتر	ايبلل ايل	ايلي كربي
ايلو دمقو	ايلشو ربي	ايلي بنى	اشمع ايلوم	كرب ايلي
دان ايلي	ايلشو طاب		ناصر ايلي	ايلو ملك
ايلي دان	طاب ايلي		ايلوم قرد	

ومن تراث مملكة لارسا(٢٧٠) العريقة في تاريخ حوض النهرين :

لما ايلي	أويل ايلي	ايلي ايلاّتي	ايلي اشمعني	ايلشو ايلاّتو
ابل ايليشو	ايلي أبي	ايلي خاسس	ايلي توكولتي	ايلوم نصروم
ايلو شيمي	ايلي اندلّي	ايلي صلّي	ايلي تورام	ايلو قرّاد
اسني ايلوم	ايلي ازي	ايلي ادنّام	ايلشو دان	لشتليم ايلي
اتنخ ايلي	ايلي ايليم	ايلي ايبلسم	ايلشو ادّين	

ومن الأسماء التي وردت في رسائل أمورابي ونقوشه(٢٧١) :

ابل ايلي	اور ايلي	ايلي ادنّام	ايلي أريبام
ابل ايليشو	ايلي بني	ايلي جملاّني	ايلي اقشم

ومن الأسماء الأرامية في تراث نيبّور(٢٧٢) :

عزر ايل	حنن ايل	برح ايل	يحيي ايل	عمّ أيل
هدر ايل	ادون ايل	برق ايل	ميك ايل	رحم ايل
هفك ايل	ايل شدّاي	جبر ايل	نهر ايل	رفأ ايل

حب ايل	أري ايل	ديم ايل	نطر ايل	فني ايل
حمي ايل	أوري ايل	جدر ايل	نور ايل	صور ايل

ومن الأسماء المقتبسة من تراث بابل[٢٧٣] :

عبد ايل	ايلو ناصر	ايلي أربام	ايلو شلم	بني ايليشو
ابي ايلو	جمل ايليشو	ايلي جملّاني	ايلي شيمي	قردي ايلو
أبل ايليشو	ايلي أبي	ايل اشمعني	ايلشو بني	رام ايلو
نور ايليشو	ايلي دوري	ايلي ربي	ايلو خادو	سمسو ايلونا
أمر ايلو	ايلي ادنّام	ايلي تورام	اشم ايلو	شوينا أيلو
أمري ايليشو	نارام ايليشو	ايلي أوبلام	يدع ايلو	ايلي نبشرام
ايلو دمق	أجر ايلي	ايلي جمل	يعزر ايلو	ايلي مشلّم
ايلشو بني	اتنخ ايلي	ايلي أتي	يملك ايلو	ايلشو أبو شو
ادّين ايليشو	دمقي ايليشو	ايلي ملك	يربي ايلو	أربام ايلي
دان ايلو	ايلي أمراني	ايلو رعو	مار ايلو	رعو ايل

ومن الأسماء التي وردت في المراسلات الملكية في الأمبراطورية الأشورية[٢٧٤] :

شار ايلاني	برك ايلو	ندن ايلو	نيد ايلو	أمر ايلو

وفي تراث أشور[٢٧٥] :

أمر ايلي	ايلشو ربي	ايلو قبقابي	امدي ايلوم
ايلي مدر	ماصي ايلي	يذكر ايلو	بزر ايلي
ايلي ندا	ايلوم شار	ايلو مار	ايلي بني
ايلي تورام	ايلو شومّا	ايلي شادو	ايلي كرب

واشتمل تراث ماري[٢٧٦] على كثير من الأسماء الأمورية المقترنة بالصفة «ايل» ، منها مثلاً :

حنّي ايل	يخقب ايل	ايلو ناصر	ايلي شوخ	ايلي مدر
حرم ايل	يتني ايل	ايلو رام	ايلي تار	ايلي سومو
أبيخي ايل	ملك ايل	ايلي بوخ	ايلي ختني	ايلي صدق
ابل ايل	ايلي مالك	ايلي راح	ايلي ليم	

ومن الأسماء التي وردت في القليل الذي نشر من تراث ايبلا[٢٧٧] :

ايل أدامو	إنّا ايل	املك ايل	يملك ايل	ايلوم ربي

ايل زند   إكو ايل   ايل بد   ايلو سار   أبي ايل
ايل زيدامو   اشلول ايل   ايلشو أخا   ايلوم دان   ايلوم قرد
دان ايل   اشتب ايل   حنّ ايل   يشمع ايل   إيث ايلوم
ايلو أخا   بزر ايل   ايلوم جر   ايلوم بني   شار ايلوم
ايلوم مالك   جشبن ايل

وفي الشمال السوري شعّت حضارة «ايل» منذ عصور مبكرة ، عبّر عنها الحضارة الأرامية العظيمة التي ازدهرت في المدينة المقترن اسمها بـ «ايل» - «سم ايل» (تقوم عليها بلدة زنجرلي التركية) . ومن ملوكها ركب ايل .

وفي النصوص الأرامية المكتشفة في مصر ورد من الأسماء : برك ايل . ايل شجب . ايل يشع .

ومن النقوش المكتشفة في الساحل الكنعاني وفي قرطاجة عرفنا كثيراً من الاسماء الكنعانية المقترنة بـ «ايل» ، منها[٢٧٨] :

ايل عمّ   عين ايل   قين ايل   حنّ ايل   نقم ايل
يثن ايل   يحيي ايل   جار ايل   خبص أيل   اش ايل
نعم ايل

ومن الأسماء - النماذج التي وردت في النقوش المكتشفة في جبيل وصيدون وصور ومصر وقرطاجة واسبانيا وقبرص ومالطة ورودس وإيطاليا وأثينا وسمئيل (زنجرلي) وقره تيبه (سيليسيا)[٢٧٩] :

حز ايل   ركب ايل   يحيى ايل   ايل أوس   ايل نتن
ايل وير   ايل شزب   ايل سمك   ايل يشع   اري ايل
سم ايل   يش ايل   ايل ستر   ايل ملك   بلط ايل
متع ايل   عبد ايل

أما الشعوب التي أنشأت الممالك وأرست الحضارات في الجنوب الشرقي من سوريا ، فقد حفرت الكثير من النقوش على صخور مبعثرة في العراء ، يندر أن يخلو نقش منها من اسم أو أكثر مقترن بالصفة «ايل» . فمن النقوش التي اكتشفت في سوريا الوسطى والجنوبية[٢٨٠] :

جرم ايل   سعد ايل   نشع ايل   سمر ايل   يقن ايل
عبد ايل   أب ايل   زيد ايل   غوث ايل   ذوب ايل

يسمع ايل	أوس ايل	سمد ايل	رفأ ايل	نظم ايل
ظنّ ايل	ايل أوس	فدا ايل	ومم ايل	ظهر ايل
شكر ايل	ايل وهب	نظر ايل	قدم ايل	فلط ايل
مسك ايل	ايل حمد	عذر ايل	كرب ايل	نهر ايل
جنّ ايل	ايل سعد	ودم ايل	حبّ ايل	عنّ ايل
غير ايل	ايل عوذ	عوذ ايل	ودّ ايل	رام ايل
وهب ايل	حن ايل	مسّ ايل	شعّ ايل	نصر ايل
ربّ ايل	حيّ ايل			

ومن النقوش التي اكتشفت في مناطق الصفويين انتقينا الأسماء[٢٨١] :

ايل فور	بلط ايل	جدر ايل	مسك ايل	نصر ايل
ايل شدّاي	بني ايل	دور ايل	نور ايل	نعم ايل
ايل وهب	جار ايل	حنّ ايل	نضل ايل	ملك ايل
ايل يدع	جرم ايل	حيّ ايل	نظم ايل	نصع ايل
ايل متع	جنّ ايل	خير ايل	نظر ايل	قدم ايل
أوس ايل	جلّ ايل	خل ايل	نهر ايل	قين ايل
أمر ايل	جاد ايل	منّ ايل	نشع ايل	رحم ايل
برك ايل	غير ايل	معن ايل	نشد ايل	رعو ايل
رام ايل	سن ايل	سبع ايل	شمت ايل	عدّ ايل
رثأ ايل	سعد ايل	سمك ايل	شكر ايل	شلط ايل
ربّ ايل	سمر ايل	سمع ايل	عرم ايل	تيم ايل
سمو ايل	شيع ايل	سعد ايل	علم ايل	عبد ايل
دور ايل	زيد ايل	يحمي يل	يدع ايل	وهب ايل
زحك ايل	زبد ايل	ودّ ايل	ظن ايل	عين ايل
عذر ايل				

والطريف في النقوش المكتشفة في جبال الصفا (إلى الجنوب الشرقي من دمشق) هو كثرة الأسماء المقترنة بـ «ايل» ، حتى ليندر أن يخلو نقش من اسم مقترن بـ «ايل» . والأطرف هو تعدّد الأسماء المقترنة بـ «ايل» في النسب الواحد ، من أمثلة ذلك :

عبد ايل بن أحلم بن عبد ايل بن جرم ايل
جرم ايل بن غير ايل بن جرم ايل

غير ايل بن حفني بن غير ايل
جرم ايل بن أنيق بن جرم ايل
يسمع ايل بن سعيد بن يسمع ايل بن أوس
وهب ايل بن مالك بن وهب ايل بن مار ايل
غير ايل بن نئير بن غير ايل
جرم ايل بن ماسك بن جرم ايل
أوس ايل بن قدم ايل
منّ ايل بن أوس ايل
سمر ايل بن أوس ايل
وهب ايل بن مار ايل
غوث ايل بن وهب ايل
عبد ايل بن تيم ايل
قدم ايل بن وهب ايل
ودم ايل بن قسم ايل
وهب ايل بن عبد ايل
حنّ ايل بن نشع ايل
سعد ايل بن أدب ايل
ايل عزّ بن يذكر ايل
سعد ايل ورب ايل ابنا وهب ايل
جرم ايل بن ظنّ ايل
منّ ايل بن أوس ايل
أوس ايل بن سمر ايل
سعد ايل بن وهب ايل
سعد ايل بن حنّ ايل

ومن النقوش التي اكتشفت في مناطق الأنباط انتقينا الاسماء(٢٨٢) :

ربّ ايل	حيّ ايل	رفأ ايل	سعد ايل	عبد ايل
رام ايل	ايل حيّ	ايل شبع	شيع ايل	شدّ ايل
حنّ ايل	يرفأ ايل	ومم ايل	أمت ايل	نظر ايل
وهب ايل	أمر ايل	يثع ايل	ودد ايل	تيم ايل

وا ايل	مسك ايل	كفر ايل	جرم ايل	ايل ملك
غوث ايل	فصي ايل	أوس ايل	عمر ايل	ايل برك
شكر ايل	تيد ايل	وقه ايل	طوع ايل	ايل عزّ
زيد ايل	ايل حيو			

ومن النقوش الثمودية[٢٨٣] انتقينا الأسماء :

ايل منع	ايل ذرأ	ذرأ ايل	حنّ ايل	عذر ايل
ايل أب	ايل بسّ	ددّ ايل	حمي ايل	عطا ايل
ايل شص	ايل حبّ	داني ايل	حب ايل	عبد ايل
ايل مالك	ايل حمي	ذرح ايل	يرفأ ايل	عمّ ايل
ايل خبص	ايل عمل	هرس ايل	يكفر ايل	عتت ايل
ايل خلم	ايل قعس	وسق ايل	يعذر ايل	ظنّ ايل
ايل شرح	ايل دحّ	وسع يل	يدع ايل	رحم ايل
ايل شدّاي	ايل ودد	واراو ايل	كبر ايل	ربّ ايل
ايل عزّ	ايل بجل	ودّ ايل	كرب ايل	سبع ايل
ايلى ضري	ايل يهب	وا ايل	كفر ايل	سلم ايل
ايل نتن	ايل يثع	زبد ايل	منّ ايل	سعد ايل
ايل ددّ	بح ايل	زيد ايل	معن ايل	أوس ايل
ايل عمّ	بدر ايل	خل ايل	سمع ايل	أدب ايل
ايل برّ	وهب ايل	يشع ايل	عون ايل	شدّ ايل
يحمي ايل	جار ايل	حصر ايل		

ومن الأسمـاء التي وردت في النقوش الأراميـة المكتشفة في تـدمـر وبصـرى[٢٨٤] :

سمو ايل . وهب ايل . عبد ايل . نظر ايل .

وفي النقوش المكتشفة في حوض الأردن[٢٨٥] :

عبد ايل	ددّ ايل	يرام ايل	ودم ايل	عون ايل
جرم ايل	بدر ايل	بدّ ايل	قسم ايل	حرم ايل
قدم ايل	يسمع ايل	نظر ايل	عذر ايل	شدّ ايل
وهب ايل	معن ايل	ربّ ايل	أوس ايل	رام ايل
ظنّ ايل	درّ ايل	حنّ ايل	فص ايل	عمد ايل
قين ايل	شمت أيل	حيّ ايل	نصر ايل	وسم ايل

غير ايل	ايل وهب	نشع ايل	كرب ايل	عمر ايل
زيد ايل	غوث ايل	جنّ ايل		

والجدير بالذكر أن أحد ملوك عمون (عمان الحالية) هو بدر ايـل حوالي ٧٠٥ ق.م. وأن أشـور نيراري الخـامس (٧٥٤ ـ ٧٤٥ ق.م.) شنّ حملة عسكريـة على متي ايل ملك اربد . وأن المنقبين عثروا في عمـان على ضريـح منقور في الصخـر ، وجد فيـه مجموعـة نفيسة من الأواني الفخارية ، ومجموعة من الأختام البديعة ، نقش على أحدها اسم شـوب ايل .

وفي النقـوش المكتشفـة في العـربيـة الشمـاليـة ورد الكثيـر من الأسمـاء المقتـرنـة بـ «ايل» . فمن نقوش ديدان مثلاً(٢٨٦) :

كبر ايل	أوس ايل	زين ايل	ايل يثع	وسق ايل
متع ايل	عذر ايل	ايل عمّ	ذرح ايل	كرب ايل
ايل يهب	شم ايل			

ومن نقوش لحيان(٢٨٧) :

مار ايل	ذرح ايل	ايل برّ	جرم ايل	يمسك ايل
عمّ ايل	عزّ ايل	ايل عمّ	حمي ايل	شم ايل
كبر ايل	وسق ايل	ايل يثع	قسم ايل	وا ايل
ودع ايل	واراو ايل	ايل أب	سعد ايل	رعو ايل
متع ايل	عذر ايل			

ومن النقوش المكتشفة في منطقة المدينة المنوّرة(٢٨٨) :

ايل سمع	ايل تيم	ظنّ ايل	يشمع ايل	تيم ايل
ايل أمر	ايل بسّ	وثت ايل	معد ايل	وهب ايل
ايل شدّ	ايل حبّ	وهب ايل	عثت ايل	أوس ايل
ايل حمي	ايل عمل	جار ايل	عون ايل	رعت ايل
ايل عزّ	ايل ربت	وتر ايل	عزر ايل	سلم ايل

ايل عتر ايل نتن حمي ايل عزّ ايل سمح ايل
ايل عمّ ايل ددّ يحمي ايل عوذ ايل سعد ايل
ايل برّ ايل ذرأ يحمد ايل عمّ ايل ركب ايل
ايل يدع ايل قعس وقه ايل سار ايل ربّ ايل
ايل شمر بدر ايل يشمد ايل

ومن النقوش المكتشفة في مناطق الجوف وتيماء[٢٨٩] انتقينا الأسماء :

زيد ايل عمر ايل أوس ايل عذر ايل شوق ايل
حبّ ايل كفر ايل متع ايل غير ايل يسمع ايل
علي ايل سعد ايل ذرح ايل حن ايل يعزر ايل
ايل نعم يحمي ايل

ومن نقوش منطقة العلا[٢٩٠] :

رب ايل ايل يفع ايل خبص ايل حبب ايل يثع
ايل عز وقه ايل يحمي ايل حمي ايل ايل برّ
رام ايل أوس ايل يدع ايل كبر ايل ذرح ايل
عمر ايل ودّ ايل رثد ايل متع ايل قسم ايل
مير ايل سعد ايل زيد ايل شمت ايل دسق ايل
حبب ايل كفر ايل عذر ايل ايل عمّ عزّ ايل
خير ايل

ومن مظاهر الطبيعة في العربية الشمالية عرفنا مثلاً : حي ايل (منطقة ومدينة) جب ايل (ميناء إلى الشمال من القطيف) . ومن الأسماء المشهورة : جبر ايل. سموئيل . وا ايل. خل ايل. يسمع ايل .

* * *

وفي العربية الجنوبية ذكرنا أن الآثار التي اكتشفت والنقوش التي تمّ العثور عليها تعبّران عن حضارة مجيدة شعّت أنوارها ما يقرب من ١٥٠٠ سنة ق.م. ولعل الجانب المهم في تلك الحضارة ، كما عبرت عنه النقوش ، هو المعتقدات التي بلغت طور النضج في الألف الثاني ق.م. والطريف أن جوهر تلك المعتقدات أي مفهومهم للقوة العالية (الله) هو الجوهر ـ المفهوم ذاته الذي ساد في سوريا الطبيعية سائرها . وهذا يعني أن المقومات الحضارية ، ومن ضمنها المعتقدات ، التي ازدهرت في سوريا الطبيعية ، شعّت جنوباً إلى

العربية الجنوبية . وقد وضع المؤرخون الغربيون المؤلفات الكثيرة في معتقدات العرب الجنوبيين . وظهر في النقوش المكتشفة الكثير من الأسماء المقترنة بـ «ايل» ـ (الله) . فمن النقوش السبأية في قصر بلقيس[٢٩١] (بالقرب من مأرب) استطعنا التعرّف إلى اسماء كثيرة ، منها مثلاً :

يعذر ايل	ايل ذرأ	غوث ايل	شرح ايل	ايل كرب
وهب ايل	ايل رام	ايل عدّ	يعز ايل	رحّ ايل
سعد ايل	ايل شرح	ايل عزّ	يدع ايل	ربّ ايل
ايل قدم	حمي ايل	ايل زيد	ايل عتت	عمر ايل
يحمي ايل	يقم ايل	كرب ايل	ايل وهب	ذرح ايل
ثوب ايل	يشرح ايل	نشد ايل	صدق ايل	يثع ايل
ايل وكل	معد ايل	قسم ايل	ودّ ايل	ايل أوس
عبد ايل	مثد ايل	شرحبي ايل	ددّ ايل	ايل أمر
ايل سعد	نبط ايل			

ومن النقوش المكتشفة في منطقة تمنع[٢٩٢] وصلتنا أسماء كثيرة ، منها :

ذرح ايل	يصدق ايل	ايل ذرأ	ايل شرح	وا ايل
سعد ايل	ايل وهب	حمي ايل	يقم ايل	رثد ايل
رب ايل	ايل عزّ	ايل قدم	ايل رام	ايل سعد
عبد ايل	يذكر ايل	توب ايل	يعذر ايل	نبط ايل
وهب ايل	يدع ايل	معد ايل	غوث ايل	يشرح ايل
يسمع ايل	زيد ايل	يحمي ايل	ايل وكل	

ومن النقوش المكتشفة في منطقة ذي ريدان :

وهب ايل	ايل شرح	رحّ ايل	ايل يفع	وقه ايل
كرب ايل	يدع ايل	ودد ايل	يثع ايل	

وهذه نماذج يسيرة من الأسماء الكثيرة في النقوش المكتشفة في منطقتي معين وسبأ[٢٩٣] :

ايل يفع	يثع ايل	شرح ايل	يدع ايل
ايل شرح	كرب ايل	وهب ايل	وقه ايل

وفي نقوش معبد حريدة[٢٩٤] :

بشر ايل	ودّ ايل	يشرح ايل
حي ايل	ذكر ايل	حمي ايل

وفي النقوش المكتشفة في مناطق متفرقة من العربية الجنوبية[٢٩٥] :

يدع ايل	شرح ايل	ايل شرح	ايل عزّ	كرب ايل
ايل حنّ	يصدق ايل	خل ايل	ايل يدع	ايل يفع

وبالنسبة إلى ملوك العربية الجنوبية يرى المؤرخ فيلبي[٢٩٦] أن الملكية في معين ترجع إلى القرن الثاني عشر ق.م. وقد عدّد نحواً من اثنين وعشرين ملكاً من ملوكها ، نذكر منها الأسماء المقترنة بـ «ايل» :

الأسرة الأُولى :

ايل يفع وقه (١١٢٠ ق.م.)

وقه ايل صادق (١١٠٠ ق.م.)

الثانية :

صدق ايل (١٠٢٠ ق.م.) ملك معين وحضرموت

ايل يفع يثع (١٠٠٠ ق.م.)

ايل يفع ريام (٩٦٥ ق.م.)

وقه ايل ريام (٩٢٠ ق.م.)

ايل يفع يفش (٨٩٠ ق.م)

الثالثة :

يثع ايل صادق (٨٥٠ ق.م.)

وقه ايل يثع (٨٣٠ ق.م.)

ايل يفع يشر (٨١٠ ق.م.)

وقه ايل نبط (٧٩٠ ق.م.)

الخامسة :

يثع ايل ريام (٦٧٠ ق.م.)

ومن ملوك سبأ عدّد ٨٠ ملكاً بدءاً من ٨٠٠ ق.م.

الأسرة الأُولى :

يدع ايل ذارح (٧٨٠ ق.م.)

يدع ايل باين (٧٤٠ ق.م.)

كرب ايل باين (٧٠٠ ق.م.)

كرب ايل وتر (٦٢٠ ق.م.)

الثانية :

كرب ايل وتر (٥٨٠ ق.م.)

ايل شرح (٥٧٠ ق.م.

يدع ايل باين (٥٦٠ ق.م.)

كرب ايل وتر (٥٠٠ ق.م.)

ايل شرح (٤٦٠ ق.م.)

يدع ايل وتر (٤٣٠ ق.م.)

كرب ايل وتر (٣٩٠ ق.م.)

الثالثة :	الرابعة :
ايل كرب يوهنعم (٣٥٠ ق.م.)	وهب ايل يحوز (١٨٠ ق.م.)
كرب ايل وتر (٣٣٠ ق.م.)	كرب ايل وتر يوهنعم (١٦٠ ق.م.)
وهب ايل (٣١٠ ق.م.)	ايل شرح يهذب (١٢٥ ق.م.)
الخامسة :	السادسة :
كرب ايل وتر يوهنعم (٧٠م)	ايل عذ نوف ان (٣٤٥ م)
يدع ايل وتر (١١٥ م)	

ومن ملوك قتبان عدّد ١٧ ملكاً بدءاً من القرن التاسع ق.م. ومن الاسماء المقترنة بـ «ايل» :

واراو ايل غيل ان (٨٠٠ ق.م.)	واراو ايل (٦٦٠ ق.م.)

ومن ملوك أوس ان عدد ثمانية ملوك بدءاً من القرن السابع ق.م.

معد ايل صلح ان (٢١٠ ق.م.)	يصدق ايل (١٩٠ ق.م.)
معد ايل (١٧٠ ق.م.)	يصدق ايل عم يثع (١٥٠ ق.م.
ايل شرح (١٣٥ ق.م.)	

ومن ملوك حضرموت عدد ١٩ ملكاً بدءاً من ١٠٢٠ ق.م:

صدق ايل (١٠٢٠ ق.م.)	ايل عذ (١٢٠ ق.م.)
ايل يفع يثع (١٠٠٠ ق.م.)	يدع ايل باين (٨٠ ق.م.)
ايل سمع ذبي ان (٦٥٠ ق.م.)	ايل عذ يليط (١٥ ق.م.)
يدع ايل باين (١٨٠ ق.م.)	ايل عذ يليط (٦٥م)
ايل ريام (١٦٠ ق.م.)	

والجدير بالذكر أن هناك اختلافاً في التواريخ المنسوبة إلى كل من هؤلاء الملوك بين فيلبي وبين كل من وليم البرايت ووبندل فيليبس[٢٩٧] .

ومن النقوش التي صنّفها ج. ركمانز من العربيتين الشمالية والجنوبية ، وقفنا على اسماء كثيرة مقترنة بـ «ايل»، منها مثلاً :

	ذرح ايل	ايل عزّ	بني ايل	وهب ايل
أعن ايل	رعو ايل	ايل عمد	بسم ايل	وقه ايل
ايل بنى	ربّ ايل	ايل فدي	ايل ذخر	يصدق ايل
أب ايل	أوس ايل	ايل قدم	معن ايل	يسمع ايل

أدب ايل
ايل أب
ايل رفأ
ايل رشد
ايل زيد
ايل سعد
ايل سمع
ايل يدع
ايل يفع
ايل يثع
ايل رام
ايل ربّ
ايل سمو
تيم ايل
جنّ ايل
جرم ايل
حنن ايل
خل ايل
دان ايل
ذمر ايل

ايل أمن
ايل أمر
أمر ايل
ايل وتر
ايل حبب
ايل خبص
ايل ذرح
سعد ايل
شكر ايل
شعّ ايل
شرح ايل
شرحب ايل
عبد ايل
عزر ايل
عون ايل
عمّ ايل
عوذ ايل
ايل شرح

يل كرب
ايل ملك
عزّ ايل
غوث ايل
غير ايل
ظنّ ايل
ظهر ايل
فلط ايل
قدم ايل
قسم ايل
كفر ايل
كبر ايل
مار ايل
محمد ايل
ايل عمس
ايل وهب
ايل أوس
ايل نصر

ملك ايل
مسك ايل
مسلم ايل
معمر ايل
منّ ايل
نبط ايل
نشع ايل
نظر ايل
نصر ايل
نر ايل
حنّ ايل
حيو ايل
حمي ايل
حرم ايل
خير ايل
ودّ ايل
وتر ايل
وسم ايل

يعوذ ايل
رضو ايل
رفأ ايل
زيد ايل
صدق ايل
زان ايل
يفتح ايل
يدع ايل
يشفي ايل
يثع ايل
يكل ايل
يمن ايل
يشرح ايل
يشكر ايل
يحرم ايل
يفع ايل
ايل ذرأ
ايل نعم

والملاحظ في النقوش المكتشفة في العربية الجنوبية هو تعدّد الأسماء المقترنة بـ «ايل» في النسب الواحد (وقد رأينا مثل ذلك في نقوش جبال الصفا) . من أمثلة ذلك :

ايل عزّ بن يذكر ايل .
سعد ايل ورب ايل ابنا وهب ايل[٢٩٨] .

ومن أسماء ملوك معين :

وقه ايل صادق (١١٠٠ ق.م.) بن ايل يفع (١١٢٠ ق.م.)
ايل يفع (١٠٠٠ ق.م.) بن صدق ايل (١٠٢٠ ق.م)
ايل يفع يشر (٨١٠ ق.م.) بن وقه ايل يثع (٨٣٠ ق.م.) بن يثع ايل صادق (٨٧٠ ق.م.) .

وسبـأ :

يدع ايل (٥٦٠ ق.م.) بن كرب ايل (٥٨٠ ق.م.)
كرب ايل (١٦٠ ق.م.) بن وهب ايل (١٨٠ ق.م.) .

وأوس ان :

ايـل شرح (١٣٥ ق.م.) بن يصـدق ايل (١٥٠ ق.م.) بن معـد ايـل (١٧٠ ق.م.) بن يصدق ايل (١٩٠ ق.م.) بن معد ايل (٢١٠ ق.م.) .

وحضر موت :

ايل ريام (١٦٠ ق.م.) بن يدع ايل (١٨٠ ق.م.)[٢٩٩] .

* * *

والجدير بالذكر أن الأسماء المقترنة بصفة القوّة العـالية «ايـل» ـ (الله) متنوعـة الصيغ تبعـاً لتنـوّع البيئـات والألسنـة . من أمثلة ذلــك : بـرك ايــل. بـرك ايلو. بـرك ايليشـو. ايلي كــربي. كــرب ايلي. . دان ايـــل. دان ايلي. دان ايليشــو. ايلو دانــو. دان ايلو. ايلي دان. ايلشو دان .

ايل يثع. ايل يشع. ايـل يسع. يشـوع ايل. شيـع ايل. ومـا إلى ذلك . وقس على ذلك أيضاً الأسماء المقترنة بالصفات الأُخرى .

وأن جزئي الاسم المركب يتناوبان ، بشكـل عام ، في التقـديم والتأخيـر ، من أمثلة ذلـك : ايل سمـع ويسمع ايـل. ايـل رفـأ ورفـأ ايـل. ايلي عـزر وعـزر ايـل. ايـل سعـد وسعد ايل .

* * *

وهنـا أرى من الضروري الإشـارة إلى نمـاذج من الأسمـاء التي تقتـرن بصفـة القـوّة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء ـ أشور (السيّد) بمفهـوم الأشوريين . وانليـل (السيد العالي) بمفهوم البابليين ، والأشوريين من بعد . ومـاردوك (السيّد العـظيم) بمفهوم الأموريين .

فمن الأسماء المقترنة بـ «أشور» التي وقفنا عليها في ما سلم من تراث أشور[٣٠٠] :

أمر أشور	اشور امقي	اشور امتّي	اشور نشو	اشور طب
اشور بني	اشور ادي	اشور لمسّي	اشور ابي	شلم اشور
اشور دمق	ادي اشور	اشور ملك	اشور شدو	اشور أبلّط

اشور دان اشور ندا

ومن أسماء الملوك الأشوريين المقترنة بـ «أشور»[٣٠١] :

بزر أشور الثالث (١٥٢١ ـ ١٤٩٨ ق.م.)
اشور أبلّط الأول (١٣٦٥ ـ ١٣٣٠ ق.م.)
اشور نراري الأول
اشور نراري الثاني
اشور نراري الثالث (١٢٠٣ ـ ١١٩٨ ق.م.)
اشور دان الأول (١١٧٩ ـ ١١٣٤ ق.م.)
اشور دان الثاني (٩٣٤ ـ ٩١٢ ق.م.)
اشور دان الثالث (٧٧٢ ـ ٧٥٥ ق.م.)
اشور رشـشي الأول (١١٣٣ ـ ١١١٦ ق.م.)
اشور ربي الثاني (١٠١٣ ـ ٩٧٣ ق.م.)
اشور نراري الخامس (٧٥٤ ـ ٧٤٥ ق.م.)
اشور ندين أخي
توكولتي اشور
اشور ندين شمي (٦٩٩ ـ ٦٩٤ ق.م.)
اشور ندين ابلي
اشور اطل إلّاني

ومن الأسماء التي وردت في المراسلات الملكية في الامبراطورية الأشورية[٣٠٢] :

كسر اشور	اشور رمن شرّي	اشور أوشلّم	اشور ناصر
تبشر اشور	اشور بلطونش	ادّين اشور	اشور اتير
شبا اشور	اشور دوربانيا	منّوكي اشور	

ومن الأسماء التي وردت في ما سلم من تراث نوزي[٣٠٣] : اشور ديّانو. اشور امري. اشور مشلّم .

وفي رسائل ونقوش أمورابي[٣٠٤] : اشور دان .

ومن الأسماء المقترنة بـ «انليل» التي وقفنا عليها في ما سلم من تراث أشور[٣٠٥] : انليل بني . انليل ناصر. انليل ندن شمي . انليل ندن ابلي .

ومن أسماء الملوك المقترنة بـ «انليل» في ما سلم من تراث حوض النهرين[٣٠٦] :

لبت انليل (١٨٧٣ ـ ١٨٦٩ ق.م.)
انليل بني (١٨٦٠ ـ ١٨٣٧ ق.م.)
قدشمن انليل الأول (حوالي ١٣٧٠ ق.م.)
قدشمن انليل الثاني (١٢٧٩ ـ ١٢٦٥ ق.م.)
انليل ندن شمي (حوالي ١٢٢٧ ق.م.)
انليل ندن أخي (١١٥٩ ـ ١١٣٧ ق.م.)
انليل ندن ابلي (١١٠٤ ـ ١١٠١ ق.م.)
انليل نراري ١٣٢٩ ـ ١٣٢٠ ق.م.)

كدر انليل (١٢٦٤ ـ ١٢٥٦ ق.م.)

ومن تراث الحاضرة التي شعّت في التاريخ القديم ـ نوزي[٣٠٧]، عرفنا : كربتي انليل. حنن انليل. إتّي نليل. انليل ناصر .

ومن التراث الذي اكتشف في مدرسة المعبد في نيبّور[٣٠٨] :

انليل دان	انليل جار	انليل منكي	انليل مجن	انليل زمن
بني انليل	انليل دنرجال	انليل لجنو	انليل اتمو	انليل منّ
نور انليل	انليل حمو	انليل نجبا	انليل اندلني	انليل زمو

ومن الأسماء المقترنة بـ «ماردوك» ـ (السيّد العظيم) نذكر بعض ما سلم لنا من أسماء الملوك في منطقة حوض النهرين[٣٠٩] :

ماردوك ابل ادّنا (١١٧٣ ـ ١١٦١ ق.م.)
ماردوك كبت اخيشو (١١٥٨ ـ ١١٤١ ق.م.)
اتّي ماردوك بلطو (١١٤٠ ـ ١١٣٣ ق.م.)
ماردوك ندن أخي (١١٠٠ ـ ١٠٨٣ ق.م.)
ماردوك شبك زير (١٠٨٢ ـ ١٠٧٠ ق.م.)
ماردوك أخي اربا (حوالي ١٠٤٨ ق.م.)
ماردوك زير (١٠٤٧ ـ ١٠٣٥ ق.م.)
ماردوك ذكر شمي الأول (حوالي ٨٥٤ ـ ٨١٩ ق.م.)
ماردوك بلسو اقبا (حوالي ٨١٨ ـ ٨١٣ ق.م.)
ماردوك بعل زير
ماردوك ابل اسر
اربا ماردوك
ماردوك بلدن الثاني (٧٢١ ـ ٧١٠ ق.م.)
مشزب ماردوك (٦٩٢ ـ ٦٨٤ ق.م.)
امل ماردوك (٥٦١ ـ ٥٦٠ ق.م.)
لبش ماردوك (حوالي ٥٥٦ ق.م.) .

ومن الأسماء المقترنة بـ «ماردوك» في عصر مبكر من تاريخ الحضارة البابلية[٣١٠] :

ادّن ماردوك	ابني ماردوك	ماردوك دنّي	ماردوك تير	ماردوك مشلّم
جمل ماردوك	ماردوك أبي	ماردوك خسس	رش ماردوك	قشتي ماردوك

ماردوك ناصر ماردوك دجن ماردوك نشو ماردوك مبلّط

ومن الأسماء التي وردت في حجر نبوخذ ريسّر الأول في نيبّور[٣١١] :

ماردوك ابل ادّنا	ماردوك ابني	دايان ماردوك	ماردوك شبك
ماردوك ندن أخي	ماردوك بلطو	نور ماردوك	ماردوك شار
ماردوك أخي اربا	اربا ماردوك	كدن ماردوك	ماردوك شم إدّنا
ابني ماردوك	مشلّم ماردوك	ماردوك ناصر	ماردوك زاكر شمو

ومن الأسماء التي وردت في رسائل ونقوش أموراببي[٣١٢] : جمل ماردوك. ابني ماردوك. ماردوك مشلّم. ماردوك ناصر .

ومن الأسماء التي وردت في المراسلات الملكية الأشورية[٣١٣] :

ماردوك ارش	ماردوك كبل ادّن	ماردوك شوموصر	ماردوك ناصر	ماردوك اربا
ماردوك رمن	ماردوك شروسر	ماردوك شرّاني	نيد ماردوك	ماردوك دايان
مشزب ماردوك	ماردوك قربا		ماردوك جمل	ماردوك شمدنا

الصورة والاطار

ذكرنا في ما تقدم أن الإنسان القديم في سوريا الطبيعية بدأ في وقت مبكر ، بالقياس إلى غيره في المجتمعات الأخرى ، يتأمل في الكون المحيط به . وحين أرهف التأمّل حسّه وأذكى التطوّر الحضاري وعيه ، ارتفع بنظرته إلى الأعالي ، فأحس بالكمال والمطلق غير المحدودين بالصورة ، والمتعاليين على تجربة الحواس . وخالجه شعور بأن للسماء سلطة تفرض نفسها عليه كما تفرضها على الطبيعة ومظاهرها . وشعور بأن «القوّة العالية» المطلقة الكامنة في عالم غير العالم المنظور ، لعلّه في السماء العالية ، هي قوة خفية مستقلة عن إرادة البشر ، تحرك الكون حسب مشيئتها ووفق إرادتها . وهكذا اندمج مفهومه للقوة الجبارة التي تدير شؤون الكون الإنسانية والطبيعية بالعلو والسماء . وظلت مشاعره مشدودة أبداً نحو القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء .

وهاتان القوة والسلطة المطلقتان اللتان توحي بهما السماء ، أطلق عليهما السومريون في حوض النهرين الأدنى صفة «ان» ـ (السيد) . وأطلق عليهما الأكاديون في البادية السورية صفة «عل» ـ (العالي) . وأطلق عليهما الأموريون في سوريا الداخلية صفة «ماريخ» أو «ماردوك» ـ (السيد العظيم) . وأطلق عليهما الأشوريون في الحزون الشمالية

من بلاد النهرين صفة «أشور» ـ (السيّد) .

ويبدو أن الإنسان القديم في سوريا الطبيعية حاول منذ استيقظ ذهنه وجعل يشعر بوجوده ، أن يتبصّر ذلك «السيد» «العالي» ويعبّر عنه ويصوغه ألفاظاً . ولكنه أدرك بعد لأي أن استبصاراً للمطلق «العالي» هو شيء يسمو على كل تعبير ويتجاوز كل صياغة وكل نظام . لأن المطلق ليس موضوعاً يستطيع مراقبته أو التقاطه ، بل هو حقيقة بعيدة المنال ، سرّ لا يسبر . وهو مرعب بقوته وأليف بقربه في آن معاً ، وذلك ما عُبّر عنه بالإجلال والحب .

لقد كانت فكرة «القوة العالية» بمفهومهم مبدأ من المبادىء الأولية الكونية . تكاد تكون من الوضوح في أذهانهم بحيث لا تُرى ضرورة لشرحها أو تحليلها . ومن الشمول والإحاطة بحيث لا يمكن التعبير عنها .

ولكن الإحساس بها (فكرة القوة العالية) كان حاضراً دائماً في مشاعر الإنسان القديم ، ويفرض ذاته على يومياته . وكان الشعور بها وعياً وإدراكاً يتناسب عمقاً وسيطرة مع نمو الوعي الذاتي في الفرد ، ومع تطور المجتمع .

والجدير بالملاحظة أن مسألة وجود «ان» ـ (السيد) أو «ايل» ـ (العالي) ، الكلي القدرة ، الخالق ، والمدبّر للكون ، هي قبل كل شيء مسألة وعي . وقد كان لدى الإنسان القديم في الشرق المتوسطي وعي يقيني بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية . وكان له أيضاً وعي يقيني بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية ، لاعتقاده أو لشعوره أنه متصل بهذا الوجود وقائم فيه .

هذه القوة السماوية التي أحس الإنسان القديم في سوريا الطبيعية بعظمتها وجلالها ، اعتبرها السلطة المطلقة التي تدعو إلى الولاء بمجرد وجودها . وهي في الوقت ذاته مصدر كل سلطة ومبدأها الفعّال في كلا المجتمعين : الكوني والبشري . ومصدر القوّة التي تدير شؤون الكون الإنسانية والطبيعية . وهي الطاقة المنظمة للسلطة الفاعلة في الجو والمناخ ، وما ينتج عنهما من تنظيم للطقس والفصول . وهي أيضاً مصدر التنظيم الذي ينقذ المجتمع من الفوضى ويجعل منه كلاً منظم التركيب . ومصدر الطاقة التي تضمن طاعة الناس التلقائية للأوامر والقوانين والأعراف الخلقية في المجتمع . ومن هنا كان اعتقاد البابليين بأن أوامر الملك هي أوامر «انليل» . أو قل إن الأمر يسري بقدرة انليل . وكان اعتبارهم أن هذه القوة هي المبدأ الفاعل في الكون وفي الوجود (الأرض) . وهذا المبدأ الفاعل هو الفعالية المثالية في الكمال والخير والنظام .

وهكذا كان «السيد العالي» يمثّل في ذهن الإنسان القديم في سوريا الطبيعية النظام والقدرة والحكمة والعناية والكمال والشمول . فهو «الكلي القدرة» و «المدبّر للكون» . أو قل إن بيده مصير الكون والأرض وما عليها . فهو يفعل في قوى الطبيعة التي تؤثر بدورها في حياة المخلوقات . وهو «الراعي الذي يقرّر مصائر الناس» . وهو الذي يدير شؤون العالم «كامل الأرض والسماء» . و «كل الأحياء» . «هو سيّد أقاصي الارض» . و «له السيادة على الشعوب كافة» . أو قل إن «ظلّه ينتشر فوق البلدان جميعها» :

«من جبال مشرق الشمس إلى جبال مغيبها
ليس من سيّد في الأرض غيرك . أنت السيد»[٣١٤] .

وهو «الكلي الحكمة» . وحكمته تفوق إدراك البشر . تقول عشتروت :

«إن كلامك يا ايل حكيم
وحكمتك حيّة إلى الأبد»[٣١٥] .

وتبدو حكمته في حفظ التوازن في ما بين قوى الطبيعة ومعطياتها . فالأنهار تفيض في أوقاتها . والأشجار تعطي ثمارها . والأسماك تضع بيوضها في الأنهار والبحار . أو قل إن كل شيء بإذنه :

«فلولا انليل لما فاضت الأنهار
ولما وضعت الأسماك بيوضها في أجمات القصب
ولولاه لما نبتت البذور في الحقول ، أو نمت الأعشاب في المروج
ولما أثمرت الأشجار في غابة النخيل»[٣١٦] .

وفي مفهومهم أيضاً أن قبساً منه (العالي) هو الذي يحرك ما في الطبيعة من قوى ، وما في السماء من أجرام ، وما في الإنسان من طاقات خيّرة . وقد عبّروا في نصوصهم الميثولوجية عن مفهوم جوهري لإله علوي شامل . فالسيد العالي باعتبارهم يعي مسؤوليته في إدارة الكون وتنظيم شؤون إنسانه . فهو لا يقوم بأي دور سلبي يبعث الاضطراب أو الخلل . بل يؤدي رسالته المتمثّلة في المحافظة على النظام الطبيعي : جريان الحياة على وجه سوي إيجابي . سير الكون سيراً طبيعياً . تعاقب الفصول ، وانتظام دورة النبات ، واستمرار الأنواع في الوجود . . .

والملاحظ أن الإنسان القديم في سوريا الطبيعية لم يضف على «السيد العالي» صفات بشرية . ولم يمثّل شكله ، أو يرفع له صنماً . وإنما أضفى عليه صفات أخلاقية وأدبية عظيمة . فهو في مفهومهم فكرة مطلقة ، متعالية . وقوة مثالية جبارة ، تقي الإنسان

من خوف وترفع من ساعده في عجز . وهو في اعتبارهم قوة كونية جامعة ، من صفاته السمو والشمول :

«ملك السماء والأرض
ملك البلدان جميعها»[٣١٧] .

نعتوه بـ «السيّد العالي» و «السيد العظيم» و «الجليل» و «سيد الأبدية» و «ملك السماء والأرض» و «سيد المخلوقات» و «سيد البشرية». ولعل القيمة الكبيرة التي تمتاز بها معتقدات الشعوب القديمة في سوريا الطبيعية تتضح في الصفات الخلقية التي نسبوها إلى «السيد العالي» . فهو في مفهومهم «ينصح بكل ما هو خير» . و «يتقبل الدموع كقربان» . و «يرعى البشر كافة من دون استثناء» . و «حكمته تفوق إدراك البشر» . وهو «اللطيف» «القدوس» «سيد الرحمة» . «يجمع بمحبته كل شيء . ويغمر الناس فيض حنانه الأبوي» .

والواقع أن الصورة (صورة الإله) التي تكشّفت للإنسان القديم في سوريا الطبيعية ، تعبّر عن مفهوم إلهي عميق وجليل إنسانياً وفكرياً . فيه من غنى وسمو المعنى الإلهي ما يجعله أرقى مفهوم إلهي عرفته البشرية في معتقداتها الطبيعية ودياناتها التاريخية . فالإله في هذه الصورة «لم تلده امرأة» ، وإنما «خلق نفسه بنفسه» .

وهذا «السيد» أو «السيد العالي» لا اسم له ولا صورة . ولا يمثّل أو يجسّد بنصب أو تمثال أو هيئة صنمية . هو مثال مجرد . وهو العلو المطلق . وهو كائن غير مرئي . وهو القوة التي أخرجت الكون من العماء ، وحررته من الفوضى ، وجعلته في بنية منظمة . وهو «خالق كل شيء» و «واهب الحياة» و «به نحيا» كما كانوا يعبرون[٣١٨] .

وفي التراث الذي وصلنا من منائر سومر وبابل وأشور . ومن ماري وايبلا وأوغاريت . ومن غيرها من منائر سوريا الطبيعية ، نجد أنفسنا أمام مجموعة ضخمة من النصوص ـ المعتقدات التي تعبّر عن نضجهم الروحي المبكّر ، وعن سمو نظرتهم إلى الخالق والكون والإنسان . فمنذ الألف الثالث ق.م. وربما قبل ذلك بكثير ، رفع الإنسان القديم في هذه الأرض نظره إلى الأعالي ، فبهره جلال «العالي» وعظمته وقدرته . وتكشّفت له الصورة الحقيقية لمفهوم «العالي» ـ (ايل ـ الله) . كانت الصورة الأروع لاسمى مفهوم حمله إنسان في داخله وتغنّى بعظمته وأنشد علويته واغتبط بقربه منه .

تحدّثنا النصوص مثلاً عن «أبو السنين» أي الأزلي الأبدي . «خالق الأرض والخلائق» . «سيد السماء» و «سيد الأرض» و «سيد العالم» . «الحكيم» . «العادل» .

«الطيب» . «سيد الرحمة» . و «ذو الفؤاد» أي الرحيم . «راعي البلاد» الذي «يحمي الشعوب كافة» . الذي كان في تنظيمه الكون وفي خلقه الإنسان والكائنات الأُخرى ، كان الجلال والعظمة والقدرة التي بهرت الإنسان .

وتتحدث النصوص أيضاً عن عظمة «السيد الذي لا تبدّل مشيئته» . وعن «أنواره التي لا يحدّها بصر» . وعن «أسرار جوهره التي تبقى خافية» على البشر . فـ «لا أحد يعرف وسائله» . و «لا أحد يستطيع أن يلمّ بقراراته» . و «لا أحد يستطيع فهم دروبه» .

وتحدثنا النصوص أيضاً وأيضاً عن :

«الواحد العاقل
الواحد العارف الذي يدرك القضاء
ويقرر المصائر إلى الأبد
السيد الذي يحيط بالسماء والأرض
ويرى أقاليم الدنيا كلها من عليائه
السيد الذي أوجد كل شيء نافع
الذي ينبت البذور من قلب الأرض
السيد الذي يعرف أقدار العالم
الأب «السيد العالي» ، رب الأرض كلها
وسيد الأحكام العادلة .
أيها الجبّار إن مطر السماء وحياة الأرض هما تحت رعايتك
أنت تجعل النبات ينمو
وتجعل القمح يرتفع عالياً
انت تجعل الطيور تتكاثر في السماء . وتملأ البحر بالسمك
«السيد العالي» ، أوامره فوق الجميع
وكلمته ممجّدة ومقدسة
يقرّر المصائر إلى الأبد
عينه الرفيعة تحتضن العالم
أشعته تنفذ إلى القلوب في الأرض كلها
السيد العظيم ، الجبار ، الأسمى في السماء وفي الأرض
العارف كل شيء الحكيم ، العاقل
الذي لا يترك الأشرار وفاعلي السوء ينجون بأعمالهم

معبده ، قوانينه ، كالسماء لا يمكن نقضها
شعائره النقية، كالأرض لا يمكن تحطيمها
أعياده تطفح بالدهن والحليب ، وهي غنية بالخيرات
ومخازنه تدفق الغبطة والبهجة
فبيت «السيد العالي» هو جبل من الخير
وظله ينتشر فوق البلدان جميعها
سيدي ، أنت المعلم الناصح ، السيد القادر
راعي الجماهير
راعي المخلوقات الحية كلها
كلمتك في السماء هي دعامة
كلمتك في الأرض هي أساس
تقترب من السماء فتهطل الأمطار
وتدنو من الأرض فيكون الخصب والنماء
تطلع البراعم من الأرض بقوة
كلمتك النبات . كلمتك القمح
كلمتك هي الماء الفائض ـ حياة الأرض كلها»[٣١٩] .

وتتضح من النصوص التي وصلتنا عنهم نظرة للإله ، كقدرة وجلال وعظمة ، سامية في مدلولها ، عميقة في تعبيرها . فـ «السيد العالي» باعتبارهم هو الواحد ، الحكيم ، العظيم ، العاقل ، الأسمى ، الجبار ، العارف ، الرحيم ، الراعي ، . . وهو الذي نظّم الكون والوجود :

«رفع السماء وأبعدها عن الأرض
وأبعد الأرض عن السماء»[٣٢٠] .

وهو القوة العليا في الكون والوجود ، أي «ملك السماء والأرض» :

«كلمته هي العليا
وأمره أساس السماء والأرض»[٣٢١] .

«السيد» ـ (الاله) القريب

والجديـر بـالانتباه إليـه أن «السيـد» أو «السيـد العـالي» أو «السيـد العـظيم» (الله بمفهـومنا) ، بقي في ذهن الإنسـان القديم في سـوريا الـطبيعية ، بعـد الانتهاء من عمليـة التكوين والخليقة وتنظيم الوجود ، بقي بعيداً ، وبعيداً جداً . فهـو «سيد الأبـدية» و «سيـد المخلوقـات» و «ملك السماء والأرض» و «الكلي القـدرة» و «الكلي الحكمـة» و «المـدبّـر للكـون» . وهو ، لجـلاله وعـظمته وسمـوّه ، بقي متعاليـاً وبعيداً ، لا يـرافق الإنسـان في اهتماماته اليومية ، ولا يهتم بمشكلات البشر الحياتية بمعناها العادي والمعبّر . «إنه فوق ، والإنسان تحت . الله هو الله . والإنسان هو الإنسان»[٣٢٢] .

ومن هنا كان شعوز الإنسان القديم في هذه المنـطقة من العـالم بالحـاجة إلى قـوة أو قوى أُخرى «سيّدة» و «عالية» أيضاً . ولكنها تستمد سلطتها أو قوتها من القوة العليا المطلقة «ان» ـ (السيـد) أو «ايل» ـ (العـالي) . تتقرّب من البشـر بمحبة فتتنبّـه إلى ظروف حيـاتهم المادية والروحية ، وتعمل على تخفيف الأعباء عنهم ورفع سويتهم وإعطائهم آمالاً جـديدة لعالم أفضل على الأرض وما بعد الموت .

ومع أن صانـع الكون والخليقـة بلغ في ذهنه السمـو المطلق ، أي الفكـرة المطلقـة والفعل المطلق . والمطلق يتعالى على تجارب الحواس ولا يلتـزم بشيء ولا يحدّد بصـورة أو بزمن أو بمهمة . وبقي حسّاً متعالياً بعيداً عن الإنسان وعن التدخّـل في شؤونه اليـومية . ينظر إليه الفرد كقوة نائية ، «علّة أولى» . فقد ظل ملجأً أخيراً للإنسان . وظل الإنسان يعود إليه مرة بعد مرة خاصة عندما تحلّ به مصيبة أو يداهمـه خطر . أو حين يـرجو نـوالاً كبيراً . وعند ذاك يصعد من الإنسان ابتهال إلى السماء العالية : «لقد حاولنا كـل شيء . ولكنك لا تزال أمامنا لتسعفنا . أي سيدي ، أيها العالي ، أنت خالقنا فاحنن علينا»[٣٢٣] .

أمـا القوى العـالية الأُخـرى فهم «بعل» أو «سيّـد» مـدينـة أو بيئـة معينـة ، مثـل نبـو (المشـرق) وأدون (السيّد) وملقـارت (ملك القـريـة ـ المـدينـة) واشمـون (السمـاء) ويثـع

(المخلّص) وشيع القوم (مخلّص القوم) وذو غاية (سيّد الغـابة) وذو الشـرى (سيّد الشـرى) والعـزيز (الجبّـار) وكرب (المبـارك) ويغوث (المغيث) ورضى (الـراضي) وعطرسم (مجـد السماء) ونن (السيدة) واللات (السيدة العالية) وعناة (السيّدة) وعشتروت (السيدة) .

وهم أيضاً قوى الطبيعة وفـواعل الـوجود مشخّصـة : دموزي (تمـوز) ، شمش ، سن (القمر) ، داجون ، نهر ، يم ، موت ، هدد .

وربمـا كـان بعضهم أبـطالاً أو تجسيـداً أسـطوريـاً لأبـطال قـوميين ، مثـل كـرت الصيدوني ، وهرقئيل وايليسار الصـوريين ، ودانئيل الأوغـاريتي ، وهب ايل ، وحمّ ون . فالبطولة شمول وعظمة . والبـطل في نظر مقـدّريه ، إن لم نقـل عابـديه ، هـو رمز للقـدرة الغلّابة الفائقة . وكثيراً ما يبلغ تمجيد الأبطال الدينيين أو الوطنيين ، عن غير وعي ، مرتبـة التأليه ، خاصة بعد موت البطل ، لأن النفس البشرية شديدة الميل إلى تقديس الموتى .

وربما كانوا أجداد بيئـة معينة ، صنعـوا خيراً في حيـاتهم . وبعد مـوتهم خلع عليهم الناس نعوتاً خارقة أو أضفوا عليهم صفات الأولياء والقديسين . وحين تعاظم قـدرهم انثنى قـومهم يطلبـون شفاعتهم ورعـايتهم لبعض الأمور الحيـاتيـة الغـامضـة ، ولـدرء الأخـطار والمصاعب . وتيمّنوا باسمائهم ، وقدّموا على أضرحتهم القرابين والنـذور . وأخيراً جـرى تأليههم في بيئتهم أو في بيئات أخـرى . فـ «هرق ايـل» مثلاً هـو بطل صـوري ، ولكنه في بـلاد الآغريق إلـه . يقول لـوسيان السميسـاطي بعد ذكـره معبد هـرقل في صـور «هو غيـر هرقليس اليونان . فهو أبعد منه في القـدم وهو بـطل من أبطال صـور»[٣٢٤] . و «هب ايل» جد بيئة معينة في سوريا الجنوبية الشرقية ، ولكنه في العربية الشمالية إله .

هذه القوى كانت بمثابـة الفعل المسنـد الذي يلتـزم بشيء . ولذلـك فقد انـدمجت بحياة الناس ومظاهر الطبيعة حولهم . وواكبت يوميـات حياتهم الاقتصـادية والاجتمـاعية . فكـان لكل بلدة بعـل (سيّد) أو بعلة (سيّـدة) ، تتيمّن باسمـه أو باسمهـا ، وتنظّم لـه أو لها طقوساً احتفالية دينية تتفق مع مشاعر الإنسان وحاجاته الفردية والاجتماعية العامة ، وتـرتبط بعواطفه وتطلعاته .

وفي مفهـومه أن هـذه القوى تقـرّبت من الإنسان في جميـع الميادين . شعـرت معه وعملت لمساعدته في حياتـه اليوميـة : بناء المسكن ، تـدجين الحيوان ، أصـول الزراعـة والري والعمارة ، استعمال الأدوات المختلفة والمتعـددة التي كان لهـا الأثر الكبيـر في رفع سـويّته المعـاشية . استعمـال الأعشاب للتـداوي . وباختصـار ، عملت كل مـا من شـأنـه تخفيف الأعبـاء عن الإنسان . وكـان لها الفضـل في مساعـدة الإنسان على إيجـاد طريقـه وتأمين معيشته وسكنه وتأدية الأعمال الخيّرة بالنسبة له . وكانت في مشاركتهـا للإنسـان في

العمل الحضاري : الزراعة وتدجين الحيوان والري والعمران ، وفي رعايتها لحياته ، قد مهّدت أمامه السبل إلى الخير والرفاه .

وهذه القوى أو بعضها عاشت على الأرض . تقرّبت من الناس بغية تعليمهم أُسس الحضارة . عاملتهم بمحبة ، وسهّلت وسائل حياتهم ، وكانت عوناً لهم . أو قل إنها سهرت على حياة الإنسان بمختلف مرافقها ، وغرست الأمل في نفسه ، فشعر الإنسان بقربها منه وبمحبتها له أكثر مما شعر بمحبة الصانع الأول رغم تقديسه لجلاله وعظمته ولجلالة وعظمة الأعمال التي قام بها هذا الصانع القادر .

والطريف أن الناس كانوا في فترات كثيرة من تاريخ الشرق المتوسطي ينسون الإله الخالق المطلق البعيد ، ويتعاطفون مع القوى العالية القريبة . ولا تزال هذه الحالة متجذّرة في عواطف الناس حتى يومنا هذا : التقرّب من الأنبياء ، القديسين . الأولياء ، في الديانتين المسيحية والمحمدية .

وباختصار ، أُكرر : كان لكل بلدة أو إقليم بعل (سيّد) أو بعلة (سيّدة) ، تتيمّن باسمه أو باسمها ، وتنظّم له أو لها طقوساً احتفالية دينية ، تتفق مع مشاعر الإنسان وحاجاته الفردية والاجتماعية العامة ، وترتبط بعواطفه وانفعالاته .

ففي حوض النهرين الأدنى يبدو أن «ان» ـ (السيّد) ـ (الله بمفهومنا) بقي بعد الانتهاء من عملية التكوين والخلق ، بعيداً في ذهن السومري . بعيداً عن الإهتمام بمشكلات الإنسان العادية أو بقضاياه اليومية بمعناها العادي والمعبّر . وكان للسومريين قوى أُخرى «عالية» أيضاً ، تقرّبت منهم أو قل إنهم شعروا بقربها منهم مثل «ان كي» (سيد العالم الأسفل ـ الدنيا) ، وإلى جانبه «نن كي» . وكان لهم دموزي (سيد الخصب والتجدّد والتكاثر في الطبيعة وفي حياة الناس) . وإلى جانبه «انانا» (سيدة الأُنوثة والخصوبة والعطاء) . وكان لهم أيضاً «ان بلولو» (سيد الأقنية) و «ان كيمدو» (سيد السدود) و «ان شار» (سيد السماء) و «رام ان» (سيد العلا) و . .

والملاحظ أن «السيدة» كانت أقرب إلى النفوس من «السيد» بفعل عامل الأُنوثة والأمومة وما يقترن بهما من عطف ورقة وحنان . ومن هنا كثرة «السيدات» في المعتقدات السومرية ـ البابلية . فكان لكل بلدة أو حي أو شكل طبيعي (نهر ، جبل ، مثلاً) «سيدة» . من أمثلة ذلك :

نن أور (سيدة المدينة)
نن سيكيلا (سيدة العفّة والنقاء)
نن غال (السيدة العظيمة)
نن كورّا (سيدة الأراضي العالية)

نن خورساغ (سيدة الجبل)	نن أزو (سيدة الشفاء)
نن سار (السيدة الكريمة)	نن جرسو (سيدة جرسو ـ حي من أحياء لاغاش)
اش نن (سيدة العطاء)	نن اجيكو. نن أورتا. نن شي. نن كرك.
نن ماخ (السيدة الكبيرة)	نن سينا. نن مار. نن غيش زيدا. نن شوبور

وفي أقاليم سوريا الطبيعية الأُخرى التي تتحدّر شعوبها من أصل واحد ، وتتفرّع ألسنتها عن لغة واحدة ، بقي «ايل» أيضاً بعد الانتهاء من عملية التكوين والخلق ، بعيداً في ذهنية الشعوب القديمة التي عمرت سوريا الطبيعية منذ فجر التاريخ : الأكاديين والأشوريين والأموريين والكنعانيين والأراميين . بقي بعيداً عن الاهتمام بمشكلات الإنسان العادية أو بقضاياه اليومية بمعناها العادي والمعبّر . وكان لتلك الشعوب قوى أُخرى «عالية» أيضاً ولكنها تستمد سلطتها أو قوتها من القوة العليا المطلقة «ايل» ـ (العالي) . تقرّبت منهم أو قل إنهم شعروا بقربها منهم . فخلعوا عليها الألقاب بحسب مفهومهم لها ، أو أطلقوا عليها صفات تعيّن سماتها وأفعالها وعلاقاتهم بها ، مثل البعل (السيد) وعشتروت (السيدة) ونبو (المشرق) وسن (القمر) وشمش والعزيز (الجبار) وهدد وملقارت (ملك القرية ـ المدينة) واشمون (السماء) وأدون (السيد) وملكوم (الملك) ورضو (الراضي) ويثع (المخلّص) ويثع القوم (مخلّص القوم) وغوث أو يغوث وعطرسم (مجد السماء) .

ويبدو أنهم عملوا في بعض المدن أو الأقاليم على جمع صفتين معاً من القوى العالية والقريبة ، أو أضافوا الواحدة إلى الأُخرى ، فكان لهم مثلاً «ملك بعل» و «بعل شميم» أو «بعل شمين» .

ولكن الصفة التي سادت في أذهان الناس هي صفة البعل ـ (السيد) ، سيد الرجولة والخصوبة والعطاء . وإلى جانبه نن (السيدة) أو البعلة (السيدة) أو عشتروت (العشيرة) ، التي تمثّل المرأة الأُنثى ، الأُم ، الأُخت ، الحبيبة . نظر إليها السومريون والبابليون والكنعانيون كرمز وليس كوجود حقيقي . فهي «السيدة» رمز الأُنوثة ومثالها ، وهي ملكة السماوات ، وهي سيدة الخصب والعطاء . فكان لكل بلدة أو إقليم بعل أو بعلة ، وربما الإثنان معاً . وغالباً ما كان اسم البلد أو الإقليم أو المظهر الطبيعي يُضاف إلى البعل أو البعلة ، فيقال مثلاً : بعل صافون (جبل على ساحل سوريا الشمالي) ، بعل صيدون ، بعل صور ، بعل فغور (في فلسطين) ، بعل حمّون ، بعل شيلك (في قرطاجة) ، بعل راسي ، بعل ملكي ، بعل حرمون (جبل في سوريا الجنوبية) ، بعل صمد ، بعل لبنان ، بعلة جبيل ، بعل جيزر ، بعل حنان ، بعل حاران ، بعل حازور ، بعل مرقود ، بعل طرسوس ، بعل بيريت . .

ويُقال : عشتار أرب ايل (مدينة جبلية في إقليم أشور) ، عشتار نينوى ، عشتار بيت كتموري ، عشتار دينيتي ، عشتار بابل ، عشتار كيثارا (في قبرص) . .

ولما كانت «السيدة» أقرب إلى النفوس من «السيد» بفعل عامل الأنوثة والأُمومة ، وما يقترن بهما من عطف ورقة وحنان ، فإن الملاحظ هو كثرة «السيدات» في معتقدات الشعوب القديمة في سوريا الطبيعية . فقد كان لكل مدينة أو حي أو شكل طبيعي (نهر ، جبل ، مثلاً) أو عنصر حيوي ، أو مفهوم إنساني (العفة العطاء الكرم الشفاء) ، «سيدة» . ومن هنا لم تخل مدينة أو قرية أو بيئة معينة في سوريا الطبيعية منذ بداية التاريخ المدوّن (الألف الثالث ق.م.) حتى المسيح ، من عشتار (سيدة) أو بعلة (سيدة) .

والطريف أن مفهوم بيت البعلة أو عشتار تحوّل بعد انتشار المسيحية في سوريا الطبيعية ، إلى كنيسة . ولذلك لا تخلو مدينة أو قرية أو بيئة معينة تدين بالمسيحية في سوريا الطبيعية من كنيسة السيدة . فأنت إذا تجولت في قُرى وبلدات الجبل اللبناني وجدت أن لكل قرية أو بلدة كنيسة . والاسم الذي يطلقه عليها أهل القرية أو البلدة هو «كنيسة السيدة» ، أو سيدة كذا ، كأن يقولون : سيدة حريصا ، سيدة أميون ، سيدة حصرون ، سيدة زغرتا ، سيدة اهدن ، سيدة البترون ، سيدة جبيل ، سيدة الشوير ، سيدة بشري . . أو تجولت في قرى وبلدات الهضاب والجبال المطلّة على الساحل في سوريا الوسطى ، وجدت أن لكل قرية أو بلدة كنيسة . وتسمعهم يقولون : «كنيسة السيدة» ، أو سيدة كذا ، مثل سيدة كفرام ، سيدة الكفرون ، سيدة مقعبرة ، سيدة الناصرة ، سيدة المزينة ، سيدة عناز ، سيدة مرمريتا ، سيدة الزويتينة ، سيدة صافيتا . .

والجدير بالانتباه إليه أن المقصود بـ «السيدة» ظل في أذهانهم حتى ميلاد المسيح هو عشتروت أو البعلة . وبعد انتشار المسيحية في سوريا الطبيعية أضحت مريم (أُم المسيح) هي «السيدة» . ومن الطبيعي أن الدور الذي كان لـ «انانا» مع دموزي ، وعشتروت مع تموز وأدون ، وعناة مع البعل . هو الدور ذاته الذي أعطي لمريم مع المسيح .

والملاحظ أن هذا المفهوم ساد في العربية الشمالية ، فكان لكل حيّ أو قبيلة «سيدة» . يقول ابن الكلبي «كانوا يقولون إن اللات والعزّى ومناة هنّ بنات الله ، وهن يشفعن إليه» . ويضيف «كانت قريش تخصّ العزّى دون غيرها بالزيارة والهدية . وكانت ثقيف تخصّ اللات . وكانت الأوس والخزرج تخصّ مناة» . ويقول أيضاً «وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : واللات والعزّى ومناة الثالثة الأُخرى ، فانهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى»[٣٢٥] .

يُضاف إلى ذلك أن المفهوم ـ القوى العالية القريبة ، الذي ساد في ممالك الجنوب

الشرقي من سوريا : تدمر ، الصفا ، الأنباط ، ثمود ، شعّ أيضاً إلى العربية الشمالية ، فكان لديهم مثلاً «ذو» - (السيد) : ذو غابة ، ذو الشرى ، ذو الخلصة ، وعطرسم ، ورضو ، ويثع ، وشيع القوم ، وغوث أو يغوث ، بالإضافة إلى أسماء أبطال تعاظم قدرهم في بيئة وجرى تأليههم في بيئة أُخرى مثل «هب ايل» .

ولعل ما يشير إلى مدى ترسّخ هذا المفهوم في ذهن الإنسان القديم في سوريا الطبيعية ، هو كثرة الأسماء المقترنة بهذه القوى . والجدير بالتأمل في هذه الأسماء ، مثلها مثل الأسماء المقترنة بـ «ان» و «ايل» ، هو سمو معانيها وعمق دلالاتها . فمن اسماء الملوك المقترنة بـ «نبو» - (المشرق) في تراث حوض النهرين[٣٢٦] :

نبو خذ ريسّر الأول (١١٢٦ - ١١٠٥ ق.م.)
نبو شمو ليبر (١٠٣٤ - ١٠٢٧ ق.م.)
نبو مكن أبلي (٩٧٩ - ٩٤٤ ق.م)
نبو شمشكن الأول (حوالي ٨٩٥ ق.م.)
نبو أبلي إدّنا (٨٨٥ - ٨٢٨ ق.م.)
نبو شمشكن الثاني (٧٥٣ - ٧٤٨ ق.م.)
نبو ناصر (٧٤٧ - ٧٣٤ ق.م.)
نبو ندن زير (٧٣٣ - ٧٣٢ ق.م.)
نبو مكن زير (٧٣١ - ٧٢٩ ق.م.)
نبو بولسّر (٦٢٥ - ٦٠٥ ق.م.)
نبو خذ ريسّر الثاني (٦٠٤ - ٥٦٢ ق.م.)
نبو نيدس (٥٥٥ - ٥٣٩ ق.م.)

ومن حجر نبو خذ ريسّر الأول في نيبور عرفنا الأسماء[٣٢٧] :

نبو ادّنا	اذكر نبو	نبو بلط	نبو زاكر شوما	نبو أخوني	
أمل نبو	اردي نبو	ادّنا نبو	نبو ابل ادّنا		

ومن الأسماء التي وردت في المراسلات الملكية الأشورية[٣٢٨] :

نبو شم ادّن	نبو زير ابني	نبو بعل شمت	نبو شلم
نبو ندن شم	نبو ليداني	نبو شار أخيشو	نبو شيزب
نبو ريماني	نبو سلّي	نبو شومشكن	نبو تكلك
نبو أوشبشي	نبو همتو	أرد نبو	نبو توكولتي
نبو ناصر	نبو رشيشي	نبو تبني أوصور	نبو إتّاشو
نبو مشيسي	نبو أشلّم	نبو اربا	نبو سجب
نبو شار ادّن	نبو شم ليشر	نبو بنى	نبو ارش
نبو جمل	نبو شار أوصور	اشدي نبو	نبو زير ليشر

ومن الأسماء التي وردت في رسائل تل العمارنة[٣٢٩] : نبو أوشبشي. نبو شم ادّنا.

اشدي نبو. نبو أخي اربا .

ومن الأسماء المقترنة بـ «رام ان» ـ (سيد العلا) عرفنا من أسماء ملوك أشور[٣٣٠] :

رام ان نيراري الأول (حوالي ١٣٢٥ ق.م.)
رام ان نيراري الثاني (٩١١ ـ ٨٩٠ ق.م.)
رام ان نيراري الثالث (٨١٢ ـ ٧٨٣ ق.م.)

وفي المراسلات[٣٣١] الملكية الأشورية ورد اسم : رام ان شم أوصور .

وفي حجر نبوخذ ريسّر الأول في نيبّور ورد اسم[٣٣٢] : دمق رام ان .

ومن الأسماء التي وردت في رسائل ونقوش أمورابي[٣٣٣] : نور رمانو . دور رمانو. رام ان شم ناصر. رام ان ربي. رام ان ارسو .

ومن الأسماء التي وصلتنا من عصر مبكر في تاريخ الحضارة البابلية[٣٣٤] :

رام ان بني	ادن رام ان	رام ان ربي	رام ان أبي
نور رام ان	مار رام ان	رام ان ادّنا	نارام رام ان
ابني رام ان	رش رام ان	لبت رام ان	رام ان رملي

ومن الأسماء المقترنة بـ «داجان» عرفنا من أسماء ملوك حوض النهرين[٣٣٥] :

ادّن داجان (١٩٧٤ ـ ١٩٥٤ ق.م.) ملك ايسين
اشم داجان (١٩٥٣ ـ ١٩٣٥ ق.م.) ملك ايسين
اشم داجان الأول (١٧٨١ ـ ١٧٤١ ق.م.) ملك أشور .

ويتردّد كثيراً في تراث أشور : اشم داجان[٣٣٦] .

وكذلك يتردّد كثيراً في تراث بابل اسم : ادّن داجان[٣٣٧] .

ومن الأسماء التي وردت في تراث ماري[٣٣٨] :

يبني داجان	ابل داجان	ياوي داجان	يقم داجان	يشوب داجان
زمري داجان	ينتن داجان	سمو داجان	يملك داجان	
يبس داجان	داجان نيري	يسم داجان	يريب داجان	نوخمي داجان
داجان مالك	ختني داجان	يسمخ داجان	يريم داجان	سمخا داجان

ومن الأسماء المقترنة بـ «شمش» عرفنا في التراث البابلي[٣٣٩] :

شمش بني	اشار شمش	شمش ارش	شمش ربي

نور شمش	شمش أبي	شمش جمل	شمش رعو
شمش نوري	شمش ناصر	شمش ادنّام	شمش مبلّط
ابني شمش	شمش بلطي	شمش كشد	شمش مشزيب
ادّن شمش	شمش دايان	شمش مالك	شمش نبشي
بني شمش	شمش إمقي	شمش نيشو	شمش ريماني
رش شمش	شمش إنّم	شمش قرد	شمش تورام

وفي تراث نوزي[٣٤٠] :

نور شمش	إزيبو شمش	أمر شمش	شمش نوري
شمش ناصر	شمش قردو	شمش دمق	

وفي التراث الذي اكتشف في مدرسة المعبد في نيبّور[٣٤١] :

شمش دان	شمش ندا	شمش اشمو	شمش ريماني	شمش شلم
شمش طب	شمش نقد	شمش رعو	شمش وتر	شمش وقر
شمش بني	شمش اشتمر	شمش جمل		

وفي المراسلات الملكية الأشورية[٣٤٢] : شمش ناصر. شمش تكلك. شمش متوبلّط .

وفي رسائل ونقوش أموروابي[٣٤٣] : أرد شمش. ابل شمش. شمش مشلّم. ابني شمش. شمش ناصر. نور شمش .

ومن الأسماء التي تتردّد في تراث أشور[٣٤٤] : أمر شمش. شمش بني .

وفي تراث كنعان[٣٤٥] : عبد شمش. أبن شمش. ادون شمش .

ومن الأسماء التي وردت في التراث الذي وصلنا من العربية الشمالية[٣٤٦] : وهب شمش. رب شمش. سعد شمش. عبد شمس (بطن من قريش) .

ومن الأسماء المقترنة بـ «نرجال» ـ (النور العظيم) عرفنا في تراث أشور[٣٤٧] :

نرجال شرّاني	نرجال بلط	نرجال إتر	نرجال شم ادّن
نرجال شلّم	نرجال ناصر	نرجال شار أصر	نرجال بعل أصر

وفي تراث نوزي[٣٤٨] : نرجال جمل. جمل نرجال. دان نرجال .

وفي تراث بابل[٣٤٩] : نرجال اشزب. نرجال رسو. نرجال زير ابني .

ومن ملوك بابل :

نرجال شر أصر (٥٥٩ ـ ٥٥٦ ق.م.)

نرجال أشزب (حوالي ٦٩٣ ق.م.) .

ومن الأسماء المقترنة بـ «هدد» عرفنا في تراث أشور[٣٥٠] : هدد شم اصر. هدد ابني . هدد ارش .

ومن ملوك أشور :

شمشي هدد الأول (١٨١٣ ـ ١٧٨١ ق.م.)

هدد نراري الأول (١٣٠٧ ـ ١٢٧٥ ق.م.)

شمشي هدد الرابع (١٠٥٤ ـ ١٠٥١ ق.م.)

هدد نراري الثاني (٩١١ ـ ٨٩١ ق.م.)

شمشي هدد الخامس (٨٢٣ ـ ٨١١ ق.م.)

هدد نراري الثالث (٨١٠ ـ ٧٨٣ ق.م.)

وفي تراث بابل[٣٥١] : هدد شم ناصر. هدد نراري. هدد ندن شم. هدد ناصر .

ومن ملوك بابل[٣٥٢] :

نور هدد (١٨٦٥ ـ ١٨٥٠ ق.م.) ملك لارسا

صلّي هدد (حوالي ١٨٥٥ ق.م.) ملك لارسا

هدد شم ادّن (١٢٢٤ ـ ١٢١٩ ق.م.) ملك بابل

هدد شم أصر (١٢١٨ ـ ١١٨٩ ق.م.) ملك بابل

هدد ابل ادّن (١٠٦٩ ـ ١٠٤٨ ق.م.) ملك ايسين .

ومن ملوك ماري :

يسمح هدد (١٧٩٦ ـ ١٧٨٠ ق.م.)

ومن ملوك دمشق الأراميين :

هدد ادري (حوالي ٨٥٠ ق.م.) .

وفي تراث نوزي[٣٥٣] :

هدد بنو	هدد ربي	أول هدد	نصر هدد	هدد أبلّط
نور هدد	رام هدد	ابل هدد	هدد شقي	ملك هدد

هدد ارش	صلّي هدد	جمل هدد	هدد بلطو	هدد اشمعني
هدد ناصر	هدد رصي	اشم هدد	هدد مشلّم	هدد ربي
هدد نشو	هدد شرّي	شلم هدد		

وفي تراث كنعان[٣٥٤] : بر هدد . هدد عزر .

والأسماء المقترنة بـ «البعل» ـ (السيد) كثيرة . وهي ترد في النقوش والنصوص التي وصلتنا من أرجاء سوريا الطبيعية كافة . ففي تراث أشور[٣٥٥] مثلاً عرفنا : شلمو بعل. بعل ناصر . بعل ابني. بعل ادّن . بعل أشبشي. بعل اشلّم .

ومن أسماء ملوك أشور :

أشور بعل نشيشو (حوالي ١٤٣٠ ق.م.)
أشور بعل كالا (١٠٧٤ ـ ١٠٥٧ ق.م.)
أشور ناصر بعل الأول
أشور ناصر بعل الثاني (٨٨٣ ـ ٨٥٩ ق.م.)
أشور بني بعل (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق.م.)

وفي المراسلات الملكية الأشورية[٣٥٦] :

أشور بعل أصر . أشور بعل دنن .

وفي تراث نيبّور : مت بعل .

وفي تراث بابل[٣٥٧] :

بعل بني	بعل ناصر	اشر بعل	بعل ادنّام	بعل اشمعني
بعل دان	بعل مالك	بعل أنوم	بعل أبوم	بني بعل

ومن أسماء ملوك بابل :

بعل ابني (٧٠٢ ـ ٧٠٠ ق.م.) .

وفي تراث نوزي[٣٥٨] : بعل قردو. نصر بعل. بعل ادّن. بعل شدّني. ديان بعل. بعل نصر. بعل أخي.

وفي تراث ماري[٣٥٩] :

ام بعل	أخي بعل	اشخ بعل	سمت بعل	يسمخ بعل
خوي بعل	بعل صدق	يتي بعل	عمر بعل	يحن بعل

ومن الأسمـــاء التي وردت في حجـر نبـو خـذ ريسّـر الأول في نيبّـور[٣٦٠] :
بعل اخي اربا. بعل أدّن . بعل بشم. بعل مشلّم .

وفي رسائل ونقوش أمورابي[٣٦١] : بعل أشلّم .

وفي رسائل تل العمارنة[٣٦٢] : قدشمن بعل .

وفي النقوش الكنعانية[٣٦٣] :

عرز بعل	يتن بعل	يحر بعل	خبص بعل	بعل عزر
عبد بعل	شمع بعل	بعل حمي	شحر بعل	بعل رام
جر بعل	أدون بعل	بعل حنّ	شلم بعل	بعل سكن
أب بعل	بعل صمد	بعل يحن	يحز بعل	بعل شبط
شبط بعل	ايت بعل	بت بعل	بعل مالك	بعل يسب
بعل يتن	بعل شلم	نتن بعل	مجن بعل	يدع بعل
عزّ بعل	أمت بعل	شمر بعل	سكن بعل	ادر بعل
بلط بعل	اش بعل	بعل زمر	بعل شمع	ذكر بعل
بعل رام				

ومن اسماء ملوك جبيل :

زاكر بعل (حوالي ١١٠٠ ق.م.)
ايت بعل (حوالي ٩٨٠ ق.م.)
اب بعل (حوالي ٩٤٠ ق.م.)
ايلي بعل (حوالي ٩٠٠ ق.م.)
لبت بعل (حوالي ٨٨٠ ق.م.)
عز بعل(حوالي ٣٤٠ ق.م.)

ومن أسماء ملوك صيدون :

بعل شلم (حوالي ٤٠٠ ق.م.)

ومن اسماء ملوك صور :

بعل عزر (٩٣٥ ـ ٩١٩ ق.م.)
ايت بعل (٨٨٧ ـ ٨٥٦ ق.م.)

ومن أسماء ملوك قرطاجة :

حنّي بعل .

ومن أسماء ملوك قبرص[٣٦٤] :

بعل مالك الأول (حوالي ٤٧٥ ق.م.)
عزّ بعل (حوالي ٤٥٠ ق.م.)
بعل مالك الثاني (حوالي ٤٢٥ ق.م.)
بعل رام (حوالي ٤٠٠ ق.م.)

ومن الأسماء التي وردت في النصوص الأرامية المكتشفة في سقارة[٣٦٥] المصرية : عزر بعل .

ومن الاسماء التي وردت في النقوش الثمودية المكتشفة في الجنوب الشرقي من سوريا[٣٦٦] : جرم بعل.

وفي نقوش الصفويين : مالك بعل. يدع بعل .

وفي نقوش لحيان وتيماء في العربية الشمالية : نتن بعل. عبد بعل .

والأسماء المقترنة بـ «عشتار» ـ (السيدة) كثيرة . ففي تراث أشور عرفنا الأسماء : امر عشتار. عشتار شم ارش. ادي عشتار. عشتار ند .

وفي تراث لارسا : بزر عشتار. ابل عشتار .

وفي تراث نيبّور :

نور عشتار	عشتار كرني	عبد عشيرتا	عشتار اتنتي
شو عشتار	عشتار نشو	عشتار توكولتي	عشتار شم ارش
عشتار اتم	عشتار نور	عشتار كري	

وفي تراث بابل :

عبد عشتار	نور عشتار	ادن عشتار	لبت عشتار
جمل عشتار	ابم عشتار	مار عشتار	

وفي تراث ايبلا : سم عشتار .

وفي تراث نوزي : نور عشتار. ادن عشتار. مار عشتار. طب عشتار. ورد عشتار. عشتار اخت.

ومن أسماء ملوك ايسين في حوض النهرين :

لبت عشتار (١٩٣٤ ـ ١٩٢٤ ق.م.)

ومن الأسماء التي وردت في النقوش الكنعانية[٣٦٧] :

عشترت عزر	عشترت يتن	أمت عشترت	عشترت يمن
جر عشترت	عبد عشترت	عشترت حن	عشترت صب
عشترت عزّ	اش عشترت	حن عشترت	

ومن أسماء ملوك صور :

عبد عشترت (٩١٨ ـ ٩١٠ ق.م.)

وصيـــدون :

بد عشترت (حوالي ٤٥١ ق.م.)
عبد عشترت (حوالي ٣٦٢ ق.م.)

ومن الأسمـاء التي وردت في نقوش العـربية الجنـوبية : سعـد عثتـر . حيـوعثتـر. عبد عثتر .

والأسماء المقترنة بـ «اشمون» ـ (السماء) كثيرة في تراث كنعان[٣٦٨] . منها مثلاً :

أشمون عزر	اشمون يمن	اشمون شلم	اشمون يتن
عبد اشمون	اشمون يعد	بت اشمون	اشمون شلك
اشمون خلص	اشمون عمس	اشمون ادون	اشمون شمر
اشمون حن	اشمون صلح	اشمون حلق	نقم اشمون

ومن النقوش المكتشفة في قبرص : عبد اشمون. اشمون يتن .

ومن أسماء ملوك صيدون :

اشمون عزر الأول (٤٧٩ ـ ٤٧٠ ق.م.)
اشمون عزر الثاني (٤٦٥ ـ ٤٥١ ق.م.)

ومن الأسماء التي وردت في نقوش لحيان في العربية الشمالية[٣٦٩] : عبد سمين .

ويبدو أن مفهوم «سن» كقوة عاليـة قديم في سـوريا الشـرقية . ولـم يشـعّ إلى الأجزاء الأُخرى من سوريا الطبيعية . ولذلـك ظلت الأسماء المقتـرنة بـ «سن» مقصـورة على تلك المنطقة . ففي تراث نيبّور[٣٧٠] مثلاً عرفنـا الأسماء : سن مجـر . سن مالـك. سن دمق. نور سن .

وفي تراث نوزي :

سن بني	سن ارش	سن ادّنا	سن مالك	سن نبشر
سن ديان	سن اربا	سن اشمعني	سن ندن	رام سن

ومن أسماء الملوك المقترنة بـ «سن» في حوض النهرين[٣٧١] :

بزر سن (القرن الثالث والعشرين ق.م.) ملك كيش
نارام سن (٢٢٥٤ ـ ٢٢١٨ ق.م.) ملك أكاد
أمر سن (٢٠٤٦ ـ ٢٠٣٨ ق.م.) ملك أور
شو سن (٢٠٣٧ ـ ٢٠٢٩ ق.م.) ملك أور
أب سن (٢٠٢٨ ـ ٢٠٠٤ ق.م.) ملك أور
بر سن (١٨٩٥ ـ ١٨٧٤ ق.م.) ملك ايسين
سن مجر (١٨٢٧ ـ ١٨١٧ ق.م.) ملك ايسين
سن ادنّم (١٨٤٩ ـ ١٨٤٣ ق.م.) ملك لارسا
سن اربم (١٨٤٢ ـ ١٨٤١ ق.م.) ملك لارسا
سن اقشم (١٨٤٠ ـ ١٨٣٦ ق.م.) ملك لارسا
ورد سن (١٨٣٤ ـ ١٨٢٣ ق.م.) ملك لارسا
رم سن (١٨٢٢ ـ ١٧٦٣ ق.م.) ملك لارسا
ابل سن (١٨٣٠ ـ ١٨١٣ ق.م.) ملك بابل
سن أبلّط (١٨١٢ ـ ١٧٩٣ ق.م.) ملك بابل

ومن الأسماء التي وردت في رسائل ونقوش أموراب[٣٧٢] : ابل سن. در سن. ابني سن. اشم سن. سن اربام. سن ادنّم. سن اشمعني. سن بلّط. سن مشلّم.

ومن الأسماء المقترنة بـ «أدون» ـ (السيد) عرفنا في تراث ماري : أدوني صدق. وفي تراث كنعان : عبد أدوني.

ويبدو أيضاً أن مفهوم القوى العالية القريبة الذي ساد في مناطق معيّنة من سوريا الطبيعية، شعّ منها إلى العربيتين الشمالية والجنوبية. أو ظل محصوراً في منطقة نفوذه. فمفهوما «اللات» و «مناة» مثلاً اللذان سادا في سوريا الوسطى والجنوبية الشرقية، شعّا منها إلى العربية الشمالية فالجنوبية. فمن الأسماء المقترنة بـ «اللات» في نقوش الصفويين[٣٧٣] : سعد اللات. سلم اللات. وهب اللات. زيد اللات. تيم اللات. وا ايلات. عبد اللات.

وفي نقوش الثموديين[٣٧٤] : وا ايلات. سلم اللات. سعد اللات. عبد اللات. يثع اللات. عم ايلات. سار ايلات.

وفي نقوش الأنباط[٣٧٥] : امة اللات . نصر اللات. عبد اللات. شيع اللات. زيد اللات. عوذ اللات.

وفي نقوش تدمر : أمة اللات. عبد اللات. وهب اللات. سلم اللات . نصر اللات. تيم اللات .

وفي نقوش الحجاز في العربية الشمالية[٣٧٦] : عبد اللات. يثع اللات. زيد اللات. عم ايلات. سار ايلات. تيم اللات. سعد اللات. ذكرت ايلات .

وفي نقوش العربية الجنوبية[٣٧٧] : أوس اللات. ايلات ديان. سعد اللات. زيد اللات. مجد اللات. رضو ايلات. تيم اللات .

ومن الأسماء المقترنة بـ «مناة» في نقوش ثمود[٣٧٨] : عبد مناة. عوذ مناة . أوس مناة . زيد مناة .

وفي نقوش لحيان[٣٧٩] : عبد مناة. عوذ مناة . أوس مناة. نعم مناة. زيد مناة .

وفي نقوش العربية الجنوبية : ختن مناة. عبد مناة.

ومن الأسماء المقترنة بـ «العزّى» ـ (القادرة) في نقوش الأنباط : عبد العزّى .

وفي العربية الشمالية عرفنا اسم عبد العزّى المزني (الشاعر) .

ومن الأسماء المقترنة بـ «رضى» عرفنا في نقوش الحجاز : أوس رضى. عبد رضى .

ومن الأسماء المقترنة بـ «يثع» ـ (المخلّص) عرفنا في نقوش لحيان : يثع حن .

وفي نقوش العربية الجنوبية : يثع أمر. يثع كرب. يثع يفع. وهب يثع . يثع حن. عبد يثع. أمر يثع .

ومن أسماء ملوك معين[٣٨٠] : عم يثع (١٠٦٠ ق.م.)

ومن ملوك سبأ : يثع أمر .

ومن الأسماء المقترنة بـ «يغوث» ـ (المغيث) في نقوش الحجاز : عبد يغوث . أمر يغوث . تيم يغوث .

ومن الأسماء المقترنة بـ «ذوغاية» ـ (سيد الغابة) في نقوش الحجاز : زيد ذوغاية.

فلح ذوغابة. عبد ذوغابة. عرار ذوغابة. مار ذوغابة.

ومن الأسماء المقترنة بـ «كرب» ـ (المبارك) في نقوش قصر بلقيس[٣٨١] في العربية الجنوبية :

أوس كرب	كرب عثت	نشع كرب	معد كرب
ذمر كرب	تبع كرب	يثع كرب	خل كرب

وفي نقوش تمنع في العربية الجنوبية[٣٨٢] : صبح كرب. عم كرب. ذرأ كرب. معد كرب. ذخر كرب.

ومن اسماء الملوك المقترنة بـ «كرب» في العربية الجنوبية[٣٨٣] :

عبد كرب يثع (١٠٨٠ ق.م.)
خل كرب صادق (٧٣٠ ق.م.)
معد كرب (٣٨٠ ق.م.)
نشع كرب (٩٥ ق.م.)

ومن الأسماء المقترنة بـ «عناة» ـ (السيّدة) في تراث كنعان : عناة حنّ.

ومن الأسماء المقترنة بـ «ملك» عرفنا في تراث كنعان[٣٨٤] :

ملكي عزر	ملكي صدق	عزر ملك	يدع ملك

ومن أسماء الملوك في قبرص عرفنا :

ملك يتن (حوالي ٣٩٢ ق.م.) .

ومن الأسماء المقترنة بـ «ملقارت»[٣٨٥] ـ (ملك القرية ـ المدينة) عرفنا في تراث كنعان :

عبد ملقارت	شد ملقارات	ملقارت حنّ	ملقارت عزر
عزر ملقارت	ملقارت عمس	ملقارت يحن	

عقيدة الخصب وطقوسها

الزواج المقدس :

يبدو أن الإنسان القديم في سوريا الطبيعية كان في مراحل استقراره الأُولى ثاقب النظر في ما يجري حوله من أحداث وما يعانيه من تجارب . ولعل تأمله العميق في حقيقة الشروة الطينية التي تقذف بها الأنهار كل عام على الجانبين ، والحياة النباتية التي تنبثق عنها، قاده إلى التفكير في نمو النبات أو في القوى الدافعة لهذا النمو . ولعل الزرع الأخضر الذي ينبت كل عام لفت نظره إلى التأمّل في دورة الحياة النباتية . فالحبة التي بذرها الزارع نبتت واخضرّت وآتت ثمارها . ثم زرع من تلك الثمار حبة أُخرى ، فتكررت معجزة الحياة . مما حدا به إلى التفكير كثيراً والتأمل طويلاً في تلك الحياة المتجددة . وكان من الطبيعي أن يدخل في روعه الاعتقاد بأن هذا الشيء الحي الذي لا يموت هو «فوق» الموجودات التي على الأرض . «أعلى» من الكائنات التي يدركها . لم يسمّه . وكيف يسمّي شيئاً لا يدركه بحواسه ؟ . أعطاه في سومر صفة «دموزي» . وأصل هذه الصفة «دموزي أبزو» Dumu-zi -Abzu (دمو تعني ابن ، وزي تعني الحق ، الصالح ، المخلص ، البار . وابزو تعني المياه العذبة) . أي الابن البار لابزو (المياه العذبة) . ثم اختصرت الصفة إلى «دموزي» (الابن البار) . وهل يكون الابن البار لابزو (المياه العذبة) غير الخصب «سيد» الحياة .

وفي أكاد وبابل حوّروا اللفظ إلى «تموز» . وفي أوغاريت كان «البعل» سيّد الخصب . وفي جبيل كان «أدون» سيّد الخصب أيضاً .

ويبدو أن الإنسان القديم في سوريا الطبيعية أدرك في وقت مبكر من مراحل وعيه الأولى أن الإنسان جزء من المجتمع ، والمجتمع قائم في الطبيعة . أو قل إنه رأى في الكون مملكتين : مملكة الطبيعة ومملكة الإنسان . وهما مندمجتان بحيث لا تتميّز أو لا تنفصل الواحدة عن الأُخرى . وبالتالي فإن بقاءه مرهون بشيئين تقدمهما الطبيعة :

الغذاء ، والتكاثر . فمن دون الغذاء لا يبقى على قيد الحياة . ومن دون التكاثر يفنى جنسه إلى الأبد . ولذلك كان لخصب الطبيعة كوفرة المياه ونمو النبات وتكاثر الحيوانات أهمية بالغة في حياته . وكان همه الأول أن يستمر الخصب متجدّداً في مقومات الحياة : الأرض بنباتها ، وما يدرج عليها من إنسان أو حيوان . ولكن الطبيعة حافلة بالعوامل المتغيّرة التي ينعكس فعلها في الإنسان تأثيراً بالغاً . ففي فصل تكون الطبيعة وافرة المياه ناضرة الخضرة كثيرة الحيوانات . وفي فصل آخر تجف الينابيع وتذوي الأعشاب وتختفي الحيوانات التي كان يصطادها . وباختصار ، تحل مظاهر الجدب والجفاف محل مظاهر الخصب والعطاء .

ويبدو أنه أحس أو اعتقد ، من خلال تأملاته في الكون وما فيه من ظواهر طبيعية ، بوجود قوى غيبية هائلة تسيطر على ظواهر الطبيعة . وإليها يعزى كل تقلّب أو تغيّر في مظاهر الطبيعة . أو قل إنها وراء كل ما يحدث ، أو ما تحدثه الظواهر في الطبيعة : رعد، برق، هبوب الرياح ، هطول الأمطار ، فيضان الأنهار . أو ما يحدث في الطبيعة من مظاهر حياة وتجدّد وعطاء : ظهور العشب ، بزوغ النبات ، تفتح البراعم ، تكاثر الحيوانات . . أو مظاهر موت : ذبول العشب ، جفاف الينابيع ، اختفاء الحيوانات . . فعزا مظاهر الخصب والتجدّد والتكاثر في الطبيعة إلى قوة غيبية مثّلها بذكر وأُنثى . أضفى عليها في سومر صفة «دموزي وانانا» . وفي بابل «تموز وعشتار» وفي أوغاريت «البعل وعناة» . وفي جبيل «أدون وعشتروت» . وعزا مظاهر الجدب والجفاف والموت إلى قوة غيبية أُخرى : «موت» .

رمز السومريون لدموزي بغصن من شجر الأرز الدائم الآخضرار ، تعبيراً عن تبجيلهم لعوامل الخصب . ويظهر دموزي في بعض الأختام تتفرّع من حواليه الأغصان وتنبت من كتفيه ورأسه . ويظهر في بعضها الآخر يحمل بيده غصناً ، وأمامه تنتصب معزاة على قائمتيها الخلفيتين ، بينما تضع القائمتين الأماميتين على ركبتي دموزي لتأكل من الغصن الذي يحمله بيده .

ينعت دموزي في النصوص السومرية بـ «الابن الحقيقي للأرض»[٣٨٦] . وينعت في النصوص البابلية بـ «قرين عشتار» . جاء في نقش على نصب في مدينة نيبّور يعود إلى أوائل الألف الثاني ق.م . «إلى دموزي ، سيد النسل ، العريس المحبوب لانانا . راعي السهل الواسع . سيّد اللذة في الحظائر . الذي يضاعف قطعان الأبقار والأغنام» .

وبما أن دموزي قوة الخصب والنسل في النبات والحيوان ، فإن «في ساحة دموزي الجداء والخراف» . وأن «البذرة القوية ، البذرة في الرحم ، تصير بدموزي رجالاً»[٣٨٧] .

وجسّد السومريون كل ما يتعلّق بضمان بقاء الإنسان وتكاثره من حب وعاطفة ورغبة جنسية في «سيدة» جميلة مرهفة وشيّقة «انانا» ـ (سيدة) الأُنوثة والخصوبة والعطاء . وجعلوا دموزي زوجاً لها ، في محاولة لضمان الخصب وتكاثر الإنسان والحيوان ، ولزيادة عطاء الأرض .

ولما كانت «انانا» «عشتار» تجسيداً للطبيعة الأُنثى . وكان «دموزي» «تموز» تجسيداً لما في الحياة من قوى إخصاب ، فليس غريباً أن يرمز زواجهما السنوي إلى يقظة الطبيعة في الربيع . وهكذا افترض السومريون أن مواسم الخصب هي نتيجة زواج قوى الخلق في الربيع . وهنا تظهر خاصة بارزة في معتقدات الشعوب القديمة في الشرق المتوسطي : الواقعية التي تتجلّى في اجتماع عنصري الحياة : الأُنوثة والذكورة ، وهما سرّ الحياة المستمرة والمتجددة .

وحين شغل تفكير السومري ـ البابلي هاجس الخصب ، وارتبطت رغباته وأمانيه بضرورة محافظته على بقائه ، أي بتجدّد دورة الحياة في الإنسان والحيوان ، نظر إلى الخصوبة كعنصر حيوي مباشر لكيانه . وتصوّر أن في مقدوره مساعدة الطبيعة على تجديد شبابها واستعادة حيويتها ، وبالتالي تأدية دورها في الخصب والعطاء . وأن بإمكانه إعادة قوة الإنبات للأرض بممارسة طقوس معينة . فرأى أن من الضروري إقامة احتفالات سنوية يتقمّص في طقوسها القوى التي تفعل في إخصاب الأرض والحيوان والإنسان . ويمثّل خلالها عملية التخصيب التي تمت في البدء بين دموزي وبين انانا ، من أجل ضمان استمرار الخصب والتكاثر في الطبيعة : الإنسان والحيوان والنبات . وهكذا واجه الظاهرات والتحولات الطبيعية بانفعالات حية ، تمثّلت في ممارسته طقوساً كان يعتقد أن في ممارستها مشاركة للطبيعة . وعلى هذا النحو ظهرت طقوس الزواج المقدس التي تدور حول زواج انانا رمز الخصب في مظاهر الطبيعة ، ودموزي القوة الخلاقة التي تبعث الحياة في تلك المظاهر أثناء الربيع عندما يبزغ العشب وينمو الزرع وتتكاثر الماشية .

جاء في نص سومري يعود إلى أوائل الألف الثالث ق.م[٣٨٨] :

«انانا، ملكة الأرض كلها
حين أحبّت دموزي حباً عظيماً
فجّرت ماء الحياة لأجل البشر
وأنبتت لهم أشجاراً في أنحاء الأرض جميعها» .

وجاء في دعاء بابلي إلى مصدر الخصب انانا ـ عشتار[٣٨٩] :

«ايتها السيدة ، إن ثديك هو الحقل
الحقل الواسع الذي يحضن القمح
اسكبي لنا الماء والخبز» .

كان الملك أو الكاهن يتقمّص شخصية دموزي . وتقوم الكاهنة الكبيرة بدور آنانا ، في احتفال كبير يُعرف بالزواج المقدس . اعتقاداً منهم أن هذا الزواج سيحقق ، على غرار زواج قوى الخلق في الربيع ـ دموزي وانانا ، زيادة في العطاء والخيرات .

يستطيع الباحث في ضوء النصوص التي وصلتنا أن يستخلص صورة لما كان يجري من مراسم في ممارسة طقوس الزواج المقدس . فقد كانت الخطوة الأولى هي اختيار الزوج الذي يقوم بدور دموزي . والاختيار يتمّ من الوجهة النظرية من قبل انانا ، وان كان الملك هو المرشح الطبيعي دائماً للقيام بهذا الدور ، باعتباره الممثل الشرعي لدموزي . يقول اياناتم Eannatum (٢٥٥٠ ق.م.) أحد أمراء سلالة لاغاش ، إنه «الزوج المحبوب للسيدة انانا» . ويقول انتمينا Entemena (٢٥٠٠ ق.م.) «إن السيدة انانا أحبته ، ولذلك أعطته ملوكية كيش ، بالإضافة إلى إمارة لاغاش . ويقول ملك ايسين اشم داجان (١٩٥٣ ـ ١٩٣٥ ق.م.) «أنا الذي اختارتني انانا ، ملكة السماء والأرض، لأكون زوجها المحبوب»[٣٩٠] .

وفي الخطوة الثانية يرتدي الملك بذلة خاصة . ويضع التاج على رأسه . وحين يصل موكبه إلى معبد انانا يقوم الكاهن الأكبر بتقديمه إلى عروسه الكاهنة ، أي «يأخذ بيده إلى حجر انانا» على حد تعبير أحد النصوص السومرية . فتستقبله الكاهنة وهي ترتدي أزهى الثياب وتحلّي صدرها بأبهى زينة . وهي في استعدادها للحظة اللقاء هذه تغتسل بالماء والصابون وتطيّب جسدها بالدهون والعطور وفمها بالعنبر . وتزيّن عينيها بالكحل وتضع في معصميها الأساور وفي أناملها الخواتم وفي عنقها القلائد المصنوعة من الذهب والأحجار الكريمة .

جاء في أحد النصوص قول الشاعر بلسان انانا[٣٩١] :

«في الليلة الماضية ، وفي ما كنت أشع ضياء
وأرقص فرحاً
وكنت أترنّم باغنية مع انبلاج الفجر
التقى بي دموزي
وضع يده في يدي ، ثم ضمّني إلى صدره» .

وقال شاعر آخر بلسان انانا[٣٩٢] :

«لقد استحممت من أجل دموزي
زيّنت عطفي وطليت بالعنبر ثغري
وصبغت بالكحل عينيّ
دموزي ضم خاصرتي براحتيه الواسعتين
وراح يلاطفني
وعندئذ لاطفت سيدي
قذراً حلواً كتبت من أجله» .

وجاء في نص آخر[٣٩٣] :

«انانا استحمّت وتطيّبت بالزيت
لفت جسدها بالطيلسان
زينت عنقها بحجر اللازورد
دموزي اقتحم الباب
طلع في البيت مثل نور القمر
وحدّق في عينيها يغمره الفرح
ثم ضمّها إلى صدره وقبلها» .

وما أن يتم تقديم الملك إلى عروسه حتى تبدأ هذه الأخيرة بترديد أغنية عاطفية تتضمن دعوة الملك إلى الوصال الجنسي ، باعتباره العنصر الأساس في حتفالات الزواج المقدس . وخلال الأغنية تعبّر الملكة عن شوقها العميق للملك وفرحتها الغامرة بلقائه . ومن ثم تدعوه إلى أن يبادلها الحب على سرير الزواج . ومن أمثلة هذه الأغاني نقتبس مقطوعة أنشدتها إحدى الكاهنات إلى عريسها شوسن (الألف الثاني ق.م.) رابع ملوك سلالة أور الثالثة :

«أيها العريس الحبيب إلى قلبي
عظيمة هي المسرة في كنفك . حلوة كالعسل
لقد أسرتني ، فها أنا أقف مرتعشة أمامك
حبذا لو حملتني إلى الخدر
أيها العريس ، بودي لو أغتسل بالعسل
وفي الخدر استمتع بحسنك المهيب
أيها العريس تعال ونم في بيتنا حتى الفجر

فأنا أعرف كيف أدخل السرور إلى قلبك
وأنت ما دمت تحبني
دعني أقبلك»[٣٩٤] .

ثم إن الكاهن يتلو بين يدي الكاهنة ـ الزوجة (ممثلة انانا) دعاء يطلب فيه إليها أن تسبغ بركاتها على سيده الملك ، وأن تنعم عليه بحكم طويل وعرش راسخ وصولجان يهدي به الرعيّة . وأن توطّد سلطانه داخل البلاد وخارجها :

«عسى أن يستمتع سيدي الذي دعوته إلى قلبك
بأيام طويلة وهنية في حجرك المقدس اللطيف
وعسى أن تمنحيه حكماً صالحاً وممجّداً
وتمنحيه الصولجان ، وتاجاً وإكليلاً من المجد
عسى أن يمارس رعاية الناس كلهم»[٣٩٥] .

وأخيراً يدعو الكاهن ممثلة سيدة الخصب «انانا» أن تتفضّل على البلاد بالنعم والخيرات : أن ينمو الزرع ويكثر الحب وتأتي الأنهار بمياه وافرة . وأن تتكاثر الأسماك والطيور . وأن يتكاثر القصب وأن تنمو الأشجار وأن تزدهر البساتين :

«عسى أن يجعل الحقول منتجة
وأن يكثر من حظائر الأغنام
وعسى أن يكثر الزرع والحب في ظل حكمه
وأن يأتي النهر بالفيض
وأن يكثر القصب وتكثر الأسماك
وفي الغابات عسى أن تتكاثر الغزلان
وعلى ضفاف دجلة والفرات عسى أن ينمو العشب عالياً
وعسى أن تكتسي المروج بالخضرة
يا ملكتي ، يا ملكة الكون ، الملكة التي تحتضن الكون
عسى سيدي الملك أن يستمتع بأيام طويلة في حجرك المقدس»[٣٩٦] .

وحين يتعاشران تشيع الخضرة باعتقادهم في الأرض . وفي ذلك يقول الشاعر :

«نبت الزرع ، ونما وارتفع عالياً
والبساتين أزهرت خصباً» .

وهنا تلتمس أنانا من دموزي :

«أن اجعل اللبن يتدفق في حظيرة الغنم»[٣٩٧] .

وهكذا يتحقق من طريق فعل إرادي بشري جماع إلهي هو مصدر الخصب والتناسل الباعث المحيي .

وأخيراً كانت طقوس الزواج المقدس تختتم عادة باستعراض مظاهر الوفر والرخاءوالفرح . وهي المظاهر التي كان الأقدمون يتوخّونها من ممارستهم طقوس الزواج المقدس ، التي كان من الضروري باعتقادهم إقامتها كل عام لضمان عنصر الخصب في الطبيعة .

والجدير بالذكر عن أصل هذه الطقوس هو أن الناس في سوريا الطبيعية ، وفي غيرها من المناطق ، ربما كانوا قد عمدوا إلى ممارسة طقوس وشعائر الزواج المقدس حين أحسّوا بضرورة تدخّل القوى العلية أثناء حدوث كارثة طبيعية ما كانحباس المطر وما يتبعه من جفاف وقحط ، أو وقوع زلزال أو انتشار طاعون وما إلى ذلك من كوارث تسبب الضرر للبشر أو تفتك بهم .

وحين شعروا مرة أن الإستغاثة المتمثلة بالطقوس والشعائر التي أقاموها ، قد أعطتهم ما يرجونه أو بعضه ، عمدوا إلى تكرار هذه الطقوس في مناسبات أُخرى حتى غدت مندمجة بطقوس العبادة لديهم . ومن هنا كثرة النصوص التي تتناول ممارسات طقوس الخصب ، تلك الطقوس التي تتمثّل في تجديد أو إحياء عملية الخصب في كل دورة من دورات الحياة . وكثرة رموز الخصب التي كان الإنسان القديم يرفعها أو يحملها آملاً من رفعها أو حملها حثّ الطبيعة على الإخصاب . فهذا تمثال «سيدة» ـ (قوة عالية) ترفع بين يديها إناء يتدفق منه الماء . وآخر تبدو فيه «السيدة» على عرش من الأسماك ، وعلى رأسها تاج بهيئة سمكة ، تحمل صولجاناً في شكل سمكة أيضاً . وثالث تبدو فيه «السيدة» وقد لفت حول ذراعيها وجسمها أغصاناً من شجر الأرز . وهذا تمثال «سيد» ـ (قوة عالية) تنبت من كتفيه سنابل القمح ، وتتناثر الحبوب من ردائه . وآخر يحمل بين يديه الشمس . وثالث يلف جسده برداء من سنابل القمح . ورابع يحمل سعفة من شجر النخيل . وفي رسم ، يقول علماء الآثار إنه لغوديا (ملك لاغاش) يبدو فيه «السيّد» وقد ارتدى ثوباً طويلاً يحمل بين يديه إناء يتدفق الماء من نافورتين على جانبيه . وتبدو المياه المتدفقة في شكل بركة يسبح فيها السمك . وفي تدمر كان بعل شمين «سيّد السموات» يمثّل حاملاً حزمة من السنابل .

وقد وصلتنا أختام كثيرة تظهر في نقوشها أشكال متنوعة بما تحمل أو بما تمثّل . ففي نقش ختم مثلاً تظهر «سيّدة» وقد جلست على كومة من الحبوب . وفي نقش آخر تمسك

«السيدة» بالمحراث . وفي نقش ثالث يظهر «سيد» تصعد من كتفيه حزمة خيوط ترمز إلى أشعة الشمس، يركب قارباً وإلى جانبه بعض الأدوات الزراعية كالمحراث أو غيره .

ومن الواضح أن الشعار الذي يظهر مع «السيد» أو «السيدة» يعبّر عن دوره أو دورها كـ «قوة عالية» في عملية الخصب أو الإنتاج . أو قل عن الدور الذي يريده له أو لها المتعبّدون بحسب مناطقهم ومواسمهم .

والجدير بالانتباه إليه أن التماثيل لم تكن في مفهوم الشعوب القديمة في سوريا الطبيعية ، أصناماً يؤدي لها الناس فروض العبادة أو مراسم التقديس . وإنما هي رموز مادية لمفاهيم مجردة . أي لما هو فوق الطبيعة البشرية . التمثال رمز لجوهر .

وقد أشار هيرودتس (منتصف القرن الخامس ق.م.) إلى بعض المظاهر المتبقية من طقوس الزواج المقدس ، قال «وكان الصعود إلى الأبراج (طبقات الزقورة) الثمانية ممكناً عن طريق سلّم حلزوني يدور من الخارج . وفي قمة البرج معبد كبير يتوسطه سرير واسع بغطاء فاخر ، وبجانبه منضدة من الذهب . وكان المحراب خالياً من أي تمثال . ولا يقضي الليل أحد هناك ، إذا جاز لنا أن نصدّق كهنة البعل الكلدانيين ، إلاَّ امرأة واحدة ، هي التي اختارها الإله لنفسه»(٣٩٨) .

من الواضح أن ما شاهده هيرودتس ، وما قاله كهنة بابل عن «المرأة التي اختارها الإله ، والتي كانت تقضي الليل وحدها في المحراب» . وعن «الإله الذي كان يدخل المعبد ليستريح على السرير» إنما يقع ضمن إطار طقوس الزواج المقدس ، تلك الطقوس التي لم يكن هيرودتس يعرف مدلولاتها أو جذورها التي تمتد إلى آلاف السنين .

والملاحظ أن الذين مارسوا طقوس الزواج المقدس لم يكتبوا عنها إلاَّ النزر اليسير . وربما لم يصلنا مما قالوه فيها إلاَّ النزر اليسير . والقليل الذي وصلنا عن تلك الطقوس كان من الكتاب الاغريق الذين كانوا يصفون بأقلامهم ما يشاهدونه بأعينهم ، دون أي محاولة لفهم ما يشاهدون ، أو للتعمّق في جذوره ومدلولاته .

الموت والانبعاث ـ دموزي

يبدو أن الإنسان القديم في الشرق المتوسطي الذي وقف مشدوهاً بظواهر الطبيعة الخارقة بالنسبة إليه في مراحل وعيه المبكرة ، وبدورها المهم في حياته ، واجه الظاهرات والتحولات الطبيعية بانفعالات حيّة وأحاسيس دافقة ، تمثّلت في محاولاته تصنيف حركاتها وتنظيم علاقاته بها . فاعتبرها الأساس واعتبر نفسه جزءاً منها . واندمج فيها متأثراً يشاركها في تحولاتها ويفسّر بها كل ما يعتمد عليه وجوده . ويعكس أفعالها على حياته مذ وعى

الكون حوله . فأفعال الطبيعة الملائمة له ولحياته : أمطار وأنهار وبذور وزروع و . . رأى فيها الخير . وأفعال الطبيعة المؤذية له ولحياته كانحباس المطر أو جفاف الينابيع وما يتبع ذلك من يباس وقحط وقلّة مواسم رأى فيها الشرّ .

ويبدو أن الطبيعة الحافلة بالعوامل المتغيّرة التي ينعكس فعلها في الإنسان تأثيراً بالغاً ، تركت أثراً قوياً في أذهان الناس ، وحدت بهم إلى التأمل في أسباب هذه التحوّلات الواسعة والعجيبة ، والتغيّرات الكبرى التي تطرأ كل سنة على وجه الأرض . ففي فصل تكون الطبيعة وافرة المياه ناضرة الخضرة كثيرة الحيوانات . وفي فصل آخر تجف الينابيع وتذوي الأعشاب وتختفي الحيوانات التي كان يصطادها . وباختصار ، تحل مظاهر الجدب والجفاف محل مظاهر الخصب والعطاء .

وحين أحس أو اعتقد ، من خلال تأملاته في الكون وما فيه من ظواهر طبيعية ، بوجود قوى غيبية هائلة تسيطر على ظواهر الطبيعة وتعمل بدأب وراء مشاهد الطبيعة المتغيّرة . وإليها يُعزى كل تقلّب أو تغيّر في مظاهر الطبيعة ، أسكن قوى الخير منها في «الاعالي» ـ السماء . وأسكن قوى الشر منها في ظلمات العالم السفلي ـ الجحيم .

ويبدو أيضاً أنه لاحظ أن التغيّرات الأشد ظهوراً مما تأتي به الفصول في المنطقة المعتدلة هي التي تطرأ على النبات . وتأثير الفصول على الحيوانات ليس ظاهراً ظهوره في النبات . ففي أثناء فصل الصيف الطويل والشديد القيظ والجفاف في بلاد النهرين تجف الينابيع ويذوي النبات وتذبل المزروعات ويسود القحط والعقم الحياة في الزريبة والحظيرة ، مما يعني أن «السيد» دموزي الذي هو النبات وهو الخضرة وهو الينابيع وهو الخصب في الأرض والاخصاب في الأحياء ، أو قل هو المتكفّل بهذه الفعاليات جميعها ، قد مات وذهب إلى العالم السفلي .

لم تصلنا نصوص توضّح مسألة موت دموزي ونزوله إلى العالم السفلي . وحين حاول المؤرخون وعلماء الآثار سدّ هذه الثغرة عملوا على جمع ما يقرب من أربعمائة بيت من عشرات الألواح السليمة والمكسّرة . ألّفوا منها قصة مفادها أن انانا عزمت على النزول إلى العالم السفلي ـ بيت الأموات «المخيف والمظلم» . ولكن لم يرد في النصوص ما يشير إلى السبب الذي حمل انانا على النزول إلى العالم السفلي . وحين أرادت العودة إلى دار الحياة ـ العالم ، كان عليها أن تقدم شخصاً آخر بدلاً عنها . فكان دموزي .

دموزي حل محل انانا ـ سيدة الحب والخصوبة والتكاثر ، في العالم السفلي . ولو لم يحل محلها لكانت أشكال الحياة على الأرض قد أوفت على نهايتها .

المهم أن من أبرز معالم هذا المعتقد البكاء على الموت المؤقت لسيد الخصب ـ

دموزي . وإقامة مواكب العزاء والحزن الجماعي . ثم القيام بـطقوس معينـة من شأنهـا أن تعين هذا «السيد» في التغلّب على سيد العالم السفلي ـ (موت) .

وحين يتغلّب دموزي على الموت ، ويعود ظافراً إلى قرينته انانا ـ (الطبيعة) في فصل الربيع ، يسفر اقترانهمـا عن بروز الـطبيعة مـرة أُخرى بثـوب قشيب من الخضرة والـزهر . فتقام الاحتفالات ، وغالباً ما تكون في شهر نيسان ، احتفاء ببعث الطبيعة وعودة الحياة إلى مظاهر الوجود . ويشيع السرور والغبطة في النفوس وتعمر الفرحة صدور الناس .

تـمــوز

وفي نصوص بابل الميثولوجية يظهر تموز كزوج أو شاب محب لعشتروت ـ السيّدة ، التي تتجسّد فيها قوى التناسل في الطبيعة . والإشارات إلى العلاقة بينهمـا في الميثولـوجيا البابلية متقطعة وغامضة . غير أننا نستنتـج منها أن النـاس كانـوا يعتقدون أن سيّـد الخصب تمـوز (دموزي) يمـوت كل سنـة ، أي ينـزل إلى العـالم المـظلم تحت الأرض في أواخـر الصيف وأوائل الخريف . وأن قرينته عشتار تحزن في غيابه وتبكيه . ثم تقرر الذهاب وراءه إلى «دار الظلام حيث التراب مكوّم على الأبواب» . وفي أثناء غيبتهما تنقطع عاطفـة الحب عن الشبوب في الصدور . وينسى الإنسـان والحيوان على السـواء مسألـة الجنس وبالتـالي تجديد الحياة :

«لم يعل الثور البقرة ، ولم يقترب الحمار إلى الاتان
والفتاة في الطريق لم يقترب منها رجل
ونام الرجل في حجرته
ونامت الفتاة وحدها»[٣٩٩] .

ويذبل النبات وتيبس المزروعات ، ويهدّد الفناء كل مظاهر الحياة :

«طرفاء في الجنينة لم تروَ بالماء
فلم يزهر تاجها بالنور
وصفصافة لم تهدهد جذعها المياه الجارية
فيبست جذورها وتفسّخت»[٤٠٠] .

ويبدو أن الناس كانوا يبكـونه ، ويغمـرهـم الشجو والأسى . وينشـدون المراثي التي تعبّـر عن حزنهم العميق لغيـابه ، والحنين المشبـوب إلى يوم قيـامتـه من المـوت ، ليبعث الحياة في الأرض وما يدرج عليها من إنسان وحيوان ونبات :

«ترفع صوتها بالنواح إذ فارق الدنيا
ترفع صوتها بالنواح : وا ولداه
هناك حيث أرسلت شجرة الأرز جذورها
في التلال والوهاد ، ترفع صوتها بالنواح
تنوح على غرسة جفت جذورها عطشاً
تنوح على حقول من القمح لا تخضر وتفرخ السنابل
امرأة نال الاعياء منها . طفلة أضناها التعب
تنوح على نهر عظيم جفّ ، فذبل صفصافه من العطش
تنوح على بركة لا يتكاثر السمك فيها
تنوح على غابات لا يعطي نخيلها العسل
وعلى مروج لا يخضر النبت فيها»[٤٠١] .

وفي فصل آخر (الربيع) يعود تموز وعشتار (سيّدا الخصب) إلى الأرض ظافرين ، فيخضر وجه الأرض وتزهر الحقول وتستيقظ عاطفة الحب في صدر الإنسان والحيوان ، فيحتفل الناس ببعثه في جو من الغبطة والفرح العميق .

البعل

وفي سوريا الغربية كان لـ «البعل» الدور الذي كان لدموزي السومري وتموز البابلي . فهو «سيّد الخصب» و «راكب السحب» . صوته الرعد الذي يهدّ في السماء . «رب العاصفة والمطر وسيد الأرض» . وفي الأشكال التي تمثّله يبدو رافعاً بإحدى يديه العاصفة وبالثانية العصا . الأولى ترمز إلى الخضرة ، والثانية تمثل السلطة أو السيادة التي كانت له على البرق والرعد ، وبالتالي على المطر والخصب . ومن الواضح أن هذه الفعاليات التي تنسب إليه تجعله مبدأ حيوياً من مبادىء الطبيعة .

يبدو أن الإنسان القديم في الشرق المتوسطي كان يشعر شعوراً مباشراً بالصراع بين قوتين . قوة الخصب ، وقوة المحل والجدب . وكأن فصول السنة الأربعة في سوريا الطبيعية أدمجت في فصلين رئيسيين : فصل الأمطار وازدهار الأرض بالنبات والحياة . وفصل انحباس المطر إذ يدب اليباس في الأرض ويعروها الجفاف . ففي فصل يخطر البعل مزهوّاً في السهول الممرعة بالإخضرار وبين الجداول التي تغدق بمياه الينابيع . وفي فصل آخر يسود «موت» فتنحبس مياه الأمطار وتجف الينابيع وتذبل الأعشاب ويسود الجفاف واليباس (موت) في الحقول والسهول .

ويبدو أن الشعور بالصراع بين قوى الخصب وبين قوى الجفاف والجدب ، كان قوياً وعميقاً في نفس الكنعاني القديم . لأن الصراع بين «البعل» وبين «موت» هو صراع الحياة والموت . صراع الإنسان مع عوامل الفناء .

فالبعل «السيد» رمز الأمل والخصب وقوى الحياة ، هو كالإنسان الذي آمن به وأضفى عليه مشاعره ، يرفع فوق كاهله مسؤولية ويناضل من أجل قضية : محاربة الفوضى وعوامل الفناء من جفاف وقحط ، كي يعم النظام و «تمطر السماء زيتاً وتسيل الأودية عسلاً» . وكان تعبيره عن هذا الصراع بالغ التأثير في مثل قوله :

«موت قوي عزيز ، والبعل قوي عزيز
تناطحا كبقر الوحش ، تعاضّا كافعوانين
ترافسا كجوادين»

وحين «سقط البعل» إلى الأرض في صراعه مع «موت»

«ومات الظافر البعل
صرع الأمير سيّد الأرض»

وغار في العالم السفلي الذي يشبّه بشدق مخيف :

«شفة في الأرض وشفة في السماء
ولسان يصل إلى الكواكب
وحين يدخل البعل إلى جوفه»

أي جوف «موت» . ويغيب البعل في العالم السفلي ، آخذاً معه الرياح والأمطار وعوامل الخصب كلها .

«يجف الزيتون وتتشقق أثلام الأرض»

فتأخذ عناة (الأرض أو قل رمز الأرض) رفيقة البعل . وحبيبته وقرينته ، كما هي انانا لدموزي وعشتار لتموز ، تبكي سيدها وتجرح لحم خدّيها وتدمّي زراعيها . يقول الشاعر :

«خدشت بحجر ، مزقت جسدها
جرحت خدّيها ، أدمت زراعيها ، صدرها
البعل مات
مات الظافر البعل
هلك الأمير سيد الأرض»[٤٠٢] .

وراحت عناة تهيم في الجبال والهضاب وتضرب في المراعي والمروج . يقول الشاعر :

«عناة تطوف في كل مكان
تفتش في كل جبل
في جوف الأرض وعلى كل هضبة
في قلب الحقول وفي المراعي الهانئة» .

وفي غيابه كان حنينها إليه حنين البقرة إلى عجلها والشاة إلى حملها . وكان قلبها في حنينها المضني ، كما يقول الشاعر :

«كقلب بقرة تحن إلى عجلتها
كقلب شاة نحو حملها» .

وهي في حنينها للبعل وبحثها الدائب عنه ، تمثّل الأرض العطشى للمياه ، التائقة للخصب . الأنثى المتشوّقة للخصوبة ، لشرايين الحياة المخصبة في الذكورة .

وفي بحثها تلتقي بموت فيقول لها :

«حين كنت اتجول في المراعي الجميلة
التقيت بالظافر البعل
فجعلت منه حملاً في فمي
جدياً في شدقي ، ابتلعته» .

ويضيف إلى عناة : «إن أشعة الشمس محرقة» إشارة إلى سيادة فصل الجفاف واليباس .

فلم يبق لعناة ـ الأرض غير الحلم بعودة الظافر البعل ، سيد الرجولة والخصوبة والعطاء ـ عوامل الحياة . وعندما تسرح في الحلم وتغرق في التشخيص تبلغ حدود الواقع الطبيعي : «البعل حي» . هكذا خيّل لها في الرؤيا . إذن فالسماء تمطر زيتاً ، والأودية تسيل بالعسل . وهل أقرب إلى الواقع من هذه الصورة ، صورة الفلاح السوري الذي يرى في هطول الأمطار واخضرار الأرض وتفجّر الينابيع في فصل الربيع ، الزيت والعسل . يقول الشاعر بلسان عناة :

«ها إن الظافر البعل حي
ها إن الأمير البعل ، سيّد الأرض موجود

في حلم يا ايل اللطيف ، يا سيد الرحمة
في رؤيا يا خالق الخلائق ، رأيت
وكأن السماء تمطر زيتاً
والأودية تسيل عسلاً
عندها أدركت أن الظافر البعل حي
وأن الأمير سيّد الأرض موجود»[٤٠٣] .

ومن الطبيعي أن ايل (العالي) الذي يـرعى الحياة على الأرض بمفهـوم الكنعانيين ، يعرف أن الوقت قد حان لعودة البعل ، فيطلب إلى عناة أن تـذكّر الشمس بـأن الحقول قـد تشقّقت وآن لـ «زبل الأرض» أن يشعل قرنه في السماء ، يقول الشاعر :

«ثم إن ايل نادى البتول (قائلاً)
كلّمي الشمس النيّرة وقولي لها
تشقّقت أثلام الحقول
أين الظافر البعل
أين الأمير سيّد الأرض
ليجر البعل عيون الأرض»

وهذه الإشارة إلى الشمس في مسـألة غيـاب البعل ، وحنين الأرض المضني إليـه ، توحي باعتقادهم بما للشمس من أثر وفعل في تغيّر الفصول وإخضرار الأرض ونشاط الحياة في الحيوان والنبات .

وبعد أشهر (أواخر الخريف) تلتقي عناة بموت :

«فأمسكت به ، وبمدية شقته
وبمذراة ذرّته
وبالنار أحرقته
وبين حجري الرحى طحنته
ثم بعثرت أشلاءه
كي تأكل العصافير بقاياه»

في هـذا الوصف رمـز لعمليـة الحصـاد والـدراس والـطحن . ثم زراعـة القمـح في الخريف[٤٠٤] .

وهكذا يعود البعل إلى الأرض ، وبعودته :

«يصعد إلى أعالي جبل صافون
فيطلق صوته القدوس (في أجواز الفضاء)
ويرسل ضياءه إلى الأرض بروقاً
ويضع دلاءه في السماء» .

وهنا يأتي صوت ايل (العالي) في الرؤيا إلى عناة :

«وأنت أيتها البتول عناة
انطلقي في الحقول وفوق الهضاب
ونادي إن الظافر البعل حي
إن راكب السحب عاد إلى الأرض
سينمو النبات ويعلو الزرع وتخضر المروج
لأن البعل يتحنّن بمطر السحاب» .

وبالفعل ، يقول الشاعر :

«نادت البتول بصوت عال
ها إن البعل عاد إلى الأرض
لتفرح الحقول
والثيران والوعول»(٤٠٥) .

والأحرى : لتفرح الحقول البعل . أو بتعبيرنا . عاد «البعل» إلى الأرض البعل . صحيح ان «البعل» كلفظ أو صيغة غاب عن الألسنة بتأثير الديانات التاريخية التي حاربت هذه العقيدة . ولكن «البعل» كمضمون أو مفهوم ـ عقيدة (موته وبعثه لتجديد الحياة) لا يزال حياً في ذهنية شعوب كثيرة ، وإن كان بلفظ آخر أو صيغة أخرى (المسيح) . ولا تزال عبارة «الأرض البعل» شائعة على ألسنة القرويين والمزارعين في أرجاء سوريا الطبيعية بغالبيتها . فالمعروف أن الأرض في سوريا الغربية تعتمد على المطر أكثر من اعتمادها على الري الاصطناعي (الأنهار) . وبما أن البعل هو سيّد المطر والخصب ، فإن الأراضي التي لا تروى بمياه الأنهار أو الينابيع عرفت لدى الكنعانيين باسم الأراضي البعلية . أي التي تروى بأمطار البعل . والزراعات الصيفية التي لا تعتمد على الري الاصطناعي تعرف أيضاً باسم زراعات بعلية . أي أن البعل هو الذي يخصّب التربة فتنمو المزروعات من غير ري اصطناعي . ولا يزال تعبير «أرض بعل» شائعاً في سوريا الغربية ، والمقصود به الأراضي التي لا ترويها الأنهار أو الينابيع ، وإنما يرويها البعل بأمطاره ، أو التي تنتظر البعل .

والخلاصة ، نقف في ملحمة البعل على جملة أمور هي على جانب كبير من الأهمية :

الأول : كانت عبادة قوى الخصب ، وهي القوى الطبيعية التي تتوقف عليها حياة المجتمع الزراعي ، جزءاً أساسياً من المعتقدات السورية القديمة . ومن أبرز معالم هذا المعتقد البكاء على الموت المؤقت لـ «سيّد» (إله) الخضار في الصيف . ثم القيام بطقوس وعبادات من شأنها أن تعين هذا «السيد» (الإله) على التغلّب على «سيّد» (إله) الموت . وكما يحزن الجميع لموت البعل ، كذلك يفرحون بقيامته من الموت . ولكن لم تصلنا نصوص وافية تعبّر عن فرحة الناس بقيامة البعل من الموت . وما ورد من وصف الاحتفالات ، ومن تعبير عن الغبطة بانبعاث البعل ، في أرض كنعان وخارجها ، هو مجتزأ وقليل . من ذلك مثلاً الإشارة إلى الاحتفالات في قصة اقهات بن دان ايل . فعناة في محاولتها إغراء اقهات لانتزاع القوس منه ، تعده بالخلود كالبعل . تقول :

«واجعلك تعدّ السنين مع البعل
ومثلما يعود البعل إلى الحياة ، ومثلما يولمون له
ويقدمون له الشراب ، ويهزجون ويغنّون له
أعذب الغناء»[٤٠٦] .

وهذه الإشارة إلى الاحتفال بقيامة البعل من الموت في الألف الثاني ق.م. تأكيد على قدم طقوس القيامة والاحتفالات المرافقة لها في الأرض الكنعانية . وهي تعني التجدّد وعودة الأمل بالغلبة على قوى اليأس والموت .

وإذا كانت طقوس الموت منفذ تنفيس عن أسى النفس الإنسانية ، فإن طقوس القيامة تعبير عن الابتهاج والمسرّة . وقد انتشرت طقوس البعل وخلدت لاندماجها بما في الطبيعة من موت وبعث ، ولاستيعابها ما في النفس الإنسانية من انفعالات[٤٠٧] .

الثاني : كان الإنسان القديم في سوريا الطبيعية يرى الكون قوى منظمة ولها مبادىء ثابتة . وكان يحب النظام ويكره الفوضى . ويرى أن الخير يكمن في الإنسجام مع نظام هذه القوى . وكان يعمل للحياة ويكره الموت . ولذلك كان ينظر إلى البعل كقوة جبارة تصارع الفوضى ممثّلة بالعماء ـ اليم أو المياه الطاغية المتمردة المخربة (الطوفان) . وتصارع القحط والجدب والجفاف ممثلة بقوة غشيمة مهلكة (موت) . وصراع بعل مع يم (سيّد) الفوضى هو صراع كوني غايته مؤازرة الطبيعة المنظمة وترسيخ النظام فيها ضد خطر النزوة العمياء والعنف غير المضبوط . وصراعه مع موت (سيد) الجفاف واليباس ، غايته مدّ الطبيعة المنظمة بأسباب الحياة ، أي توفير عوامل الخصب والعطاء فيها . وملحمة

«البعل» التي تحكي قصة الصـراع ترمـز ، طبيعي بمفهوم الكنعـانيين ، إلى انتصار النـظام على الفـوضى ، والخير على الشـرّ ، والحياة على المـوت . وهي تعبير صـادق عن إيمان الكنعانيين بأن عوامل الحياة والنظام أقوى من عوامل الموت والفوضى .

الثـالث : كان البعـل تعبيراً عن شخصيـة الكنعاني في آمـاله وتـطلعاتـه ، في إرادته وعزيمته . وفي نضاله وشعـوره بنشوة الانتصـار أو بمرارة الانهـزام . فالبعـل ليس صنماً أو كائناً خرافياً ، ولذلك لم يكن لـه معبد معين . وإنمـا يرافق الإنسـان في دروب الحياة . أو قل هو رمز الإنسان ، الإنسان الذي يتأرجح بين الغلبة وبين الهزيمة .

والكنعـاني لـم يؤله الـطبيعـة ، بـل عمـل على «أنسنتهـا» . وبـالتـالي لم يتعبّـد في محرابها ، وإنما اندمج بها وتفـاعل معهـا . أي أنه وعى مبـدأ الحلولية بين عـواطف الناس وأمانيهم وبين قوى الطبيعة . فالبعل يصارع موت من أجـل الناس (تـوفير الخصب والخيـر لهم) . ولذلك كان الكنعاني يتحـد معه في الـطقوس . يعـاني صراعـه ويشاركـه في آلامه ويعايشه في آماله ويغتبط بانبعاثـه . وكثيراً مـا كان الفـرد يندمـج في ممارسـة طقوسـه حتى لتيقمّص شخصيته .

والمهم أن الكنعـانيين أدركوا أو فهمـوا منـذ البـدايـة ، كسـائـر الشعـوب السـوريـة الأُخرى ، خصائص الذات الإلٰهية . فهم لـم يعبدوا الطبيعة ، وإنما الله في الطبيعة . ليس النبات أو العناصر أو العاصفة أو الغيوم أو النـور . . ولكن الجوهـر ، الكينونـة فوق أو وراء هذه كلها(٤٠٧*) .

أدون

وفي السـاحل الكنعـاني ، وبالتحـديد مـدينة «جب ايـل» ـ (بيت ايل) العـريقـة في التاريخ والحضارة ، كان لـ «أدون» ـ (السيد) الدور الـذي كان لـدموزي السـومري وتمـوز البـابلي والبعل الكنعـاني . فهـو قـوة الحيـاة الخضـراء النـابتـة من الأرض . هـو العنصـر المذكر ، مبدأ التناسل والخصب . زاخر بالقوة في الـربيع ، لكنـه يموت في الصيف ، ثم يبعث من جديد في مستهل الربيع .

لـم تصلنا نصوص توضح مسألة موت دموزي في حوض النهرين الأدنى (سـومر) . أو تموز في حوض النهرين الأوسط (بابل) . ولكن الملاحم التي اكتشفت في أوغـاريت على السـاحل الكنعـاني (ملحمة البعـل مثلاً) ألقت ضـوءاً سـاطعـاً على نـاحيـة مهمـة في وعي الكنعانيين المبكر في تـاريخ الحضـارة ، هي مسألـة الصراع بين قـوى الخصب وبين قوى الجفـاف والجدب . فحين يخـطر البعل (سيـد الخصب) مزهـوّاً في رحاب الـطبيعـة تينـع

السهول بالاخضرار ، وتغدق الجداول بمياه الينابيع . وحين ينتصر عليه موت (سيد الجفاف والجدب) ويبتلعه في شدقه كحمل ، تنحبس مياه الأمطار وتجف الينابيع وتذبل الأعشاب ويسود الجفاف واليباس (موت) في الحقول والسهول .

أما «أدون» ـ (سيد الخصب) في «جب ايل» ـ (جبيل) فما وصلنا عنه ، قياساً بما وصلنا عن البعل ، قليل . وأغلبه جاءنا عن طريق الاغريق الذين اقتبسوا هذه العقيدة بكل جزئياتها وتفاصيلها . لم يغيّروا فيها شيئاً غير بعض الأسماء بفعل البيئة واللسان . وكل ما تقوله النصوص الميثولوجية عن «أدون» أنه يموت في رحلة صيد في أعالي جبال لبنان مصروعاً بناب خنزير بري . فتنبت على ما جرى من دمه في الأرض شقائق النعمان ، وتصطبغ مياه النهر ، نهر أدون ، باللون الأحمر القاني على ما جرى فيه من دمه .

كان الناس يندبون موته المفجع ويبكونه بحرقة وألم . وقد شاعت طقوس التفجّع بموته وإن لم يصلنا عنها إلاّ القليل ، ومما نقله الاغريق ، أو مما حفظه الكتّاب السوريون المتأخرون مثل لوسيان السميساطي الذي زار جبيل في القرن الثاني للميلاد ورأى ، كما يقول ، طقوس الحداد على موته تعم البلاد . ووصف مشاهد من تلك الطقوس كتقديم الأضاحي ، وإقبال الفتيات البالغات على جزّ شعرهن ، أو تقديم أنفسهن حيث ينالهن الغرباء . وبذلك تعتبر تضحية المرأة بباكورة أُنوثتها ، كتضحيتها بشعرها ، مشاركة للسيدة افروديت ـ عشتروت في أحزانها . وأشار لوسيان أيضاً إلى اعتقادهم بقيامة «أدون» من الموت في اليوم الثاني أو الثالث ، وصعوده إلى السماء . يقول «ولقد رأيت في جبيل هيكلاً ضخماً أُقيم باسم أفروديت (عشتروت) يحيون فيه طقوساً على شرف أدونيس . فيزعم أهل جبيل أن الحادث الذي جرى لأدونيس مع الخنزير البري وقع في بلادهم . ولذلك فهم يحتفلون بذكرى هذا الحادث كل عام في جو من الحزن يعمّ البلاد كلها . فتراهم يعمدون إلى ضرب أجسادهم على اعتبار أن شعورهم بالأوجاع من جراء الضرب هو مشاركة لأدون في أوجاعه ، ولعشتروت في أحزانها . ومن ثم ينصرفون إلى جزّ شعر رؤوسهم . أما النساء اللواتي لا يرغبن في جزّ شعر رؤوسهن فكان عليهن أن يستسلمن للغرباء . وحين كانوا يكفّون عن البكاء وعن ضرب أجسادهم يقدمون الأضاحي . وفي اليوم التالي يعلنون أن أدون بعث من الموت وصعد إلى السماء»[٤٠٨] .

ومما نقله الاغريق من هذه الطقوس نقتطف وصف هيرودتس لما شاهده في بابل ، قال «وبين هؤلاء القوم (البابليين) عادة مخجلة ، وخلاصتها أن من واجب كل امرأة في هذا البلد أن تذهب مرة في حياتها إلى معبد افروديت (عشتروت) ، فتسلم نفسها هناك إلى رجل غريب . والكثيرات من النساء الثريات اللواتي يترفّعن عن مخالطة الأُخريات يذهبن

إلى المعبد في عربة مغطّاة ، ومعهن حاشية من الخدم . وفي فترة الإنتظار التي قد تطول أو تقصر يأخذ البعض منهن أمكنة لهن حول ممرات مخصصة للرجال الذين يتجولون ويختارون . وعندما تأخذ المرأة مجلسها لا يسمح لها بالعودة إلى البيت حتى يلقي أحد الرجال قطعة من الفضة في حضنها ، ويقودها إلى الخارج . ليس لها أن تمتنع أو أن تختار . وإنما عليها الذهاب مع أول رجل يلقي لها بقطعة الفضة . وعندما تضطجع معه تكون أو تشعر بأنها قد أدت واجبها نحو السيدة افروديت (عشتروت) . فتعود إلى بيتها بحيث يغدو من المستحيل إغراؤها بالمال أو بغيره»(٤٠٩) .

ويضيف هيرودتس «كانت النساء الطويلات الرشيقات يعدن سريعاً إلى البيت . بينما تبقى البشعات زمناً حتى ينجزن ما فرضه عليهن العرف أو التقليد»(٤١٠) .

وأشار هيرودتس إلى عادة مماثلة في جزيرة قبرص . وهذا ما ذكره المؤرخ جوستين بقوله إن القبارصة كانوا يرسلون بناتهم البالغات إلى عرض البحر ليلتقين بالبحارة الغرباء ويسلّمن أنفسهن لهم على شرف افروديت (عشتروت) . وعندما كانت ايليسار الصورية في طريقها إلى الساحل الإفريقي اختطفت منهن ثمانين فتاة من اللواتي كنّ في عرض البحر وأعطتهن زوجات لبعض مرافقيها من صور(٤١١) .

المهم في هذا الطقس أن الفتاة تضحّي بأسمى وأثمن ما تملك : باكورة الأُنوثة وخصلات الشعر ، رمز الأُنوثة ومظهرها ، مشاركة لـ «السيد» ـ (تموز أو البعل أو أدون) في أوجاعه . ولـ «السيدة» ـ عشتروت في أحزانها . وما يدل على سمو ونبل الهدف المرجو من وراء هذه التضحية ، أن الفتاة «تجلس مرة واحدة في حياتها في معبد افروديت (عشتروت) لتسلّم نفسها إلى أجنبي» كما يقول هيرودتس . وليس لها أن تمتنع على أي رجل أو أن تختار أي رجل . «وأن من المستحيل إغراءها بالمال أو بغيره» بعد تأدية واجبها المقدس إزاء افروديت (عشتروت) كما يقول هيرودتس .

أما أنبياء بني إسرائيل الذين أعماهم ما كانوا يضمرونه من كراهية للشعوب ، كل الشعوب ، خاصة الكنعانيين ، والحقد عليها ، فقد رأوا في هذا الطقس المقدس الذي يعبّر عن أسمى درجات التضحية وإنكار الذات ، رأوا فيه زنى ، رغم أن «أجرته تكون قدساً للرب» كما يعبر أشعيا ٢٣ : ١٨» . يقول النبي ميخا ١ : ٧ بلسان يهوه في إدانته للسامرة شامتاً متشفّياً ، وكأنه يبرّد غلّة الحقد المستعر في قلبه «فأجعل السامرة خربة . . وألقي حجارتها إلى الوادي واكشف أُسسها . . وأجعل أصنامها خراباً لأنها من أجر الزانية جمعتها» .

* * *

وخلاصة القول أكرّر القول إن التغيّرات الكبرى التي تطرأ كل سنة على وجه الأرض ، تركت أثراً قوياً في أذهان القدماء ، وحدت بهم إلى التأمل فيها وفي الأسباب التي تؤدي إليها . فالزرع الأخضر الذي ينبت من الأرض كل عام لفت نظرهم إلى التفكير في أصل الحياة . والحبة التي بذرها الزارع نبتت واخضرت وآتت ثمارها . ثم زرع من تلك الثمار حبة أخرى فتكررت معجزة الحياة . ويبدو أن الإنسان القديم في الشرق المتوسطي لاحظ في تأمله دورة الحياة النباتية أن النباتات المخضرة تذوي كل عام ، وتتراءى لناظرها وكأنها ماتت وفارقت الحياة . ولكنها تعود في فصل آخر إلى حياتها ونضرتها . وهنا راح يفكر في تلك الحياة المتجددة التي لا يمكن أن تموت موتاً نهائياً . وكان من الطبيعي أن يدخل في روعه الشعور أو الاعتقاد بأن قوة ما تعمل بدأب وراء مشاهد الطبيعة المتغيّرة . وأن هذا الشيء الحي الذي لا يموت هو «فوق» الموجودات التي على الأرض . «أعلى» من الكائنات التي يدركها . لم يسمّه . وكيف يسمّي شيئاً لا يدركه بحواسه ؟ . أعطاه في سومر صفة «دموزي» التي تعني «الابن البار للمياه العذبة» . وهل يكون الابن البار للمياه العذبة غير الخصب «سيد» الحياة» . وفي بابل حرّف اللفظ بفعل البيئة واللسان إلى «تموز» . في سوريا الغربية كان لـ «البعل» ـ (السيد) و «أدون» ـ (السيد) الدور الذي كان لدموزي السومري وتموز البابلي .

المهم أن القدماء في الشرق المتوسطي نعتوا الخصب بـ «سيّد» (دموزي ، تموز ، البعل ، أدون) لا يموت . يتوارى عن الأرض لحين ، ثم يعود في دورة الحياة الجديدة .

وموت «السيّد» وانبعاثه ضروريان في مفهومهم من أجل استمرار الحياة في مظاهر الطبيعة . وتعبير عن وعيهم بالحياة المتجددة دائماً وأبداً . وهكذا كان البعل مثالاً للموت الخلاق للحياة . فبموته علم الإنسان أن في الموت حياة ، وأن ما بعد الموت حياة . وفي هذا نوع من التفسير لبعض الغوامض في نواميس الطبيعة . يُضاف إلى ذلك أن هذه الفكرة (انتصار السيد [الإله] على الموت) تتضمّن مغزى فلسفياً عميقاً ورثته المسيحية .

وإذا كانت الاحتفالات بموت البعل وانبعاثه تتباين من منطقة إلى أُخرى في شكلها وموعدها . وكانت مراسم الطقوس تختلف من إقليم إلى آخر في الأسماء والتفاصيل ، فقد كانت متشابهة في الجوهر . وإذا كان «السيد» ـ (دموزي ، تموز ، البعل ، أدون) قد تقبّل صفات كثيرة تبعاً للبيئات والألسنة ، فإنه في جوهره واحد . فهو قوة الحياة في النبات والحيوان وفي الإنسان أيضاً . يموت كل سنة في فصل معين (الصيف مثلاً) ، ولكن من الضروري إنبعاثه حياً في فصل آخر (الربيع مثلاً) من أجل استمرار الحياة في مظاهر الطبيعة . فموته اذن لا يعتبر فناء لأنه يؤدي إلى عملية خلق جديدة في الطبيعة ، في عودة

الخصب والخضرة . وفي الإنسان في تطوير داخله وتزويده بأمل جديد بحياة جديدة ومستمرة في ما بعد الموت ، كما استمرت حياة «البعل» - (السيد) الذي مات ليبعث من جديد ، ويصعد إلى السماء فيصبح «بعل» الأزمنة الجديدة . ومن الواضح أن هذه العقيدة (البعل الذي يموت ثم يقوم من الموت) أضحت في ما بعد من جوهر الديانة المسيحية .

ولعل أبرز ما تميزت به هذه العقيدة هو أن «السيد» - «دموزي ، تموز ، البعل ، أدون ، وأخيراً المسيح» يعطي بمحبة عطاء سخياً ومن دون مقابل . وهذا العطاء العفوي والسخي وصل إلى ذروة المحبة المتمثّلة في التضحية . تضحية «السيد» بذاته من أجل الإنسان ، والتي تتمثّل في موت «السيد» (الإله) في درام إلهي ضروري لحياة الإنسان .

فـ «السيد» (الإله) القريب عاش على الأرض ومات على الأرض من أجل الإنسان . وموت «السيّد» (الإله) في درام إلهي هو عمل خلّاق ، لأن جوهره يظهر بعد موته في عملية الخلق . وهذا يعني استمرار وجود «السيد» (الإله) في الموجودات الحية التي تغذت من دمه .

وهكذا أدرك القدماء في الشرق المتوسطي أن موت «السيد» شرط ضروري لإعادة الخلق من جديد في الطبيعة ، وللإخصاب ، وتعميم الخير . مثلما هو ضروري موت حبة القمح (دفنها في الأرض) لتبعث من جديد (خلق جديد) . وأدركوا أن القوة التي تكمن في حبة القمح لإحيائها وإنمائها ، هي قوة البعل (السيد) . أي أن حبة القمح جسد لبعل (سيّد) نزل تحت الأرض ، وقبل الموت ليبعث من جديد في خضرة الربيع . «إن لم تقع حبة القمح في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها . ولكن إن ماتت فهي تأتي بثمر كثير . انجيل يوحنا ١٢ : ٢٤» .

فالبعل (السيد) يحيا في مخلوقاته . وتناول الإنسان جسده بواسطة رمز مادي (حبة القمح) تدليل على الاحتفاظ به داخل الإنسان . ومن هنا تعلم الإنسان بأن الموت ليس فناء . وأنه سيموت كما مات «البعل» - (السيد) . ولكن بعد الموت بعثاً وحياة . وبذلك أدرك الجوهر الذي تميزت به المسيحية من بعد : في الموت حياة ، وبعد الموت حياة .

ظهرت هذه العقيدة ، كما رأينا في ما تقدم ، مع شعوب حوض النهرين الأدنى (سومر) والأوسط (بابل) ، ومع الكنعانيين في سوريا الغربية (أوغاريت وجب ايل) منذ بداية التاريخ المدون (أواسط الألف الرابع ق.م.) . وظلت رمز البعث والتجدّد عبر عصور طويلة ولدى شعوب كثيرة . ويبدو أن جماعة بني إسرائيل الذين هاجروا أو تسلّلوا إلى أرض كنعان حوالي القرن العاشر ق.م. تأثروا بهذه العقيدة من جملة ما تأثروا به من معتقدات الكنعانيين وآدابهم . وصاروا يمارسون طقوسها كما يمارسها الكنعانيون . وهذا

ما أطلعنا عليه نبيهم حزقيال (حزق ايل) حوالي القرن السادس ق.م. بقوله «فجاء بي إلى مدخل باب بيت يهوه الذي من جهة الشمال ، وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز . حزقيال ٨ : ١٤» .

والطريف أن المسيحية ورثت بعض طقوس هذه العقيدة . فمن المعروف أن النساء في منطقة جبيل كن يحرقن البخور أمام التمثال الذي يرمز إلى عشتروت (السيدة) . ويصنعن كعكاً في عيدها . ولا تزال عادة حرق البخور يوم الجمعة العظيمة ، وصناعة الكعك في عيد الفصح مألوفة لدى مسيحيي سوريا الذين ورثوا الطقوس الكنعانية .

وقد استمرت عقيدة الخصب سائدة بحيويتها المتجددة بين شعوب سوريا الطبيعية . وظل السوريون يمارسون طقوسها المقدسة إلى ما بعد الميلاد بقرون . أي ما ينوف على ثلاثة آلاف سنة . فيذكر المؤرخ ابن النديم مثلاً أن أهل حران في حوض النهرين ظلوا إلى عهد الخليفة العباسي المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣ م) يحيون أعياد تموز ويمارسون طقوس البكاء عليه[٤١٢] .

والملاحظ أن طقوس هذه العقيدة انتشرت وخلدت لا لتعبيرها عما في الطبيعة من موت وبعث . ولا لاستيعابها ما في النفس الإنسانية من انفعالات ابتهاج ومسرة (طقوس القيامة مثلاً) فحسب . بل لأن طقوس التفجّع بموت البعل (السيد) غدت متنفّساً سنوياً للأسى الإنساني . واستمرارها يؤكد حاجة الإنسان إلى مثل تلك الطقوس الموسمية . فلو لم تكن مشاعر الحزن حاجة طبيعية لتطهير النفس ، لما كانت الإنسانية قد استمرت تنفعل بها وتتفاعل مع الرموز الممثلة لها حتى اليوم تحت أسماء مختلفة كأسبوع الآلام المسيحي وذكرى عاشوراء لدى المسلمين الشيعة .

* * *

اقتبس الإغريق معتقدات الشعوب القديمة في سوريا الطبيعية من جملة ما اقتبسوه عنهم من علوم وآداب وفنون[٤١٣] . ويبدو أن عقيدة الخصب الغنية بطقوسها وشعائرها كانت من أكثر المعتقدات السورية القديمة انتشاراً وأبلغها تأثيراً في بلدان حوض المتوسط . ففي الأساطير الإغريقية أن أدونيس شاب جميل أولعت افروديت به حباً . ولما كان الفتى مولعاً بالصيد ، حاولت افروديت كثيراً كي تصرفه عن هوايته المحفوفة بالأخطار ، ولكنها لم تفلح . وفي أحد الأيام قتله خنزير بري . ولما نزل إلى العالم السفلي أبت برسفوني سيدة ذلك العالم أن تعيده إلى افروديت ، مع أن سيدة الحب نزلت بنفسها إلى العالم السفلي لتفدي حبيبها من سلطان الموت . ولم يحسم النزاع بين سيدة

الموت وبين سيدة الحب إلاّ زيوس ، إذ حكم بأن يبقى أدونيس مع برسفوني تحت الأرض شطراً من السنة . ومع افروديت في العالم العلوي شطراً آخر(٤١٤) .

وقد انتشرت طقوس أدون وعشتروت في أنحاء الامبراطورية الرومانية كافة . وكان الناس في جزيرة قبرص يمارسون طقوسهما أيضاً ، خاصة في بلدة أماثوس على الساحل الجنوبي ، وبلدة بافوس في الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة . ويذكر هيرودتس أن معبد كيثارا في بافوس كان لعشتروت السماوية . بناه فينيقيون من أشقل اون (اشقلون ـ عسقلان) . وعشتروت السماوية هذه عرفها بنو إسرائيل باسم «ملكة السماوات» كما يقول نبيهم ارميا ٧ : ١٨ و ٤٤ : ١٧ . وعرفها الإغريق باسم افروديت أورانيا أي السماوية ، كما يقول هيرودتس .

والواقع أن المعتقدات الميثولوجية لدى شعوب الشرق المتوسطي القديمة تركت أثراً عميقاً في الفكر الإغريقي القديم . يقول المؤرخ انطون مورتغات «تعتبر بلدان الشرق المتوسطي مركز الديانات (يقصد المعتقدات) . مركز الإشعاع العقائدي الذي أنار شعوب الأرض . وسيبقى تأثير الشرق الروحي في ديننا وفننا ظاهراً إلى الأبد»(٤١٥) . ومن جهتي لا أرمي في هذه العجالة إلى الحكم على مستوى فعل الكنعانيين الحضاري من خلال إسهامهم في خلق وتطوير حضارة البحر الأبيض المتوسط . أو من خلال الأفكار والمعتقدات التي انبثقت عنهم وعمّت مجموعات متعددة من الشعوب القديمة ، ودامت أكثر من غيرها في مساحب التاريخ . وإنما أود الإشارة إلى بعض الأسماء والصفات (القوى العالية) التي اقتبسها الإغريق من تراث كنعان العريق ، وأخذوا بها أو تبنوها . ومن الطبيعي أن وراء الأسماء والصفات تراثاً من المفاهيم والمعتقدات كان له أثره في مفاهيم الإغريق ومعتقداتهم أيضاً . (وهذا الموضوع يحتاج إلى دراسة خاصة) .

فمن باب الصفات نشير أولاً إلى الصفة «ايل» ـ (العالي) ـ (الله) الذي حمله الكنعانيون في صدورهم وليس في كتب تبشير . ويبدو أن الإغريق آمنوا بهذا المفهوم فتسمّوا به على عادة الشعوب التي عرفوها أو احتكوا بها في سوريا الطبيعية . غير أنهم أساؤا الفهم بتحويلهم الصفات إلى أسماء . فقد جعلوا من الصفة «ايل» اسماً ، وأضافوا إليه اللاحقة اليونانية «س» وأطلقوه على أشخاص ومدن ومظاهر طبيعية . من ذلك مثلاً ايلوس Elos الذي أطلقوه على مدينة مجاورة لطروادة . وأضافوا اللاحقة «س» إلى ايلي فصار ايلياس Elias . وكذلك فعلوا بالصفة «أدون» ـ (السيد) . نظروا إليها كاسم علم وأضافوا إليها اللاحقة «س» فصارت أدونيس . والصفة عزيز ـ أزيزوس Azizos والصفة هدد ـ أدادوس Adados والصفة بعل ـ بيلوس Belos والصفة ذو الشرى Dusares .

وقد توصل الأستاذ فونترز ، بعد دراسة طويلة ومعمقة للمعتقدات السورية واليونانية القديمة إلى القول بأن الإلٰهة البيضاء اليونانية هي الإلٰهة السورية عشتروت Atargatis التي انتشرت عبادتها في سوريا الطبيعية وفي آسيا الصغرى ، والتي كتب لوسيان السميساطي كتابه المشهور عنها[٤١٦] . وأن «أساطير الإلٰهة البيضاء التي وصلت إلينا هي من أصل سوري خالص»[٤١٧] .

ومن باب الأسماء نشير إلى اسم اشيل (اش ايل) - (يعطي ايل) بطل ملحمة الالياذة لشاعر الإغريق هوميروس . واسم فرجيل (فرج ايل) - (يفرج الله) شاعر الرومان المشهور .

قلنا إن الكنعانيين حملوا إلٰههم «ايل » في صدورهم وليس في كتب تبشير ، فكانوا يطلقون على كثير من الأمكنة التي يصلون إليها أو يحلّون فيها ، أسماء يدخل «ايل» في تركيبها . فعندما أرست سفنهم مثلاً في مكان ما على شواطىء أوروبا الغربية ، سمّوا المكان «مرسى ايل» . ومع الزمن قامت في هذا المرسى (المرفأ) مدينة كبيرة(مرسيليا) . وعندما عبروا المضيق الواصل بين المتوسط وبين الأطلسي أطلقوا عليه اسم «هرق ايل» .

ويبدو أن «هرق ايل» كان بطلاً أو تجسيداً أسطورياً لبطل قومي . خلع عليه الناس نعوتاً خارقة ، وأضفوا عليه صفات الأولياء والقديسين . وحين تعاظم قدره في نفوسهم انثنوا يطلبون شفاعته ورعايته لبعض الأمور الحياتية الغامضة ، ولدرء الأخطار والمصاعب . وتيمّنوا باسمه . يقول هيرودتس إن في صور معبداً لهرقل عظيم القداسة . وقد انتشرت معابد هرق ايل في المستعمرات الكنعانية في غربي المتوسط ، ففي قادش (على الأطلسي) مثلاً كان له معبد مشهور . وفي بلاد الإغريق بلغ هرق ايل مرتبة الألوهة . ذكره هوميروس في الالياذة .

ومن الأسماء المشهورة نذكر ايليوس غالوس (القائد الروماني الذي غزا العربية ٢٤ ق.م.) . وماركوس أوريليوس (أورايل) الامبراطور الروماني (١٦١ - ١٨١م) . وايليوس قيصر (الامبراطور الروماني). واميليانوس (ام ايل) مدمر قرطاجة . ومن المعروف أن لسم اميل مشهور ومنتشر في الغرب الأوروبي .

(المجال هنا للإشارة فقط وليس للتوسع . فالموضوع طويل ويقتضي دراسات خاصة ومعمقة) .

قواعد الأخلاق وأعراف السلوك
في مجتمعات سورية القديمة

ذكرنا في ما تقدم أن الشعوب التي فتح التاريخ عينيه عليها في الألف الرابع ق.م. متجذّرة في الأرض المترامية بين ساحل المتوسط الشرقي وبين الهضاب الشرقية لحوض النهرين (دجلة والفرات) . ومن الجبال المحاذية لأعالي الفرات شمالاً إلى أطراف البحر الأحمر جنوباً . والتي عرفت منذ أواسط الألف الأول ق.م. باسم سوريا ، أرست في هذه الأرض أُسساً حضارية عريقة هي أول ما عرف في التاريخ من حضارة واسعة وشاملة . وهي من أعظمها إبداعاً وانشاء . تركت آثارها في الشعوب المجاورة والبعيدة . وكان فضلها على رقي البشرية أجل شأناً من فضل أي بلد آخر(٤١٨) .

وقلنا في المقدمة إن البحث في ما تمثّلت به هذه الأُسس الحضارية من منجزات عظيمة في الهندسة المعمارية والري المنظّم والمعرفة الحسابية والتقاويم الفلكية . وفي ما أقامته شعوب هذه الأرض من مظاهر عمرانية متنوعة ومن مدن ، وأرسته من انجازات إنشائية . وفي ما ألفته من حياة مدنية ذات حكومات منظمة ، وأنشأته من مؤسسات اجتماعية واقتصادية . وفي ما انتظمت به تلك الشعوب من شرائع وقوانين وأحكام ومؤسسات ، وانتهجته من مسالك . وفي ما أبدعته في ميادين الأدب والعلم والفن . وباختصار ، إن البحث في الوجوه التي تمثّلت فيها تلك الحضارة ، والتوقّف في هذه الوجوه عند الاعتبارات الثلاثة التي تُقاس بها الحضارة : السبق والتفوّق والإبداع ، لا تستوعبه مجلدات ولا يكفيه عمر باحث . ولذلك رأينا أن نشير ، وبإيجاز أيضاً ، إلى المثل العليا في هذه الحضارة . وإلى القيم الأخلاقية التي حققتها أو طمحت إلى تحقيقها . والتي تمثّلت في سلوك أبنائها وفي ما تجذّر في نفوسهم من مفاهيم نبيلة ، ورسا في صدورهم من معتقدات إنسانية سامية . لأن الحضارة لا تقوم بمظاهرها ، ولا تبدو في ما ينتظم به الشعب من شرائع وأحكام ومؤسسات ، أو في ما يبدعه من الأدب والعلم والفن ، أو في ما يحققه من إنجازات عمرانية وعلمية فحسب . وإنما تقوم الحضارة أيضاً بالمفاهيم

الأخلاقية التي ترجع إليها آداب ذلك الشعب ونظمه ومعتقداته . وبالقيم التي تتضمّنها وتتميّز بها . وتبدو في ما يتحلّى به الشعب من فضائل . وفي ما يمارسه أفراده من سلوك أخلاقي لا يزال شرطاً لاستمرار أي حضارة وأي مؤسسة أو مجتمع إنساني .

فالحضارة في جوهرها قيم فاضلة وأخلاق . وتحت تأثير القيم والمعتقدات الأخلاقية تتكوّن العلاقات في المجتمع على اختلافها . ولا يكون للإنسان أي قيمة في المجتمع إلّا بمقدار ما يكون له من مواقف أخلاقية ثابتة وعميقة من العالم والحياة . ولا يكون التجمّع البشري مجتمعاً إنسانياً من دون أخلاق . لأن الأخلاق هي العامل الأول في تكوّن أي مجتمع . ولا يتحدّد الطابع الجوهري للحضارة بإنجازاتها المادية ، بل باحتفاظ الأفراد بالمثل العليا لكمال الإنسان ، وباهتمام السلطة وتأكيد القوانين على تحسين الأحوال الاجتماعية والسياسية للشعوب في مجموعها . وإذا أعوز الأساس الأخلاقي تداعت الحضارة . أو قل يستحيل قيام الحضارة من دون أخلاق[٤١٩] .

كانت المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية عريقة في حضارتها ، سليمة في جوهرها الإنساني . وإذا كانت الحضارة بمقوماتها وجوانبها كافة : السياسية والعمرانية والعلمية والاجتماعية والفكرية ، قد نشأت وازدهرت في تربة هذه الأرض ، فإن الطريف فيها هو بروز الجانب الإنساني الذي ظلت الحضارات[٤٢٠] المتعاقبة تفتقر إليه حتى عصرنا الحاضر (العقد الأخير من القرن العشرين) . وغنى إنساننا القديم في مجالات القيم والمفاهيم الفاضلة ، بالمقارنة مع فقر الإنسانية المدقع في الوقت الحالي في هذه المجالات .

ورغم أن البحث في الحضارة لا يخضع لنظام معين أو شروط عامة . وطابع الحضارة أبعد من أن يلين لمعادلة أو يخضع لقاعدة ، فنحن نتعرّف إلى الحضارة في الشرق المتوسطي القديم في الصفة الإنسانية التي تكوّن ذاتيتها وتعتبر طابعها المميّز . وفي الترابط العميق بين مظاهرها المختلفة . وفي الإنسجام التام بين اتجاهاتها . وفي القوانين الخلقية التي تعطي مؤسساتها السياسية والقضائية والاجتماعية شكلاً خاصاً[٤٢١] .

وإذا كانت حضارة أي مجتمع هي جماع القيم التي يسعى ذلك المجتمع إلى تحقيقها ، والتي تتمثّل في مختلف نشاطاته وإنجازاته ، فإن القيم التي حضنتها المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية ، والتي تمثّلت في سلوك أبنائها ، وفي ما أبدعوه في مجالات الفكر والمعتقدات ، هي قيم إنسانية مطلقة تعبّر عن وجدان الإنسان في جوهره الاجتماعي والأخلاقي .

والمعروف أن هذه المجتمعات كانت قد انتظمت منذ عهد مبكر جداً بحس أخلاقي عفوي . واهتدى إنسانها إلى مفاهيم أخلاقية سامية ، مارسها انطلاقاً من نوازعه الإنسانية الطبعية الصافية . وكانت أولى المجتمعات التي نظرت إلى الأخلاق من حيث هي قوة النزوع إلى فعل الخير وضبط النفس عن الميول المنكرة . وبذلك وضعت النواميس الأخلاقية التي تنهض عليها الصيرورة الاجتماعية . وحققت الكثير من جوانب الحضارة من دون تشريع . وكانت القيم التي حضنتها أو حققتها من مثل العدالة والصدق والرفق والتسامح والاستقامة والمساواة والتعاون والشعور بالواجب . وغنى إنسانها بمشاعر المحبة والبذل في مساعدة الآخرين . وفي أحيان كثيرة عواطف التضحية من أجلهم ، قد تمثّلت في سلوك أبنائها ، وفي ما رسا في نفوسهم من مفاهيم وتجذّر في صدورهم من معتقدات .

من الواضح أن معتقدات أي شعب تتضمّن نظرة أفراده ، أو خاصتهم ، إلى الكون والوجود ، أو مفهومهم للتكوين والخليقة . ومن الجلي أيضاً أن المعتقدات هي التعبير عن جوهر الشعوب . تعبير عكسه في التاريخ المقدس الآباء ، الأنبياء ، الملوك ، الشعراء ، في شكل تنفيذ مثالي لجوهرهم . ففي معتقدات أي شعب ، وفي تاريخه المقدس ، يكشف هذا الشعب عن طبيعته الداخلية ، عن جوهره . وأعتقد أن معتقدات شعوب سوريا القديمة تكشف عن طبيعة تلك الشعوب بوضوح ، وتعبّر عن جوهرها خير تعبير . فما هي الصورة العامة لتلك المعتقدات ؟ . وما هي الخطوط والأبعاد التي تتقاطع في هذه الصورة ؟ . أي ما هي القيم التي تجسّدها تلك المعتقدات ؟ . وما هي المشاعر والمفاهيم التي سادت في المجتمع من وحي القوة العليا التي افترضوا وجودها ؟ . وبتعبير أكثر وضوحاً : كيف بدت صورة هذه القوة العليا أي «السيد» «العالي» في ذهنهم ؟ . وما هي مقاييس وأبعاد الإطار الذي حصروها فيه ؟ .

يعني أن علينا البحث في مفهوم الإنسان في مجتمعات سورية القديمة لـ «السيد» «العالي» . وفي خصائص هذا «السيد» ـ «الإله» كما عبّرت عنه النصوص التي اكتشف بعضها في المنائر السورية التي نقّب فيها إلى الآن .

من البديهي أننا لا نعرف «السيد العالي» ـ (الله) إلاّ من خلال الإنسان الذي يُعرب عنه . والتعبير الذي يصوغه الإنسان في إعرابه عن «السيد العالي» لا يتناول وصف أو تحديد صورة السيد العالي ، لأن السيد العالي موضوع خارجي عن الإنسان . بل يشهد على علاقة قائمة بين الإنسان وبين «السيد العالي» .

ومن البديهي أيضاً أن الصلوات التي يرفعها الإنسان إلى «السيد العالي» تعبّر عن العلاقة القائمة بينهما . هذه العلاقة التي ظل الإنسان ، منذ وعى أو منذ اهتدى إلى مفهوم

السيد العالي ، يجعلها جزءاً حيوياً من كيانه النفسي . ولـذلك كـان وما فتيء كلمـا حزبتـه حاجاته وتعسّرت عليه رغباته ، يتوجّه أو يتطلّع إلى «السيد العالي» ملتمسـاً أو راجياً تحقيق تلك الحاجات والرغبات . وعلى هذا يمكننا تعريف «السيد العالي» بأنه علاقة . وهنا نرى أن ما ينبغي علينا فهمـه وتحليله في مفهوم الألـوهة هـو جملة العلاقـات الوثيقـة التي تربط الإنسان بالسيد العالي ، وتبيان هذه العلاقات ، ومدى تأثيرها في أخلاق الإنسان وسلوكه . وفهم اللغة التي يعبّر بها الإنسان عن علاقاته بالسيد العالي .

إذا كانت علاقـة الإنسان القـديم بالقـوة العاليـة أو «السيد العـالي» ـ (الله) تقوم على طاعة الأول للثاني وخضوعه ومحبته واحترامه وتقديسه لـه . وهذا أمـر طبيعي لدى مختلف الشعوب وفي سائر الأنحاء . فقد كانت هذه العلاقة في مجتمعات سـورية القـديمة تتـوقف أيضاً على ما تقتضيه قواعد الأخلاق وأعراف السلوك التي يحكم بها الفرد سلوكه ، ويحـدّد نوع علاقاته بالآخرين ، ويعيّن مستوى عواطفه وانفعالاته . وتتوقف أيضاً على مفهوم الفـرد للسيد العالي ، بما يتضمّنه هذا المفهوم من مشاعر إنسانية تعبـر عن معاييـره الأخلاقيـة في السلوك ، وعن درجة إيمانه بالفضائل والقيم الإنسانية . وهذا جانب فريد تتميز به معتقدات الشعـوب القديمـة في سوريـا الطبيعيـة عن معتقـدات الشعـوب الأخـرى وعن الـديـانـات التاريخية أيضاً . وتعبّر ، وهنـا الفرادة ، عن اعتقـاد الفرد القـديم في سوريـا الطبيعيـة بأن أعمال الإنسان أبلغ دلالة على موقفـه من الإله وعـلاقته بـه من النيات الحسنـة . وما قيمـة النيات الحسنة إذا لم تتجسّد أعمالاً صالحة ؟ . ولهذا السبب أخذت عقائدهم أشكالها في الأعمال ومظاهـر السلوك المختلفة ، وكـأنهم كانـوا يدركـون في تلك العصور المبكـرة من تاريخ الحضارة أن جوهر العقيدة الدينية يتمثل في العمل الفاضل والسلوك الأخلاقي اللذين يفترضهما الشعور الخلقي في الإنسان .

قلنا إن مفهوم «السيد العالي» ـ (الله) يعني عـلاقة . وعـلاقة الإنسـان بالسيـد العالي (الله) تقوم بصورة عامة على احترام الأول للثاني وتقديسه وتقـديم الطاعـة والخضوع لـه . ويبدو أن الإنسان القديم حاول أول ما حاول التعبير عن احترامه وتقديسـه لـ «القوة العـالية» التي افترض وجودها بالتقـدمة والأضحيـة . ولكن ، كيف عبّر عن طـاعته وخضـوعه لهـذه «القوة» ؟ .

من الطبيعي أن الإنسان القديم حاول التقرّب إلى «القوة العـالية» ـ (الله) في صلواتـه وابتهالاته ، طالباً المغفرة لذنب اقتـرفه أو خـطيئة ارتكبهـا . أو لشعوره بـأنه اقتـرف ذنباً أو ارتكب خطيئة . وما أكثر ما يشعر الإنسان الذي ترسّخ الحس الأخلاقي في صدره بـاقتراف الذنب وارتكاب الخطيئة . أو راجياً تحقيق ما صبت إليه نفسه من رغبات ، وما تاق إليه من

أُمنيات . ولكن الصَّلاة ، قبل أن تكون تفسيراً لأحوال المتعبد وتعبيراً عن شؤونه وشجونه ، هي عملية خشوع أمام «القوة العالية» ـ (الله) التي افترض المتعبّد أنها ترعى شؤونه وتحقق رغباته . والخشوع شعور طبيعي يحسّه الإنسان أمام كل قوة عظيمة . وقد عبَّر الإنسان القديم في مجتمعات سوريا الطبيعية عن خشوعه أمام السيد العالي (الله) بصلوات وابتهالات هي من أجمل وأبلغ ما رفعه إنسان ابتهل وصلّى ورفع توقه الروحي إلى الإلٰه الذي آمن به . جاء في صلاة إلى عشتار «سيدة الشعوب» التي «يحنى الرأس أمامها مثل القصب تحت رحمة الريح العاصفة» قول المتعبّد الخاشع :

«إني أقف أمامك بمسحي الطويل
عسى أن تتوهّج مجمرتي المظلمة
عسى أن يتقد مشعلي الخامد
تقبّلي الخذلان في محياي واسمعي صلواتي
انظري إليّ بودّ واقبلي توسلاتي
ودعي صلواتي وتضرعاتي تصل إليك
ولتحل رحمتك العظيمة علي»[٤٢٢] .

وقد عبّر الملك نبوخذ نصر عن خشوع الإنسان بشكل عام أمام «السيد العالي» بقوله ، في مخاطبته ماردوك (السيد العظيم) :

«أنا الحاكم الذي يقدّم الطاعة والخضوع أمام قوتك
فبحسب رحمتك التي تمنحها للجميع
اغرس الخوف في قلبي لقدسيتك»[٤٢٣] .

وقبل أن نفصّل القول في مفهوم الإنسان القديم في سوريا الطبيعية للسيد العالي (الله) ، وما يتضمّنه هذا المفهوم من مشاعر إنسانية تعبّر عن معاييره الأخلاقية في السلوك ، وعن درجة إيمانه بالفضائل والقيم الإنسانية ، يجدر بنا التوقف قليلاً عند قواعد الأخلاق وأعراف السلوك التي حكم بها الإنسان القديم في سوريا الطبيعية سلوكه ، وحدّد نوع علاقاته بالآخرين ، وعيّن مستوى عواطفه وانفعالاته .

إذا كانت حجارة المعابد لم تشِ إلّا بالقليل عن أخلاق الإنسان القديم في سوريا الطبيعية . ولم تنطق بها حروف مجهولة أو مطموسة على جدران الهياكل والقصور ، فإن العودة إلى ذاكرة بني إسرائيل ـ كتاب التوراة (العهد القديم) قد تفيد في إلقاء بصيص من النور على أخلاق الكنعانيين والأراميين وقيمهم وفضائلهم .

تحدثنا ذاكرة بني إسرائيل ـ كتاب التوراة (العهد القديم) أن ابرام (إبراهيم) هاجر بعائلته ومواشيه من مدينة «أور» في الشمال السوري إلى أرض كنعان في سوريا الجنوبية ، التي كانت على ما يبدو غنية بالمراعي والمروج . فاحتضنه الكنعانيون بطيبة ومحبة وتسامح . وأفسحوا له مجالاً للسكن في أراضيهم وانتجاع مراعيهم . فكان يتنقّل بحرية وأمان من مكان إلى آخر طلباً للماء والمرعى . فتارة «ينقل إلى الجبل شرقي بيت ايل وينصب خيمته . سفر التكوين ١٢ : ٨» . ومرة «ينقل خيامه ويقيم عند بلوطات ممرا التي في حبرون . تكوين ١٣ : ١٨» . وطوراً «يسير في رحلاته من الجنوب إلى بيت ايل ، إلى المكان الذي كانت خيمته فيه في البداءة . تكوين ١٣ : ٣» . «ومن هناك انتقل ابرام إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وبين شور . وتغرّب في جرار . تكوين ٢٠ : ١» . «فقال له ابو مالك ، ملك جرار الفلسطيني : هوذا أرضي قدامك اسكن في ما حسن في عينيك . تكوين ٢٠ : ١٥» . «وتغرّب إبراهيم في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة . تكوين ٢١ : ٣٤» .

وعندما ماتت سارة ـ زوجة إبراهيم «كلّم إبراهيم بني حث (الكنعانيين) قائلاً : أنا غريب ونزيل عندكم . اعطوني ملك قبر لأدفن ميتي من أمامي . فأجابه بنو حث قائلين : في أفضل قبورنا ادفن ميتك . تكوين ٢٣ : ٤» . وحين طلب إبراهيم مغارة المكفيلة ، أجابه صاحبها عفرون الحثي : «الحقل وهبتك إياه ، والمغارة التي فيه لك وهبتها . سفر التكوين ٢٣ : ١١» .

وكما كان إبراهيم يتنقّل في أرض كنعان بحرية وأمان ، كذلك كان ابنه إسحق وحفيده يعقوب (إسرائيل) يتنقلان في الأرض ، ينتجعان لمواشيهما الكلأ والماء ، ويضربان أطناب خيامهما حيث يشاءان . فعندما «ذهب اسحق إلى أبي مالك ، ملك الفلسطينيين ، إلى جرار ، أوصى أبو مالك جميع الشعب قائلاً : الذي يمسّ هذا الرجل موتاً يموت . تكوين ٢٦ : ١١» .

وعندما «جاء يعقوب (إسرائيل) من فدان أرام (في الشمال السوري) نزل أمام مدينة شكيم (نابلس) . سفر التكوين ٣٣ : ١٨» . يقول مدون كتاب «العهد القديم» : «وأتى يعقوب إلى لوز التي في أرض كنعان . . ثم رحلوا من بيت ايل . . إلى أفراته . تكوين ٣٥ : ٦» . ومن هناك «رحل إسرائيل ونصب خيمته وراء مجدل عدر . تكوين ٣٥ : ٢١» . «ثم جاء يعقوب (إسرائيل) إلى إسحق أبيه إلى ممرا قرية أربع التي في حبرون ، حيث تغرّب إبراهيم وإسحق . تكوين ٣٥ : ٢٧» .

وحين أحب شكيم بن حمور الحوي (الكنعاني) ، «رئيس الأرض» ، ابنة يعقوب ،

جاء أبوه حمور إلى يعقوب قائلاً «شكيم ابني قد تعلّقت نفسه بابنتكم . اعطوه إياها زوجة وصاهرونا . . تعطوننا بناتكم ، وتأخذون لكم بناتنا ، وتسكنون معنا ، وتكون الأرض قدامكم . اسكنوا واتجروا فيها وتملكوا بها . تكوين ٣٤ : ٢ ـ ١٠» .

وحين هرب موسى من مصر بعد قتله المصري ، لجأ إلى مديان الكنعانية ، فآواه رعوئيل ـ كاهن مديان وراعيها . يقول مدوّن التوراة (العهد القديم) إن موسى عندما كان في مصر «رأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً . فالتفت إلى هنا وهناك ، وحين رأى أن ليس أحد ، قتل المصري وطمره في الرمل . ثم خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان ، فقال للمذنب : لماذا تضرب صاحبك . سفر الخروج ٢ : ١١ ـ ١٣» .

فموسى العنصري عندما رأى العبرانيين يتخاصمان ، سأل المذنب عن سبب ضربه صاحبه . ولكنه عندما رأى المصري والعبراني يتخاصمان ، سرعان ما دفعه تعصّبه الأعمى وعنصريته الحاقدة إلى قتل المصري قبل أن يوجّه سؤالاً أو يعرف السبب الذي دفع الواحد إلى ضرب الآخر .

المهم أن «فرعون سمع هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى . فهرب موسى من وجه فرعون إلى أرض مديان . سفر الخروج ٢ : ١٥» . وهناك آواه رعوئيل بمروءة كنعانية ، سورية ، عربية ، صافية . احتضنه وأزال عنه مشاعر الخوف . وأسكنه في بيته برحابة صدر وسعة . وزوّجه من ابنته . وعاش موسى في بيته إلى حين عودته إلى مصر .

وعندما قاد موسى جماعة بني إسرائيل في عملية «الخروج» المشهورة من مصر ، لاقاه حموه رعوئيل ، ورحّب به وببني إسرائيل ، مظهراً استعداده لخدمتهم . وقد أدّى نصائحه الثمينة إلى موسى ، وألقى عليه درساً في أصول القضاء ، شهد موسى نفسه بعظمة هذا الدرس ، وبنبل حميه الذي ألقاه .

وحين ذرت الفتنة قرنها بين شاول وبين داود ، الذي كان يحاول التزعّم على جماعة بني إسرائيل ، كان من الطبيعي أن يبيّت شاول الشرّ لداود لأنه رأى فيه منافساً له على السلطة . وحاول أكثر من مرة نصب الشراك له والبطش به ، ولكنه لم يفلح . فالتجأ داود إلى مغارة «واجتمع إليه كل رجل متضايق ، وكل من كان عليه دين ، وكل رجل مرّ النفس . فكان عليهم رئيساً .وكان معه نحو أربع مائة رجل . سفر سموئيل الأول ٢٢ : ٢»

يقول مدوّن التوراة (العهد القديم) : «واشتهر داود والرجال الذين معه . سفر سموئيل الأول ٢٢ : ٦» . فكوّن منهم جيشاً من المرتزقة . وحين اشتدت مطاردة شاول لقائد المرتزقة ـ داود ، «قال داود في قلبه إني سأهلك يوماً بيد شاول ، فلا شيء خير لي

من أن أفلت إلى أرض الفلسطينيين ، فييأس مني شاول ، فلا يفتش علي . . فقام داود وعبر هو والست مائة رجل الذين معه إلى أخيش ملك جت . سفر سموئيل الأول ٢٧ : ١» . وبوصوله مع رجاله «قال لاخيش : إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فليعطوني مكاناً في احدى قرى الحقل ، فأسكن هناك . ولماذا يسكن عبدك في مدينة المملكة معك ؟ . فأعطاه أخيش صقلغ . . وكان عدد الأيام التي سكن فيها داود في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر . سموئيل الأول ٢٧ : ٥» .

بهذه الذهنية المنفتحة ، والشعور بالمحبة والاخاء والمساواة بين أفراد البيئة الواحدة ، أكرم الكنعانيون وفادة بني إسرائيل الغرباء الذين كانوا ، على ما يبدو ، قوماً رحّلاً رعاة غنم . وقبلهم الفلسطينيون في سهولهم . وبهذه الروح المتسامحة حاول الكنعانيون أن يحتضوا جماعة بني إسرائيل الرعاة المتغرّبين في أرض فلسطين . وهذه النصوص ـ النماذج تعبّر بوضوح عن صفاء الكنعاني ومحبته وتسامحه إزاء جميع الشعوب ومختلف الأجناس والأقوام . تحسّ أن في أقوالهم وسلوكهم صفاء الفطرة وبراءة النفس الكنعانية المفطورة على المحبة والتسامح ، التي تفرح بالبذل للمحتاج ، وتنشى بالعطف والتحنان على الغريب النازل في ديارهم . وهذه الفضائل هي بعض قواعد الأخلاق وأعراف السلوك التي حكم بها الفرد الكنعاني سلوكه ، وحدّد نوع علاقاته بالآخرين . والتي تشكل باعتباره أُسساً صالحة لعلاقته بالسيد العالي (الله) الذي هو بمفهومه قيمة أخلاقية عليا تنضح بالمحبة والتسامح . وهي (أي الفضائل) التي جعلت الكنعانيين قريبين من جميع النفوس . ومهّدت السبل أمام انتشارهم وانتشار أفكارهم ومعتقداتهم بين الشعوب في العالم القديم .

وكان من شدة تسامي الكنعانيين نحو آفاق المحبة والتسامح ، ورغبتهم في المساواة بين جميع الشعوب والمعتقدات ، أن «ملكي صادق ملك شاليم[٤٢٤] أخرج خبزاً وخمراً ، وكان كاهناً لله العلي ، وبارك ابرام قائلاً : مبارك ابرام من الله العلي ، مالك السماوات والأرض . سفر التكوين ١٤ : ١٨» .

ولقد كان التسامح والانفتاح من النوازع الأخلاقية لدى الكنعانيين والأراميين . وقد جعلتهم طبيعتهم السمحة يتأذون من التعصب والعنصرية ، ولهذا فتحوا صدورهم للفلسفات والعقائد المختلفة ، وأبواب مدنهم للفلاسفة والأنبياء على اختلاف مذاهبهم وتنوّع مشاربهم . وشرّعوا أبوابهم للأفكار والمعتقدات والتشريعات التي تعنى بشؤون الإنسان . ونظروا إلى معتقدات الآخرين ، أياً كانت أُصولها وقواعدها ومقوماتها ، والشعوب التي تحتضنها ، نظرة تتسم بالسماحة ورحابة الأفق . يُضاف إلى ذلك أننا لا

نجد في آدابهم أو معتقداتهم أو ممارساتهم ما يدل على حقد أو كره لأي شعب أو أُمة . ولعل أهم ما يميّز الكنعاني والأرامي هو تفتّحهما على العالم أجمع ، وتعرّفهما على المحبة (الإلهية) باسمى معانيها : محبة الإنسان ومحبة الشعوب كافة .

ولكن رغم التسامح الذي أبداه الكنعانيون إزاء بني إسرائيل المتغرّبين في أرض كنعان ، فقد ظل بنو إسرائيل يصرّون ، لعصبيتهم وعنصريتهم ، على عزل أنفسهم عن المجتمعات التي احتضنتهم . فعندما «شاخ إبراهيم قال لعبده : لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن في أرضهم ، بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني اسحق . سفر التكوين ٢٤ : ١» .

وقد نفذ اسحق وصية أبيه فذهب إلى الشمال السوري «واتخذ لنفسه زوجة ، رفقة بنت بتوئيل الأرامي من فدان أرام . تكوين ٢٥ : ٢٠» .

وعندما شاخ إسحق «دعا ابنه يعقوب وأوصاه قائلاً : لا تأخذ زوجة من بنات كنعان . قم اذهب إلى فدان أرام ، إلى بيت بتوئيل أبي أمك ، وخذ لنفسك زوجة من هناك . تكوين ٢٨ : ١» .

أذعن يعقوب لطلب أبيه فذهب إلى الشمال السوري ورعى غنم خاله لابان الأرامي في فدان أرام ، وتزوج من راحيل وليئة ابنتي خاله ومن جاريتيهما ، فولدن له اثني عشر ابناً شكلوا في ما بعد ما يعرف بأسباط إسرائيل .

ثم «قام يعقوب وحمل نساءه وأولاده على الجمال وساق كل مواشيه وجميع مقتناه ، ليجيء إلى إسحق أبيه ، إلى أرض كنعان . سفر التكوين ٣١ : ١٧» .

وبوصوله إلى أرض كنعان «نزل أمام مدينة شكيم التي في أرض كنعان . تكوين ٣٣ : ١٨» . وفي أحد الأيام ، يقول مدوّن التوراة «خرجت دينة ابنة ليئة التي ولدتها ليعقوب ، تنظر بنات الأرض . فرآها شكيم بن حمور الحوي ، رئيس الأرض . فأخذها واضطجع معها . وتعلّقت نفسه بدينة ، وأحب الفتاة ، ولاطفها . فكلم شكيم حمور أباه قائلاً : خذ لي هذه الصبية زوجة . فخرج حمور أبو شكيم إلى يعقوب ليتكلم معه . . قائلاً : شكيم ابني تعلّقت نفسه بابنتكم . اعطوه إياها زوجة وصاهرونا . وتسكنون معنا . وتكون الأرض قدامكم . اسكنوا واتجروا فيها ، وتملكوا بها . ثم قال شكيم لأبيها وأخوتها : دعوني أجد نعمة في أعينكم ، فالذي تقولون لي أعطي . كثّروا عليّ جداً مهراً وعطية ، فأعطي كما تقولون لي ، واعطوني الفتاة زوجة . فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر . . قالوا لهما : لا نستطيع أن نعطي اختنا لرجل أغلف . . إن صرتم مثلنا

بختنكم كل ذكر ، نعطيكم بناتنا ، ونأخذ لنا بناتكم» .

ويضيف مدوّن التوراة «فحسن كلامهم في عيني حمور . . ولم يتأخر الغلام أن يفعل الأمر (الاختتان) لأنه كان مسروراً بابنة يعقوب . . ثم أتى حمور وشكيم ابنه إلى باب مدينتهما، وكلّما أهل مدينتهما قائلين : هؤلاء القوم مسالمون لنا . فليسكنوا في الأرض . . نأخذ لنا بناتهم زوجات ، ونعطيهم بناتنا ، لنصير شعباً واحداً ، بختننا كل ذكر كما هم مختونون» .

ويضيف الكاتب «فاختتن كل ذكر . . وحدث في اليوم الثالث إذ كانوا متوجّعين ، أن ابني يعقوب : شمعون ولاوي ، أخوي دينة ، أخذا كل واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر وقتلا حمور وشكيم . . ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ، ونهبوا المدينة . . غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وكل ما في البيوت . فقال يعقوب لشمعون ولاوي : كدرتماني بتكريهكما اياي عند أصحاب الأرض الكنعانيين ، وأنا نفر قليل . . فيجتمعون علي ويضربونني ، فأبيد أنا وبيتي . سفر التكوين ٣٤» .

الحويون ، أصحاب نابلس ، فرسان وأهل شجاعة وإقدام . أما بنو إسرائيل ، فهل في جعبهم غير المكر ؟ . وهل تنبض أقواسهم بغير الحيل والخداع ؟ . استغلوا طيبة الحويين وصفاءهم «وتكلموا بمكر» . رسموا الخطة وقاموا بالتنفيذ . «قالوا لا نعطي أختنا لرجل أغلف . . فحسن كلامهم في عيني حمور . . ولم يتأخر الغلام أن يفعل الأمر ، لأنه كان مسروراً بابنة يعقوب» . وهكذا اختتن كل ذكر في المدينة نزولاً عند رغبة شكيم .

وبينما كان أهل «شكيم» يئنون وجعاً ، وقد انهكتهم جراح الاختتان ، انقض عليهم بنو إسرائيل يعملون السيف في رقابهم ويمسحون بيوتهم سلباً وإحراقاً . غدروا بهم بسبب عاطفة غرامية ، نبيلة وإنسانية وصافية . وصفاؤها كان في حضور حمور وابنه شكيم فوراً إلى يعقوب مظهرين كل حسن نيّة وموافقين على كل شرط .

وهجومهم في الليل هو تجديف على الأمانة والمحبة ، وكفر بكل القيم الإنسانية النبيلة .

أما غضب يعقوب فلم يكن للعرض (المثلوم) ، ولا لغدر أولاده بأهل «شكيم» . وإنما كان لشعوره بأنه نفر قليل . وخشي من اجتماع الكنعانيين عليه وضربه .

ثم إن ما حصل بين أمير شكيم وبين دينة ليس بالأمر الغريب ولا هو بالعار . فقد كانت العادة المتبعة في ذلك العصر تقول : إذا عاشر رجل فتاة غير متزوجة ، وجب عليه التزوج منها . وهذا ما أكدته شريعة التوراة ذاتها، تقول «إذا وجد رجل فتاة عذراء غير

مخطوبة ، فأمسكها واضطجع معها ، فوجدا ، يعطي الرجل الذي اضطجع معها لأبي الفتاة خمسين من الفضة ، وتكون هي زوجة له . تثنية ٢٢ : ٢٨» .

وشكيم كان على استعداد للقيام بأحكام هذا القانون أو الشريعة . والأكثر من ذلك أنه لم ينتظر مجيء أب الفتاة إليه طالباً تنفيذ أحكام هذه الشريعة ، وذلك بإعطائه خمسين من الفضة ، والزواج من الفتاة . وإنما بادر فوراً إلى أبيه راجياً أن «يأخذ له هذه الصبية» لأنه «أحبّها وتعلّقت نفسه بها» . ثم ان دينة كانت راضية بفعلتها ، بدليل عدم رجوعها إلى بيت أبيها . وبالفعل «خرج حمور أبو شكيم إلى يعقوب ليتكلم معه» ، فقال «صاهرونا . . تسكنون معنا ، وتكون الأرض قدّامكم . اسكنوا وتملكوا» . وانبرى شكيم قائلاً بصفاء قلب ورغبة في التقرّب منهم «دعوني أجد نعمة في أعينكم ، وأنا مستعد أن أعطي ما تطلبونْ . كثّروا عليّ جداً مهراً وعطية» .

في هذا الكلام فيض غامر من الشعور الكنعاني بأن الإنسان أخو الإنسان حيثما كان وأياً كان جنسه ولونه ومعتقداته . شعور كنعاني بأن المحبة أسمى رابط بين الإنسان والإنسان . وكأن هذا الشعور أيقظ في نفس الكنعاني طاقات إنسانية خيّرة ذوات فعالية كبرى في المجتمع والحياة . هي مشاعر المحبة والبذل ومساعدة الآخرين . وفي أحيان كثيرة عواطف التضحية من أجلها . وغرس في صدره وعياً راسخاً بنفسه وبمجتمعه . وأرسى في ضميره مفهوم سلوك أخلاقي فتح أمامه أبواباً جديدة أطلّ منها على الحياة والعالم . وبذلك تكشّفت نوازعه عن أعراف خلقية سامية ، فكان تعاونه مع الآخرين قائماً على الصدق والمحبة . وكان تعبيره عن مشاعره وعواطفه نحو الآخرين بعلاقات ودّ هي في رأس كل تقدم حضاري .

وإذا كان من الثابت أن الإنسان يستقي جل واجباته الأخلاقية من الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه . وأن أحكامه الأخلاقية العفوية تعكس في بادىء الأمر تعاليم البيئة الاجتماعية على نحو دقيق وأمين . فمن الثابت أيضاً أن الإنسان في هذه الأرض توصّل في وقت مبكر من مراحل وعيه إلى مفاهيم أخلاقية سامية في مدلولاتها، مستوحاة من ملاحظاته وعمق وعيه وتجاربه المتوارثة والمكتسبة . فكان رائداً في الإيمان بالقيم والمفاهيم والمعطيات الإنسانية الفاضلة . يضع بسلوكه الأخلاقي مبادىء حضارية سامية تبني إنساناً جديداً مطهّراً من أرجاس الفردية والأنانية ومن جميع الآفات الإجتماعية . ويؤدي دوره التوجيهي والتعليمي العظيم في المجتمعات الإنسانية بصدق ومحبة وعزيمة ، وكأن في صدره نزوعاً طامحاً أبداً للوصول إلى قواعد ومنطلقات اجتماعية إنسانية تحول الصراع الاجتماعي المستمر بأشكال وأساليب مختلفة ، إلى مجهود إيجابي ، يتعاون فيه أبناء هذه

المجتمعات بدوافع أخلاقية طبعية يسودها التعاطف فيجعلها أقوى من جميع القوانين التشريعية التي تضعها الأنظمة في الحضارات الحديثة .

ومن الطبيعي أن التعاون الأخلاقي الطبعي هو أهم نشاط إنساني داخل المجتمع . وهو الأساس الذي تقوم عليه المدنية . أو قل يستحيل قيام المدنية بغير التعاون الأخلاقي الطبعي . وإذا ما تحقّق هذا التعاون بين أفراد بيئة معينة أو في ما بين الشعوب ، فإنه يسخر امكانات إنسانية هائلة لبناء مجتمع أفضل . ومن المستحيل أيضاً بناء المجتمع الفاضل ما لم تنصهر قلوب وعقول أبنائه في بوتقة التعاون الطافح بالمحبة القائم على الصدق والإخلاص . فتقوى على البغض والحقد وتتسامى على الرذيلة والشر .

وشعور الحويين الكنعانيين بالإخاء الإنساني مفهوم أخلاقي راق . يعبّر عن طبيعة نظرتهم النزّاعة إلى الإرتقاء والتسامي . وقد دفع بهم إلى طلب الكمال الإجتماعي بالمساواة «تعطوننا بناتكم ، وتأخذون لكم بناتنا ، لنصير شعباً واحداً» .

والطريف أن مفهوم الحق الطبيعي القائم على المساواة بين مختلف الشعوب وشتى الأجناس ، نبت وأينع وأثمر في هذه الأرض . فقد كان الإنسان في المجتمعات السورية القديمة يتميّز باعتباره الكبير لحقوق الإنسان الطبيعية . ويرى أن الروابط التي تجمع بين إنسان وآخر هي روابط اجتماعية ـ إنسانية ، وليست روابط دينية طائفية أو عرقية جنسية . وأن الأختلاف الحضاري أو الجنسي لا يقلل من قيمة الإنسان كإنسان . وأن الإنسان في مفهومهم أخو الإنسان حيثما كان وأياً كان لونه وجنسه ومعتقداته . وبذلك أخذوا بمبدأ الأخوة الإنسانية ، فقالوا بأن الإنسان خلق على صورة الإله . وعليه لا فرق بعرفهم بين إنسان وآخر ما دام الجميع متساوين ببنوتهم للإله ، أو بأبوة الإله لهم .

ومن الطبيعي أن الإخاء في البيئة الواحدة كالإخاء بين الشعوب ليس مفهوماً أخلاقياً راقياً وحسب ، وإنما هو حضارة كاملة ، ونظرة طبيعية للارتقاء والتفوق . فالإخاء يدفع للتسامي وينشر التعاطف في الوجود الاجتماعي . وفي الإخاء تتدفق ينابيع الرحمة . والرحمة أسمى درجات المحبة . فعندما ترحم أخاك الضعيف مثلاً ، فتنقذه من عوز وتكسو عريه الجسدي بالأرجوان ، وعريه الروحي بالمعرفة ، تكون محبتك أقوى من الموت الذي يمسي نتيجة حتمية لنواميس الطبيعة وليس نتيجة مفتعلة لقوى بشرية يحميها ظلم المجتمع أو بداوة الحقد .

وشعور الإنسان بالإخاء يدفعه إلى طلب الكمال الإجتماعي بالمساواة . والمساواة بين مختلف الأفراد في البيئة الواحدة أو بين شتى الشعوب المتجاورة أو التي تفصل بينها المسافات والأبعاد ، هي أسمى ما يصبو إليه المفهوم الأخلاقي ، وأرقى ما تصل إليه

الحضارة الإنسانية .

المساواة في العدالة ، والعدالة هي المحبة المطلقة . وحمور حين يقول لبني إسرائيل «الأرض قدامكم . اسكنوا واتجروا فيها وتملكوا بها» ، لا يمنّ عليهم بالمساواة ، وكأنه يشعر بأن المساواة ليست هبة ، وإنما هي فرص متكافئة للكد والعمل ، فالنجاح والتفوق . ولا يتفضّل عليهم بالمحبة والإخاء لأن الشعور الكنعاني بأن الإنسان أخو الإنسان وبأن المحبة أسمى رابط بين الإنسان والإنسان ، كان ينبض في صدره . والمحبة سمة الإنسان المتفوق . والآخاء صفة الإنسان الكبير النفس . والمحبة والإخاء حرّرا الإنسان الكنعاني في الأرض السورية من الفزع ومن الاستعداد للحرب .

أما بنو إسرائيل فلعنصريتهم الحاقدة ولشعورهم بالضعف والعجز وضآلة الشأن ، لم يخالط مشاعرهم إخاء أو محبة ، ولم يعرفوا الرحمة . وإنما تفجّرت في صدورهم براكين الحقد والبغض . فاستغلوا صفاء الفطرة وبراءة النفوس عند أهل «شكيم» ، «وتكلموا بمكر» ، طالبين أكثر مما يطلبه القانون . ورغم هذا فقد سرّ أهل «شكيم» بالموافقة وهان الطلب الصعب لديهم ، أملاً بأن تمحى الفوارق بين المواطنين وبين المهاجرين ، مؤكدين استعدادهم لتقبّل هؤلاء المهاجرين (بني إسرائيل) أخوة لهم في وطنهم .

كان حمور بتصرفه أمام بني إسرائيل ، يبدو وكأنه رجل أخلاق ، يضع بسلوكه في المجتمع تشريعاً إنسانياً فاضلاً ، لأنه بهذا التصرّف كان يصدر عن أخلاقية طبعية يسودها التعاطف فيجعلها أقوى من جميع القوانين التشريعية الوضعية . أخلاقية طبعية تسهر على التعاون وتدفع للإسهام في البناء الاجتماعي . وكأنه كان يعي بأن الأخلاق ليست تعاليم تبشيرية ، أو فرائض يجب اتباعها ، وإنما هي الملازم العفوي لكل مجتمع .

وقد حاول حمور بمعطياته ومفاهيمه وأهدافه الإنسانية النبيلة ، حاول أن يخلق من الإسرائيلي إنساناً جديداً في معطياته ومفاهيمه . ولذلك أنت تحسّ في قوله لبني إسرئيل «الأرض واسعة الطرفين . اسكنوا وتملكوا لنصير شعباً واحداً» ، صورة عن النفس الكنعانية التي حاولت أن تحتضن بني إسرائيل وتصير معهم «شعباً واحداً» . وتشعر أن كلامه يعكس جانباً مهماً من جوانب نفسية الكنعانيين الذين قرنوا محبتهم بالرحمة والإخاء . وهذا الشعور بالإخاء الإنساني الحقيقي فجّر في صدورهم ينابيع الرحمة .

ولقد عزم الكنعانيون الذين كانت أبوابهم مشرعة لجميع الأفكار والمعتقدات والتشريعات التي تعنى بشؤون الإنسان ، عزموا بتسامحهم وانفتاحهم على إفساح المجال في أراضيهم لهذه القبيلة المنغلقة على نفسها في قوقعة التعصّب المتحجّرة والعنصرية الحاقدة . وحاولوا كما يبدو من سلوك وتصرّف أهل «شكيم» أن يقبلوا هذا الجسم

الإسرائيلي الغريب ، وأن يطوّروه وينمّوه ويؤنسنوه . ولكن بني إسرائيل كما بدا من خلال إقامتهم في أرض كنعان ، رفضوا كل تفاعل وتآخ وانصهار وانسجام . ورفضوا مرافقة الشعوب في مراحل تطورها ، وتحرّرها من بدائياتها وخرافاتها . وفي تفجيرها كنوز إنسانية الإنسان الكامنة في أعماق نفسه ، والنازعة إلى التآخي والمحبة والمساواة .

وفي كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) نصوص كثيرة تتضمن دلالات بعيدة وعميقة على المواقف الأخلاقية العامة التي كانت تسود في المجتمع الكنعاني بفعل الحوافز الأخلاقية الطبعية لدى الكنعاني نحو الإنسان ـ المجتمع الآخر . وبفعل طبعية التعاطف في نفس الكنعاني ، ورغبته في التعاون بين أبناء المجتمع الواحد . وبفعل صفاء إيمانه بـ «سيد» (إله) احتضنه في نفسه وتغنّى بعظمته وأنشد علويته ولانهائيته . وشعر بقربه منه كمصدر للمبادىء الخلقية والقواعد السلوكية في الحياة الفردية والاجتماعية . وآمن به كقيمة روحية سمت بالإنسان الذي آمن بهذا «السيد» (الإله) . وسمت بفكرة «السيد» ـ (الإله) التي احتضنها هذا الإنسان حين «تكشّفت» له بمعانيها الغنية وبشمولها الإنساني ، فانصقلت روحه و«علت» لأنها قربت من السيد العالي (الله) ومن مفهومه السوي[٤٢٥] .

من هذه النصوص مثلاً ما يقصّه مدوّن التوراة (العهد القديم) عن ابرام وابنه إسحق . يقول : حين «تغرّب ابرام في جرار قال عن سارة امرأته : هي أختي . فأرسل أبو مالك ملك جرار ، وأخذ سارة . فجاء الرب إلى أبي مالك في حلم الليل وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها ، فإنها متزوجة ببعل . ولكن لم يكن أبو مالك قد اقترب إليها . فقال : يا سيد ، أأمة بارة تقتل ؟ . ألم يقل هو لي إنها أختي ، وهي أيضاً نفسها قالت هو أخي ؟ . بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا» .

ويضيف مدوّن التوراة «فبكر أبو مالك ودعا إبراهيم وقال له : ماذا فعلت بنا ؟ . وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت عليّ وعلى مملكتي خطية عظيمة؟ . أعمالاً لا تعمل عملت بي . . فقال إبراهيم : الحقيقة هي أختي ابنة أبي ، غير أنها ليست ابنة أمي ، فصارت لي زوجة» .

ويقول مدوّن التوراة «فأخذ أبو مالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وأعطاها لإبراهيم ، وردّ إليه سارة امرأته ، وقال أبو مالك : هوذا أرضي قدامك . اسكن في ما حسن في عينيك . تكوين ٢٠» .

ثم تكرّرت الرواية مع أبي مالك ، وكانت البطلة رفقة كنة سارة وزوجة إسحق بن ابراهيم . يقول مدوّن التوراة «فأقام إسحق في جرار ، وسأله أهل المكان عن امرأته فقال هي أختي . وحدث إذ طالت له الأيام أن أبا مالك ، ملك الفلسطينيين ، أشرف من الكوة

ونظر وإذا إسحق يلاعب رفقة امرأته . فدعا أبو مالك اسحق وقال له : إنما هي امرأتك . فكيف قلت هي أختي ؟ ما هذا الذي صنعت بنا ؟ . لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك ، فجلبت علينا ذنباً . سفر التكوين ٢٦ : ٦» .

هذه صورة موجزة ولكنها ذات دلالة عميقة على أخلاق الشعب الكنعاني في جنوبي سوريا . يأثم الفرد فيتحمّل قومه الإثم . إذاً فالرجل يتحاشى الإثم من أجل الشعب كله . فحين ظهر الرب في الحلم لأبي مالك وتوعّده بشأن سارة . قال له أبو مالك «يا سيد ، أأمة بارة تقتل؟» . ثم قال لإبراهيم «بماذا أخطأت إليك حتى جلبت عليّ وعلى مملكتي خطية عظيمة؟» .

وفي الحادثة الثانية قال أبو مالك لإسحق «ما هذا الذي صنعت بنا ؟ . لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنباً» .

هذه الأقوال ومظاهر السلوك المرافقة لها تعبّر عن مفاهيم أخلاقية سامية . فخطيئة الأفراد ، باعتبارهم ، تجلب «القتل على الأمة» ، كما قال أبو مالك لإبراهيم . و «تجلب الذنب على الشعب» كما قال لإسحق . ولذلك فهو يعاتب إبراهيم بلوم يقرب من التأنيب «ماذا فعلت بنا؟ . أعمالاً لا تعمل عملت بي» . ويعاتب إسحاق بمثل هذه اللهجة التي تعبّر عن شعور المطعون بإيمانه بالقيم الأخلاقية السامية في نفسه «ما هذا الذي صنعت بنا؟» . أي لماذا حاولت خداعنا بهذه الصورة التي لم تتشكّل خطوطها وألوانها . وهذا الأسلوب الذي لم يتجسّد على الواقع ؟ . وبشعور من سلم من ارتكاب الذنب ، ونجا من الانزلاق في الحفرة التي أعدت له ، قال «لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك ، فجلبت علينا ذنباً» . ولكن امتنع الاضطجاع فامتنع الذنب . فكانت الراحة النفسية في صدر أبي مالك للذنب الذي سلم من ارتكابه وللحفرة التي نجا من السقوط فيها .

والطريف في هذه الأقوال ومظاهر السلوك المرافقة لها ، أنها تعبّر عن جوهر الإنسان القديم في سوريا الطبيعية . وعن نفسه التي سمت فغمرتها المحبة والفضيلة . لا الشهوة ولا المصلحة . تعبّر عن غناه في الوعي الإجتماعي والسمو الأخلاقي اللذين ما فتئت الإنسانية تصارع للوصول إليهما منذ ذلك التاريخ إلى اليوم . تعبّر عن إيمان الكنعانيين في وقت مبكر من تاريخ الحضارة ، بالأخلاق كسمة مميزة للإنسان . ولذلك يبدو في القليل الذي وصلنا من تراثهم ، وفي ما عرفناه عنهم على ألسنة الآخرين كالإغريق وبني إسرائيل ، أن بعض الروابط الاجتماعية كان أشد أهمية في نظرهم من سواه ، مثل الروابط التي تنطوي على مفاهيم أخلاقية وفضائل اجتماعية كالصدق والأمانة والمروءة والشهامة والعفة التي أصبحت بطول التكرار وتوالي الزمن الذي خلع عليها سحره وجلاله ، أصبحت

طبيعة ثانية للفرد الكنعاني . إن جاوز حدودها شعر بالخوف أو القلق أو العار (شعور أبي مالك) . وذلك هو أصل الضمير أو الحس الأخلاقي الذي اختاره داروِن ليكون فاصلاً بين الإنسان وبين الحيوان .

والمعروف أن الحس الأخلاقي ليس فروضاً تحدّدها الأنظمة ، أو قوانين تفعل في توجيهها وترتيبها التشريعات. وليس تعاليم تبشيرية يدعو لها الرسل والدعاة . بل هو حس عفوي في الإنسان ، يرافق المجتمع في طفولته ، فلا يكون المجتمع بحاجة إلى أي نظام تشريعي مكتوب يبيّن حقوق الفرد وواجباته ويحدّد حريته . وهكذا كانت الأخلاق في الجماعات البدائية التي لا تعرف قانوناً مكتوباً ، تنظم جوانب الحياة الإنسانية كلها . وترفد النظام الاجتماعي بالقوة والثبات والإطراد . وهكذا أيضاً ظهرت النظم الأخلاقية في التاريخ من غير أن تستقي تشريعها للفضائل الأخلاقية من وحي شريعة أو دين . وإنما استوحت الضمير وحكم العقل .

والضمير الأخلاقي أو الوجدان هو شعورنا الغريزي بالخير أو الشرّ من قبل أي دراسة أخلاقية . والطريف في هذا الضمير أنه يمكّن الفرد من اطلاق أحكام معيارية عفوية ومباشرة على القيمة الأخلاقية لبعض الأعمال الفردية المحددة (أبو مالك) . وأنه يصبح في مراحل تطوره العليا ، وعياً اجتماعياً في الفرد يعنى بإصدار الأوامر الصالحة ، ويحكم على الأعمال الإنسانية في المجتمع الذي ينتمي إليه الفرد[٤٢٦] .

والملاحظ أن المجتمعات السورية القديمة التي انتظمت بحسّ أخلاقي عفوي ودوافع سلوكية طبعية ، حققت الكثير من جوانب الحضارة دون تشريع ، لأن رجل الأخلاق (أبو مالك مثلاً) يتصرّف وكأنه يضع تشريعاً عاماً بسلوكه إزاء المجتمع . وأن لطاقة الدوافع السلوكية الطبعية فعالية قانون الجزاء وسلطته في الكبح : «بماذا أخطأت إليك حتى جلبت عليّ وعلى مملكتي خطية عظيمة؟» . «ما هذا الذي صنعت بنا ؟ . لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنباً» . أو قل إن القانون الموضوع لا يملك طاقة هذه الدوافع السلوكية . وشاهدنا على ذلك أن الإجتهادات الحقوقية والتشريعية في المجتمع المتحضّر تظهر متأخرة ، فأمورابي مثلاً حوّل المواقف الأخلاقية العامة التي كانت تسود مجتمعه بفعل الحوافز الأخلاقية الطبيعية لدى الأفراد نحو بعضهم البعض ونحو المجتمع ، حوّلها إلى تشريع قانوني .

والجدير بالذكر أن إبراهيم ارتحل من «أور» في الشمال السوري إلى أرض كنعان في جنوبي سوريا ، في وقت كان إنسان هذه الأرض يعيش في اطار مقاييس أخلاقية وإنسانية سامية . يحمي المثل الأخلاقية ويفرضها . ويحمل في وعيه مفهوم «سيد» (إله) يعبّر عن

معاييره الأخلاقية في السلوك ، وعن درجة إيمانه بالفضائل والقيم الإنسانية . وكأنهم كانوا يدركون في تلك العصور المبكرة من تاريخ الحضارة أن جوهر العقيدة الدينية يتمثل في العمل الفاضل والسلوك الأخلاقي اللذين يفترضهما الشعور الخلقي في الإنسان . وغني عن البيان أنهم لم يصلوا إلى تلك المقاييس الأخلاقية ، وإلى مفهوم «السيد العالي» بين ليلة وضحاها ، وإنما كان وراءها أجيال من التجارب والتطور ، حتى وصلوا إلى مثل هذه المنجزات في الأخلاق والمفاهيم .

وباختصار ، كان الإنسان ـ المجتمع ـ القوم في سوريا الطبيعية يصرّ على تفوّق المفاهيم النبيلة والقيم الفاضلة والسلوك الأخلاقي . فكان يدعو مثلاً إلى فعل الخير ونصرة الحق وقول الصدق . ويؤكد على احترام وإجلال القيم الإنسانية : النظام العدالة الحرية الصراحة الرفق الإستقامة المحبة وما شابه ذلك من مثل عليا بالغة الدلالة على أخلاقيته السامية التي حكم بها سلوكه وحدّد علاقاته بالآخرين . وبها أيضاً عيّن مستوى عواطفه وانفعالاته . وهي التي حدت به إلى كبح الأثرة الفردية ، وإقناع الإنسان الآخر بنسيان مصالحه الذاتية في سبيل مصالح المجتمع ككل .

ومثلهم كان ملوكهم يؤكدون أيضاً ويعملون دائماً على فرض سلطان القانون وحماية الضعفاء والأخذ بيد الفقراء ، واجتثاث الشر ، وإشاعة الأمن والسلام بين الناس . ولا تخلو سجلات ملك من إشارة إلى إقرار الشرائع ونشر العدل وحماية الضعفاء ، والحدّ من سلطان الأقوياء . فمنذ الألف الثالث ق.م. جاء في نص مأثور عن ملك مستنير عادل دمث الأخلاق ، غوديا ، حاكم لاغاش (٢١٤١ ـ ٢١٢٢ ق.م.) قوله «إن القوي يسند الضعيف» في مدينته . ويفصح نقش من نقوشه عن سياسته التي من أجلها أجلّه رعاياه «في خلال سبع سنين كانت الخادمة نداً لمخدومتها . وكان العبد يمشي بجوار سيده . واستراح الضعيف في بلدي بجوار القوي»[٤٢٧] . ويعبّر أحد النقوش عن «أوامر العدل والإستقامة» التي ظلت في «فم الراعي شولجي» (٢٠٩٤ ـ ٢٠٤٧ ق.م.)[٤٢٨] .

وفي مدينة «أور» التي ازدهرت حضارتها منذ ٣٥٠٠ ق.م. أعلن ملكها أور انجور أول كتاب شامل من كتب القانون في تاريخ العالم . وفي ذلك يقول «لقد أقمت إلى أبد الدهر صرح العدالة المستندة إلى قوانين شمش الصالحة العادلة»[٤٢٩] .

والمعروف عن الملك أورنمّو (٢١١١ ـ ٢٠٠٣ ق.م.) مؤسس الأُسرة الثالثة في «أور» أنه وضع حوالي ٢١٠٠ ق.م. مجموعة قوانين رمى منها إلى فرض الأخلاق الكريمة على الحياة العامة . وعمل أيضاً على بسط حمايته العطوف على الأرامل والأيتام . وعلى «ألّا يقع اليتيم فريسة للغني ، والأرملة فريسة للقوي»[٤٣٠] . جاء في «ترنيمة أورنمّو ،

المبارك من انليل» قول الشاعر :

«انليل العالي
الذي يرعى العالم بعينيه
تطلّع بعطف إلى أورنمّو
الذي جعل المعبد (بيت انليل) رفيعاً متألقاً كضوء النهار
وهكذا وقف الشعب أمام البيت برهبة
انليل العظيم قرّر حظاً عظيماً إلى أورنمّو في الأيام القادمة
أورنمّو الراعي تقدم بقوة ضد الذين يفسدون العدالة
غضبه العاصف يغرق الأشرار الفاسدين»[٤٣١] .

ولما أسرف الكهنة في ابتزاز أموال الناس نهض أوركاجينا في لاغاش (أواسط الألف الثالث ق.م.) ، وأخذ يندّد بنهمهم وجشعهم ، ويتهممهم بالرشوة في توزيع العدالة ، وبأنهم يتخذون الضرائب وسيلة يبتزّون بها الزرّاع والصيادين ثمرة كدهم . فأصدر المراسيم التي تحرّم استغلال الأغنياء للفقراء ، واستغلال الكهنة للناس كافة . وسنّ قوانين لتنظيم الضرائب والرسوم التي تؤدى للمعابد . ووضع الشرائع التي تحول دون اغتصاب الأموال والأملاك . وبذلك أفلح وقتاً في تطهير المحاكم من الموظفين الفاسدين ، وفي حماية الضعفاء من ضروب الإبتزاز . وأظن أن الألواح التي سجل فيها مراسيمه تكشف عن أقدم القوانين المعروفة في التاريخ ، وأقلها ألفاظاً وأكثرها عدلاً[٤٣٢] .

أما الملك الأموري أمورابي (١٧٢٨ - ١٦٨٥ ق.م.) الذي كان مصلحاً اجتماعياً ومشرّعاً أيضاً . ويمكن القول إنه كان فيلسوف الفضائل الاجتماعية ، فقد اتخذ التدابير اللازمة للحيلولة «دون وقوع اليتيم فريسة بين أيدي الأثرياء» . و «دون وقوع الأرملة بين أيدي الأقوياء» . و «دون وقوع الفقراء ضحايا بين أيدي الأغنياء» . وقد مهّد لمجموعة قوانينه بعبارة يوضح فيها سمو أهدافه ونبلها . يقول فيها إنه وضع القوانين «لكي يشرق العدل كالشمس فوق العالم . وكي ينقشع الشرّ والظلم . وكيلا يضطهد القوي الضعيف»[٤٣٣] .

وتحدثنا النقوش عن شائيل ابن ملك سمئيل بأنه كان «أباً لهذا وأُمّاً لذاك وأخاً للآخر»[٤٣٤] .

والنصوص الكنعانية تشدّد على فكرة الإستقامة والصدق والعدل في وصف الملوك الذين تركوا هذه النصوص . فملك جبيل مثلاً يقول في دعائه «لعل بعل شميم وبعلة جبيل

يطيلان أيام يحيي ملك وحكمه على مدينة جبيل ، فهو ملك عادل وصالح» . والملاحظ أن صفتي «العادل» و «الصالح» الواردتين في هذا النقش لم تردا من قبيل المصادفة ، لأن لقب الملك . أي ملك كنعاني ، كان يقرن مع صفات «العادل» و «الصالح»(٤٣٥) .

وفي قره تيبه في الشمال الشرقي من سهل أدنه ، عثر المنقبون على نصوص كنعانية ، يظهر في أحدها الملك برك بعل عبد بعل (القرن الثامن ق.م.) مفاخراً بأن البعل (السيد) (الله بمفهومنا) جعله أباً وأماً للدانويين ، فأنعشهم وجلب لهم الخير والرفاه ، وملأ مخازن غلالهم وكثّر مواشيهم :

«جعلني بعل للدانويين أباً وأماً
وكان بأيامي كل سعد وخير ونعيم
فاعتبرني (كل فرد في مملكتي) كالأب لعدلي وحكمتي ونقاوة قلبي» .

وجاء في العمود الثاني قوله :

«وكان في أيامي خير ونعيم واستقرار
وهناء وراحة قلب للدانويين»(٤٣٦) .

وفي قوانينهم مواد كثيرة مخصّصة لتوجيه الأخلاق :

«إن الذي يحلف يميناً كاذبة هو منافق» .

«كل حاكم يقوم بعمل اضطهادي وعنيف ، أو يرضى بقبول الهدايا ، يوصم بالخطيئة . ولكن الذي يرفض قبول قرب النبيذ كهدية ، ويأخذ جانب الضعيف ، فإنه يحصل على الحياة وعلى خيرات ورضى شمش (الإله)»(٤٣٧) .

والملاحظ من النصوص التي وصلتنا أن الملك ، أي ملك في سوريا الطبيعية ، لم يكن مستبداً ولا طاغية . وإنما يعتبر نفسه مسؤولاً أمام الإله عن ازدهار البلاد ورفاهية العباد . وشعوره أنه ما اختير ملكاً إلاّ لكي يهدي البلاد إلى طريق الرشاد ، ويزوّد أهالي بلده بوفير الطعام وعذب المياه .

وكان من أهم واجبات الملك مما يدخل في نطاق الفاعليات الملكية البناءة والمنتجة ، الحفاظ على شبكة الري وتوسيعها وتحسينها . والحق أن جميع الملوك الذين خلّفوا لنا مدوّنات ذوات أهمية كانوا يفتخرون بأنهم حفروا أقنية جديدة ووسّعوا وأصلحوا ما قدم منها . يقول أمورابي «لقد زوّدت بلاد سومر وأكاد بمياه جارية لا تنضب . وأغدقت عليهم الوفر والبركات . وأنشأت لهم بيوتاً ليسكنوها بسلام»(٤٣٨) .

وفي نطاق الأخلاق والفضائل كان من أهم واجبات الملك المحافظة على القانون

والحثّ على التقيّد به ونشر العدل في أنحاء المملكة ، لئلا يضطهد غني فقيراً ، أو قوي ضعيفاً . وألاّ تستغل أرملة أو يتيم . وألاّ يتعرّض مواطن لأذى عامل مستبد من عمال الدولة .

وتتكرّر في ما وصلنا عنهم من نصوص أفكار أخلاقية تشدّد على الإستقامة والصدق في وصف الملوك الذين تركوا هذه النصوص . وتعبّر عن مفاهيم اجتماعية غاية في الرقي الاجتماعي والسمو الأخلاقي . ويمكن أن تعتبر كمثل أعلى لأي معتقد أو مبدأ اجتماعي في التاريخ .

ولعل أهم مفهوم أخلاقي انبثق عن شعوب هذه الأرض ، التي كانت تؤكد على تفوق المفاهيم النبيلة والقيم الفاضلة والسلوك الأخلاقي ، هو مفهوم العدل الاجتماعي بمعناه الحديث . فقد كان الإنسان القديم في مجتمعات سوريا الطبيعية يدرك منذ أكثر من خمسة آلاف سنة أن العدل أساس في دوام الدولة وازدهار حياة الشعب وتنامي فعالياته . وهو فضيلة كبرى في مجتمعات تؤكد على الإستقامة الخلقية ، وترى في العدالة قوة اجتماعية . وكان ملوكهم يجلّون العدل والإستقامة ويجعلونهما قاعدة السلوك بين مواطنيهم .

والملاحظ أن ملوكهم القدماء الذين تغنّوا بأمجادهم في نصوصهم الميثولوجية ، كانوا يجعلون العدل أساساً في دوام سلطانهم وتنامي فعاليات الإنسان في مجتمعهم . فدانئيل (معنى الاسم : يقضي الله) مثلاً يبدو أنه كان ملكاً عادلاً ، فصار شخصية تاريخية ترمز إلى القاضي العادل الذي يجلس للقضاء عند البيدر ، يقضي للأرملة واليتيم :

«نهض وجلس عند البوابة (بوابة المدينة)
على البيدر قرب الأكداس
يقضي قضاء الأرملة
ويحكم حكم اليتيم»(٤٣٩) .

وقد أشار حزق ايل (النبي) في كتاب التوراة (العهد القديم) إلى تقواه وبرّه ، فقال إنه «خلّص نفسه ببرّه ١٤ : ١٤» . ولمّح إلى حكمته حين عزا إلى ملك صور تفاخره بأنه «أحكم من دانئيل ، لا يخفى عليه سرّ ما ٢٨ : ٣» . ولا يخطر على البال أن حزق ايل يشير إلى دانئيل صاحب السفر المعروف باسمه في كتاب العهد القديم ، لأن هذا الأخير متأخر في الزمن عن حزق ايل .

«السيد» «العالي» ـ (اللّه)
مسكون بهاجس أخلاقي

ذكرنا في ما تقدم أن المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية كانت قد انتظمت منذ عهد مبكر جداً بحسّ أخلاقي عفوي . واهتدى إنسانها إلى مفاهيم أخلاقية سامية ، مارسها انطلاقاً من نوازعه الإنسانية الطبيعية الصافية . وكانت أولى المجتمعات التي نظرت إلى الأخلاق من حيث هي قوة النزوع إلى فعل الخير وضبط النفس عن الميول المنكرة . وبذلك وضعت النواميس الأخلاقية التي تنهض عليها الصيرورة الإجتماعية . وحققت الكثير من جوانب الحضارة من دون تشريع . وكانت القيم التي حضنتها أو حققتها من مثل العدالة الصدق الرفق التسامح الإستقامة المساواة التعاون والشعور بالواجب . . . وغنى إنسانها القديم بمشاعر المحبة والبذل في مساعدة الآخرين ، وفي أحيان كثيرة عواطف التضحية من أجلهم ، قد تمثّلت في سلوك أبنائها وفي ما رسا في نفوسهم من مفاهيم وما تجذّر في صدورهم من معتقدات .

وذكرنا أيضاً بعض ما حققوه أو حضنوه من قيم أخلاقية ، وما رسا في نفوسهم من مفاهيم إنسانية فاضلة . وألمحنا إلى بعض قواعد السلوك وأعراف الأخلاق التي حكم بها الإنسان القديم في سوريا الطبيعية سلوكه ، وحدّد نوع علاقاته بالآخرين ، وعيّن مستوى عواطفه وانفعالاته . وبقي علينا أن نفصّل القول في مفهومه لـ «السيّد» «العالي» ـ (الله) . وما يتضمّنه هذا المفهوم من مشاعر إنسانية تعبّر عن معاييره الأخلاقية في السلوك وعن درجة إيمانه بالفضائل والقيم الإنسانية .

لعل الملاحظة الأُولى التي تستوقف الباحث في مفهوم «السيّد» «العالي» ـ (الله) هي أن الإنسان القديم في الشرق المتوسطي أكد منذ عهد مبكر في تاريخ نضجه الروحي والفكري على العلاقة الوطيدة بين مفهوم «السيد» «العالي» ـ (الله) وبين القيم الأخلاقية . وأصرّ على التأكيد أن هذا المفهوم هو فعالية مثالية في الإنسان العاقل السليم أو الوجه

المثالي فيه ، الذي تحيط به هالة الكمال ، كمال الخلق والقيم والمفاهيم . أو قل إن هذا المفهوم توضّع في ذهنه مقروناً بالمثالية الخيرية للوجود(٤٤٠) .

ومن هنا كان «السيّد» «العالي» ، كما أرادوا له أن يكون ، شمساً تنير درب المظلوم ، وقاضياً يأمر بالعدل ، وحاضناً لليتيم ، ومنصفاً للأرملة . هو الذي يوحي للملوك خدمة شعوبهم والدفاع عن الحق وإزالة الظلم . ويلهمهم تشريعاتهم «لكي يمنع القوي من ظلم الضعيف . ولكي تنار الأرض ، ويتأمّن رخاء الشعب» . وهو الذي يمثّل الرقابة الإجتماعية على قواعد السلوك والأخلاق في المجتمع . ويسهر على تطبيق الأنظمة والقوانين التي تحدّد بموجبها أوضاع الحياة الاجتماعية والعلاقات المسلكية . فانليل يأمر أو يريد أن تفصح أوامر الملك عن عدله واستقامته . فهو مثلاً يريد لشولجي (الملك) أن «تكون أوامر العدل والإستقامة في فمه» . ولذلك كان الملك في سوريا الطبيعية ينسب قوانينه إلى «السيد» «العالي» ، ويمارس سلطاته باسمه . فأمورابي مثلاً يظهر في الرسم المحفور على لوح قوانينه ماداً يده ليتسلّم العصا وشريط القياس (رمز السلطة والعدل) من «شمش» الذي يمثّل العدالة أو يرمز إليها .

ولقوانين الملك أو الدولة التي تحفظ الحق وتصون العدالة ، حرمة لأنها صادرة باسم الإله أو بدعوة منه . فحين نقرأ في مقدمة شرائع أمورابي قوله «دعاني أنو (السيد) - (الله بمفهومنا) ، أنا أمورابي ، إلى نشر العدل في البلاد وإلى القضاء على الشرّ والاشرار ومنع القوي من ظلم الضعيف» ، نجد أنفسنا إزاء بيان صدر في القرن الثامن عشر ق.م. يوضّح بجلاء أن «ان» - (السيد) - (الله بمفهومنا) مسكون بهاجس أخلاقي . وأن المعايير الأخلاقية المثبتة في الشريعة تمثل إرادة «ان» - (السيّد) - (الله) .

وحين يقول المصلح الإجتماعي أوركاجينا إن ثورته على الظلم الذي كان متفشّياً في أثناء حكم من سبقوه ، وقيامه بالقضاء على جشع الكهان والموظفين ، كان في اعتباره بإيحاء أو بتكليف من نن جرسو (السيّدة) ، يتمثّل لنا «السيد» «العالي» - (الإله) الذي اكتشفوه أو تكشّف لهم ، خيراً محضاً كمفهوم أخلاقي تحدد في واجبات الملك واندمج في نفس الفرد بفكرة العدالة والرقابة الخلقية العليا .

وحين كان الملوك القدماء شأن لبت عشتار ملك ايسين ، وبلالاما ملك اشنونا ، وأمورابي ملك بابل ، يتلقون أوامر إلٰهية بإقامة العدل أو بتعميم تشريع معين ، أو باستلام التشريع من يد الإله ، فقد كان هذا العمل يتضمن فكرة ميثاق بين الإلٰه وبين البشر عن طريق المشرّع .

و «السيد» «العالي» (الله) في مفهومهم يمثّل مبادىء السلوك المثالي الكامل

للخليقة . والإنسان في ابتهاله إليه يعبّر عن رجائه بأن يدفق «السيد» «العالي» في صدره هذه المبادىء أو بعضها . يقول المتعبّد في ابتهاله إلى ماردوك (السيد العظيم ـ الله) :

«جليل أنت يا راعي البلاد
أنت تحمي الشعوب كافة
يا من اسمه على ألسنة البشر جميعهم بالحمد والشكر
سيدي ماردوك
لكم أتمنى أن أبقى سالماً صحيحاً لكي أسبّح بحمدك
اجعلني انطق بالحق
واجعل الخير يسكن في قلبي»[٤٤١] .

ويكشف لهم عن العناصر ذات التأثير والفاعلية الإيجابية في العلاقات الإنسانية . فعندما يخاطب البعل (السيد ـ الرب) عناة (السيّدة) بقوله :

«أقيمي في الأرض وئاماً
وابذري في التراب محبة
واسكبي السلام في قلب الحقول»[٤٤٢] .

إنما يخاطب الفرد ـ الشعب راسماً الأسس القوية ذات التأثير والفاعلية الإيجابية في علاقاته ، ومحدّداً الطرق والأنظمة الصالحة في سلوكه الاجتماعي .

وهو الذي يمدّ الإنسان بقدرة التمييز بين عمل الخير وبين عمل الشرّ . وكأن في الإنسان روحاً «عالية» ـ (إلٰهية) ، أو أن «السيّد» «العالي» ـ (الله) عقل في الإنسان ، يستطيع الأخير بهذا العقل أن يميّز بين الأشياء : صوابها وخطأها . ضارها ونافعها .

وفي مفهومهم أن لـ «السيّد» «العالي» ـ (الإلٰه) رسالة . وهذه «الرسالة» لا تقتصر ، وفي مفهومهم أيضاً ، على منطقة واحدة ، ولا تخص جماعة معينة من البشر من دون سواهم . وإنما هي دعوة موجهة إلى البشر سائرهم ومن غير تمييز . لأن محبة «السيد» «العالي» ـ (الله) باعتقادهم تغمر الكل ، أو قل لأن «السيّد» «العالي» «يجمع بمحبته الجميع» و «بلقاح المحبة يلقح الأرض»[٤٤٣] .

«الرسالة» إذاً إنسانية وشاملة . وإذا خلت «الرسالة» من صفة الشمول والإنسانية فلا يبقى فيها أي معنى لـ «الرسالة» . ولا يصح عندها أن تكون «رسالة» .

فالبعل (السيّد ـ الرب) يدعو في «رسالته» لسلام على الأرض . ويأمر بالإبتعاد عن السلاح ، ونبذ الحرب . ويحث على تعميم المحبة والوفاق على الأرض . ففي خطاب

إلى عناة (السيدة) يقول :

«لتركض أرجلك نحوي
ولتسرع خطاك
لأن لدي رسالة
أود أن أبلغك أياها :
الحرب على الأرض مخالفة لإرادتي
أقيمي في الأرض وئاماً
وابذري في التراب محبة
واسكبي سلاماً في كبد الأرض
وزيدي من المحبة في قلب الحقول

وتجيبه عناة (السيدة) :

سأقيم في الأرض وئاماً
وسأزرع في التراب محبة
وأسكب السلام في جوف الأرض
وسأزيد من المحبة في قلب الحقول»[٤٤٤] .

والملاحظ أن عبارات «أقيمي في الأرض وئاماً . وابذري في التراب محبة . واسكبي السلام في كبد الأرض . وزيدي من المحبة في قلب الحقول» تتكرر في الملحمة على لسان البعل مرات أربع ، وعلى لسان عناة أيضاً . ويتردد «السلام» كثيراً حتى ليخيّل إلى القارىء وكأن «رسالة» البعل (السيّد) هي رسالة السّلام على الأرض .

وبما أن مفهومهم لـ «السيّد» ـ (الإله) ارتدى طابعاً أخلاقياً ، فقد كانت النظرة العامة إلى حكم «السيّد» (الإله) تقوم على أساس أن «السيد» (الإله) يراقب قواعد السلوك والأخلاق في المجتمع ، فيثيب الإنسان بقدر ما فيه من طاقات خيرة ، وبقدر ما يؤدي من فضل وصلاح في المجتمع . وهو بالمقابل يعاقب على الرذيلة ، ولا يترك الأشرار وفاعلي السوء ينجون بأعمالهم . ومن هنا تحفل النصوص التي سلمت باعترافات يشهد فيها أصحابها على أنفسهم بأنهم أحسنوا معاملة الناس ، وابتعدوا عن فعل كل ما يسبب الأذى أو الضرر لهم . ومن أمثلة ذلك قول أشور ناصر بعل إلى عشتار (السيدة) :

«أؤكد على تبجيلك الراسخ في نفسي
أمام قدسك أمشي مستقيماً أخلاقياً
لم ارتكب خطيئة ولم اقترف اثماً

أناشد قدسيتك يا سيدتي ، انظري إلي
علّ الرحمة تميل قلبك نحوي
اشفني من مرضي ، وامحي خطيئاتي»(٤٤٥) .

وقول أحد ملوك بابل إلى ماردوك (السيد العظيم) :

«لم اقترف إثماً يا رب البلاد ، ولم أُزْرِ بقدسيتك
لم أدمّر بابل ، ولم أعمل لتفرقة أبنائها
لم أسبب الأذى للبيت العالي الرأس (المعبد)
ولا نسيت شيئاً من طقوسه
ما صفعت مبتهلين
ولا سمتهم خسفاً
أولي بابل عنايتي ، وما هدمت لها يوماً سورا»(٤٤٦) .

هذه النظرة الكونية العميقة لـ «السيّد» «العالي» ـ (الإله) كمصدر للمبادىء الخلقية ، تركت أثرها في الدوافع والحوافز التي تحرك الإنسان نحو ما هو حق وخير وفضيلة . ولذلك كان الفرد في المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية لا يواجه «السيّد» «العالي» (الله بمفهومنا) بالزهد والانقطاع إلى التنسّك . بل يواجهه بأعمال يومية تهدف إلى خير المجتمع وصلاحه . ولا يبحث عن النجاة بالصّلاة ، وإنما يعتمد على تهذيب أخلاقه واتباع الفضائل في سلوكه الخاص والعام . وهكذا ربط شوقه لـ «السيد» «العالي» بفعل الخير وعمل الصلاح ومحاولة تحقيق المثل الاجتماعية . وبذلك تحوّل قلقه وإحساسه بالغربة في عالمه ، من فعل يتأكل الإنسان دون ما هدف ، أو من باعث على العزلة والإنطواء والتنازل الكلي عن أشياء العالم ، كما في النسك والتزهد ، إلى فعالية وعمل يتحققان خلال النشاط اليومي . وكأنهم أدركوا في تلك العهود المبكرة أن العقيدة الدينية ليست أكثر من أُمور يفترضها الشعور الخلقي في الإنسان أو قل هي إدراك الواجبات على أنها فروض إلٰهية . ومثل هذه المعتقدات أكد فيهم أخلاقية طبعية تسهر على حماية الطرق والأنظمة لسلوكهم الاجتماعي . وتحمي الروابط المسلكية والخلقية التي تحدد علاقاتهم بعضهم ببعض وتدفع للإسهام في البناء الإجتماعي .

وهكذا اندمج الشعور الإعتقادي مع الشعور الأخلاقي في نفس الإنسان القديم في سوريا الطبيعية . أو قل كان حسّه نحو معتقداته هو حسّه نحو الأخلاق والتعاطف مع المثل والقيم(٤٤٧) .

وباختصار ، كانت معتقداتهم نهج سلوك ينبثق عن أخلاقهم . وكان لها ، بما تتضمّنه من مشاعر ومواقف إنسانية نبيلة ، أثر كبير في تقوية الدوافع الإجتماعية ، وتوطيد الأخلاق ، وبناء المجتمع على أسس سليمة من الدوافع النبيلة والأخلاق الفاضلة .

وخلاصة القول إنهم عبّروا في نظرتهم إلى «السيّد» «العالي» ـ (الله) عن مفاهيم أخلاقية واجتماعية كانت المثل الأعلى لسائر المذاهب الفكرية والدينية التي أبدعها أو وضعها الإنسان في ما بعد . وقد شكّلت هذه «النظرة» و «المفاهيم» منحى اجتماعياً خلقياً ، واتجاهاً فكرياً إنسانياً (معتقدات) كانا خلاصة القيم والمفاهيم الإنسانية . وظلا طوال ثلاثة آلاف سنة يصونان مفاهيمهم الاجتماعية ويحميان قيمهم الخلقية . وبهما ظلت مجتمعات سوريا وقتاً طويلاً (ثلاثة آلاف سنة) المعلم الأخلاقي للبشرية .

والبحث في مفهوم «العالي» في الذهن القديم في الشرق المتوسطي ، يعني البحث في مشاعر الإنسان القديم نحو «السيّد» «العالي» ـ (الله) بعظمته وجبروته ، لأن مشاعره الذاتية نحو الكون والقوى الفاعلة فيه ، والتي راح يعبّر عنها بصور حية وكأنها تجربة من تجارب وعيه ، هي بتعبيرنا المشاعر الدينية أو اللاهوتية أو ما نسميه مفهوم الألوهة .

ومن الطبيعي أن جانباً مهماً من مشاعر الإنسان القديم نحو «السيد» «العالي» تمثّل في رغباته وآماله وجزئيات حياته . ومن هنا فإن العلاقة بين الإنسان القديم وبين «السيّد» «العالي» كانت علاقة طبعية ، حسّاً حيوياً . أي حسّه الذاتي بـ «السيّد» «العالي» . وفي تحليلنا لأي نموذج من النصوص التي وصلتنا ، نستطيع أن نعرف الإنسان القديم في توجّهه إلى «السيّد» «العالي» في صلواته وابتهالاته ، وفي ما صبت إليه نفسه من رغبات وتاق إلى تحقيقه من أمنيات . ونستطيع التعرّف إلى صورة «السيّد» «العالي» ـ (الإله) التي تكشّفت له في أجمل المغاني وأغناها على الإطلاق . ففي تسبيحة إلى عشتار (السيّدة) يقول المتعبد البابلي :

«عشتار نور العالم ونور السماء
تحنو على التعساء وتنصف المظلومين
ألا ما أعظم قدرتك ، وما أعلى مقامك
حكمتك تفوق إدراكنا
وحين تتطلعين تعود الحياة إلى الموتى
وينهض الكسحاء ويمشون
وتخف آلام المرضى

حين تلقين نظرك على وجوههم
عشتار عظيمة ، عشتار ملكة
عشتار تقيل من تعثّر
وتذل المتكبّر وترفع المهان»[٤٤٨] .

ويتوجّه متعبّد بابلي آخر إلى السيّدة عشتار بنشيد طويل يعبّر عن الغنى الروحي والإحساس المرهف اللذين كانا يشدّان البابلي القديم إلى الوجود الكوني البعيد :

«عشتار ملكة الشعوب كلها
تقود البشر على نحو قويم
مبجّل اسمك يا سيدتي
أنت حقاً نور السماء والأرض
اسمك في كل مكان، وهياكلك تشاد في كل صوب
أنت عظيمة وممجّدة في كل الأرض
البشر جميعهم يخضعون لقوتك
أنت تقررين الحكم العادل بين الناس
وأنت تلحظين المظلوم والمضطهد، فتعينينهم على الانتصار
رحماك يا سيدة السماء والأرض ، ويا راعية الناس المتعبين
رحماك يا سيدة البيت المقدس، المكان الطاهر
رحماك يا سيدتي ، فقدماك غير متعبتين، وركبتاك رشيقتان
(لانهاض المتعثرين وإعانة المتعبين)
لقد صرخت إليك متوجعاً ومتعباً
فانظري إلي يا سيدتي واقبلي صلواتي
عديني بالعفو عني والرضى عليّ
شفقة بجسدي المضنى بالعناء
ورأفة بقلبي العليل المشحون بالأسى والألم
يا سيّدتي ، ليكن قلبك راضياً (عني)
ولتقع عيناك العطوفتان عليّ
ألقي عليّ نظرتك العطوف
اطردي عني الأثام التي تسحر جسدي
ودعيني أرَ نورك المشع

إني أقف أمامك بمسحي الطويل
واتقلّب كمياه الفيضان هيّجتها ريح غاضبة
فاغفري ذنبي واصفحي عن أفعالي السيئة ، وتقبّلي صلاتي
فكي قيودي وحققي انعتاقي
سددي خطاي على نحو قويم
مبتهجاً كبطل دعيني أمشِ مع الناس في الطرقات
عسى أن تتوهج مجمرتي المظلمة
وعسى أن يشتعل مشعلي الخامد
وعسى أن تجتمع عائلتي المشتتة
عسى أن تكون حظيرتي واسعة وأن تكون زريبتي عريضة
تقبلي الخذلان في محياي ، واسمعي صلواتي
انظري إلي بودّ واقبلي توسلي
أديري وجهك نحوي وانعمي علي بفضل عطوف
أطلقي عواطفك نحوي كماء يترقرق في قناة
دعي صلواتي وتضرعاتي تصل إليك
لتحلّ رحمتك العظيمة عليّ
ودعيني أمجد قدسيتك وجبروتك أمام الناس»(٤٤٩) .

هذا نموذج من النصوص التي بقيت لنا يكفي لإعطاء فكرة عن جوهر الإنسان القديم في سوريا الطبيعية ، وعن غناه الروحي وعن سمّوه وصوفيته . توجّه إلى عشتار (السيّدة) بصفاء نفس ونقاوة ذات ، فغمرته الذات العلية بأنوارها ، وتكشّفت له صورتها بمعانيها الغنية وبشمولها الإنساني وإذا هي ، كما أراد لها أن تكون ، السيّدة الرحيمة التي تعطف على الأم الولود ، والموحية الخفية بخصب الأرض ، والعنصر الخلّاق في كل مكان . هي «العذراء» و «العذراء المقدسة» و «الأم العذراء»(٤٥٠) (وهذا يعني أن حبّها كان مبرءاً من دنس الزواج) . هي نور العالم ونور السماء . حكمتها تفوق إدراك البشر . تسكن في قرارة نفس الإنسان . تمسك بيد الضعيف . تحنو على التعساء وتنصف المظلومين . تقيل العاثر وتعين المتعب وترفع المهان . حين تلقي نظرها على وجوه المرضى تخفّ أوجاعهم . وحين تتطلع بحنو ورحمة إلى الكسحاء ينهضون ويمشون . عشتار سيدة السماء والأرض ، عظيمة وممجّدة . تنعم على البشر ، كل البشر ، بفضلها العطوف . وتحنو عليهم برحمتها الغامرة . وعشتار أيضاً تغفر للمذنبين ذنوبهم وتقبل توبتهم الصادقة وابتهالاتهم الحارة . وتسدّد للضالين خطاهم وتعتق المأسورين من قيودهم . وعشتار أيضاً وأيضاً في رجاء هذا

المتعبّد الخاضع المتواضع أن تطلق البهجة في وجهه وتشعل النور في مجمرته وتكرّس الخير والبركة في حظيرته .

وباختصار ، تتضح من هذه التسبيحة نظرة للإله تضمّنت الجلال والعظمة والقدرة اللامتناهية . وكذلك القرب والأبوة والحنو والرحمة . كما تضمّنت الشمول بالنسبة للأمم سائرها ، والسيادة على الشعوب كافة ، والرعاية للناس جميعاً من دون استثناء .

وعندما نقول إن هذه النصوص التي تنضح بالسمو الإلهي وبالفضائل الإنسانية ، وحدها تصنّف ، أو على الأقل ، يمكن أن تصنّف كتاريخ مقدس ، فلأن الله بمفهومنا اليوم (العقد الأخير من القرن العشرين) لا يختلف عن الإله كما فهمه الإنسان القديم في سوريا الطبيعية . أو قل إن الله بمفهومنا اليوم هو الإله ذاته الذي فهمه إنسان هذه الأرض منذ خمسة آلاف سنة «نور العالم ونور السماء ، يحنو على التعساء وينصف المظلومين ، يقيل العاثر ويعين المتعب ويرفع المهان . وحيث يشع نور الإله يبعث الأموات إلى الحياة وينهض الكسحاء ويمشون . والإله يغفر أخطاء البشر ، ويقبل توبتهم الصادقة وابتهالاتهم الحارة» . والإله يلهم الملوك تشريعاتهم «لكي يمنع القوي من ظلم الضعيف . ولكي تنار الأرض ، ويتأمن رخاء الشعب» .

والواقع أن هذا النموذج من النصوص المفعمة بالحماسة القوية التي كان البابليون يرفعون بها تسابيح الحمد إلى مقام عشتار ، تذكّر المتأمّل بتلك التسابيح التي كان وما فتىء الأتقياء من المسيحيين يرفعونها إلى السيدة مريم ، أُم المسيح . ولو شئنا اليوم أن نخاطب السيدة مريم بلسان مليار مسيحي ، لقلنا ، كما كان الإنسان القديم في سوريا الطبيعية يخاطب السيّدة عشتار : «سيدتنا مريم نور العالم ونور السماء . تحنو على التعساء وتنصف المظلومين . تقيل العاثر وتذلّ المتكبّر وترفع المهان . سيدتنا مريم تلحظ المظلوم والمضطهد ، فتعينهم على الانتصار على ظالميهم والمسيئين إليهم .

رحماك يا أُمنا مريم ، يا راعية الناس المتعبين لقد صرخت إليك فانظري إليّ يا سيدتي واقبلي صلواتي . عديني بالعفو عني والرضى عليّ . ليكن قلبك راضياً ، ولتقع عيناك العطوفتان عليّ . اطردي عني الآثام . ودعيني أرَ نورك المشع . إني أقف أمامك بمسحي الطويل ، فاغفري ذنبي واصفحي عن أفعالي السيئة . فكّي قيودي وسدّدي خطاي على نحو قويم . سبتهجاً كبطل دعيني أمشِ في الطرقات مع الناس . عسى أن تتوهج مجمرتي المظلمة وعسى أن يشتعل مشعلي الخامد . تقبّلي الخذلان في محياي واسمعي صلواتي . انظري إليّ بودّ واقبلي توسّلي . أديري وجهك نحوي يا أُمنا مريم وانعمي عليّ بفضل عطوف» .

وفي تسبيحة إلى «شمش» كقوة عليا تعطي الضوء والحياة للكائنات جميعها ، وعلى عطفها يتوقف ازدهار الحقول وخير الإنسان ، وبفضلها يحدث النظام والاستقرار ، يقول متعبّد بابلي :

«أي سيدي
أنت الذي ينير الظلمات
ويضيء وجه الأرض
سيد الرحمة
الذي يحمي الضعيف ويرفع المهان
يرنو إليك الناس برغبة
وعندما تظهر يغمرهم الفرح والحبور
إن شعوباً لا تحصى تتأملك بغبطة وابتهاج»(٤٥١) .

وفي نص آخر جمع من كسر في مكتبة أشور بني بعل، يقول متعبد :

«أنت تحرس الشعوب جميعهم
وتعتني بهم
إنك حقاً راعيهم
يركع أمامك الأثم والعادل
أنت تقيم القضاء للشرير ولفاعل الخير
أنت تستمع للصّلاة والتضرّع
يلتجىء إليك البائس والضعيف والمرء الفقير»(٤٥٢) .

ويقول متعبد آخر :

«يا شمش ، يا سيد السماء والأرض
يا من توجّه كل شيء في العلى وفي الدنيا
إن بيدك إعادة الميت إلى الحياة
وتحرير الأسير من قيده
أنت قاضٍ عادل
ومرشد لبني الإنسان
أنت نور البلاد
وخالق كل ما في السماء والأرض»(٤٥٣) .

وجاء في ترنيمة أُخرى إلى شمش :

«أيها القاضي الصالح
أنت ملك السماء والأرض وسيّد الأقدار
أنت قاض صافي الضمير
أنت ترى نفس الشرير والمؤذي واضحة كضوء النهار»[٤٥٤] .

ويقول أمورابي في خاتمة قوانينه :

«شمش القاضي الجبّار للسماء والأرض
الذي يهدي الكائنات الحيّة إلى الطريق القويم»[٤٥٥] .

هـذه المقتطفـات من النصوص التي سلمت لنـا تعبّـر عن إنســان وصـل إلى مـرحلة متقدمة في بصيرة الذهن ودقة الملاحظة . فحين صبّ على الواقع بصره النافذ ومـلاحظتـه الدقيقة رأى في الشمس حياة ، أو هي التي تهب الحياة للمخلوقـات جميعها . وحين نفـذ ببصيرته إلى ما بعد الواقع انصبّت رؤيـاه على عالم مثـالي ، فإذا بـالشمس في مفهومـه قوة عليا (إله) تقف إلى جـانب المريض ، وتعـاقب الشريـر ، وتنقذ الغـريق من بين الأمواج . تحمي الضعيف ، وترفع المهان . وترعى البشر وتعتني بهم . تقيم القضاء العـادل للشريـر ولفاعل الخير . وبما أن الشمس «نور العالم» و «نـور الأعالي والأعمـاق» و «نور السمـوات والأرض» . وبمـا أن ضـوءهـا ينفـذ إلى الأعمـاق من كـل شيء ، ولا قـدرة لمخلوق على الاختفـاء أو الاختباء من وجـه شعاعـه ، فقد عـزا إليها البـابلي القديم معـرفة كـل شيء . والأهم في كل شيء ظهور نفس الشـرير والمؤذي واضحـة كضوء النهـار . وعزا إليهـا أيضاً فضيلة الصلاح والإستقامة ، ومعرفة العدالة من الظلم . أو قل نظر إليهـا كقاض يفـرق بين الخير وبين الشر . بين الحق وبين الباطل . ولذلك فهي تحمي الضعفاء والأبريـاء من ظلم الأشرار والأقويـاء . وهكذا صـار قرص الشمس المشـع رمز العـدالة ، فحين دوّن الكـاتب قوانين أمورابي على نصبه المشهور ، وضع في أعلاها قرص الشمس المشع ، وكأنه يوحي إلى الناظرين إليها أو الآخذين بها أن أمورابي استمد قوانينه من سيد العدالة (الشمس) . أو أنه جعل العدالة تشرق في الأرض كالشمس .

هـذا هو الله بمفهـومنا اليـوم (العقد الأخيـر من القرن العشـرين) : الله ملك السمـاء والأرض . سيّـد الأقدار . هـو القاضي الجبـار للسماء والأرض . الله سيـد الرحمـة يحمي الضعيف ويـرفع المهـان . يقف قـرب المـريض ، ويعـاقب الشـريـر الـذي يفلت من يـد العدالة ، يعرف أفكار الناس وينقذ الغريق من بين الأمواج . الله يهدي الكائنات الحية إلى

الطريق القويم ، ويصاحب المسافر في الطريق . ولا تزال عبارة «الله معك» حتى اليوم على كل لسان في سوريا الطبيعية ، تُقال للمسافر وللخارج من بيته في طريق ما .

وفي مفهومه «أن «السيد» «العالي» - (الله) يغفر أخطاء الإنسان ويقبل توبته الصادقة وابتهاله الحار . ولهذا كثيراً ما نقع على ترانيم يسري فيها شعور بالذنب والخطيئة يستجير فيها رافعوها بالتوسّل والضراعة ، يلتمسون العفو ويتطلعون إلى العطف والرحمة من «السيد» «العالي» ، في محاولة للوصول إلى حالة من الشعور بالأمن والإطمئنان . فهذا واحد يقول : «رب ، إن ذنوبي عظيمة وأفعالي السيئة كثيرة . إني أرزح تحت أثقال العذاب ولم يبق لي قدرة على رفع رأسي . إني أتوجه إلى سيدي الرحيم : رب ، لا ترد عنك عبدك»(٤٥٦) .

وآخر يقول في ابتهال إلى ماردوك (السيد العظيم) : «يا ماردوك العظيم ، نعمتك هي نعمة أب رؤوف . صرختي لم يستجب لها أحد وهذا ما يعذبني . دعائي لم يستمع إليه أحد وهذا ما يفجعني . فأصبحت منطوياً على نفسي كعجوز . سيد الرحمة ، ماردوك ، اغفر لي ذنوبي ، أحسّ بها تثقلني . واغفر لي الذنوب التي أجهلها أيضاً . امح مآثمي وخطيئاتي . أنر شكّي وبدّد اضطرابي»(٤٥٧) .

ويبدو أن هذه الصيغة من التوسّل والتضرّع كانت تتردد كثيراً على ألسنتهم . يقول متعبّد : «سيدي ، خطيئاتي كثيرة وآثامي عظيمة . وقد ابتلاني السقم والمرض والبلية ، فضعفت ولكن لا أحد مد يده نحوي . وتأوهت ولكن لا أحد توقف بقربي . وصرخت عالياً ولكن لا أحد سمعني . سيدي ، لا تترك عبدك في مهب العواصف الهوجاء . خذ بيده . والخطيئات التي ارتكبتها حوّلها إلى الخير والصلاح»(٤٥٨) .

ويقول آخر :

«أي سيدي ، لا تنبذ عبدك
لقد ألقي بي في الوحل ، فخذ بيدي
والذنب الذي اقترفته قابله برحمة
والخطيئة التي ارتكبتها، فلتبددها الرياح
واخلع عني ذنوبي الكثيرة كما يخلع الثوب
امح عني مآثمي
وليكن قلبك رحوماً كقلب الأُم»(٤٥٩) .

كان الإنسان القديم في سوريا الطبيعية يرى الخير كل الخير في الفوز برضى إلهه .

ويحيا على رجاء ألّا يتخلّى عنه إلهه . ومن هنا تكثر في ما وصلنا عنهم من تراث ، أناشيد التوبة التي تشتمل على اعتراف التائب بخطاياه ، ما يعرف منها وما يجهل . وغالباً ما تنتهي أناشيده بحمد الإله والإشادة بعظمته وجلاله . ففي نص صلاة وصلنا من مكتبة أشور بني بعل باللغتين السومرية والأكادية ، تعبير صادق عن شعور رافع الصَّلاة بذنوبه وخطاياه ، وعن رجائه بأن يشمله غفران «السيد» «العالي» ورحمته :

«يا سيدي ، الخطايا كثيرة والآثام عظيمة
الخطايا التي ارتكبتها لا أعرفها في الحقيقة
ولا أعرف الآثم الذي اقترفته
يا سيّدي الرحيم ، تقبّل مني هذه الصَّلاة واعطف عليّ»[٤٦٠] .

والذنب في مفهوم البابلي يعني التقصير في أداء واجب ديني أو اجتماعي . أو ارتكاب أحد المحرمات أتاه المذنب في غفلة عنه ، فجلب على نفسه غضب الإله . ولذلك فهو يُصلّي معترفاً بذنوبه وطالباً من إلهه الصفح والغفران :

«يا سيدي ، ما أكثر خطاياي وأكبر معاصيّ
ليسكن الغضب في صدر سيّدي ومالك أمري
وليصفح عني»[٤٦١] .

كذلك نجد في مقاطع من الصلوات والترانيم تعبيراً عن إحساس شديد بأن الذنب قد أحدث فجوة بين المستغفر وبين ربه . من ذلك مثلاً ما نجده في هذه الصَّلاة القصيرة المرفوعة إلى السيدة عشتار : «إليك صلّيت . اغفري لي ذنبي ، تغاضي عن أفعالي السيئة ، تقبلي صلواتي ، فكّي قيودي ، ارحمي ضعفي ، وليكن لي بك الخلاص»[٤٦٢] .

وما نجده أيضاً في هذه الصَّلاة المرفوعة إلى السيّد «ايل» - (الله) :

«علّ جزاء ايل يكون غفراناً
علّ عبثي وطيشي يكون منسياً
يا ايل أدر وجهك نحوي
تقبل صلاتي
يا سيّدي الشفوق استمع إليّ
إذا فاجأني الموت في أي وقت فكن راضياً عني»[٤٦٣] .

وفي هذه الصَّلاة المرفوعة إلى السيدة عشتروت :

«يا سيدتي انظري إلي وتقبلي صلاتي
علّ ذنوبي تكون مغفورة ، وآثامي تكون منسية
علّ بلائي يكون غير مقيّد (معي)
وقيودي تكون مكسورة
علّ الرياح السبع تحمل تعبي
على طيراً يقتلع قلقي وأوجاعي ويرفعها بعيداً إلى السماء
على سمكة تحمل ألمي وكربي ، والنهر ينقلها إلى البعيد
على المياه المتدفقة في النهر تغسلني
تجعلني نقياً كعشبة العطر
متوهجاً كحجر النار
علّني أكون قدامك نقياً كريماً
فتمسحين عني التعب ، وتحمين روحي»(٤٦٤) .

وإلى السيد «ايل» ـ (الله) أيضاً :

«ساعدني يا ايل على العبور فوق جسور العناء والقلق
علّني اكتسب الرحمة بالقرب منك
ابعث لي حلماً يبشّر بالخير ودعني أره
علّ الحلم الذي أراه يكون جيداً
عله يكون حقيقة ، وينقلب إلى عطف ورعاية
سأمجّد عظمتك وعلاك
وسأبالغ بالتمجيد»(٤٦٥) .

وكان «السيّد» «العالي» في مفهومهم أباً للإنسان رؤوفاً رحوماً . وأُماً عطوفاً تفعل الخير وتنصح به . كان انتصاراً لروح الإنسان على المادية البحتة ، وتكريساً لفكرة الخير والبركة التي أراد لها الإنسان القديم في سوريا الطبيعية أن تعم وأن تنتشر . كان فعل عناية دائمة ، وقوة ترعى شؤونه . فهم لم ينظروا إلى «السيد» «العالي» ـ (الله) كأداة تصل بهم إلى مطالبهم المادية أو السياسية البحتة (كما هي مثلاً نظرة بني إسرائيل إلى إلههم يهوه) . وإنما جعلوا منه قيمة روحية وأخلاقية سمت بالإنسان الذي آمن به . وسمت بفكرة الألوهة التي احتضنها ذلك الإنسان . ففي ابتهال وجهه غوديا ملك لاغاش (حوالي ٢٥٠٠ ق.م.) إلى سيدة لاغاش ، نن شي ، جاء قوله :

«أي سيدتي ، يا ابنة السماء الصافية

التي تنصح بكل ما هو خير
أنت تمثلين المركز الأول في السماء
وتمنحين الحياة إلى البلاد
أنت الأم التي أرست واحتضنت لاغاش
إن الشعب الذي تشملينه بنظراتك يزخر بالقوّة
والتقي الذي تنظرين إليه تطول حياته .
ليس لي أم ، فأنت أمي
ليس لي أب . أنت أبي
أنت وهبتني أنفاس الحياة
سأقيم في كنفك أعظمك وأمجدك
واحتمي بحماك يا أماه»[٤٦٦] .

وفي توجّهه إلى انليل قال متعبّد بابلي :

«يا رب العالم
يا رب الكائنات الحيّة
يا انليل السماوي ، يا أبا سومر
يا راعي الشعوب جميعها
أيها السيد الذي يوجه الإنسان
ويجعل الجماهير ترقد في سلام»[٤٦٧] .

وقال متعبد بابلي آخر :

«انليل، من يدرك قدرتك ؟
يا سيد حقول القمح ويا رب الروابي الخضراء
يا أبي انليل»[٤٦٨] .

والجدير بالذكر أن عبارة «يـا أبي انليل»[٤٦٩] تـردد كثيراً في النصـوص التي وصلتنا من حوض النهرين الأوسط (بابل) .

وفي سوريا الغربية كان الكنعانيون يشدّدون على فكرة أبوة «ايل» (الله) للبشر وعـطفه وحنوّه . فايل يظهر في ملاحم أوغاريت كأب للإنسان وكخالق . وهو يتكشّف في الحلم لمن صفت نفوسهم ويكلمهم بعطف أبوي (ملحة كرت مثلاً) .

والطريف أنهم لم يحتكروا أبـوة الإله لهم ، كمـا فعل غيـرهم من الأقوام والشعـوب

(بنو إسرائيل مثلاً) ، وإنما جعلوه أباً للبشـرية جمعـاء . وكانـوا من مبدعي وحـاملي الفكرة الاعتقادية القائلة ببنوّة النـاس للإلـه ، ومساواتهم جميعـاً في هذه البنـوّة . أي ليس ثمة من فرق طبيعي بين إنسان وآخر . وهذا تعبير عن سمو نظرتهم إلى الكون والإنسان . والأطرف أن إيمانهم لم يكن وليد خوف أو رغبة ، بل كان نتيجـة معرفـة وثيقة بـالنفس . فالكنعـاني يخاف الله خوفه على القيم[٤٧٠] . وهو يحب الله لأنه يحب الكمال . وفي الله وحده جميع الصفات الكمالية . فهو أب شفوق رحيم قادر عـادل ، وأم رؤوم تفعل الخيـر وتنصح بـه . وهو باعتبارهم برّ بمخلوقاته ، يسبغ على الجميع أفضاله . والناس يسبّحون بحمده لا خوفاً ورهبة ، ولكن بدافع الشكر لأنعمـه . وقد كـان هذا المفهـوم في أذهانهم تعبيـراً عن صفاء نفوسهم ونقاء سرائرهم . وكان انتصاراً للقيم الإنسانية العليا التي آمنوا بها ودافعوا عنها .

ولعـل الجانب المهم في هـذا المفهوم هـو أن الإنسان القـديم في سوريـا الـطبيعيـة افتـرض في «السيد» «العـالي» ـ (الله) الصفات الإنسـانية السـامية ، من استجـابة للتـوسل والضراعة إلى قابلية للعطف والرحمة . وتعامل معه كقـوة إنسانيـة «عليا» . تـوسل وضـرع إليها وقدم التقدمات ، وأعطى وبذل من ذاتـه مترقبـاً أن يأخـذ في ما بعـد وفق مبدأ العـطاء والأخذ المألوف لديه . يقول الملك نبوخذ نصر في تضرعه إلى ماردوك :

«أيها الحاكم السرمدي
يا سيّد العالم
بارك اسم الملك الذي تحب
وأرشده إلى الصراط المستقيم
أنت خلقتني
وأنت أوليتني حكم البلاد
فبحسب رحمتك يا سيدي
اسبغ على عبدك العطف والمحبة
واغرس في قلبي الاحترام لقدسيتك
وهبني ما ترى فيه الخير لي»[٤٧١] .

ويقول الملك نبو بولسّر في تضرعه إلى ماردوك أيضاً :

«يا ماردوك الرحيم
تقبّل صلاتي واسمع ندائي
أيها السيد العظيم
تطلّع إلى ما صنعته يدي من عمل نفيس

علّ البيت الذي شيدته يثبت إلى الأبد
إني أتطلّع إلى ما تعلنه شفتاك من نعمة ورحمة
راجياً أن يكون لي بعدلك ذرية كريمة
امنحني حياة طويلة وعرشاً راسخاً
علّ سلالتي تحكم إلى الأبد بسلطة عادلة وحكم نزيه
زيّن مملكتي بقوة من الثقة
توفر النجاة والخلاص للإنسان»[٤٧٢] .

وجاء في ترنيمة إلى السيدة عشتار :

«سيدتي الرحيمة
تعطي وتنعم
سيدة السماء والأرض»[٤٧٣] .

وفي ترنمية أُخرى :

«كم هو جميل أن أصلّي لك. وكم أنت مستعدة لسماع صوتي
أنت تتقدمين المظلومين والمقهورين ، وتضمنين العدالة لهم
اسبغي عليّ الرأفة والرحمة يا عشتار
وبمحبة انظري إليّ واسمعي توسلاتي
حين أتقدم إليك عسى أن تكون خطواتي ثابتة
وحين أتمسّك بحبالك عسى أن أملك الشجاعة
وإذ أحمل نيرك هبيني الخلاص»[٤٧٤] .

والواقع أن الآداب التي وصلتنا من البابليين تكثر فيها الترانيم التي تفيض بالتضرع الحار . وأكثر هذه الترانيم في صورة أناشيد توبة . جاء في تضرّع متعبد إلى سيده :

«أنا عبدك أضرع إليك وقلبي مفعم بالحسرات
انك لتقبل الدعاء الحار ممن أثقلته الذنوب
إن الإنسان الذي تنظر إليه يعيش
فانظر إليّ بعطف وتقبل دعائي»[٤٧٥] .

ومن أبلغ الشواهد الناطقة بما بلغته المعتقدات في سوريا الشرقية من نبل في التعبير والتفكير ما كان يرفعه الكاهن البابلي من صلوات في الهزيع الأخير من ليل الثاني من شهر

نيسـان ، إذ كان يغتسـل بمياه النهـر ، ثم يدخـل إلى هيكل المعبـد مرتـدياً حلة من كتـان مرنّماً :

«أي بعل، أيها الملك الرحيم ، يا رب البلاد
أنت رب الملوك نور البشر مقرر الأقدار
السماوات الرحيبة مسكنك
أي بعل ، بعينيك تحتضن العالم
بإشارة منك تسنّ الشرائع
بذراعيك تسحق الجبابرة
وحين تراهم تأخذك الرأفة بهم
تجعلهم يرون النور ويقرّون بقدرتك
يا رب البلاد، نور الأعالي ، أنت الذي يمنح البركات
من الذي لا يُناجيك ، من الذي لا يعترف بقدرتك؟ .
من الذي لا يلهج بحمدك؟
من الذي لا يمجّد ملكوتك
يا رب البلاد ، أنت تقيل العاثر من عثرته
ألا فلتغمر مدينتك بابل بالرحمة
أدر وجهك إلى معبدك (البيت العالي الرأس)
ووطّد صرح الحرية لأبناء بابل، وليكونوا موضع رعايتك» .

وفي اليوم الرابع من شهر نيسان ينهض الكاهن في الهزيع الأخير من الليل ، فيغتسل بمياه النهر ثم يرتدي حلة من كتان ويرفع إلى سيّده هذه الصَّلاة :

«أيها القدير ، يا سيّد الأعالي
رب الأقاليم ، ماردوك الذي يقرّر الأقدار
أيها الممجّد ، الرفيع الشأن، الأمير الأسمى
أيها النور المضيء ، يا ماردوك
الذي يجوب أجواز الفضاء ، يحتضن الأرض
أنت تمنح الملك الذي يخشاك الصولجان المقدس
تلطّف بمدينتك بابل
هب الرحمة لمعبدك (البيت العالي الرأس)
بكلمتك المجيدة يا سيد الأعالي

لتنشر نورك على أبناء بابل» .

ثم يتوجه بصلاته إلى السيدة :

«ممجّدة، مقدسة ، رفيعة الشأن في الأعالي
السيدة المكتسية بالنور
أنت التي تجوبين أجواز الفضاء وتحتضنين الأرض
التي تدين وتشفع
تذل القوي وتنصر الضعيف
تفك الأسير وتقيل العاثر من عثرته
باركي العبد الذي يمجّد اسمك
قرّري مصير الملك الذي يخشاك
امنحي حياة لأبناء بابل الذين يتكلون عليك
دعيهم يتحدثوا بمجدك ويمجدوا ملكوتك
ارحمي عبدك الذي يخشاك
خذي بيده في الشدائد
امنحيه الشفاء في مرضه وسرّي عنه في ألمه
علّه يقضي بقية حياته في بهجة وغبطة
ويحدّث بمجدك في شعوب الأرض»(٤٧٦) .

وفي مفهومه أن «السيّد» «العالي» يتقرّب من البشر ، فيعاملهم بمحبة ويعينهم عندما تحيق بهم الشدائد ، ويعمل على إنقاذهم من مصير معين ، ويغرس الأمل في نفوسهم ، ويسهّل وسائل حياتهم ، ويرفع من سوية الإنسان فيهم . وفي تقربه منهم يكون هو العناية والرعاية الدائمتين والمثاليتين اللتين لا تحدهما شروط ولا تخضعان لرغبات أو نزوات . فالسيدة «نن شي» مثلاً هي :

«التي تعرف اليتيم وتعرف الأرملة
وتعرف ظلم الإنسان للإنسان
وهي أم اليتيم
نن شي تعتني بالأرملة
وتحقق العدالة لأفقر (الناس)
إنها الملكة التي تحتضن الملتجىء إلى حجرها
والتي تبقى ملاذاً للضعيف»(٤٧٧) .

ويعبّر نقش لذاكر ملك حماة عن استجابة «السيّد» ـ (الله) للدعاء والتضرع :

«رفعت يدي إلى بعل شماين
وبعل شماين استجاب لي»[٤٧٨] .

وعن تقرّب «السيّد» من البشر يروي نص سومري قصة سفر جلجامش لقتل وحش غابة الأرز ، إذ يبتهل جلجامش إلى «أوتو» ـ (الشمس) بدموع حارة ، طالباً معونته :

«فيتقبّل أوتو دموعه بمثابة قربان
ومثل إنسان من ذوي الرحمة ، يريه الرحمة»[٤٧٩] .

لقد فهم «السيد» «العالي» ـ (الله) على أنه الرحمة والرأفة والعطف والحنو . فهو بلسانهم :

الأب الطيب الشفوق
سيّد الرحمة
الذي يرفع الخاضع ، ويحمي الضعيف»[٤٨٠] .

وهو الذي يسمع النجوى ويصغي إلى الشكوى . يرشد إلى الطريق القويم وإلى العمل الصالح . ينصف المظلوم ويحقق العدالة ويوفر الخلاص للإنسان ويمنح البركات وينصح بكل ما هو خير . يقيل العاثر ويرفع المهان . يشفي المريض ويحمي الضعيف . فهذا متعبّد يخاطب «السيد» «العالي» :

«اذكر عائلتي كباراً وصغاراً
ارحمني من أجلهم واجعل عونك يبلغني»[٤٨١] .

وآخر يصرخ إلى ماردوك :

«أي ماردوك ، إني أمجد قدرتك
ليلتفت قلبك صوب من يلوذ بك
لعله يرفع رأسه عالياً»[٤٨٢] .

وذاك يتوجه إلى«نن كرك» سيدة سيبار :

«نن كرك ، سيدتي الرفيعة المقام
انظري إليّ بعطف ورحمة
وليكن ما تتفوّه به شفتاك لي
حياة طويلة وقوة عظيمة»[٤٨٣] .

وآخر إلى هدد :

«ارحمني يا رب، واسمع صلاتي
اسبغ عليّ الرحمة واسكب النعمة»(٤٨٤) .

وهذا أشور ناصر بعل يستنجد بعشتار :

«انعمي عليّ بنظرتك
دعي قلبك الكبير يعطف عليّ
ولتذهب عللي بعيداً عني»(٤٨٥) .

والطريف في هذا البـاب أن الشعوب التي أنشـأت الممالـك وأرست الحضارات في الجنوب الشرقي من سوريا ، خلّفت نقـوشاً كثيـرة على صخور مبعثـرة في العراء ، تنضـح بالرغبة أو الأمل أو الرجاء الذي يعقده ناقش الكتابـة على الإله .وتعبّـر في الوقت ذاتـه عن إيمـانهم العميق بأن الإلـه يحفظ يرعى يصـون يحمي يساعـد يكـافىء يعين يسنـد يخلّص ينقذ . . وباختصار ، يحقق أمل الطالب ورجاءه . فمن النقـوش التي جمعها بـراندن(٤٨٦) من الأرض التي عمرها الثموديون مملكـة وحضارة ، نقف على نـداءات كثيرة يتـوجه فيهـا رافعوها إلى الإله ـ معقد الأمل والرجاء . والملاحظ أن النداءالواحد يتردّد أكثر من مرة وفي أكثر من نقش :

يا رضى منك المحبة والحنان
يا رضي اعطني
يا رضى أعد (فلاناً) سالماً
يا رضى ساعدني
من رضى الشفاء
يا رضى منك المعرفة
يا رضى منك السرور
يا رضى منك الشفقة
يا رضى اسبغ علي الكمال
يا رضى لطفك على ولدي
يا رضى رحمتك هي ثروتي
يا رضى أعنّي
يا رضى أنت ملجأنا

يا إيلات اصغي إليّ
يا عطرسم اسمعني فمنك يكون الشفاء
يا رضى منك المجد والقوة
يا رضى استنجد بك
يا رضى أنت المساعد
يا عطرسم اعط
يا سيدة النجاة ساعديني
يا رضى هبني محبتك
يا رضى ساعد (فلاناً)
يا عطرسم ساعدني
يا عطرسم منك الحماية
يا عطرسم اشفق
يا رضى انجدنا ، أنت الأمان

رضى هو المحبة	يا الله أنقذ (فلاناً)
يا عطرسم بارك	يا الله أنت الطمأنينة
من رضى الحماية لأجل (فلان)	يا الله منك السعادة

ومن النقوش التي جمعها جوسين[٤٨٧] من الأرض التي عمرها الأنباط مملكة وحضارة ، نقف على عبارات كثيرة من الدعاء والنداء ، في صيغ متشابهة تقريباً ، يطلب فيها ناقشوها الشفاعة أو يرجون الأمن والخير والسلام . منها مثلاً :

يا الله اعط النجاح لـ (فلان)	يا رضى ، سيدنا العالي
يا عطرسم اعط النجاح لـ (فلان)	يا رضى ساعدني
يا الله ساعدني على المضي . .	يا الله اسمح لي أن أكمل
يا عطرسم أكمل العطاء	يا إلٰهي انجدني

ومن النقوش التي جمعها ليتمان[٤٨٨] من الأرض التي عمرها الصفويون مملكة وحضارة ، نقف على نداءات كثيرة ، منها مثلاً :

يا الله خلّص	يا بعل سمين سلام
يا رضى اشمل(فلاناً) بحمايتك	يا اللات ساعدي (فلاناً)
يا رضى ساعد (فلاناً)	يا رضى نجّ (فلاناً)
يا رضى اعطنا السلام	يا اللات أرجو أن أكون سالماً
يا اللات امنحينا الخلاص	يا يثع الفرج
يا اللات امنحينا النجاة	يا رضى نجّنا من الضرر والمحن والشدّة
يا يثع امنحنا الفرج	يا رضى ساعدنا كي نبقى سالمين
يا اللات سلام	يا اللات امنحي (فلاناً) النجاح والرفاء
يا الله سلام	يا رضى نجّنا من كل شدة واجعلنا سالمين
يا الله ساعد (فلاناً)	يا اللات اشملي برعايتك من خرج في المساء

ومن النقوش الصفوية التي جمعها وينيت اخترنا النداءات[٤٨٩] :

يا اللات حماية وانقاذ	يا «ذو الشرى» سلام
يا اللات سلام	يا اللات امنحيني الطمأنينة
يا شيع القوم امنحني الراحة	يا يثع امنحني الراحة
يا شيع القوم امنحني الطمأنينة	يا اللات ويا «ذو الشرى» امنحاني السلام
يا بعل سمين امنحني الفرج	يا الله امنحني الرحمة والسّلام

يا «ذو الشرى» الحصانة من الأذى		يا عطرسم ساعدني
يا اللات امنحيني الأمن والفرج		يا الله الأمن والفرج

يا الله رعداً (تأمل في هذا النداء الرائع) .

والنقوش التي يرجو فيها كاتبوها من «السيد» أو «السيّدة» أن يشملهم أو تشملهم بالعناية والرعاية ، كثيرة جداً . خذ مثلاً ما جاء في نقش من آلاف النقوش الشبيهة به ، المنقورة على صخور مبعثرة في العراء في الجنوب الشرقي من سوريا : «المغير بن غوث خرج للبحث عن أخيه . فيا اللات اشملي بالرحمة من خرج ، وأصيبي بالعمى من يمحو هذه الكتابة»[٤٩٠] .

ومثلاً آخر في هذا الدعاء المأثور عن ملك جبيل : «أنا يحيي ملك ، ملك جبيل ، صنعت هذا إلى سيدتي بعلة جبيل ، لعلها تبارك يحيي ملك وتهبه طول حياة وتمدّ في أيامه وسنواته على عرش جبيل ، لأنه ملك شرعي (مطيع للقانون) . ولعلها تضعه في موضع الإستحسان والتأييد من شعبه»[٤٩١] .

وكثيرة هي النقوش التي تفيد أن (فلانة) من الناس رفعت «تقدمة إلى عشتروت ، سيدتها ، راجية أن تباركها في أيامها» .

وفي مفهومهم أن «السيّد» «العالي» - (الله) يسمع النجوى ويصغي إلى الشكوى . وكثيرة هي النصوص التي تفيد أن (فلاناً) من الناس رفع تقدمة إلى «السيد» لأنه سمع صوته وأصغى إلى صلاته . جاء في نقش آخر لملك جبيل قوله «أنا يحيي ملك ، ملك جبيل ، صنعت هذا إلى سيدتي بعلة جبيل لأني عندما دعوتها سمعت صوتي وأنعمت علي»[٤٩٢] .

وتتردّد كثيراً في نقوشهم عبارات من مثل «عشتروت سمعت صوتنا وصلاتنا»[٤٩٣] .

وبعد ، إن هذه النماذج من النصوص التي سلمت لنا كافية لإعطاء فكرة عن جوهر الإنسان القديم في سوريا الطبيعية ، وعن غناه الروحي ، وعن سمو نظرته إلى الخالق والكون والإنسان . وهي تعبّر عن صفاء ذلك الإنسان الذي أحسّ فأرهف وفكّر فسما ، وحقق أجمل معاني الإنسان في أجمل مثال قدمه عن «السيد» «العالي» - (الإله) الذي آمن به . وأعتقد أنها كافية للتعبير عن مفهوم جوهري لإله علوي شامل ، حمله في وجدانه وتغنّى بعظمته وأنشد علويته ولانهائيته .

«سيدي ، ملك العالم
سيد السماء والأرض الذي يقرر الأقدار
مالك الحكمة

الذي ينعم علينا بالرعاية
نجم العدالة والإستقامة
خالق نفسه بنفسه»(٤٩٤) .

ثم إن الإبتهالات التي رفعها الإنسان القديم في سوريا الطبيعية إلى «السيد» «العالي» -(الله) تعبّر عن نظرتهم للإله كجلال وعظمة وقدرة لامتناهية ، وشعورهم بقربه منهم وبأبوته وحنوه ورحمته لهم . وهي تعتبر من أجمل ما قاله إنسان في إله حين ابتهل وصلّى ورفع توقه الروحي إلى الإله الذي آمن به .

يُضاف إلى ذلك أن معتقداتهم كانت نهج سلوك ينبثق عن أخلاقهم . وكان لها بما تتضمّنه من مشاعر ومواقف إنسانية نبيلة ، أثر كبير في تقوية الدوافع الإجتماعية وتوطيد الأخلاق وبناء المجتمع على أُسس سليمة من الدوافع النبيلة والأخلاق الفاضلة . ولذلك كان الموضوع الرئيسي الذي تغنّى به شعراؤهم ونظمّوا فيه القصائد هو الفضيلة والقيم الإنسانية النبيلة .

والواقع أن مستوى الفضيلة الذي بلغته معتقدات الشعوب القديمة في سوريا الطبيعية ، لم يبلغه أي مذهب آخر ديني أو فلسفي في التاريخ .

* * *

وخلاصة القول أكرر القول إن المؤرخين والباحثين في حضارة سوريا الطبيعية يجمعون على القول بالدور الريادي الذي كان لشعوبها في تاريخ الحضارة الإنسانية . وقد ذكرت سابقاً أن البحث في المقومات الحضارية التي نهضت بالسوريين القدماء إلى ارتقاء سدة الحضارة لحقبة تتجاوز ثلاثة آلاف سنة ، واسع ومتشعب ، لا يكفيه عمر باحث ولا تستوعبه مجلدات . ولذلك كان همي التلميح إلى القيم الإنسانية العليا في الحضارة السورية القديمة ، التي تمثلت في معتقداتهم ومعطياتهم الاجتماعية ومبادئهم الخلقية . والتي كانت وما فتئت تعتبر من أكثر القيم قابلية للاستمرار في مجاراة الحياة والتعميم بين مختلف الشعوب . وكان همي الإشارة إلى التراث السوري الذي بقي حيّاً فاعلاً في لغة وتقاليد وعادات ومفاهيم ومعتقدات الشعوب في سوريا الطبيعية حتى العصر الحاضر . وهذا التراث الغني حضارياً وإنسانياً غذّى العالم القديم بكل ما في المفاهيم الإنسانية من قيم وفضائل ومناقب خلقية سامية . وظل وقتاً طويلاً الينبوع الروحي والفكري والعلمي الذي اغترفت منه شعوب الشرق المتوسطي وحوض المتوسط . ولا يزال حتى اليوم غاية النخبة المثقفة .

ولعل الجانب الأهم في الدور الريادي الذي كان لمجتمعات سوريا القديمة في تاريخ الحضارة ، هو ما أثر أو ما وصلنا عنهم من مفاهيم وأفكار (معتقدات) كانت الأُولى فيما بقي لنا من تراث ميثولوجي ، التي أشارت إلى تعرّف الإنسان إلى «القوة العالية» الخلاقة(إله) في «زمن البدء» . وإلى دور هذه القوة في عملية التكوين والخليقة ، وتنظيم الحياة على الأرض . وإلى تقرّبها من الإنسان والاعتناء به ومساعدته في التعرّف على وسائل الحضارة .

والرائع في هذا الجانب من دورهم الريادي أنهم عبّروا في نظرتهم إلى «السيد» «العالي» ـ (الله) عن مفاهيم أخلاقية واجتماعية كانت المثل الأعلى لسائر المذاهب الفكرية والدينية التي أبدعها أو وضعها الإنسان فيما بعد . وقد شكلت هذه «النظرة» و «المفاهيم» منحى اجتماعياً خلقياً واتجاهاً فكرياً إنسانياً (معتقدات) كانا خلاصة القيم والمفاهيم الإنسانية . وظلا طوال ثلاثة آلاف سنة يصونان مفاهيمهم الاجتماعية ويحميان قيمهم الخلقية . وبهما ظلت مجتمعات سوريا وقتاً طويلاً (ثلاثة آلاف سنة) المعلم الأخلاقي للبشرية .

ولكن المؤسف أو المؤلم أن عاديات الزمن وبربرية الغزاة (وما أكثر ما ابتليت هذه الأرض بالغزاة البرابرة) لم تبقيا شيئاً يفصح عن معتقدات وطقوس المجتمعات القديمة . ولم يسلم لنا من العهود التاريخية الغامضة أو النادرة الوثائق والمستندات إلاّ أسماء تحمل في تركيبها صفة القوة العالية منقوشة في صخور مبعثرة في العراء أو محفورة في ألواح من الطين سلمت من عوامل الدهر ومن سنابك خيول الغزاة . أو تسم مدناً منائر أو مظاهر في الطبيعة (جبال أنهار وديان) لم تقو على محوها العوامل الطبيعية أو الجيوش البربرية .

ومن الطبيعي أن الاسماء المضافة أو المنسوبة إلى صفة القوة العالية ، كان لها مدلول معتقدهم الديني : التقرب من «السيد» «العالي» ـ (الله) والتيمن به . ولها معان جميلة وسامية ودلالات عميقة تشي بالصفات الكمالية في المحبة والرحمة والحنان والرأفة والقابلية للعطف والإستجابة للتوسل والشعور بالواجب ، التي أسبغتها مجتمعات سوريا القديمة على «السيد» «العالي» ـ (الله) .

والجدير بالانتباه إليه أن ما نذكره من الأسماء المضافة أو المنسوبة إلى «السيد» «العالي» ، إن هو إلاّ نماذج تعبّر عن تقرّب القدماء من «السيد» «العالي»، والتيمّن به . وعن إيمانهم بأنه هو معقد الأمل والرجاء في مساعدتهم على تحقيق كل ما يندرج في حياتهم تحت عنوان : حق وخير وفضيلة .

الفعل «اش» أو «آس» في اللغة السورية العربية الأُم يعني العطاء والانعام . ولا يزال في عربية اليوم «آس يؤسُهُم أوساً وإياساً : اعطاهم . والأوس العطية» . هذا الفعل ذو المدلول الأخلاقي الرائع (اعطى إعطاء وانعم إنعاماً) أضافوه إلى «ان» (السيّد) و «ايل» (العالي) ـ (المطلق بمفهومنا) فكان لهم من الأسماء : اش ايل (يعطي ايل) أوس ان (يعطي ان) . ويبدو أن صيغة اش ايل أكادية قديمة راجت بين شعوب حوض النهرين ، وعنهم اقتبسها الإغريق . فالمعروف أن بطل الياذة هوميروس هو اش ايل «اشيل» . أما صيغة أوس أن فقد راجت في سوريا الداخلية وخاصة في جنوبها الشرقي ، وشعّت إلى العربية الشمالية فالجنوبية . واسم أوس أن (أوسان) مشهور ومتداول كثيراً في العربيتين (راجع ما تقدم في فصل المضاف والمضاف إليه) .

وعندما لحق الصفة «ايل» تطور في المبنى والمعنى (الألف الأول ق.م.) بفعل الزمان والبيئة واللسان ، فتحولت إلى «إله» فـ «الله» وأصبحت اسماً ، أضافوا إليها أوس فكان لهم اسم أوس الله .

وكان من الطبيعي بفعل طبعيتهم الأخلاقية أن يضيفوا هذا الفعل ذا المدلول الأخلاقي الرائع (أعطى وأنعم) إلى القوى العالية الأُخرى التي تقرّبت من الإنسان ، أو قل إن الإنسان شعر بقربها منه ، فكانت ، وما فتئت ، تتفق مع مشاعره وحاجاته الفردية والاجتماعية العامة . وترتبط بعواطفه وتطلعاته . فكان لهم من الأسماء : اش بعل. اش نن . اش عشترت. أوس رضى . أوس مناة. أوس اللات. أوس كرب. وما إلى ذلك .

ومن البديهي أن مدلول «أوس ايل» و «أوس ان» في مفهومهم هو مدلول «يعطي الله» ذاته في مفهومنا . لأن «ان» أو «ايل» في مفهومهم هو «الله» في مفهومنا . وقس على ذلك الأسماء جميعها المقترنة بـ «ان» أو «ايل» في مركب إسنادي أو إضافي . وكذلك الأمر في الاسماء المقترنة بالقوى العالية الأُخرى .

أرب (يكافىء يعوّض يهب يمنح ينعم على) . ارب ايل (يعوّض ايل ينعم ايل) ومدينة ارب ايل (اربيل) في حزون بلاد النهرين الشمالية عريقة في التاريخ والحضارة . وقد اسندوا هذا الفعل إلى القوى العالية الأُخرى فكان لهم من الأسماء : ارب ان . انو ارب. نبو ارب . سن ارب . ارب ماردوك. ارب داجان. وما إلى ذلك .

أ م ر (يشاء يريد) أمر ايل. واسم «امر الله» (حكم، مشيئة، إرادة الله) أصبح عبارة شائعة على ألسنة العامة في سوريا. وقد اسندوا هذا الفعل إلى القوى العالية الأُخرى فكان

لهم من الأسماء : امر اشور. امر عشتار. يثع امر. امر يغوث. امر شمش. امر بعل.

أور (يضيء يشع) أور ايل «ايل يضيء أو ضياء الله) .

ارش (يساعد) ايلو ارش (الله يساعد) . وقد اسندوا هذا الفعل إلى القوى العالية الأخرى فكان لهم من الأسماء : نبو ارش. هدد ارش. ماردوك ارش. شمش ارش. سن ارش . ارش ماردوك. ارش ان .

ا م ن (يرعى يتعهد) امن ايل (يرعى الله) .

إدّن (يعطي) ايل إدّن (الله يعطي) انو ادّن . ادّن اشور. ادّن ماردوك. نبو ادّن. ادّن داجان. بعل ادّن. ادّن عشتار.

اري (يحمي) اريئيل (يحمي الله) .

اب (يشفق) اب ايل (يشفق الله) . ومن الأسماء الأُخرى : اب بعل. ماردوك أبي. اب ان.

ب ر ك (يبارك) برك ايل (الله يبارك). وقد أصبح هذا الاسم عبارة شائعة على ألسنة العامة في سوريا الطبيعية . ومن الاسماء التي يدخل هذا الفعل في تركيبها : برك بعل. يثع كرب. كربتي انليل.

ب ش ر (يخلّص) بشر ايل (الله يخلّص) .

ب د ر (أبهج أسعد) بدر ان. بدر ايل.

ب ر ق (تألق) برق ايل. وبلدة برقايل (برق ايل) في جبل لبنان تعود إلى ما قبل الألف الثاني ق.م.

ب ل ط (ينقذ ينجّي يخلّص) بلط ايل (الله ينقذ الله ينجّي) . ومن أسمائهم : انوبلطو. بلطي بعل. ماردوك بلطو. هدد بلطو. نبو بلط. اشور بلط. شمش بلط. نرجال بلط. سن بلط .

ب ن ي (يبني يشيد) بنى ايل (الله يبني) ومن أسمائهم : يبني ان. أشور بني. نليل بني. بعل بني. شمش بني. انليل بني. بني داجان. هدد بني. نبو بني. بني ماردوك .

ب جـ ل (يُسرّ يُرضي) ايل بجل (الله يرضي. الله يُسرّ) .

ب ز ر (يحمي) بزر ايل (الله يحمي) . ومن أسمائهم : بزر انليل. بزر عشتار .

بزر أشور . بزر شمش . بزر سن .

ت م (يُتم يُكمل) تم ايل . تم بعل .

ت ي م (عبد) تيم ايل (عبد ايل) تيم ان . تيم يغوث . تيم اللات . تيم بعل . تيم الله .

ت ي د (يلطف يعطف) تيد ايل .

ث ب أو ث و ب (يكافىء) ثوب ايل . ثوب ان .

جـ ر م (ثبّت أنشأ أكمل) جرم ايل . جرم بعل . وبلدة جرمانا من ضواحي دمشق .

جـ ن (يحمي) جن ايل . جن ان .

جـ ل (يُفرح يُبهج) جل ايل . والجليل منطقة في فلسطين .

جـ د (يُسعد) جد ايل . جد ان .

جـ ر (يحيا في حماية) جر ايل . جر بعل . جر عشترت . جر ملقارت . انليل جر .

جـ ب ر (يقوّي يشدّد يعزّز) جبر ايل (أيل يقوّي) وهذا الاسم شائع في سوريا الطبيعية . ومن أسمائهم جبر ان .

جـ م ل (كافأ جازى) جمل ايل (الله يكافىء) . ومن اسمائهم : نبو جمل . انو جمل . جمل ان . جمل ماردوك . شمش جمل . نرجال جمل . سن جمل . جمل هدد . جمل عشتار .

حـ ي (شفى ، بعث حياً ، أبقى على قيد الحياة) حي ايل (الله يحيي) . وحايل (حي ايل) واد في العربية الشمالية اشتهر بكثرة مياهه وخصب أرضه ، قامت فيه مدينة حايل (حي ايل) . ومن اسمائهم : حي ان ، مشهور وكثير الورود في العربية الشمالية . حيو عشتر . يحيي ملك .

حـ ن (رأف عطف) حن ايل (الله يحن يرأف يعطف) . ومن أسمائهم : حن ان . حن ون . حنّي بعل . حنن انليل . عشترت حن . اشمون حن . يشع حن . عناة حن . ملقارت حن .

حـ ر (يُسعد يُسرّ) حر ايل (الله يسعد) . ومدينة حرّ ان في الشمال السوري عريقة في التاريخ والحضارة . ومن أسمائهم : يحر بعل .

حـ ل ق (يعطي يهب) حلق ان . اشمون حلق (السماء تعطي أو تهب أو تقسم) . لا

يـزال المثـل السـائـر على الألسنـة في الـريف السـوري حتى اليـوم «في السمـا قسمتنـا ، نصيبنا» .

حـ ق (يعدل) حق ايل . حق ان .

حـ ص ر (يحمي يصـون) حصر ايـل (يحمي ايل) وبلدة حصـر ايل في جبـل لبنـان قديمة ومشهورة .

حـ ر م (الحرم ما لا يحل انتهاكه . شيء مخصّص لوجـه الله) . حرم ايـل . ومدينـة حرم ايل (تل حرمل) ستة أميال إلى الشرق من بغداد . عريقة في التاريخ والحضارة . ومن اسمائهم : حرم ان . حرم ون . وحرمون جبل في فلسطين .

حـ ل م (تعـافى ، شفي ، تـقـوّى) حلم ايـل (الله يـقـوّي . الله يشـفي) . ومـن اسمائهم : حلم ان .

حـ ز (يعـطف يرعى) حـز ايل (يعـطف الله) . وحز ايـل ملك دمشق الأرامي (القرن الثامن ق . م .) . ومن اسمائهم : حزيون . يحز بعل .

حـ ز ق (يقوّي يعزّز) حزق ايل .

حـ م ي (يحمي) حمي ايل (الله يحمي) . ومن اسمائهم : انليل حمو . بعل حمي . ايل حمي . يحمي ايل . حم ان . وبلدة حمّانا في لبنان قديمة ومشهورة .

حـ م د (يجمّـل يحسّن) حمد ايـل . حمد ان . حمـدون . وبلدة بحمدون في جبـل لبنان قديمة .

خـ ب ص (يُفرح ، يُسرّ ، يُبهج) خبص ايل . (الله يُسرّ ، يُبهج) . ومن اسمـائهم : خبص بعل .

خـ ق ب (يحمي) خقب ايل . خقب ان .

خـ ت ن (يحمي) ختن ايل . ختني داجان . ختن مناة .

خـ ل (الحبيب ، الخدين ، الصاحب) خل ايل . والخليل مدينة في فلسطين . ومن أسمائهم : خل كرب .

دان (يقضي) دان ايـل (يقضي الله) . ومـن أسمـائـهم : دانـي ان . اشـور دان . بعل دان . دان نرجال . انليل دان . ماردوك دان . شمش دان . سن دان . ايلات دان .

د م ق (يعطف يرحم) دمق ايل . اشور دمق . سن دمق . انو دمق . شمش دمق .

ذ ك ر (يذكر، يفطن إلى) ذكر ايل. ذكر ان. ذكر عشتار. ذكر بعل. ماردوك ذكر. نبو ذكر. ذكرت ايلات .

ذ م ر (يحمي) ذمر ايل. ذمر ان. ذمر داجان . ذمر عشتار. ذمر بعل. ذمر كرب .

ذ ر أ (يكثر) ومنه «والله يذرأكم فيه» أي يكثركم بالتناسل . ذرأ ايل. ذرأ ان.

ذ خـ ر (يحفظ) ذخر ايل. ذخر ان.

ر حـ م (يشفق ، يعطف على) رحم ايل. رحم ان . رحم ون .

رام (يُعلي ، يرفع) رام ايل. رام ان. رام ون. بعل رام. رام هـدد. ومدينة رام الله في فلسطين قديمة وعريقة .

رب (يزيد، ينمّي ، يكثر) رب ايل (الله يزيد) رب ان. أشور ربي. رب شمش. هدد ربي.

ر ف أ (يشفي) رفأ ايل. رفأ ان.

ر ض و (يرضى) رضو ايل. رضو ان. رضو اللات .

ر عـ و (يرعى) رعو ايل كاهن مديان ، لجأ إليه موسى بعد هربه من مصر . ومن اسمائهم : انو رعو. شمش رعو.

ر ش د (يعدل) رشد ايل.

ز ي د (يزيد) زيد ايل (الله يزيد) . وبلدة زيدل (زيد ايل) من ضواحي حمص قديمة . ومن اسمائهم : زيد ان. زيد ون. انو زيد. زيد اللات. زيد مناة . زيد ذو غابة. زيد الله .

ز ب د (يمنح ، يهب) زبد ايل. زبد ان. زبد ون. زبد بعل . وبلدة زبداني (زبد ان) إلى الغرب من دمشق .

ز ي ن (بهاء) زين ايل. زين ون. وزينون الكنعاني (حوالي ٣٣٢ ق.م.) رائد الفلسفة الرواقية . وفي سهل البقاع في سوريا الغربية بلدة دير زينون .

س عـ د (يعضد يقوّي يسند يعين يساعد) سعد ايل (الله يساعد) ومن أسمائهم : سعد ان. سعد ون. سعد اللات. سعد عثتر . سعد مناة. سعد عشتار. سعد الله .

س ل م (يحفظ يصون) سلم ايل (الله يحفظ) . ومن اسمائهم : سلم ان. سلم ون. سلم اللات. بعل شلم. اشمون شلم. شلم اشور. ماردوك شلم. نابو شلم.

شمش شلم. نرجال شلم. شلم هدد. انو شلم.

س ك ر (يعطف يرعى) سكر ايل. سكر ان.

س م ك (يؤازر يدعم يسند) سمك ايل.

س م ح (يسامح) سمح ايل. يسمح ان. يسمح داجان. انو شموح. يسمح بعل.

ش م ت (التشميت والتسميت الدعاء بالخير والبركة). شمت ايل.

ش ب ع (في اللسان الكنعاني: أشبع: أرضى، رضي. رضا. قناعة. اكتفى. وفي اللغة العربية: سبّع الله لك أعطاك أجرك سبع مرّات أو سبعة أضعاف). قالوا: سبع ايل. شبع ايل. شبع ان.

س م ع: سمع ايل. يسمع ايل. سمع ان. شمع ون. شمع بعل. ملقارت شمع. هدد اشمعني. انو اشمعني. شمش اشمعني. والملاحظ أن اسم سمعان ساد في سوريا الشمالية. وساد اسم شمعون في سوريا الغربية والجنوبية الغربية. وساد اسم يسمع ايل (إسماعيل) في سوريا الوسطى والجنوبية، ومن ثم في العربية الشمالية.

س ك ن (يهتم يرعى يعنى) سكن ايل. سكن بعل.

س م ر (حفظ صان حمى) شمر ايل. شمر ان. شمر بعل. شمرون. اشمون شمر.

ش م (اسم) شم ايل (اسم الله) وشم ايل كثير الورود في العربية الشمالية، أذكر من ذلك اسم النضر بن شميل. ومن أسمائهم المركبة: أنو اشمو. اسم ان. اشم ون. واشمون بلدة في جبل لبنان. ماردوك شم. نبو شم. اشم داجان. هدد شم. عشتار شم. سمو عشتار. سمو داجان. ومدينة سم ايل في الشمال الغربي من سوريا عريقة في التاريخ والحضارة.

ش ب ط أو ش ف ط (يقضي) شبط ايل. شبط ان. شبط بعل.

ش جـ ب (ارتفع. سما. اشتد ساعده) ايل شجب (الله يقوّي).

ش ل ك (يعيل يعضد يزوّد) شلك ايل. بعل شلك. اشمون شلك.

ش د (يقوّي) ايل شدّاي. شد ملقارت.

ش ا ن (يحمي، يصون) شان ايل (الله يحمي). شان ان. وبلدة بيت شان (بيت

الأمن ، بيت السلام) في فلسطين عريقة في التاريخ والحضارة . وقد حرّف الاسم إلى بيسان .

ش ا ر : في اللغة السورية العربية الأُم يعني السيد الكريم الشريف السخي . وفي عربية اليوم «سرا الرجل يسرو سرواً . وسري يسرى : كان سرياً أي ذا مروءة أو شرف ، أو ذا سخاء في مروءة . والسري السيد الشريف السخي» . والفعل «شره» في اللسان الكنعاني يعني أنقذ خلّص . وفي العربية يَسُر الأمر سهل . ويسّر الله لفلان سهّل له . هذا الاسم أو الفعل ذو المدلول الأخلاقي الرائع أضافوه إلى «ايل» فكان لهم من الأسماء : شار ايل. ايل يسر (ايليسار) . وايليسار الكنعانية أُخت ملك صور ومؤسسة قرطاجة في ساحل المتوسط الجنوبي (٨١٤ ق.م) . ومن أسمائهم : شارون . سار اللات. ماردوك شار .

ص د ق (يعدل ينصف) صدق ايل. صدق بعل . ادون صدق. يصدق ان. ملكي صادق، ملك شاليم (السلام) أور شليم (مدينة السلام) كان كاهناً لايل العلي. بارك ابرام (تكوين ١٤ : ١٨) عندما جاء باغنامه متغرّباً في أرض فلسطين .

ص ي د (زوّد أمدّ موّن) صيد ايل . ومدينة صيدون على الساحل السوري عريقة في التاريخ والحضارة .

ص ل ح (يُنجح) صلح ايل. صلح ان . بعل صلح .

ص م د (يقي يكفل يضمن) صمد ايل. بعل صمد .

ط ب (جوّد) طب ايل . أشور طب. طب عشتار . شمش طب .

ط هـ ر (طهّر نقّى) طهر ايل .

عـ ز (قوة بأس ملاذ) عز ايل (الله يقوّي ، يعزّز) عزّ ان . عزّ بعل . عشتار عز . وبلدة عزّ ون في جبل لبنان عريقة في التاريخ والحضارة .

عـ د ن (أبهج أسرّ) عدن ايل . عدن ان .

عـ ل (يعلي) عل ايل . علي ان

عـ زر (في اللغة السورية العربية الأُم يعني أعان وساعد . وفي عربية اليوم أيضاً : أعان وقوّى ونصر . وفي القرآن ـ سورة الفتح : **﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه﴾** . هذا الفعل ذو المدلول الأخلاقي الرائع أضافوه إلى «ايل» (العالي) و «ان» (السيد) فكان لهم من الاسماء : عزر ايل. عزر ان. وكان من الطبيعي ، بفعل طبعيتهم الأخلاقية أن يضيفوا

هذا الفعل إلى القوى العالية الأُخرى التي تقرّبت من الإنسان ، أو قل إن الإنسان شعر بقربها منه ، فكان لهم من الأسماء : عزر بعل. اشمون عزر . هدد عزر . عشترت عزر . ملكي عزر . عزر ملقارت .

عـ و ذ (ينقذ يساعد يعين ، ملاذ مأمن) عوذ ايل. عوذ ان . عوذ مناة . عائذ اللات .

عـ ر م (كدّس كوّم) عرم ايل . عرم ان . وعرم ون بلدة قديمة في جبل لبنان .

عـ م (مع ، بجانب) عمّي ايل (الله معي أو الله معك) . ومن اسمائهم : عمّ ان. عمّ ون. عمّ كرب . عمّ اللات. عمّ يثع. ومدينة عمّ ون (عمان الحالية) في حوض الأردن عريقة في التاريخ والحضارة . والمسيح دعي عمانوئيل الذي يعني «الله معنا» ـ متى ١ : ٢٣ .

عـ م س (يزوّد بوفرة) عمس ايل . بعل عمس. اشمون عمس. ملقارت عمس.

عـ ص م (يقوّي يعزّز) عصم ايل. عصم ان .

عـ ب د (خادم) عبد ايل. عبد ان . عبد ون . عبد شمش . عبد بعل . عبد اشمون. عبد رضا. عبد اللات. عبد مناة. عبد ملقارت. عبد يثع. عبد ادون. عبد عشترت. عبد يغوث. وما إلى ذلك. وعبدون من بلدات فلسطين القديمة .

غـ وث (فرّج عن) غوث ايل. غوث ان .

فـ ص ي (أنقذ خلّص) فصي ايل .

فـ و ر (يخصّب يفيض) ايل فور .

فـ ر ز (أفرد ميّز) فرز ايل. وبلدة فرزل (فرز ايل) في سهل البقاع بين سلسلتي جبال لبنان .

قـ ر د (ينصر يؤيد) قرد ايل . انو قرد. شمش قرد. بعل قرد.

قـ ر ن (مجد، قوة) قرن ايل. وبلدة قرنايل (قرن ايل) في جبل لبنان قديمة .

ك ف ر (يغفر يسامح يصفح) كفر ايل (الله يسامح) .

ل جـ ا (ربط جمع) . «لجان» موضع قريب من تيماء في الطريق من دمشق إلى مكة . ذكره الشاعر الراعي :

فقلت والحرة الرجلاء دونهم ... وبطن لجان لما اعتادني ذكري

ولجون بلدة قريبة من طبريا في فلسطين .

م ن (يمنّ يفضل) منّ ايل. منّ ان. منّ ون.

م ل ك (يملّك) ملكي ايل. ملك ان. ملك ون . ملك بعل. اشور مالك. داجان مالك . شمش مالك. ملك هدد. ملك سن. انو مالك. ملك كرب .

م ا ر (سيّد) مار ايل. مار ان. مار ون. مار ذوغاية .

م أ ق (الرجاء) ايل مأق (ايل مقه) (ايل الرجاء) مأق ان.

ن ع م (يُسرّ يُرضي) نعم ايل. نعم ان . نعم مناة .

ن ظ ر (يقي يحفظ) نظر ايل .

ن ت ن (يعطي) نتن ايل. نتن بعل. اشمون يتن . ينتن داجان. عشترت يتن. أشور يتن. ملكي يتن .

ن ص ر (يصون ينصر) نصر ايل. انو نصر. نصر ان. نصر اللات. نصر بعل. انليل ناصر. ماردوك ناصر. اشور ناصر. نرجال ناصر. ناصر هدد . نبوخذ نصر (نبو يعطي النصر) .

ن و ر (ينير) نور ايل. نور ان . نور انليل. نور هدد. نور شمش. نور عشتار . نور سن. انو نوري.

ن راري (يساعد) انليل نراري . اشور نراري. هدد نراري .

هـ ر م (يعلي يرفع ينهض) هرم ايل. وبلدة الهرمل (هرم ايل) في سهل البقاع بين سلسلتي جبال لبنان .

هـ ب (يعطي يهب) هب ايل. هبني ان . وهب ان . وهب اللات . وهب شمش . وهب الله . وهب يثع .

و ت ر (يكثر يفيض) وتر ايل. وتر ان .

و س م (يجمّل يلطف) وسم ايل. يسيم داجان . يسيم ان .

و ق ر (يقدّر يُجلّ) وقر ايل. انو وقر .

ي ف ع (يشرق) يفع ايل . يفع ان .

ي ش ع (ينقذ يخلّص) يشع ايل (الله يخلّص) يشع ان . شيع اللات. شيع الله .

يثع كرب. يثع اللات .

والطريف في هذه الأسماء وأشباهها هو جمالها وسمو معانيها ودلالاتها العميقة التي تشي بالصفات الكمالية في المحبة والرحمة والحنان والرأفة والمساعدة والقابلية للعطف والإستجابة للتوسل والشعور بالواجب التي أسبغتها مجتمعات سوريا القديمة على «السيد» «العالي» ـ (الله) . واسمحوا لي أن أُعيد على أسماعكم نماذج من الأسماء التي تعبّر عن إيمانهم العميق بأن الإله يحفظ يرعى يصون يحمي يساعد يكافىء يعين يسند يخلّص ينقذ ينعم يسعد . . وباختصار ، يحقق أمل الطالب ورجاءه . أو قل هو معقد الأمل والرجاء في مساعدتهم على تحقيق كل ما يندرج في حياتهم تحت عنوان حق وخير وفضيلة .

أوس ايل (يعطي الله)
ارب ايل (يعوّض الله)
امر ايل (إرادة الله)
أوريئيل (ضياء الله)
ارش ايل (يساعد الله)
اريئيل (يحمي الله)
ابيئيل (يشفق الله)
بدر ايل (يسعد الله)
بشر ايل (يخلّص الله)
برك ايل (يبارك الله)
يبنيئيل (يبني الله)
بجل ايل (يرضي الله)
بزر ايل (يحمي الله)
تيد ايل (يلطف الله)
تيم الله (عبد الله)
جرم ايل (يثبّت الله)
جن ايل (يحمي الله)
جل ايل (يبهج الله)
جد ايل (يسعد الله)
جبر ايل (يقوّي الله)
يحيئيل (يشفي الله)

ذمر ايل (يحمي الله)
ذكر ايل (يفطن الله)
ذرأ ايل (يكثر الله)
ذخر ايل (يحفظ الله)
رحم ايل (يرحم الله)
رام ايل (يعلي الله)
رنئيل (ينمّي الله)
رضوئيل(يرضى الله)
رعو ايل (يرعى الله)
رشد ايل (يعدل الله)
رفأ ايل (يشفي الله)
زيد ايل (يزيد الله)
زبد ايل (يمنح الله)
زين ايل (بهاء الله)
سعد ايل (يساعد الله)
سلم ايل (يسلّم الله)
سمك ايل (يدعم الله)
سمح ايل (يسامح الله)
سمع ايل (يسمع الله)
سكن ايل (يعنى الله)
سمو ايل (اسم الله)

عزيئيل (قوة الله)
عدنئيل (يبهج الله)
عليئيل (يعلي الله)
عما نوئيل (الله معنا)
عصم ايل (يقوّي الله)
عمس ايل (يزوّد الله)
عزر ايل (يعين الله)
عوذ ايل (ينقذ الله)
غوث ايل (يفرج الله)
قرن ايل (مجد الله)
كفر ايل (يغفر الله)
نظر ايل (يقي الله)
نعم ايل (ينعم الله)
نصر ايل (ينصر الله)
نتن ايل (يعطي الله)
من ايل (يفضل الله)
هب ايل (يعطي الله)
وتر ايل (يفيض الله)
وقر ايل (يُجلّ الله)
يفع ايل (يشرق الله)
يشع ايل (يخلّص الله)

حنيئيل (يعطف الله)
حصر ايل (يحفظ الله)
حزّائيل (يعطف الله)
حزق ايل (يقوّي الله)
حميئيل (يحمي الله)
خبص ايل (يبهج الله)
خقب ايل (يحمي الله)
دان ايل (يقضي الله)
دمق ايل (يعطف الله)

شمر ايل (يحفظ الله)
صدق ايل (يعدل الله)
شبط ايل (يقضي الله)
ايل شدّاي (يقوّي الله)
شانئيل (يحمي الله)
صيد ايل (يزوّد الله)
صمد ايل (يقي الله)
طبئيل (يجوّد الله)
طهر ايل (يطهّر الله)

شلك ايل (يعضد الله)
شبع ايل (يرضي الله)
سكر ايل (يرعى الله)
يشر ايل (ييسّر الله)
ايل يسر (ييسّر الله)
وسم ايل (يجمّل الله)
قرد ايل (ينصر الله)
فرز ايل (يميّز الله)
عرم ايل(يكدّس الله)

ايل ـ إله ـ الله

ذكرنا في ما تقدم أن مجتمعات الإمارات والممالك الأرامية في سوريا الوسطى والجنوبية ، والتجمّعات الأرامية ـ العربية التي أنشأت الممالك وأرست الحضارات في الجنوب الشرقي من سوريا ، حفرت الكثير من النقوش على صخور مبعثرة في العراء ، يندر أن يخلو نقش منها من اسم أو أكثر تدخل الصفة «ايل» في تركيبه . والملاحظ أن هذه النقوش تضمّنت إشارات واضحة إلى التطور الذي لحق بالصفة «ايل» في الألف الأول ق.م. من حيث البنية والمدلول .

فمن حيث البنية تتردّد في النقوش وبكثرة صيغ مختلفة للصفة «ايل» ، من مثل «ا ل ه» و «ا ل هـ ا» و «ا ل هـ ه» و «ا ل هـ م» و «ا ل هـ ي ا» . مما يعني أن الصفة «ايل» تطورت إلى اسم (إله) ، ثم أُضيفت الضمائر إلى الاسم فقيل «إلهه» و «إلههم» و «إلهي» .

ومن حيث المدلول نقف في النقوش المكتشفة على عبارات نذرية غير قليلة ، من مثل «شُيِّد هذا المعبد لشيع القوم إلهي الطيب» . «ذو الشرى إله بصرى» . «بعل شمين إله متنو» . «للعزّى إلهة بصرى» . «أقام بنو قصي هذا المعبد لإلههم بعل شمين» . ونقف على عبارات دعائية من مثل «يا الله احفظ بسلام» . «يا الله خلّص» . «يا الله اجعلني عالياً ، رفيع المقام» . «يا الله ساعد معن» . مما يعني أن الصفة «ايل» تحولت إلى اسم (إله) ، أضفته تلك الشعوب على صفات القوى العالية التي تقرّبت من الإنسان ، أو قل إن الإنسان شعر بقربها منه : شيع القوم ، ذو الشرى ، بعل شمين ، شمش ، رضى ، العزّى ، وغيرها من الصفات . أو توجّهت إليه بالدعاء أو الإستغاثة من دون ذكر للصفة .

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال : كيف تطورت صيغة «ايل» إلى «إله» فـ «الله» ؟ . وفي مفهوم ، وعلى لسان أي شعب من شعوب سوريا الطبيعية ، تمّ هذا التطوّر ؟ .

قد تكون الإجابة صعبة أو غير دقيقة ، لأن هذه الصيغ والعبارات تتردّد في نقوش

الآراميين في سوريا الوسطى والجنوبية ، وفي نقوش الأنباط والصفويين والثموديين في الجنوب الشرقي من سوريا . وفي النقوش المكتشفة في العربية الشمالية أيضاً .

وفي محاولة الإجابة نشير إلى جملة أُمور :

١ ـ إن في اللسانين الأرامي والعربي ميلاً إلى مدّ الصوت . فالفرد الأرامي يميل في حديثه إلى اطلاق الأصوات الممدودة . ولا تزال هذه الخاصة على ألسنة المجموعات ذوات الأصوات الأرامية أو التي تعيش في قُرى أرامية الأصل في سوريا الطبيعية . فأنت إذا أصغيت بانتباه إلى متحدثيهم تأخذك الدهشة من كثرة الكلمات الممدودة الأحرف الصوتية تتردّد على ألسنتهم ، خاصة في مواقف الخطاب أو النداء ، من مثل : خيّاه (يا أخي) بيّاه (يا أبي) أمّاه (يا أمي) . وفي مواقف التحسّر والإستغاثة والندبة : يا سعداه ويا حظّاه (يا سعدي ويا حظي) . وفي خطاب سعده ووطفة وليلى ونعيمة مثلاً تسمعهم : سعداه ووطفاه وليلاه ونعيماه .

وفي العربية نلمس خاصة مدّ الصوت وتراخيه في مواقف النداء (البعيد) والخطاب (القريب) والندبة والإستغاثة . وقد كتب اللغويون العرب (ابن جنّي مثلاً) في أصوات الحروف : مخارجها ، وصفاتها : المهموس والمجهور ، الشديد والرخو . وكتبوا في الحركات وعلاقتها بحروف المدّ . ورأى أُولئك اللغويون أن الإستغاثة نداء لطلب العون والمساعدة ، أي نداء موجه إلى من يخلّص من شدّة واقعة بالفعل ، أو يعين على دفعها قبل وقوعها . وأن من خصائص المنادى المستغاث أن يختم بألف زائدة لتوكيد الإستغاثة .

يا يزيدا لآملٍ نيلَ عزّ   وغنى بعد فاقة وهوان

وأن يختم المنادى المندوب بالألف الزائدة لتأكيد التفجّع أو التوجّع (واكبدا) . وقد تلحقها هاء السكت (واسيداه) .

٢ ـ إن حروف المدّ واللين في اللسانين (الأرامي والعربي) هي الألف والواو والياء . ولكن الألف أمدّهن صوتاً وأنداهن وأشدهن ابعاداً (أنآهن) ، كما يقول ابن جنّي في الخصائص .

٣ ـ ومن الطبيعي أن تكون الألف اشباعاً للفتحة التي قبلها إذا مدّ الصوت بها (يا ايلا) . وهذه الألف تسمّى ألف الاطلاق لأنها تطلق الحرف من عقال التقييد وهو السكون إلى حال الحركة .

٤ ـ ثم إن الهاء حرف مهموس ضعيف ، مخرجه أقصى الحلق . والألف قريبة من الهاء في المخرج .

٥ ـ والهاء التي تلحق لبيان الحركات تسمّى هاء الوقف أو السكت (يا إيلاه) .

٦ ـ ثم حذفوا الياء الساكنة استثقالاً لها بين متحركين مكسور ومفتوح (يا إلاه) .

٧ ـ ويبدو أنهم لم يستسيغوا المدّ المفتوح بعد همزة مكسورة . فلما تركوا الهمزة حوّلوا كسرتها إلى لام مفتوحة . وعندما التقى لامان متحركان أدغموا الأُولى في الثانية ، فقالوا (أللاه ـ الله) .

واللغوي العربي الوحيد الذي أشار إلى تطور «الله» من إلاه هو ابن منظور (٦٣٠ ـ ٧١١ هـ) قال «وروى المنذري عن أبي الهيثم أنه سأله عن اشتقاق اسم الله تعالىٰ في اللغة . فقال : كان حقه إلاه ، أُدخلت الألف واللام تعريفاً فقيل ألإلاه . ثم حذفت العرب الهمزة استثقالاً لها . فلما تركوا الهمزة حوّلوا كسرتها إلى اللام التي هي لام التعريف . وذهبت الهمزة أصلاً ، فقالوا ألِلاه . فحركوا لام التعريف التي لا تكون إلاّ ساكنة . ثم التقى لامان متحركان فأدغموا الأُولى في الثانية ، فقالوا الله» . ويتابع ابن منظور «قال أبو الهيثم : فالله أصله إلاه»[٤٩٥] .

الملاحظ أن ابن منظور لم يشر، والأحرى لم يهتدِ ، إلى أصل «إلاه» ، أو المصدر الذي اشتق منه «إلاه» . ثم انه يخلط في تخريجه بين «الإله» وبين «الله» . فأل التعريف دخلت على «إله» عندما تحولت صيغة الصفة «ايل» إلى اسم . قالوا ونقول «الإلٰه» . أما أل في «الله» فليست أل التعريف كما يزعم ابن منظور ، وإنما هي اللام المحوّلة عن الهمزة المكسورة أدغمت في اللام الأصلية كما ذكرنا ، ولذلك جاز نداء «الله» . نقول يا الله .

واعتقاد اللغويين العرب بجواز نداء «الله» على اعتبار أن أل هي أداة تعريف، هو من باب الغلط، لسنا في وارد الرد عليه الآن .

وعندما تحوّلت الصفة «ايل» ـ (العالي) في مفهوم شعوب سوريا الوسطى والجنوبية الشرقية إلى اسم ، وتطورت صيغتها على ألسنتهم إلى «الله» ، كان من الطبيعي أن يقترن الاسم «الله» في تركيب أسمائهم . فمن النقوش الأرامية المكتشفة في الجنوب السوري[٤٩٦] وقفنا على أسماء كثيرة ، منها مثلاً : مار الله . هنا الله . رضى الله . مرام الله . سلم الله . سعد الله . حرم الله . حي الله . غوث الله . بنى الله . ودع الله . زيد الله . وهب الله . تيم الله . معنا الله .

ومن النقوش التي جمعها وينيت وهاردنج[٤٩٧] من حوض الأردن وقفنا على اسماء ، منها : غاد الله . معن الله . عبد الله . تيم الله . دان الله . مار الله . ثرم الله . وهب الله . هنا الله . أوس الله . سعد الله . قين الله . عطا الله .

ومن المناطق التي عمرها الأنباط ممالك وحضارات ، جمع كانتينو[٤٩٨] كثيراً من النقوش ، وقفنا فيها على اسماء ، منها : أمت الله . جرم الله . وهب الله . زيد الله . حبّ الله . حي الله . حلف الله . معنا الله . عبد الله . شيع الله . شكر الله . شلم الله . نصر الله . مقام الله .

ومن النقوش التي جمعها ليتمان[٤٩٩] من مناطق ثمود وصفا ، وقفنا على أسماء، منها : أوس الله . سعد الله . تيم الله . وهب الله . رضى الله . شيع الله . سلم الله . نصر الله .

والتي جمعها وينيت وريد[٥٠٠] من مناطق تيماء والعلا والجوف : مار الله . سلم الله . سعدالله . أوس الله . حي الله .

والتي جمعها جوسين[٥٠١] من مناطق العلا ومدائن صالح وحرة تبوك : وهب الله . حلف الله . سعد الله . معن الله . تيم الله . مار الله . عطا الله . هني الله .

والتي جمعها كاسكل[٥٠٢] وبراندن من منطقتي لحيان والحجاز : خير الله . علي الله . حلف الله . جرم الله . غاض الله . نور الله .

والطريف هو تعدّد الأسماء المضافة إلى «الله» في النسب الواحد ، والأمثلة كثيرة، نذكر منها :

سعد الله بن وهب الله	وهب الله بن مار الله
أوس الله بن وهب الله	وهب الله بن مالك بن وهب الله بن مار الله .
سعد الله بن عبد الله	

ومن الطبيعي أن الأسماء المضافة إلى «الله» كان لها في مفهومهم مدلول معتقدهم الديني : التقرب من الله والتيمّن والتبرّك به . ولها معان جميلة وسامية، ودلالات عميقة تشي بالصفات الكمالية في المحبة والرحمة والحنان والرأفة والقابلية للعطف والاستجابة للتوسل والشعور بالواجب ، التي أسبغتها مجتمعات سوريا القديمة على الله . من أمثلة ذلك :

رضى الله (يرضى الله)	جرم الله (يثبّت الله)	أوس الله (يعطي الله)
سعد الله (يسعد الله)	شيع الله (يخلّص الله)	تيم الله (عبد الله)
وهب الله (يعطي الله)	دان الله (يقضي الله)	

وقس على ذلك الأسماء : عبد الله . عطا الله . سلم الله . زيد الله . بنى الله . معنا الله . حي الله . نصر الله .

خاتمة

أشرت في مواضع متفرقة من هذا البحث إلى الدوافع التي دعتني إلى الكتابة في مفهوم العالي (ايل ـ الله). وبقي عليّ أن أُشير في خاتمة البحث إلى دوافع أُخرى هي باعتباري على جانب كبير من الأهمية . فالمعروف أن علماء الآثار والمؤرخين الغربيين أجادوا في فك رموز الأبجديات القديمة في سوريا الطبيعية ، وبالتالي في قراءة النصوص والنقوش التي كشفت عنها الحفريات في بعض منائر الأرض السورية . وكتبوا في جوانب كثيرة من تاريخ الحضارة السورية . وتميّزت أبحاثهم بالدقة الموضوعية والتحليل العميق في كثير من الأحيان . ولعل الجانب الحضاري الذي نال القسط الكبير من اهتمامهم هو جانب المعتقدات أو ما يطلقون عليه هم أنفسهم جانب «الدين» أو «الديانات» . والمؤلفات التي وضعها الباحثون الغربيون في موضوع الديانات كثيرة، خذ مثلاً منها :

الديانة البابلية	J.Bottéro, La religion Babylonienne, Paris 1952
نصوص دينية سومرية	E. Cheira, Sumerian religions texts, 1924
ديانات البابليين والأشوريين	E. Dhorme, Les religoins de Babylonie et Assyrie, Paris 1945
الديانات الشرقية القديمة	-, Les anciennes religions orientales, Paris 1949
ديانات الفينيقيين	R. Dussaud, La religions de Phoéniciens, Paris 1945
مسألة التشابه في ديانات الشرق المتوسطي القديمة	H. Frankfort, The problem of similarity in ancient eastern religions, Oxford 1945.
ديانة التدمريين	J.G.Février, La religion de Palmyréniens, Paris 1931
ديانة البابليين والأشوريين	S.H.Hooke, Babylonian and Assyrian religion, Oklahoma 1975
ديانة بابل وأشور	M.Jastrow, The religion of Babyonia and Assyria, Boston 1898

مظاهر من المعتقدات والممارسات الدينية في بابل وأشور — -, Aspects of religions belief and practice in Babylonia and Assyria, London 1911

ديانة السومريين — Ch.F.Jean, La religion Sumérienne, Paris 1931

ديانة ما قبل التاريخ — E.O.James, Prehistoric religion, 1959

تاريخ الديانات — G.Moore, History of religions, N.Y. 1920

محاضرات في ديانة الساميين — W.R. Smith, Lectures on the religion of semites, London, 1927

ديانات الساميين — -, The religions of the semites, 1994

مقدمة إلى تاريخ الديانات — C.H.Toy,Introduction to the history of religions, Oxford 1926

ديانة بابل وأشور — A.Ungand,, Die religion der Babylonier und Assyrer, Jena 1921

ديانات العالم القديم — G.Rawlinson, The religions of the ancient world. N.Y. 1883

نماذج في الديانة المقارنة — M.Eliade, Patterns in comparative religion, London 1976

الديانة في فلسطين القديمة في ضوء العلوم الآثارية — S.A.Cook, The religion of ancient Palestine in the light of archaeology, 1930

نصوص دينية أشورية وبابلية — J.Gray, Assyrian and Babylonian religion texts

والملفت للنظر أن أولئك المؤلفين صنّفوا أبحاثهم في معتقدات الشعوب القديمة في الشرق المتوسطي تحت عنوان «الدين» أو «الديانات» . وخلطهم بين مفهوم «المعتقدات الطبيعية» وبين مفهوم «الديانات الوضعية أو التاريخية» غفلة أو إغفال ، سهو أو غلط ، قصور أو تقصير ، سمّه ما شئت . فمن الواضح أن معتقدات الشعوب القديمة في الشرق المتوسطي هي معتقدات طبيعية ، أي فعل عقلي . فعل تأمل في الحياة وفي ما وراء الطبيعة . فحين بدأ الإنسان القديم في سوريا الطبيعية يتأمل في الكون والحياة ، تكشّف له الكائن المطلق من خلال الظاهرات الكونية . وظهر له مفهوم «ان» ـ (السيّد) أو «العالي» ـ (ايل ـ الله) في شبه تواجد حميم مع الطبيعة .

والطريف أنه لم يحاول حصر هذا «السيّد» «العالي» في مفهومهم ، و «المطلق» «الله» في مفهومنا ، بصياغة ما تدل عليه ، تلمّح إليه . ولم يعطِ له أي ملمح ولم يلبسه أي

قناع ، ولم يجعله موضوعياً بأي صنم . وإنما حافظ على الشعور بأن «السيد» «العالي» ـ (المطلق ـ الله) ليس موضوعاً يستطيع مراقبته أو التقاطه . وإنما هو حقيقة بعيدة المنال ، سرّ لا يسبر . وهو مرعب بقوته وأليف بقربه في آن معاً ، وذلك ما عُبّر عنه بالإجلال والحب .

وعندما نقول إن معتقدات الشعوب القديمة في الشرق المتوسطي هي معتقدات طبيعية ، يعني أن لا أُسس تاريخية لها . والوثائق المكتشفة في المنطقة لا تشير إلى مفهوم ما ، اصطلح الدارسون على تسميته «ديانة» . وما يشتمل عليه مفهوم «الديانة» من مبادىء وقواعد وأقيسة ومصطلحات ، طقوس وشعائر ، تنظيمات وعمليات تبشير . وما يرافقها من نصوص تعليمية تساعد على توضيح المفهوم ـ جوهر الدعوة الدينية . ولا تشير الوثائق أيضاً إلى تسجيل لتلك الشعوب معتقداتها في ما صار يسمى في المفهوم المعاصر «كتاباً مقدساً» .

أما الأديان التاريخية أو الوضعية (أي التي وضعها فرد . موسى مثلاً وضع أول ديانة تاريخية ـ اليهودية) فهي فعل إيمان . والإيمان يعني التصديق ، ولا يعني العلم . فصاحب الدعوة الدينية يقص على الجماعة أو القوم الذين توجّه الدعوة إليهم ما يعتقد أنه الحقيقة . وهم يصدقون بما قصّ عليهم ويعتبرونه كحقائق ثابتة ، لأنهم اتجهوا نحو الدعوة بقلوبهم وتفانوا فيها بوجداناتهم . ومن الطبيعي أن التصديق ، خاصة في بدء ظهور الدعوة ، يكون فعلاً وجدانياً وقائماً على الإقناع بالمعجزات .

الديانات التاريخية تُعزى بمفهوم أتباعها إلى مصدر إلٰهي . ومن هنا كان الناس الذين توجّه الدعوة إليهم يعتنقونها غير مجادلين فيها . يُضاف إلى ذلك أن المنطق الديني لا يأخذ بالعلل الطبيعية التي سلّم بها المنطق العقلي . وإنما يقوم على الإيمان بوجود قوة علوية تجب خشيتها ومداراتها لأنها ذات أهواء وتأثيرات في أفعالنا جميعها . أما المنطق العقلي في المعتقدات الطبيعية فهو حرّ ، يسعى إلى التعرّف على حقيقة «العالي» بطرقه الخاصة . وعلى حقيقة الكون عن طريق العلم التجريبي . ومن هنا كان اعتقاد القدماء في سوريا الطبيعية بأن «العالي» خلق الكون ووضع له نواميس أو قوانين طبيعية ، يسير وفقها من دون تدخّل «العالي» .

والدين الوضعي أو التاريخي مجموعة من الشعائر والطقوس والتشريعات التي تحيط بحياة الإنسان ، في أوضاع معيّنة ، إحاطة شبه تامة . وهو من جهة أُخرى مؤسسة دينية أعطت لنفسها حق الإتصال بالكائن المطلق . وحصرت بنفسها طريقة الإتصال به أيضاً . ولذلك أطلقت على «السيد» «العالي» اسماً (فالمعروف أن موسى واضع أول ديانة

تاريخية ـ اليهودية ، أطلق على الكائن المطلق اسم يهوه) . ووضعت جملة نواميس نـظرية حدّدت صفاته ، وأرست جملة القواعد العملية التي ترسم طريقة عبادته .

وباختصار ، كانت المعتقدات في سوريا الطبيعية جوهراً حيّاً ، لقاء في المفاهيم بين الأفراد والجماعات في البيئة الواحدة ، وفي ظلّها لا نعرف ما يسمى في الديانات التاريخية بالكفر والإلحاد . ولا نجد في حياة الناس ما نجده في حيـاة أتباع الـديانـات التاريخيـة من خلاف أو نزاع أو صراع .

أما الديانة الوضعية أو التاريخية فهي في الصورة أشكال وطقوس . وفي الإطار تنظيم طائفي يربط جماعة معينة بمجموعة من الشعائر والتعاليم الخاصة .

المهم أن المؤرخين الغـربيين نـظروا إلى معتقـدات الشعـوب القـديمـة في سـوريـا الطبيعية نظرتهم إلى ديانات وضعية تاريخية . ومن هذا المنطلق تـراهم في دراساتهم لتلك المعتقـدات يتحدثـون عن «إلـه» و «آلهـة» أعـداداً ومجمـوعـات ، أخـوة وأبنـاء ، مـراتب ووظـائف . . وكأن هنـاك ديانـات موضـوعة حـدّد فيها واضـع كل منهـا اسم الإله ومـرتبتـه ووظيفته وقرابته من الآلهة الآخرين . وترى الـواحد منهم يفصّـل ويركّب في أسمـاء وأعداد ووظائف ومراتب الآلهة . والأمثلة على ذلك كثيرة ، نشير إلى نماذج منها :

سموئيل هنري هوك[٥٠٣] يتحدث في كتابه «ديانة البابليين والأشوريين» عن الإله انـو Anu فيرى فيه «ملكـاً على الآلهة» King of the Gods ثم يتحـدث عن انليل Enlil فيـرى فيه «إلهاً للريح أو العاصفة» Wind or storm god . ويخصص له «وظيفة بـالغة الأهميـة» most important function هـي «حـفظ ألـواح الـقـدر» The guardian ship of the tablets of destiny . ويجعل إلى جانبه وزيراً هو إله النار نوسكو Nusku, The fire - god .

ويزعم هوك أن «انو» و «انليل» كانا معاديين للبشر . بينما كان الإله «ايا» صـديقاً لهم Anu and Enlil, both were as hostile to mankind. Ea was thought of a specially favorable to men ومن هؤلاء الثـلاثة يصنّف هـوك مجموعـة يضعها في المـرتبـة الأولى . تليهـا مجموعـة ثانيـة من ثلاثـة آلهة أيضـاً ومن مرتبـة أدنى ، تتألف من «سن» إلـه القمر ، و «شمش » إله الشمس ، و «أدد» (هدد) إله العاصفة . ويجعل من سن ابناً لانليل .

ثم يتحدث عن عشتار فينعتها بـ «الإلهة العـظيمة» great Goddess . وعن إلـه وثيق الصلة بعشتار ، كما يقول ، لكن موقعـه في مجمع الآلهـة (البانثيـون) غير واضـح ، أو قل يكتنفه الغموض ، هو دموزي السومري أو تموز البابلي . ويذكر له صديقاً هو الإله ننجزيدا الذي يعتبره هوك «من الآلهة الأدنى مرتبة في العالم الأسفل» .

وبعد أن يتحدث عن آلهة العالم الأسفل ، يلتفت إلى أشور ، فيذكر الصعوبة التي يواجهها المؤرخ أو الباحث في ردّ الاسم إلى مصدر أو صيغة . وفي اعترافه بعجزه يقول «إن من المستحيل أن نعرف يقيناً من أين جاءت التسمية» .

ثم يلتفت هوك إلى مجموعة أُخرى من «الآلهة القديمة» باعتباره Ancient gods فيذكر الإلهة تعامت والإله كنجو والإله أبسو . ثم يشير إلى الإله نبو والإله ماردوك . . وإلى آخر ما هنالك من آلهة هي من ابتكاره وتصنيفه .

والطريف في هذا التقسيم والتصنيف هو ما يزعمه هوك من عدد ضخم للآلهة . يقول «إن الخاصة المدهشة في ديانة ما بين النهرين هي العدد الضخم من الآلهة» . ويستشهد هوك بكتاب تلكفيست الذي شغلت قائمة الآلهة الأكادية فيه ما يزيد على ٢٤٠ صفحة .

والأطرف أنه لا يذكر «ايل» بين هذه الأعداد الهائلة من الآلهة في بابل وأشور .

وفي حديثه عن «أصل الكون» في مؤلفه الثاني «ميثولوجيا الشرق الأوسط»(٥٠٤) يقول «إن السماء المشخّصة بالإله «ان» ، والأرض المجسّدة بالإله «كي» اتحدتا ، ومن اتحادهما وُلد إلٰه الهواء «انليل» .

Heaven was personified as the god An, and earth as the goddess Kl, and from their union was begotten the air-god Enlil .

وباختصار ، إن ما كتبه هوك يدخل في باب التأليف ، لا في باب التاريخ ـ تاريخ معتقدات المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية . فهو يؤلف الآلهة ويضع لها الأسماء ويحدّد لها الوظائف والمراتب ويعيّن لها الأزمنة التي تلعب فيها دورها في الكون والحياة . فليس في مفهوم القدماء ، كما رأينا في ما تقدم من هذا البحث ، اسم «إلـه» ، أو جمع «آلهة» ، أو مرتبة «ملك الآلهة» ، أو صفة «الإلٰهة العظيمة» ، أو وظيفة كما فعل صاحبنا هوك حين خصّ «انليل» بالريح والعاصفة ، وأوكل إليه حفظ ألواح القدر ، وجعل إلى جانبه «وزيراً» هو إلٰه النار نوسكو ، بالإضافة إلى حاشية من الآلهة الأقل شأناً أو مرتبة والتي تخدم كحرّاس وطبّاخين ورعاة ومراسلين Who serves as door Keepers, Cooks, Shepherds, and messengers .

ولا نجد في مفهوم القدماء ما يزعمه هوك من «آلهة قديمة» وأُخرى «حديثة» . ولا إلٰهاً «معادياً» وآخر «صديقاً» . ولا تفاوتاً في درجات الآلهة أو مراتبها . ولا نجد في مفهومهم ما يزعمه هوك أيضاً من اتحاد (زواج) انو وانتو وولادة آلهة العالم السفلي

والشياطين السبعة من هذا الاتحاد . أو اتحاد السماء المشخّصة بالإله «ان» والأرض المجسّدة بالإله «كي» ، وولادة إله الهواء «انليل» من هذا الاتحاد . وباختصار شديد ، لا نجد في مفهوم القدماء شيئاً مما ألّفه هوك وجعله «تاريخاً» لِـ «ديانات» .

وكان هيلمر[٥٥٥] رينغرين أكثر تفصيلاً من هوك . فتحدث باسهاب عن كل من آلهة سومر وآلهة بابل وآلهة كنعان وآلهة أرام . وفي حديثه لم يخرج عن الإطار العام الذي حدّد المؤرخون ـ المؤلفون لأنفسهم الكتابة فيه : مجمع الآلهة (البانثيون) : أعدادها ، مجموعاتها ، وظائفها ، مراتبها ، والقرابات في ما بينها ، والأسماء المنسوبة لها . فعن آلهة سومر مثلاً يقول إن «هناك أربعة أسماء على رأس قائمة الآلهة : ان إله السماء ، انليل إله الجو ، انكي إله الماء ، ونن خورساغ الإلهة الأم» . وعن مراتبها يقول إن انليل هو «ملك السماء والأرض» و «ملك البلدان جميعها» . وإن انكي هو إله الأرض . وإن اشكور هو إله العواصف والرعود . وإن جبل Gibil هو إله النار . أما نرجال فهو إله عالم ما تحت الأرض . وكذلك هي وظيفة الإله نن أزو Ninazu .

وفي حديثه عن آلهة بابل وأشور يذكر «انليل» ناسباً إليه من الصفات : «أبا الآلهة» و «ملك الآلهة» و «القوي الجبّار» . وينسب إلى «ايا» صفة «ملك الحكمة» . وإلى قرينته «ننكي» صفة «سيدة السماء والأرض» . وإلى نن أورتا «إله العاصفة» . وإلى نرجال إله الطاعون وعالم ما تحت الأرض . . وإلى آخر ما يبتدعه من آلهة ووظائف . وعن ماردوك يقول إن اسمه يعني ابن الشمس . وعن نسبه يقول إنه ابن انكي . وإن نابو هو ابنه .

وفي حديثه عن آلهة كنعان يقول إن هناك عدداً من أسماء الآلهة . يبدأ بـ «ايل» فيقول إن أصل الكلمة غير واضح تماماً ، ولذلك يفترض لها مجموعة من المعاني : «القوي» «الجبار» «الأول» «القائد» «الرئيسي» . وفي البعل يقول إن بعل مرقود هو إله الرقص . وإن بعل زبوب هو إله الذباب . وإن بعل حمّون هو إله مذبح البخور .

الواقع أن ما ألّفه رينغرين لا يختلف عمّا ألّفه هوك . أو قل إن ما كتبه في معتقدات المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية ، يدخل في باب التأليف ، لا في باب التاريخ . فالباحث لا يجد في مفهوم القدماء ما يزعمه رينغرين من مثل «إله السماء» و «إله الماء» و «إله الأرض» . ولا يجد ما يصنّفه من مراتب أو ما ينسبه إلى (الآلهة) من صفات من مثل «ملك الآلهة» و «ملك الحكمة» . أو أنساب كقوله إن ماردوك هو ابن انكي . وان نابو هو ابن ماردوك . أو ما يخصّصه لها من وظائف من مثل «إله الطاعون» و «إله الرقص» و «إله الذباب» و . . والحديث طويل .

وجورج رولنسون[٥٠٦] كغيره من الباحثين في حضارة الشرق المتوسطي ، يبتدع الآلهة ويضع لها ما يشاء من الأسماء . وينسب الصفات ويحدّد الوظائف والمراتب لها كيفما اتفق . فليس في مفهوم القدماء ، كما رأينا في ما تقدم ، ما يزعمه رولنسون من «آلهة عظمى» وأُخرى صغرى أو أدنى . وما يصنّفه من ثالوث من الآلهة مؤلف من انو ويل وهيا أو هوا . وما يزعمه من «حرب بين الآلهة» . وما يبتكره من قرابة نسب بين الآلهة كقوله مثلاً إن انو ويل في النظام البابلي هما اخوان ، والاثنان ابنا «ايل» .

وليس في مفهومهم أيضاً أي شيء مما يزعمه رولنسون للآلهة من نعوت ومراتب . والباحث لا يقف في النصوص والنقوش المكتشفة على أي ذكر للنعوت التي نسبها إلى انو ، من مثل «الرئيس الأصلي» و«ملك العالم الأسفل» و«رب الأرواح والشياطين» و«أبو الآلهة» . وإلى البعل من مثل «إله الآلهة» و«أبو الآلهة» و«الخالق» و«الأمير القوي» و«أمير الآلهة» و«رب العالم» و«ملك الأرواح كلها» و«رب البلدان جميعها» . وإلى هيا من مثل : «الملك» و«المخترع العظيم» و«مقرّر الأقدار» و«ملك الأنهار» و«رب الينابيع» و«رب الحصاد» . وإلى أشور من مثل «الرب العظيم» و«ملك الآلهة جميعها» و«أبو الآلهة» . وإلى ماردوك من مثل «العظيم» و«الرب العظيم» و«الأمير» و«أمير الآلهة» و«الإله الجليل» و«القاضي» و«الابن القديم للسماء» و«رب الأبدية» و«رب المعارك» و«ملك السماء والأرض» و«رب الأشياء كلها» و«رئيس الآلهة» و«إله الآلهة» . وإلى نرجال من مثل «الرجل العظيم» و«البطل القدير» و«ملك المعارك» و«نصير الآلهة» و«المدمر» و«الأخ العظيم» و«إله الصيد» وإلى عشتار من مثل «إلهة الحروب والمعارك» و«ملكة النصر» و«السعيدة» و«الإلهة العظيمة» و«سيدة السماء والأرض» و«ملكة الآلهة والالهات جميعهم» . وإلى نابو من مثل «وزير الآلهة» و«إله الآلهة» و«الرئيس الأعلى» و«المساند» و«النصير» و«الحاضر أبداً» و«رب النجوم» و«حارس السماء والأرض» .

ولا نجد في مفهوم البابليين والأشوريين ما يبتدعه رولنسون من آلهة من مثل : نوسكو ، مخير ، باكو ، لجودا ، زيكوم ، مارتو ، زيرا ، اداك ، كورّيخ .

يُضاف إلى ذلك أن رولنسون قصّر في الوقوف على مدلول بعض بعول المناطق وسيداتها كقوله مثلاً إن بعل زبوب هو إله الذباب . وإن عشتار أو عشتروت كلمة لم يوضع لها تفسير مرضٍ حتى الآن . وفي اعتقاده أنها غير مشتقة من أصل سامي . وربما تبنّاها الساميون من سكان حاميين في عصر مبكر .

والحقيقة أن بعل زبوب يعني سيد منطقة زبوب . وقد ذكرنا قبلاً أنه كان لكل بلدة أو إقليم بعل (سيد) أو بعلة (سيدة) ، تتيمّن باسمه أو باسمها ، وتنظم له أو لها طقوساً

احتفالية دينية ، تتفق مع مشاعر الإنسان وحاجاته الفردية والإجتماعية العامة ، وترتبط بعواطفه وانفعالاته . وغالباً ما كان اسم البلد أو الإقليم يُضاف إلى البعل أو البعلة ، فيقال مثلاً بعل صافون (جبل على ساحل سوريا الشمالي) ، بعل صيدون ، بعل صور ، بعل حمّون ، بعل حرمون (جبل في سوريا الجنوبية) ، بعل لبنان ، بعل حازور ، بعل طرسوس . . ويُقال عشتار أرب ايل (مدينة جبلية في إقليم أشور) عشتار نينوى ، عشتار بابل ، عشتار كيثارا (في قبرص) . .

ثم إن الصفة ـ الاسم (عشتار ـ السيدة) سوري عربي ، ورد في الألسن السورية العربية جميعها : الأكادي ، الأشوري ، الكنعاني ، الأرامي ، والعربي مع بعض الاختلاف في الصيغة تبعاً لتنوّع البيئات والألسنة .

ويمضي رولنسون في تقسيم ما يزعمه أو ما يبتكره من آلهة إلى مجموعات ، ويضع لكل منها الصفات الكثيرة ، ويخلط بين الصفات التي أطلقتها شعوب سوريا القديمة على القوة العالية المطلقة وبين الصفات التي أطلقتها تلك الشعوب على قوى الطبيعة وفواعل الوجود مشخّصة . ففي فصل «الديانة الكنعانية» مثلاً يعدّد ما يعتبره «آلهة كنعانية» على النحو الآتي : بعل، بعلتس ، اشتوريت ، ملكارت ، مولوخ ، أدونيس، داجان ، اشمون ، هدد ، ايل ، ايليون ، شمش ، صادق . والملاحظ في هذا الخلط أن صاحبنا المؤرخ أو المؤلف ، لا فرق ، اعتبر «ايليون» إلٰهاً . والواقع أن ايليون (عيليون) ـ (العالي العظيم) هي الصفة التي أطلقتها مجتمعات المنطقة على «ايل» بعد تحوّله إلى اسم في الألف الأول ق.م .

وعلى هذا النحو سار المؤرخون والباحثون جميعهم في التعداد والتقسيم والتصنيف ، والخلط أيضاً . فجاسترو[٥٠٧] مثلاً يعقد الفصول الطوال في كتابه «ديانة بابل وأشور» ، للحديث عن الآلهة البابلية . ففي فصل يتحدث عن الآلهة قبل عصر أمورابي ، فيذكر منها مثلاً : انليل ، ننليل ، نن خورساغ ، نن جرسو، باو، ڃاتمدغ، انكي، نن اجال، نرجال، شمش، اوتو، نار ، سن، انانا، نانا، اشتار، نينا، انو، نن سيا، ڃلاليم، نن شاخ، نن ڃول، دنشاغ، لڃلبندا، دموزي، نن سابا، لڃل ارما، نن ڃال، نن جشزيدا، نن مار .

وفي فصل آخر يتحدث عن الآلهة في عصر أمورابي ، فيذكر منها مثلاً : ماردوك، سربنتم، نابو، تشميتم، ايا، دمكينا، شمش، انانا، بل، انو، بيليت، اناتوم، رمّان .

ثم يعقد فصولاً أُخرى للحديث عن قرينات الآلهة ، وعن بانثيون غوديا ، وعن الآلهة

في قوائم المعبد ، وعن الآلهة الثانوية في فترة حكم أمورابي .

الملاحظ أن جاسترو ، كغيره من المؤرخين ، يؤلف لا يؤرخ . يؤلف الآلهة ، ويضعها في العصور التي يشاءها لها . ومثلهم يقصّر في الوقوف على مفهوم القدماء للقوة العالية المطلقة ، ولقوى الطبيعة وفواعل الوجود مشخّصة . ولذلك فهو يخلط في الجمع بين مفهوم القدماء لـ «انو» (السيد) أو لـ «انليل» (السيد العالي) وبين بقية الصفات التي هي باعتباره اسماء آلهة ، من مثل : چلاليم، دنشجّا، لچل ارما، وغيرها .

وفي حديثه عن وظائف (الآلهة) لا يخرج عن الإطار العام الذي حدّد المؤرخون الآخرون لأنفسهم الكتابة فيه . فـ «انو» باعتباره للسماء ، و «انليل» للأرض ، و «ايا» للماء .

وفي تفسيره لمدلولات ما يزعمه من آلهة يقع في أغلاط شنيعة وغير قليلة ، منها مثلاً قوله إن «نابو» هو إله القلم . وفي انليل يقول إن الرمز «ليل» يستعمل ليصنّف شيطاناً بشكل عام ، ولذلك فإن انليل يعني الشيطان الرئيسي .

وعن صلات النسب التي يقيمها في ما بين (الآلهة) يقول إن انو ، إلـه الشمس ، هو الاب . وانليل ، إله العواصف ، هو الابن . نينيب، إله الشمس ، هو الابن. وانليل، إله العواصف ، هو الأب . نابو ابن ماردوك . وماردوك ابن ايا.

ولويس سبينس(٥٠٨) لا يختلف عن غيره من المؤرخين أو المؤلفين في تعداد الآلهة وفي تصنيفها في المراتب والوظائف وفي صلات النسب أيضاً ، فتحت عنوان «الآلهة الكبرى في الديانة البابلية المبكرة» يخلط بتعداده ما يزعمه من آلهة في ما بين ماردوك، بعل، ديبارا، ايا، باو، ننّار، نرج، عشتار، وتموز . . وإلى آخر ما هنالك من أسماء يبتدعها ويصنّفها كآلهة عظيمة .

وتحت عنوان «البانثيون البابلي المتأخر» يذكر بين ما يذكر : نبو، تشميت، شمش، زو، دوكينا، وغيرها من أسماء .

وفي التصنيف يقول إن ماردوك يظهر أصلاً كإله للشمس ، وإن كان يرمز بشكل خاص إلى شمس الربيع . وإن أنو هو «أبو الآلهة» . ونرجال «إله المسكن العظيم» . وبعل «إله الأرض» . وعشتار «أم الآلهة» . وشمش «إله المخلوقات الحية» . وانليل «إله العالم العلوي» . وإن اسمه يعني «إله الضباب أو إله العواصف» .

ويضيف سبينس متأثراً بجاسترو أو بغيره ، «إن المقطع 'ليل' الذي يدخل في تركيب «انليل» يرمز إلى شيطان . ولذلك فإن «انليل» يعني «الشيطان الرئيسي» .

ويقول عن «ايل» إنه كان يترأس أو يشرف على مجموعة من الآلهة يعرف الواحد منها باسم «بعل» .

ويبتدع صاحبنا إلهاً هو «أورو» Uru ويجعله إله الضوء . ويقول إن اسمه يدخل في تركيب أوروشليم . والحقيقة أن أورو ليس إلهاً كما يزعم سبينس . وكلمة أور التي تدخل في تركيب أورشليم تعني مدينة أي «مدينة السَّلام» .

وعن صلات النسب يقول سبينس إن انو هو أبو الآلهة . كما يعتبر أباً لانليل . ونبو هو ابن ماردوك . كما أن ماردوك هو ابن ايا . أما باو فتعتبر البنت الرئيسة لانو .

ومثل سبينس يفعل بارتون[٥٠٩] في التعداد والتقسيم ، وفي الخلط أيضاً بين الصفة التي أطلقتها مجتمعات سوريا القديمة على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء ، وبين الصفات التي أطلقتها تلك المجتمعات على قوى الطبيعة وفواعل الوجود مشخّصة . ففي تعداده (الآلهة) السامية الغربية يذكر : عشيرة ، عمّ ، ايل ، بعلة ، عليان ، عناة ، موت ، داجان ، شبش ، رشف ، أدونيس ، ايل حمّون ، اشمون ، وركب ايل .

والواقع أن الجمع بين «ايل» (العالي) وبين عمّ (جزء من اسم مركب مثل عميئيل وعمّان وعمّون) وبين ركب ايل (اسم مركب) وبين عليان (الصفة التي نُعت بها البعل في أوغاريت ، فقيل «بعل عليان» أي البعل العالي العظيم) وبين شبش (قوى الطبيعة مشخّصة) وبين ايل حمّون (إله منطقة) وغيرها . هذا الجمع دليل على قصر في النظر وضحالة في التفكير ، وبالتالي على تقصير في دراسة الموضوع الذي يتناوله .

وفي تعداده (آلهة) بابل يذكر : انليل ، انكي ، انو ، عشتار ، نن جرسو ، باو ، نن جشزيدا ، نينيب ، نن شوبور ، نن شار ، نن سم ، نو سكو ، ماردوك ، نبو ، تشميت ، وأشور .

وهو كغيره من المؤرخين أو المؤلفين يبتدع الآلهة ويحدّد لها الوظائف وينسب لها الأسماء والصفات . والآلهة باعتباره هي : أدد ، ألام ، أما چيشتينانا ، انو ، انو نيت ، انتوم ، أشورو ، باو ، بعل ، بعلة ، دمچلنونّا ، داجان ، دموزي ، دمچلبسو ، دونموش ، دونشاچان ، انكي ، انليل ، انلوليم ، انسچنون ، انزو ، چالاليم ، چاتومدغ ، چشتينانّا ، جلجامش ، چشبار ، إليا برات ، أمبا ، أنيني ، عشتار ، اشم كرب ، كادي ، كار ، خجر ، لاما ، خجر نونّا ، لمجا ، خشجّا ، لمجا .

والطريف أنه يعدّد في اللوائح المكتشفة في شوروباك ٧٤٠ إلهاً . ومن طرفه أنه يعتبر «ان» و «أنو» إلهين .

ومثل هذه الأغلاط نجدها لدى كـلاي[٥١٠] ، ففي تفسيره لـ «انليـل» مثلاً يقـول «ايا إله وليل العـاصفة» . Enlil: Ea ‹Lord› and lil ‹The storm› . وفي تعـداده (الآلهة) يخلط في الجمع بين مفهوم القـدماء للقـوة العاليـة المطلقـة «ايل» ـ (العـالي ـ الله) ، وبين مفهومهم لقوى الطبيعة وفواعل الوجود مشخّصة : هدد، شمش. وبين الأسماء التي يدخل «ايل» في تركيبها مثل ركب ايل .

والجدير بالذكر هنا أن مؤرخي الحضارات في الشرق المتـوسطي جميعهم يتحـدثون عن (آلهة) كملوك وآباء وابنـاء، وآلهة شمسيـة وأُخرى قمـرية. فـايلياد[٥١١] مثـلاً يقول إن «أنو» هو «أبو الآلهة» و «ملك الآلهـة» . ويقول البـرايت[٥١٢] إن «انليل» هـو «ملك الآلهة» و «أبو الآلهة» . وإن البعـل «ملك السماء والأرض» و «ملك الآلهـة» . وأن الآلهة هم ابنـاء «ايل» . ويقول هاردن[٥١٣] إن «ايل» يظهر كـإله شمسي ، ولـه زوجة هي عشيـرة البحر وأم الآلهة، وابنهما هو البعل. ويقول غوردون[٥١٤] إن كرت هو ابن ايل . ويقول جاسترو[٥١٥] إن «انو» هو إله الشمس ، وقد أصبـح ملك الآلهة وأبـاهم . ويضيف «إن الآلهة والإلهـات جميعاً هم أبناء انو وانتوم» . ويقول كريمر[٥١٦] إن «ان» (السماء) و «كي» (الأرض) اتحـدا كـذكر وانثى، ومن اتحـادهما (زواجهمـا) ولـد إلـه الهـواء ـ انليـل. ويقسّم لانغـدن[٥١٧] (الآلهـة) بين آلهة شمسيـة وأُخرى قمـرية . يقـول عن «ايل» مثـلاً في سوريـا الغربيـة «إله الشمس ايل» . ويقول عنه في العربية الجنوبية إنه واحد من أسماء إله القمر . ويجعـل من الصفـة «كرب» (المبـارك) التي أطلقتها مجتمعـات العربيـة الجنـوبيـة على القـوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء ، يجعـل منها إلهـاً قمرياً . ومن وجهة أُخـرى يعترف بعجـزه عن فهم مـدلـول «ايـل مقــه» ـ (ايـل الـرجـاء) . يقـــول
. IL muqah, of unknown meaning

والمـلاحظ أن المؤرخين أو المؤلفين في حضـارة الشــرق المتـوســطي قصّـروا في الوقوف على مفهوم العالي (ايـل ـ الله) . وبالتـالي في دراسة تـاريخ هـذا المفهوم كبنيـة ، صيغـة ، والتطور البنيـوي الذي طـرأ عليها بفعـل عوامـل البيئة واللسـان وتطوّر التـاريخ . وقصّـروا في فهم مدلـول «ايل» كمفهـوم ذهني، ومدى انغـراسه في أذهـان القدمـاء وسعـة انتشـاره بين الشعـوب . يقــول رينغـرين[٥١٨] مثــلاً «لم نتمكن من فهم معنى الكلمـة أو مصدرها . ومن المتعذر شرح أصل الكلمة (ايل) أو جذرهـا بتأكيـد» . ويقول بـوتيرو[٥١٩] «إن المعنى الأصلي لهذا اللفظ غير معروف» . ويقول جورج رولنسون[٥٢٠] «هناك غموض حـول الاسم نفسه الـذي يعني ببسـاطـة الله» ـ There is a vagueness about the name it self, Which means simply «god» فهو لم يستطع توضيح الغمـوض أو إيضاح المقصـود

بقوله «إن هذا اللفظ يعني الله» . وكل ما فعله هو نوع من تقرير الأمر الواقع . ومثله فعل موسكاتي[٥٢١] بقوله «الكلمة (ايل) هي اسم عام تعني الله .ولكن اللفظ رمز مبهم. ومن الصعب أن تعيّن أو تحدّد صفته» . The word (El) is a common noun which simply means (god) . But it is difficult to specify his attributes .

ومثلهما فعل سبينس[٥٢٢] بقوله «إن الاسم العام لله هو ايل» . The general name for (god) was (El) ويضيف في مكان آخر من كتابة «لقد كانت هذه الصيغة (ايل) فعلاً إلهاً، أي إله . ولكنها لم تكن الله» . El was indeed the word god, any god, but not the god هذا الكلام أقل ما يُقال فيه إنه يشهد على قائله بقلة الفهم، على الأقل في ما يكتب أو يؤرخ .

وعندما لم يتمكّنوا من الوقوف على مدلول صيغة الصفة «ايل» ، راحوا يفترضون لها المعاني ، كلٌّ حسب فهمه واقتناعه . فالبرايت[٥٢٣] مثلاً يقول «الاسم ايل يعني أصلاً (الواحد القادر) أو (القائد)» . ومثل هذا الإفتراض كان لرولنسون[٥٢٤]، يقول «ايل تعني (القوي) أو (الجبار)» . ولالبرايت[٥٢٥] رأي آخر في كتاب له آخر، يقول «كانت الصيغة الكنعانية العامة لله هي (ايلوم) ، التي أصبحت في ما بعد (ايل) . وهي عبارة عن صيغة نعت مشتقة من الجذر (أول) الذي يعني (القوي) و(الجبار) . ومن هنا دعي الآلهة (ايليم) أو (بني ايل) . أما عبارة (ابناء الآلهة) فتعني الأعضاء في جماعة ايل» . ومثله يفعل كابرلود[٥٢٦] ، فيزعم أن «ايل» يستعمل في نصوص رأس شمرا كلقب عام لأي إله ، وللإله الأعلى أو الأسمى في البانثيون الأوغاريتي أيضاً. والكلمة تستعمل في الجمع (ايلم) لتشير إلى عدد من الآلهة . بالإضافة إلى صيغة أخرى للجمع هي «ايلهم» . أما التعبير (بنو ايل) فيستعمل للإشارة إلى أكثر من إله .

لقد ألمحنا في ما تقدم إلى أن صيغة «ايل» لم تكن في العصور القديمة اسماً ، وإنما كانت هي الصفة التي أطلقها الأكاديون في البادية السورية على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء (العالي) . ولم تعرف المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية اسماً للقوة العالية ، أو ما نطلق عليه اليوم اسم إله والله . وإنما كان في أذهانهم مفهوم عن القوّة العالية عبّروا عنه بصفة من مثل ان (السيّد) ، ايل (العالي) ، ماردوك (السيّد العظيم)، أشور (السيّد) ، البعل (السيد) ، ادون (السيد) ، الرب (السيد) ، شيع القوم (مخلّص القوم) ، يشع (المخلّص)، صدق (العادل) ، وما شابه ذلك . حتى أواسط الألف الأول ق.م. حين تحولت الصفة «ايل» إلى اسم ، وتطورت الصيغة من ايل إلى ايلاه فالله . وحين جاءت الديانات التاريخية تبنّت الاسم ، وعنها أخذته شعوب الأرض .

ولعلنا نستطيع ردّ أغلاط المؤرخين الغربيين (تعدّد الآلهة ، والأسماء والمراتب والوظائف المنسوبة لها) إلى أسباب كثيرة ، لعل أهمها أنهم ، خاصة في المراحل الأولى من الجمع والتصنيف والتأليف ، اعتبروا الصفة التي أطلقتها المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية على القوّة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء اعتبروها اسماً . وبما أن هذه الصفة وصلت إلينا بصيغ متعددة تبعاً لتعدّد المجتمعات واختلاف البيئات والألسنة ، فإن الصيغ المتعددة للصفة الواحدة صارت على أقلام المؤرخين اسماء آلهة . فقد رأينا في ما تقدم من هذا البحث أن السومريين في حوض النهرين الأسفل أطلقوا على القوّة العالية صفة «ان» - (السيد) . وأطلق الأكاديون في البادية السورية صفة «العالي» . وكان للبابليين صفة انليل (السيد العالي) ، وللأموريين في سوريا الوسطى صفة مارديخ أو ماردوخ (السيد العظيم) . وللأشوريين في الحزون الشمالية من بلاد النهرين صفة أشور (السيّد) . وكان لمجموعات بشرية أخرى في مناطق متفرقة من سوريا الطبيعية صفة «نرجال» (النور العظيم) أو «البعل» (السيّد) أو «أدون» (السيد) أو «اشمون» (السماء) أو «بعل شميم» (سيد السماء) أو هدد أو ملك أو صدق (العادل) أو «عطرسم» (مجد السماء) أو . .

أما المؤرخون الغربيون فقد اعتبروا هذه الصفات المتعددة للموصوف الواحد اسماء آلهة ، فقالوا الإله ان والإله ايل والإله ماردوك والإله أشور والإله بعل والإله نرجال والإله ادون وإلى آخر ما هنالك من صفات .

ثم إن ما ورد في النصوص التي وصلتنا من صفات لقوى طبيعية ، كان لها بمفهوم القدماء دور في عملية التكوين والخليقة ، أو في تنظيم الأصول ، أصول الأشياء، والعناية بها ، اعتبرها المؤرخون الغربيون آلهة أيضاً . خذ مثلاً ما فعله سموئيل[٥٢٧] لانغدن في ترجمته لنصوص ملحمة الخلق البابلية . فهو يضع إلى جانب كل قوة طبيعية ، أسند إليها القدماء دوراً في عملية الخلق ، يضع صيغة ايلو أو ايلات ، دلالة باعتباره على أن القوّة المعنية هي إله أو إلهة . تأمّل في صورة الصفحة 68 المقتطعة من كتاب لانغدن «ملحمة الخلق البابلية» ترَ أنه دوّن صيغة ايلو Ilu إلى جانب كل من لخمو وانو وانوم . وصيغة ايلات Ilat إلى جانب كل من لاخامو وكيشار .

68 *Tablet I*

10. ^{ilu}Laḫ-mu [1] ^{ilat}La-ḫa-mu uš-ta-pu-u šu-mi iz-zak-ru [2]

11. a-di [4] ir-bu-u i-ši-ḫu [5]
12. An-šar [6] ^{ilat}Ki-šar ib-ba-nu-u [6] e-li [6]-šu-nu at-ru

13. ur-ri-ku [8] ûmê uṣ [9]-ṣi-pu šanāti

14. [ilu]A-nu [11] a-pil-šu-nu ša-ni-nu [11] abê-šu
15. An-šar [ilu]A-num [12] bu-uk-ra-šu u-maš-ši-il [12]

ومن الـواضح أن هـذا الطرح ـ الغلط أدّى بـالمؤرخين إلى مزيـد من البلبلة الفكريـة والغرابة في الطرح والمنهجية . والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر منها جان(٥٢٨) بوتيرو الذي يقول «إننا نجد كلمة ايلو وتعني الله ، تذكر قبل ذكر اسم كـل شخصية إلٰهيـة» . لقد غـاب عن ذهن بـوتيرو أن صيغـة ايلو أو ايلات ليست في النص الأصلي (النصـوص المدوّنـة في الألواح الطينيـة المكتشفة) ، وإنمـا هي من وضع المؤرخ لانغـدن أو سواه من المؤرخين . وما يقول عنه بوتيرو «شخصية إلٰهيـة» إن هو إلاّ قـوى طبيعية أو قـوى خصب وحياة ، أسنـد إليها القدماء أدواراً معيّنة في ما صاغوه من قصص تكوين وخليقة ، وأُصول .

ويلحق بهذا الجانب من تقصيـراتهم نعتهم قوى الـطبيعة وفـواعل الـوجود مشخّصـة بلقب إلٰه ، بالإضافة إلى ما ينسبونه من وظائف ومراتب إلى الآلهة المزعومة . والأمثلة على ذلـك كثيـرة ، نـذكـر منهـا السـطر 276 من The Babylonian Theodicy الـذي بقحم فيـه لامبرت(٥٢٩) عبارة «ملك الآلهة» على الأصل . وعنـه ينقل أو يتـرجم الآخرون من دون أي محاولة للتبصّر في ما ينقلون أو يتـرجمون . ونـذكر أيضـاً هذه النمـاذج المقتبسة من كتـاب «النقوش الملكية في سومر وأكاد» التي ينعت فيها بارتون(٥٣٠) قوى الطبيعة وفواعل الوجـود مشخّصة ، أو بعول (أسياد) مدن ومناطق معينة ، بلقب إلٰه .

88 THE BABYLONIAN *THEODICY*

XXVI

276 *šar-ri qád-mi* [d]*nar-ru* *ba-nu-ú* *a-pa-a-t[um]*

THE BABYLONIAN *THEODICY*

Friend XXVI

276 Narru, king of the gods, who created mankind,

E-NE [24]ZA AŠ-DA-BI NI-ŠUB [25]ENSI [26]IGI-DÙ [27]NIG ŠUB-ŠUB [28]LAMGA
the god Lamga of earth and water [29]by the word of gods [30]on

ḪUŠ-GAL-AN-KI [13]MU-NA-RÚ [14] ^{d}DUN-ŠÀG-GA-NA-RA [15]KI-KU-AKKIL-
and earth" [13]he built. [14]For the exalted goddess Dunshagga [15]the

URU-AZAG-GA-KAM [25]EN ^{d}NIN-GÍR-SU-RA ME-NI-DA MU-NA-DA-
of Uruazagga [25]took his stand by lord Ningirsu at his command,

[5]Ê ^{d}GÁ-TÚM-DÚG [6]MU-RÚ [7] ^{d}GÁ-TÚM-DÚG V, [1]MU-TÚR [2]BA-GA
Gatumdug [6]he built; [7]the goddess Gatumdug V, [1]he caused to

[4]MU-TÚR [5]GÚ-ŠU-GAB [6]MU-TÚR [7]DUMU-ZI III, [1]MU-TÚR [2]Ê ^{d}NIN-
[6]he caused to enter in; [7]the god Dumuzi III, [1]he caused to enter

يُضاف إلى ذلك أن المؤرخين خلطوا ، وفي أحيان كثيرة ، بين الصفة التي عبّر بها القدماء عن مفهومهم للقوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء ، وبين الاسم الذي تدخل هذه الصفة في تركيبه . وكثيراً ما اعتبروا الأسماء المقترنة بالصفات أسماء آلهة . نذكر مثلاً لذلك البرايت(٥٣١) الذي اعتبر الاسم المركب حورون Hauron اسم إله . قال «الإله حورون (أصلاً حوران) . مؤدى الاسم غامض ، لكن التفسير القريب جداً هو (الواحد المختص بالأعماق) ـ إله العالم السفلي» . . gog Haurôn (originally Haurân)
The interpretation of the name is obscure, But the most likely rendering is (The one belonging to the depths) god of the under - world .

وهوفمون(٥٣٢) أيضاً اعتبر الاسم المركب «حوران» إلهاً .

والحقيقة أن هذا الاسم مركب من «ان» ـ (السيد) الصفة التي أطلقها السومريون على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء ، ومن «حور» التي تعني : يبيّض ، ينعّم ، يجمّل . ومدلول الاسم بمفهومنا «الله يبيّض ، ينعّم ، يجمّل» .

ومن هنا كانت الآلهة باعتبارهم كثيرة . يقول البرايت(٥٣٣) «إن القوائم التي وصلتنا من شوروباك (تل فاره) ، والتي تعود إلى حوالي ٢٦٠٠ ق.م. تسمّي أكثر من ٧٠٠ إله» .
The lists from shuruppak (Tell Farah) in central Babylonia, copied about 2600 B.C. name over 700 gods . وقد ذكرنا قبلاً أن قوائم الآلهة الأكادية تتجاوز ٢٤٠ صفحة في كتاب تلكفيست كما يقول سموئيل هوك في كتابه «الديانة البابلية والأشورية»(٥٣٤) .

ويزعم غيرهما من المؤرخين أن هناك المئات ، والالاف أيضاً من الآلهة . فرينغرين(٥٣٥) مثلاً يقول «إن عدد الآلهة كبير جداً . والقائمة الشاملة للآلهة التي وجدت في مكتبة أشور بني بعل تتضمّن أكثر من ٢٥٠٠ اسم إله . ونحن ، يضيف رينغرين ، نعرف الآن أكثر من ٣٠٠٠ اسم من الآلهة» . The number of the gods was very large .
The extensive list of gods found in the library of Assurbaniba'l comprises more than 2500 names, and we now Know considerably more than 3000 names of gods

«وقد أحصي عدد الآلهة في القرن التاسع ق.م. فكانوا حوالي ٦٥٠٠٠ إله» كما يقول ديورانت(٥٣٦) .

والطريف أن الصيغ المتنوعة لـ «ايل» تبعاً لتنوع البيئة واللسان وتطور التاريخ ، كانت باعتبار المؤرخين جميعاً جموعاً لـ «ايل» ـ (آلهة) . فبينز وغراي وغوردون(٥٣٧) مثلاً يترجمون Elm إلى آلهة . أما جبسون(٥٣٨) فيترجمها مرة إلى إله وأخرى إلى آلهة . ولانغدن(٥٣٩) يترجم Ilani إلى آلهة . أما لامبرت(٥٤٠) فيترجمها مرة إلى إله وأخرى إلى

آلهـة . ومثله يفعـل درايفـر(٥٤١) . ويتـرجم جـام(٥٤٢) Elhmu إلى «إلْهين» . ويـرى كـابرلـود(٥٤٣) أن El تجمع في Elim . ويتـرجم دي فوغي(٥٤٤) Elahia إلى آلهـة . ويـرى البـرايت أن Elonim و Elohim و Elim هي صيغ جمـوع لـ «ايل» . يقـول Elonim plural of El, Just as Elohim = Elim is plural of El .

ومن طرائفهم المثيرة في هذا الباب تفسيراتهم المدهشة والغريبة لبعول (أسياد) مدن أو مناطق معينة . فالبرايت(٥٤٥) مثلاً يزعم أن بعل صمد يعني إله السلطة . وأن بعل حمّون يعني إلـه الـرقص . Ba'l - Semed means ‹Lord of the mace› . Ba'l - hammon means ‹Lord of the dance› . ورينغرين(٥٤٦) يزعم أن بعل زبوب يعني إله الذباب . Ba'l - Zebub means ‹The lord of the flies› . وأن بعـل مرقـود يعني إلـه الـرقص Ba'l - marqud means ‹The lord of the dance› .

ومن طرائفهم أيضاً اعتبار رولنسون(٥٤٧) أن ڤول Vul هو إلـه الهواء . وأن داجـان هو إله السمك .

وتقصيـرات المؤرخين في هذا البـاب كثيرة ، لعـل أشدّهـا طرافـة تفسيـرهم لبعض صفات القوى العالية . واعتبـارهم الصفات التي نسبت إلى «ايـل» (بعد تـطور هذه الصفـة إلى اسم ـ إله) آلهة . يمثل الحالة الأولى موريس جاسترو(٥٤٨) بقوله «عرف معبد انليل بـ «E.Kur» ـ بيت الجبـل . وغالبـا ما يـوصف انليـل أو يلقّب بـ «great mountain» ـ الجبـل العـظيم . وبما أن وادي الفـرات يفتقر إلى الجبـال فإن هـذا يعني أن انليل كـان إله شعب يقطن منطقة جبلية . وقد جلبوا إلههم معهم حين وفدوا إلى منطقة وادي الفرات» .

إن هذا الجزم يفتقر إلى الأسس الصحيحة ، ولا يلتزم المعرفة العلمية . وأكـاد أقول إنه يشكل عاراً على العقل والمعرفة . والحقيقـة أن الشعوب القـديمة في سـوريا الـطبيعية بنت البيـوت لمعبوداتهـا في أعالي الجبـال «الموضـع المطهّـر» The high mountain, ‹The pure place› حيث تلاقي خشوع نفوسهم بهيبة المرتفعات وجلالها . وإذا عزّت الجبال ففي التلول (تـل مـارديـخ مثـلاً) . وفي وادي الفـرات الـذي يفتقـر إلى الجبـال ، كمـا يقـول جـاسترو ، شيّـدوا هياكلهم على تـلال اصطنـاعية عـاليـة ، تـدعى الـواحـدة منهـا زقـورة Ziqqurat .

ثم إن انليل هو ابن هذه الأرض . ولم يكن «إله شعب يقطن منطقة جبلية» كما يزعم جـاسترو . ويبـدو أن صاحبنـا لم يسمع بـاسماء المـظاهر الـطبيعية أو المـدن العـريقـة في التاريخ ، أو قل التي تسبق التاريخ ، التي يدخـل «ايل» في تـركيبها ، من مثـل بابـل (باب

ايل) ، ارب ايل في الحزون الشمالية من بلاد النهرين ، جب ايل على الساحل السوري ، وبيت ايل في فلسطين .

ويمثّل الحالة الثانية رينيه ديسو[٥٤٩] بقوله «إن الكنعانيين عبدوا الإلهين ايل وعليون El and 'elyon . والحقيقة أن عليون هي صفة تعني العلي ، نسبت إلى الصفة «ايل» بعد تطورها التاريخي إلى اسم في الألف الأول ق.م. فقيل «ايل عليون» أي الله العلي .

ومن تقصيرات المؤرخين في هذا الباب اعتبارهم الصيغ المتنوعة (تبعاً لتنوّع البيئات والألسنة) للصفة الواحدة اسماء آلهة ، من ذلك مثلاً أن جورج بارتون يعتبر «ان» و «انو» إلهين . والفونسو اركي[٥٥٠] يذكر في تعداده الآلهة : ايل، ايلوّه ، ايلوهيم ، يهوه ، ايلون ، شدّاي ، أدوني . El , Eloah , Elohim, Yahweh, Elon, Shadday , Adonay لقد غاب عن ذهن أركي أن ايل وايلوّه وايلوهيم هي صيغ متنوعة لـ «ايل» ـ (العالي ـ الله) . وأن ايلون (elyon)' تعني العلي كما ذكرنا قبلاً . وأن شدّاي صفة تعني «القوي القدير» . وقد تكون فعلاً ، وايل شدّاي تعني «الله يقوّي» . وأن ادوني تعني «سيدي» لدى شعوب سوريا الغربية . وعندما اقتبس الاغريق معتقدات سوريا أضافوا اللاحقة س S إلى ادوني فصار أدونيس . والغريب أن اركي يحشر يهوه ، الاسم الوضعي التاريخي ، بين صفات القوى العالية الطبيعية (ايل وادون) . ومثل هذه الأغلاط أشد وقعاً في النفس وأكثر ايلاماً لأنه يشوّه الحقيقة والتاريخ . ولأن صاحبها متأخر في الزمن عن المؤرخين السابقين ، وقد كان من الضروري أن يستفيد من أغلاطهم .

ومنها كتابتهم الصفة الواحدة بصيغ متعددة ، مما أدّى ببعضهم إلى اعتبار الصيغ المتنوعة للصفة الواحدة اسماء آلهة ، من ذلك مثلاً أن سبينس[٥٥١] يكتب عشتار بصيغ : Astarte, Ashteroth, Ishtar ويكتبها بريتشارد[٥٥٢] بصيغ : -Ashtoreth, Ashtart, Ashtar oth, Ashtar, ويكتبها رينغرين[٥٥٣] بصيغ من مثل : Athtar, Astar ويكتبها بارتون[٥٥٤] بصيغ : Athtar, Ashtart, Asherah, Ashirta, Athirat, Ashera, Asherat, Ishdar, Atar 'atah, Atargatis, Ishtar. ويكتبها غراي[٥٥٥] بصيغ : 'atherat, 'athtarat, 'atlar ويكتبها جاسترو[٥٥٦] بصيغ : ,Athtar, Ashtart, Ashtoreth, Astarte ويكتبها البرايت[٥٥٧] بصيغ من مثل . Asherah, Ashtar, Astarte, Ashtaroth, Athirat, 'athtar ويكتبها غيرهم بهذه الصيغ أو بما يشبهها ، مما حدا ببعضهم (موسكاتي[٥٥٨] مثلاً) إلى القول إن اسم Astarte الأوغاريتية هو ببساطة مختلف عن اسم Ishtar أرض النهرين . وحدا بالبرايت[٥٥٨*] إلى الحديث عن ثلاث إلاهات : استارت ، عناة ، وأشيرا . , The three goddesses Astarte, Anat, and Asherah . والقول إن لـ «ايل» ثلاث زوجات : استارت ، اشيراه ،

وبعلتس . El had Three wives, Astarte, Asherah, and Ba'ltis ويقول في مكان آخر من كتابه : الالهتان : اشتاروت واشيرا . The goddesses Ashtaroth and Asherah

ولاعتقاد المؤرخين جميعهم بتعدد الآلهة فقد تناولوا في أبحاثهم مسألة المقارنة بين الآلهة المتعدّدة باعتقادهم . ولعل ما يثير الأسى والأسف في النفس هو اعتبار المؤرخين «يهوه» رب بني إسرائيل ، واحداً من (آلهة) الشرق القديم . «وإذا كانت العلاقة بين البعل وبين يهوه قد حظيت بدراسات عديدة لدرجة أننا صرنا لا نفتقر إلى أعمال حول يهوه والبعل» كما يقول ايسفلد[٥٥٩] ، «فإن الدراسات ، في المقابل ، التي تتناول العلاقة بين ايل وبين يهوه هي قليلة ، أو قل نادرة» . ولهذا السبب شرّع ايسفلد قلمه للكتابة في ايل ويهوه .

الواقع أن مسألة المقارنة بين البعل وبين يهوه ، أو بين ايل وبين يهوه ، كما فعل ايسفلد والمؤرخون جميعهم ، هي من باب الغلط الشنيع والتقصير المزري . وأن كل ما كتبوه في هذا الباب هو نوع من التأليف . وأن طرح مثل هذه المغالطات هو تشويه للحقيقة والتاريخ . فـ «ايل» ـ (الله) واحد في اعتقاد القدماء . وليس في النصوص التي وصلتنا عنهم أي إشارة إلى أن فكرة تعدد الآلهة قد خطرت في أذهانهم . وما يزعمه المؤرخون من تعدد آلهة إن هو إلّا صفات متنوعة ، تبعاً لتنوع البيئات والألسنة ، للقوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء . ثم أن يهوه ، اسماً ومفهوماً وأخلاقاً ، هو من ابتداع موسى ، واضع أول ديانة تاريخية ـ اليهودية . وفي هذه الحال لا يجوز حشر يهوه الوضعي التاريخي بين الصفات التي أطلقتها الشعوب القديمة في سوريا الطبيعية على القوة العالية ، والتي تشكّل جوهر معتقدات طبيعية ، أي ليست موضوعة وليس لها تاريخ .

والواقع أنك لا تجد مؤرخاً أو باحثاً نجا من السقوط في هذه الهفوة . ومن الأمثلة الكثيرة نذكر جان بوتيرو[٥٦٠] الذي يخلط بين يهوه وبين الله . ولانغدن[٥٦١] الذي يحشر «ياو» Yaw (يهوه) بين ما يزعمه آلهة الأكاديين والأموريين والآراميين . ودوغيرتي[٥٦٢] الذي يحاول أن يقيم صلة بين «ايا» Ea وبين يهوه . يقول «لقد جرت محاولة لربط ايا مع ياه ـ الصيغة القديمة ليهوه» . وبلغته : The attempt has been made to connect Ea with Yah, an ancient form of yahweh .

من المؤسف أن يصدر هذا الكلام عن باحث في معتقدات الشرق المتوسطي القديم . فـ «ايا» ليس إلهاً كما يزعم دوغيرتي . وإنما هو قوة الماء (ايا تعني بيت الماء) ، أي قوة الحياة في الماء . وقوة الحياة في الماء هي من جوهر القوة العليا «ان» أو «ايل» أو

«ماردوك» مثلاً (الله بمفهومنا) . ومحاولة دوغيرتي إقامة علاقة لغوية أو صرفية (لفظية) بين ايا Ea وبين ياه Yah دليل على قصر في النظر وضعف في البصيرة ، وهما من المعاب التي لا يجوز أن تنسب إلى مؤرخ .

ولعل أهم الأمثلة عن سقوط المؤرخين في هوّة الغلط الشنيع هو ما نجده لدى المؤرخ جورج بارتون(٥٦٣) . فهو يكتب فصلاً مطوّلاً حول يهوه : اسمه ، والصيغ الكثيرة التي ورد بها هذا الاسم : Yahweh, Yoh, Yahw, Yaho, Yahu, Hwy, وغيرها وفي معناه يقول : «هو الذي يكون». «سيكون هو». «سوف يبرهن عن نفسه» . «سوف يكون معنا» . «هو الذي يؤدي إلى الوجود» . «هو الذي يسبب الخلق أو الحياة» . «هو الذي يسوق إلى الموت» . «هو الذي يعطي الوجود» «He who is» . «He will be it» . «He will approve him self». «He will be with us». «He who causes to exist». «he who causes being, or Life» . «He who brings to pass» . «He who gives existence», وغيرها .

والطريف في تخريجاته التلفيقية قوله «أرورو إلهة أرضية ، وإلهة أُم . ويعتبرها ديمل ، كما هي في الأصل، صيغة اسم مشابهة لتلك الصيغة من يهوه ـ ياخ ـ رورو . ومن الممكن أن تعني ‹الواحد الذي يسبّب النشوء›» . Aruru is accordingly an earth -god-dess and mother - goddess . Deimel regards Aruru as originally ya-aḫ-ru-ru , a name - formation analogous to that of Yahweh- a most probable etymology . It would mean, Then, ‹The one who couses (noble) birth› .

والأطرف هو ابتداعه صيغة Ya-Wa-ilu ويضع لها معنى «يهوه هو الله» Yahweh is god .

تعليقنا على هذا الكلام أنه يعبّر عن غباء فاحش وجهل مدقع في الموضوع الذي يتناوله . ومن العيب أن توزّع هذه التلفيقات والتخريجات الباطلة قراطيس على الناس .

مثل آخر عن سقوط المؤرخين في هوّة الغلط الشنيع نجده في موسوعة الديانات لمحررها ميرسيا ايلياد(٥٦٤) . فقد كتب المؤرخ وليم فولكو مادة «ايل» El في أقل من عمود ، ومما قاله «كان ايل على رأس البانثيون الكنعاني ، خالق الآلهة الأخرى وأبوها . . يظهر ايل كجندي محارب . . وقد خُلع ايل من قبل ابنه البعل» . وفي حديث المؤلف عن «الله» God في الكتب المقدسة اليهودية يقول «إن الاسم العام لله هو يهوه» . ثم يتحدث عن كتابة الاسم YHVH, yahweh, yahveh ويقول إن يهوه يظهر غالباً كرب للجنود . وهذه الصفة تعني «خالق الجنود السماوية» Creator of the heavenly hosts ويقول إن يهوه يركّب

مع الوهيم ـ الكلمة العامة الشائعة لله .

الواقع أن اطلاق مثل هذه الأغلاط الشنيعة بصيغ من الأحكام الجازمة والتي تفتقر إلى الدقة والموضوعية ، يشكل عاراً على العقل والمعرفة والتاريخ . فصاحبنا المؤرخ أو المؤلف ، لا فرق ، يعتبر ايل خالقاً للآلهة الأخرى وأباً لها . ويُظهره كجندي محارب ورب للجنود ، وفي صورة أخرى كملك يخلعه عن عرشه ابنه البعل . والمؤسف أنه يخلط بين ايل وبين يهوه في الصيغة والمدلول . وهذا تقصير بشع في الموضوع الذي يتناوله ، وتشويه كبير للحقيقة والتاريخ .

والخلاصة ، يندر أن يخلو بحث في معتقدات الشعوب القديمة في سوريا الطبيعية من حيّز ما ، واسع أو ضيّق ، مخصّص ليهوه . والدراسات تتناوله بشكل عام في باب المقارنة مع (الآلهة) الآخرين . وهذا من أكثر التقصيرات تشويهاً للحقيقة وتزييفاً للتاريخ .

* * *

وتقصير المؤرخين المزري كان في فهم مدلولات الأسماء المقترنة بـ «ايل» أو بالقوى العالية الأخرى التي تقرّبت من الإنسان ، أو قل إن الإنسان شعر بقربها منه . من أمثلة ذلك قول انو ليتمان(٥٦٥) :

ايل هرم : الله إله عال ، رفيع «El-haram «Allah is an exalted god

هذا التفسير غلط لأن القدماء لم يقصدوا نعت ، أو الإخبار عن ، العالي (ايل ـ الله) بمعنى من المعاني المثالية في أذهانهم (مناقب وفضائل مثلاً) ، كما فعل أصحاب الديانات التاريخية ، ويفعل أتباعها أيضاً ، بقولهم : الله عال ، رفيع ، كريم ، عزيز ، غفور ، رحيم، قادر، حنون، قوي، جبار، عظيم، رؤوف، عادل . . وإلى آخر ما هنالك من صفات منسوبة إلى الله في كتب الديانات التاريخية وفي مفهوم أتباعها . لأن العالي (ايل ـ الله) بمفهوم القدماء هو المثل الأعلى في كل منقبة أو فضيلة . أي هو المثل الأعلى في الرحمة والرأفة والقدرة والقوة والعظمة والجبروت والعدل و . . وإنما قصدوا من الاسم المركب إسناد الفعل المأمول أو المرجو إلى ايل ـ الله . وعليه فإن الاسم المركب «ايل هرم» يعني في مفهومهم : الله يرفع أو الله يُعلي .

ومثل هذا الغلط يتكرر في كتاب ليتمان ، يقول مثلاً :

حن ايل : الله حنون، لطيف، كريم. Ḥann'el «God is gracious»

والمقصود في مفهوم القدماء : الله يحنّ .

ايل نعم: الله لطيف، كريم، رؤوف. El-na'am «God is gracious»

والمقصود في مفهوم القدماء : الله يلطف ، يرأف ، يُنعم .

رام ايل : الله عال — Ram'el «God is high»

وهذا التفسير غلط لأن ايل هو العالي بالصيغة والمدلول في مفهوم القدماء ، كما رأينا في ما تقدم . والمقصود : الله يُعلي .

جل ايل : الله عال — Gall'el «God is high»

والمقصود : الله يعظّم ، الله يرفع من قدر . .

وللمؤرخ أغلاط أُخرى تشي بقصر النظر وضيق التفكير ، يقول مثلاً :

حي ايل : الله يحيا — Ḥay'el «God lives»

والمقصود بمفهوم القدماء : الله يُحيي .

والفرق كبير بين مفهومهم وبين فهم ليتمان لهذا الاسم المركب .

زحك ايل : الله يضحك — Zaḥak'el «God smiles»

وهذا التفسير كسابقه ، فالله لا يبتسم ولا يقطّب ، . ولم ينسب له القدماء أي صفة مادية يمكن أن تجعل له شبهاً بالإنسان ، كالإبتسام والتقطيب مثلاً ، أو الإمساك أو الحماس كقول ليتمان :

مسك ايل : الله يمسك بإحكام — Masak'el «God holds fast»

ظنن ايل : الله متحمّس — Zanan'el «God is Zealous»

ومع هذا فإن ليتمان يقف على المدلول الصحيح لكثير من الأسماء المركبة ، من مثل :

برك ايل : الله يبارك — Barak'el «God Blesses»

چن ايل : الله يحمي — Gann'el «God protects»

جرم ايل : الله يتمّم — Garam'el «God completes»

زيد ايل : الله يزيد — Zaid'el «God increases»

نظر ايل : الله يحمي ، يحفظ — Naẓar'el «God preserves»

سلم ايل : الله يسلّم — Salam'el «God Keeps in safety»

سمك ايل : الله يسند ، يؤازر ، يدعم — Samak'el «God sustains»

عزر ايل : الله يساعد — 'adar'el «God helps»

بلط ايل : الله ينقذ ، ينجّي — Palat'el «God delivers»

ولبراندن أيضاً أغلاط كثيرة في هذا الباب ، فهو يكتب مثلاً[٥٦٦] :

بح ايل : الله أبح	Baḥḥ'el «El est enroué»
معد ايل : الله سميك، حاد، كثيف	Ma'd'el «El est epais»
وثت ايل : الله غيور	Watat'el «El est Jaloux»
عم ايل : الله عم	Dad'el «El est oncle»
عتت ايل : الله مجادل، مشاجر	'atat'el «El a dispute»
كرب ايل : الله كبير	Kirub'el; «El est grand»

والسؤال : كيف يجيز مؤرخ لنفسه أن يقول إن الله أبحّ ، حاد ، غيور ، مشاجر ، وما شابه ذلك من الصفات غير اللائقة التي ينسبها براندن إلى الله ؟ . يُضاف إلى ذلك أن «كرب» Krb لا تعني «كبير» كما يزعم براندن ، وإنما هي فعل بمعنى «يبارك» .

والتقصير الشنيع في فهم مدلولات الأسماء المركبة نراه في كتاب «الاسماء الشخصية في نوزي»[٥٦٧] . يقول مؤلفوه مثلاً :

تشبك ايل : تشبك إله	Tišpak'el «Tišpak is God»

هذا اسم مركب . يُضاف إلى ذلك أن صيغة «ايل» لم تكن اسماً عاماً في عصر حضارة نوزي (الألف الثالث ق.م.) .

ومن أغلاطهم أيضاً :

ايلو قراد : الله نصير	Ilu - qarrad «The God is champion»

والمقصود في مفهوم القدماء : الله ينصر .

ديّان بعل : ربي قاض	Dayyan - Ba'l «my lord is Judge»

والمقصود : الرب يقضي .

نور ايلو: الله متألق	Nawr - ilu «Resplendent is the God»

والمقصود : الله ينير .

أدد ما ايلو: أدد فعلاً إله	Adad - Ma - Ilu «Adad is indeed god»

هذا مثل من الأغلاط المزرية . وكأن المؤلف يريد أن يؤكد للمرتابين أو الشاكين أن «أدد» هو فعلاً إله . والأدهى أنه جعل من ايلو اسماً عاماً (إلـه) ، مع أن ايل (العالي) هو صفة للقوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء . وقد ظل كذلك بعد ازدهار حضارة نوزي بما يقرب من ألفي سنة . وفي النصف الأخير من الألف الأول ق.م. تطورت صيغة ايل إلى ايلاه . . ألاه . . الله ، في منطقة التقاء شعوب العربية الشمالية

بشعوب سوريا الطبيعية ، أي شمال الحجاز والجنوب الشرقي من سوريا الطبيعية ، فأصبحت اسماً عاماً .

ومن أغلاطهم الغريبة قولهم مثلاً :

ايلي أخي : إلهي أخي	Ili-aḫi «my god is my brother»
ايلو نيشو : نحن نملك الله	Ilu-nišu «we have the god»
ايلي ما أخي : إلهي حقاً أخي	Ili-ma-aḫi «my god is indeed my brother»
أمورو شار ايلي : أمورو ملك الآلهة	Amurru-šarr-ili «Amurru is king of the gods»
ايلي ايباشرا : أصبح إلهي متصالحاً معي	Ili-ippašra «my god has become reconciled with me»
دور ايليشو : حائط إلهه	Dur-ilišu «Wall of his god»

من الواضح أن هذه التفسيرات تدل على قصر في النظر وضعف في البصيرة . فلم يؤثر عن القدماء ما يزعمه هذا المؤرخ من دلالات أسماء مركبة لا معنى لها . وبالتالي فإن ما يطرحه من تفسيرات غريب جداً عن مفهوم الإنسان القديم في الشرق المتوسطي بدائياً كان أم حضرياً . بله الإنسان المعاصر . فالقديم لم يعرف الإله كاسم . ولم يرمِ إلى التعبير بمدلول اسمه عن موقف تبشيري (التبشير رافق ظهور الديانات التاريخية) لكي يقول لك إن «إلهي أخي» ، أو المجادل في الموقف التبشيري المؤكد «إن إلهي حقاً أخي» . أو التعبير عن موقف مؤمن (انجيلي) لكي يقول لك «أصبح إلهي متصالحاً معي» أو «أصبحت متصالحاً مع إلهي» .

يُضاف إلى ذلك أن القدماء لم يعرفوا (الآلهة) كجمع . ولم يكن في مفهومهم ما يزعمه هذا المؤرخ (ملك الآلهة) . أما تفسيره (دور ايليشو) بـ «حائط إلهه» فهو مضحك إلى حد القهقهة ، أو مؤسف إلى حد البكاء . ومن العيب أن يصدر عن إنسان عادي ، فكيف عن مؤرخ؟ .

والأغلاط الغريبة والمدهشة نجدها في كتاب ادوارد كييرا[٥٦٨] «قوائم الأسماء الشخصية من مدرسة المعبد في نيبّور» . يقول مثلاً :

دان ايلي : قوة الله	Dan-ili «The might of God»
دان ايليا : قوة إلهي	Dan-ilia «The might of my God»
دان ايليشو: قوة إلهه	Dan-ilišu «The might of his God»

من الـواضح أن المـدلول في الأسمـاء الثلاثـة هو «يقضي الله» . أمـا الاختلاف في صيغ الأسماء المركبة فقد يكون مردّه إلى اختلاف البيئات والألسنة . وقـد يعود إلى تقصيـر الآثـاريين في نقل الحـروف المسماريـة عن الحجارة أو ألـواح الطين ، وبـالتـالي في فهم حركاتها وتهجئتها . أو إلى تقصير المؤرخين في فهم مدلول الاسم المركب لدى القدماء .

ومن التفسيرات الغريبة لدى كييرا أيضاً نذكر :

انو سدي : انو جبلي	Anu-sadi «Anu is my mountain»
انو سدوني : أنو جبلنا	Anu-saduni «Anu is our mountain»
انو إتاشو: انو تخمه	Anu-itašu «Anu his boundary»
انليل جدمج : انليل ثور قوي	Enlel-gudmag «Enlel is a mighty bull»

والأغرب منها قوله :

ننليل نيشي : ننليل إلٰهي	Ninlel-nishi «Ninlel is my god»
إيا ايلوم : إيا إله	Ea'elum «Ea is god»
زماما ايلوم : زماما إله	Zamama'elum «Zamama is god»
زماما بيلوم : زماما إله	Zamama belum «Zamama is God»
اشنان ايلوم : اشنان إله	Ashnan'elum «Ashnan is god»
أخي ايلوم : أخي إله	Aḫi'elum «Aḫi is god»
ألي ايلوم : ألي إله	Ali'elum «Ali is God»
أبوم ايلوم : ابوم إله	Abum'elum «Abum is god»
أبي ايلوم : أبي إله	Abi'elum «Abi is god»
ايليا ايلوم : إلٰهي إله	Ilia'elum «my god is god»

والسؤال الـذي يمكن أن يوجّـه إلى كييرا : هـل كانت الصفـة «ايل» اسمـاً عامـاً في عصر حضارة نيبّور (الألف الثالث ق.م.) ؟ . ثم إن ما يبتدعـه من تفسيرات لهـذه الأسماء المركبة يتجاوز حدود الأغلاط الغريبة والمدهشة إلى نوايا وأهداف، أقـل ما يُقـال فيها إنهـا تشوّه الوجه الحضاري لمنطقة الشرق المتوسـطي . وتشوّه مفهـوم العالي (ايـل ـ الله) الذي انبثق نوره من هذه الأرض وشعّ على العالم . والسؤال الذي يفري في النفس : كيف يجيز لنفســه عالـم آثـار ومؤرخ قضى عمره في التنقيب والبحث ، أن يـدوّن مثل هـذه التفسيرات المدهشة : «زماما إله» . «أخي إله» . «ألي إله» . «أبوم إله» . «أبي إله» . «إلهي إله» . .

وما يزيد الدهشة في النفس أن كييرا يقف على مدلول الاسم المـركب في قليل ممـا

نقله من اسماء معبد نيبّور ، من مثل : انو شيمي : انو يسمع . ولكن الاسمين : أنو ناصر، وأنو رعو ، فيقول في تفسيرهما : انو حامٍ ، وانو راعٍ . وكان الأولى به أن يفسرهما كما فسّر الاسم السابق : انو ينصر، وانو يرعى .

ولا يقل الفونسو أركي(٥٦٩) عن كيبيرا في ارتكاب الأغلاط الغريبة والمدهشة ، رغم أن الفارق الزمني بينهما أو بين كتابيهما طويل . ويبدو أنه لم يستفد من أغلاط سابقيه ، وإنما ارتكب أغلاطاً أشنع مما ارتكبوه . خذ مثلاً ما يعطيه لهذه الأسماء من مدلولات مضحكة ومؤسفة في الوقت ذاته :

الوم ايلوم «المدينة إله»	Alum-elum «The city is a god»
اشلول ايل «ايل جرّ الولد إلى الخارج»	Ishlul'el «El drew (The child) out»
جشبان ايل «ايل قوس»	Gishban'el «El is a bow»
ايل بد «ايل قلعة»	El-bad «El is a fortress»
ايلشو أخا «إلهه أخ»	Elshu-aha «his god is a brother»

ولا يقل وترمان(٥٧٠) أيضاً عن أركي وكيبيرا في ارتكاب الأغلاط . أو قل إن مسألة الغريب والأغرب والأشد غرابة تتوضّح بشكل سافر في فهمه لمدلولات الأسماء المركبة . خذ مثلاً قوله :

نبو دانياني «نبو قاضينا»	أراميش شار ايلاني «أراميش ملك الآلهة»
نبو ندن بل «نبو يعطي إلهاً»	نبو در أصر «نبو يحمي الحائط»
نبو بل أصر «نبو يحمي الإله»	أشور دربانيا «اشور حائط أمامي»
نبو رملاني «نبو الثور البرّي للآلهة»	

ويتوضّع الغريب والأغرب والأشد غرابة أيضاً في فهم البرايت(٥٧١) لمدلولات الأسماء المركبة ، خذ مثلاً قوله :

ايل أب «إله الأب»	El'eb «The God of the father»
بعل جمّون «إله النحاس»	Ba'l-hammon «Lord of the brazier»
بعل صمد «إله الصولجان»	Ba'l-Samad «Lord of the mace»
بعل مدج «إله السمك»	Ba'l-madge, meaning some thing like «Lord of fishery»

وقصّر في هذا الباب أيضاً ج. روبرتس(٥٧٢)، ومن أغلاطه قوله :

ديّان ايلي «إلهي قاض»	Dayyan-ili «my God is a Judge»

والمقصود في مفهوم القدماء : الله يقضي ، أو يقضي الله .

نصر ايلي «محروس من إلهي» — Nasir-ili «Guarded of my God»

والمقصود الله ينصر .

ايلي طاب «إلهي طيّب» — Ili-tab «my God is good»

والمقصود في مفهوم القدماء : الله يطيّب ، الله يشفي (من مرض) ، الله يحسّن .

ايلي كربي «إلهي بركتي» — Ili-Karabi «my God is my blessing»

والمقصود الله يبارك .

ايلي دمقي «إلهي حظي السعيد» — Ili-dumqi «my God is my good fortune»

والمقصود يلطف الله .

وكثيراً ما يكون تقصيره في فهم مدلولات الأسماء المركبة غريباً ومدهشاً ، كقوله مثلاً :

ايلوم قراد «الله جندي ، محارب» — Ilum-qurad «The God is a warrior»

ابوم ايلوم «الأب هو الله» — Abu-ilum «The father is the God»

شدو ايلوم «الله هو الجبل» — Shadu-ilum «The God is the mountain»

أخو ايلوم «الأخ هو الله» — Ahu-ilum «The brother is the God»

ايلوم أسو «الله دكتور» — Ilum-asu «The God is a doctor»

والطريف أن بحث روبرتس قدّم عام ١٩٦٩ كاطروحة دكتوراه في جامعة هارفارد وبإشراف البروفسور ثوركلد جاكوبسن .

ولفرانك[٥٧٣] بينز أغلاطه في هذا الباب أيضاً ، يقول :

تم تعل «البعل تام» — Tam-ba'l «Ba'l is perfect»

والمقصود البعل يُتم .

اش بعل «معطى بالبعل» — 'Ash-ba'l «given by ba'l»

والمقصود البعل يعطي .

ولغراي[٥٧٤] أغلاطه في هذا الباب أيضاً، يقول مثلاً :

يشر ايل «دع الله يجاهد، يكافح» — Yašar'el «Let El strive»

والمقصود الله ييسّر . وعبارة «الله ييسّرها بوجهك» لا تزال تتردد على ألسنة العامة في سوريا ، تُقال للمسافر أو للخارج من بيته لغرض ما .

ولجبسون[٥٧٥] أغلاطه أيضاً ، يقول مثلاً :

عز بعل «قوتي البعل» 'az-ba'l «my strength is ba'l»

والمقصود : البعل يقوّي .

بلط بعل «نجاتي البعل» Palti-ba'l «my deliverance is ba'l»

والمقصود : البعل ينجّي .

ولأولمستد(٥٧٦) أغلاطه ، يقول :

ذكر بعل «البعل يتذكر» Zakar-ba'l «Ba'l remembers»

والمقصود : البعل يذكر .

ومثل هذا الغلط نجده لدى وينيت وريد(٥٧٧) :

ذكر الله «إلهي يتذكر» Dakar-Allah «my Allah remembers»

والمقصود الله يذكر .

والتقصير في فهم الاسماء المركبة قاد بعض المؤرخين إلى إعطاء الاسم الواحد أكثر من تفسير . خذ مثلاً جبسون(٥٧٨) الذي يعطي الاسم «عزر بعل» ثلاثة تفسيرات : Ba'l is helper. Ba'l is help. Ba'l has helped والحقيقة أن مدلول الاسم هو Ba'l helps «البعل يساعد» .

أما جيمس مونتغمري(٥٧٩) فقد أعطى للإله اسماً وكذلك للملاك . وخلط بين الأسماء الشخصية وبين ما زعمه من أسماء للإله وللملاك . فهو مثلاً يرى أن اسم «اجزري ايل» يعني إلهاً أو ملاكاً : 'Ajzeri'el «deity or angel» ويرى أن اسماء : حنّي ايل، أوري ايل. جبر ايل، دان ايل، حمي ايل، نور ايل، عزر ايل، فني ايل، صور ايل، ورحم ايل هي اسماء ملائكة .

ولعل أبشع مثل في تقصيرات المؤرخين الغربيين هو ما نجده لدى الباحث بورخارت كيناست(٥٨٠) (المانيا الغربية) الذي شارك في الندوة العلمية العالمية حول بابل وأشور (٥-١٨ كانون الأول ١٩٧٨) . وكانت مشاركته في موضوع «اسم مدينة بابل» . فصاحبنا الباحث المتخصّص يتفق مع باحثة أخرى ترينك فالدر Trenk walder على أن اسم بابيلّا Babilla يعود إلى لغة حوض الفرات الأوائل ، وليس إلى أصل سومري أو سامي . يقول :

The name is proto euphratian Babilla by origin, and neither sumerian nor semitic .

فهذا التخريج (بابيلّا Babilla) يشوّه الحقيقة والتاريخ . والسؤال : كيف يجيز المؤتمرون لهذا الباحث أن يشوّه اسم المدينة العريقة في التاريخ والحضارة - بابل (باب ايل - باب الله) . ومن البديهي أن «باب» لغة سورية عربية . و «ايل» سوري أكادي

(ويمفهوم صاحبنا الباحث سامية وسامي) ، بينما ينفي عن الاسم الأصل السومري والسامي . والواقع أن الباحث لا يختلف في هذا التخريج التلفيقي الذي ساقه إليه غباؤه أو تغابيه عن كاتب التوراة في تخريجه التلفيقي لاسم بابل. قال «ودعي اسمها بابل لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض . سفر التكوين ١١ : ٩» .

والملاحظ أن ما عرضناه من وجوه التقصير في مؤلفات الغربيين غلّف بهالة ظاهرية من العلم الغزير وطلاء البحث العلمي والموضوعي . ولذلك تبدو هذه المؤلفات لغير المطلع على تراث الشعوب القديمة في الشرق المتوسطي وكأنها صدرت عن مؤرخين متمكّنين تحكم أقلامهم الرصانة والنزاهة والموضوعية .

والواقع أن في هذه المؤلفات من الأغلاط الشنيعة ما يقشعرّ له ذهن الباحث المتخصّص الذي بلغ درجة من الوعي ، وغمر من المؤلفات في هذا الحقل إلى بيدر ذهنه ما يمكنه من تجريد قلمه وكشف الأغلاط التي ألحقت بالتراث السوري العظيم الذي كان منارة هدى وعرفان للشعوب القديمة ، وما يزال غاية النخبة المثقفة في العالم .

يُضاف إلى ذلك أن ما عرضناه من الأغلاط التي يوردها مؤلف واحد ، وليس الوحيد، هي مثال عن المؤرخين الغربيين الذين يستعصي عليهم فهم أسرار لغتنا وروح نصوصنا . ولذلك فهم بتحليلهم تراث الشرق المتوسطي يشوّهون الحقيقة والتاريخ . ثم إن ما يطرحونه في أبحاثهم من تحليل وتقويم لبعض الموضوعات القديمة (مفهوم الألوهة مثلاً والصيغ التي عبّر بها القدماء عن هذا المفهوم) يفتقر إلى الأسس الصحيحة ، ولا يلتزم المعرفة العلمية . وأدهى ما في هذا الطرح هو الأسلوب القائم على الجزم ، هذا الجزم الذي يشكل عاراً على العقل والمعرفة .

وفي العربية لم يظهر بحث يعالج جوانب التطور التاريخي ، أو على الأقل بعض الجوانب ، لمفهوم العالي (ايل ـ الله) . فمن العهود الإسلامية الأولى وصلنا عدد ضخم من المؤلفات المحشوة بدورها بعدد ضخم من الأدلة والبراهين على وجود الله أو على أحديته . أسهب فيها مؤلفوها في الحديث عن الأدلة على وجود الله ، وعن الانفعال بالله ، وعن علم التوحيد وعلم العقائد ، والتنزيه والمعجزات والكرامات . وعن صفات الله . وتكلموا في الذات الإلهية وفي الوحدانية وفي مسألة معرفة الله . وتركزت أبحاثهم في فكرة الله الواجب الوجود ، وفي صفاته كالوحدة والأزلية والأبدية والكمال و . . ولكن واحداً منهم لم يشر إلى تاريخ العالي (ايل ـ الله) كمفهوم أو كبنية . وجل ما ذكروه في «ايل» كبنية يتمثّل في قول ابن منظور[٥٨١] في معجمه «ايل من اسماء الله عزّ وجلّ . عبراني أو سرياني» . وقول الرازي إنه من أصل سرياني . وقول أهل الكوفة إنه من أداة التعريف

«ال» ، كما ينقل عنهم الطبري[٥٨٢] .

وفي النصف الأول من القرن العشرين بعد المسيح لم تخرج أبحاثهم عن إطار العموميات التقريرية ، من أمثلة ذلك ما نراه في كتاب اللقاني «جوهرة التوحيد» وكتاب محمد عبده «رسالة التوحيد» وكتاب السنوسي «جوهرة التوحيد» وكتاب الباجوري (جوهرة التوحيد» أيضاً .

ومن حيث دراسة «الله» كبنية أو كمدلول نقف عند بعض المؤلفين على إشارات بسيطة لا تخرج عن تعريفات القدماء على ما فيها تسرّع في التعميم وضعف في التدقيق والتحقيق . يمثّلهم بطرس البستاني الذي دوّن في معجمه«محيط المحيط» ما سبق أن دوّنه ابن منظور في معجمه «لسان العرب» . قال «ايل اسم الله تعالىٰ بالعبرانية أو السريانية . معناه القوي القدير» .

وما ظهر في الربع الأخير من القرن العشرين من مؤلفات أو مقتطفات في أبحاث مختلفة ، ليس أكثر من ترجمات أو إقتباسات من المؤلفات الغربية . والأخذ بآراء المؤلفين الغربيين . أو عرض ما ورد في كتب الديانات التاريخية عرضاً تقريرياً ، لا أثر فيه للنقد والتحليل أو على الأقل التبصّر والتمعّن في صور وصفات الإله كما عرضتها هذه الكتب .

وفي العربية أيضاً لم يظهر بحث يعالج مسألة الأسماء المضافة إلى «ايل» - (الله) . وما ورد من إشارات إلى بعض الأسماء ولدى بعض المؤلفين هو عبارة عن تخريجات لغوية بسيطة وتافهة ، قامت على افتراضات مغلوطة . خذ مثلاً تخريج أبي منصور الجواليقي[٥٨٣] لاسم «ايل يسع» . يقول «يرى حمزة الكسائي أن أصله ليسع كضيغم . وقدّر تنكيره فدخلت «ال» للتعريف . ثم أدغمت اللام في اللام . وقد وافقه الأعمش في ذلك . وقال آخرون إنه منقول من مضارع ، والأصل يوسع كيوعد ، وقعت الواو بين ياء مفتوحة وكسرة تقديرية لأن الفتح إنما جيء به لأجل حرف الحلق ، فحذفت» . فهذا التخريج لا أساس له من الصحة لأنه قام على افتراض مغلوط (الأصل ليسع أو يوسع) . ولو كان الجواليقي يعرف أن فعل «يسع أو يثع» هو في اللغة السورية العربية الأم يعني ينقذ يخلّص ، وقد أُضيف إلى «ايل» (ايل يسع) الذي يعني الله ينقذ أو الله يخلّص ، لكفانا مؤونة هذا التخريج الذي شغل اللغويين العرب ، مع غيره من التخريجات ، عصوراً طويلة .

ويضيف الجواليقي في تخريجه لبعض الأسماء الأُخرى قائلاً «وأما إسرائيل ففيه لغات . فقد قالوا مثلاً اسرال كما قالوا ميكال . وفي جبرائيل لغات أيضاً : جِبريل جَبريل

جَبْرئيل جباريبل جبرئل وجبرين» .

من الواضح أن ما يطلق عليه الجواليقي مصطلح «لغات» ، هو صيغ متعددة ، تبعاً لتعدّد البيئات والألسنة ، لاسم جبرايل الذي يعني «الله يقوّي ، الله يعزز» .

ولابن منظور في معجمه «لسان العرب» تخريج قريب من تخريج الجواليقي ، فهو ينقل عن ابن الكلبي «قولهم جبرائيل وميكائيل وشراحيل وإسرافيل وأشباهها ، إنما تنسب إلى الربوبية ، لأن إيلاً لغة في إلّ ، وهو الله عزّ وجلّ ، كقولهم عبد الله وتيم الله . فجبْر عبد مضاف إلى ايل» .

والملاحظ أن ابن منظور لم يصحّح قول ابن الكلبي ، على الأقل في جزمه بأن «جبر عبد مضاف إلى ايل» لأنه لم يكن يعرف ، وهو صاحب معجم ، أن «جبر» ، باللغة السورية العربية الأم ، فعل يعني يقوّي ، يعزّز .

ومثلاً آخر في تخريج الفراء لاسم «أرب ايل» - (يهب ايل - ينعم ايل) - المدينة - الحاضرة في الحزون الشمالية من بلاد النهرين ، العريقة في التاريخ والحضارة ، الذي ينقله ياقوت الحموي في «معجم البلدان» بقوله «إرْبِل . قال الفراء : الريبال النبات الكثير الملتف الطويل . فيجوز أن تكون هذه الأرض اتفق فيها في بعض الأعوام من الخصب وسعة النبت ما دعاهم إلى تسميتها بذلك . و «اربل» قلعة حصينة ومدينة كبيرة ، ولقلعتها خندق عميق . وهي على تلّ عال من التراب ، من أعمال الموصل بين الزابين» .

والطريف في هذا الباب هو تخريج الخفاجي لاسم «الياس» في كتابه «شفاء الغليل» يقول «الياس نبي واسم جد للنبي (صلعم) غير عربي . وقيل عربي وزنه فيعال من الألس وهو الخديعة واختلاط العقل . أو افعال من رجل أليس أي شجاع لا يفر . وقيل سمي بالياس ضد الرجاء ، ولامه للتعريف وهمزة وصل . وسمي السل داء إياس وداء الياس لأن الياس مات منه . ذكره السهيلي» .

* * *

أظهرت المكتشفات الآثارية في القرنين الأخيرين (التاسع عشر والعشرين) الكثير من أسرار التاريخ المدفونة . وألقت نوراً على جوانب مختلفة من تاريخ الشرق المتوسطي وحضارته القديمة ، ظلت حتى القرنين الأخيرين غامضة أو مجهولة . وكان علينا بعد هذه الإكتشافات مراجعة ما كنا قد تعلّمناه ، وتصحيح قضايا تاريخية متوارثة أسوء فهمها عبر الأجيال ، وما تزال شائعة بين الناس ومقبولة منهم بفعل نشأتهم على التوراة اليهودية أو أخذهم بها ، وتأثيرها في نفوسهم . وكان من واجبنا أن نعيد النظر في مفاهيمنا

ومعتقداتنا . وأن نعمد إلى إعادة تصنيف تراثنا . ولكن يبدو أننا ما زلنا نغط في سبات عميق . فما زال القيّمون على شؤوننا الفكرية ، مؤرخين و (علماء) ولغويين وأساتذة جامعات ، يواجهون الموضوع بشعور من الرهبة والفزع . أو يجدون أنفسهم ، في حال المواجهة ، في خضم من المجردات التي لم تألفها عقولهم . فيتناقلون المصطلحات والمفاهيم التاريخية المتوارثة منذ أكثر من ألفي عام ، والتي تناقلتها الأجيال دون تبصّر فيها أو تمعّن في مراميها وأبعادها . ويبدو أنهم لم يدركوا حتى الآن أن صفات المفكر أو المثقف لا تنحصر في سعة الإطلاع وشمول الثقافة والأخذ من كل علم بطرف ، كما يقول أبو عمرو بن العلاء . وإنما تتعدّى هذا الثوب الفضفاض الذي طالما نشرناه فوق رؤوسنا ، إلى التوق لتقصّي الحقيقة ، وسلوك النهج العلمي الموضوعي في البحث . وفي تقصّينا الحقيقة يلزمنا العمق في التفكير ، والتدقيق في الأصول ، والتبصّر في «الحقائق» و «المسلّمات» المقدسة أو غير المقدسة .

ومنهم من يشايعون المستشرقين أو الكتّاب الغربيين ، فتراهم مفتونين بمذاهبهم ، مأخوذين بتخريجات باحثيهم . لا يريدون أن يسمعوا برأي جديد لم يذهب إليه الكتاب الغربيون ، أو يقولوا به ، أو لم يمر بخاطرهم . ومن باب تحكيم الأجانب في أُمورنا جميعها . وتسليطهم علينا وعلى مقدراتنا ، وتسليمهم قيادنا ، وإدخالهم في جميع شؤوننا ، يأخذون بما قالوه في لغتنا وألسنتنا ، وبما وضعوه من مصطلحات في شؤوننا اللغوية والأدبية والفكرية . من ذلك مثلاً ما اعتمده المستشرقون المتقدمون والمؤرخون في الغرب الأوروبي والاميركي من اعتبارات واصطلاحات لغوية مغلوطة ، تابعهم عليها من بعد ، ومن دون بحث أو تمحيص ، جميع الباحثين و (العلماء) والمؤرخين في الغرب والشرق ، فشوّهوا بها التاريخ وضلّلوا الدارسين ، من مثل : «اللغة العبرية» ، و «اللغة أو اللغات السامية» ، و «الشعوب السامية» .

وكنت قد أشرت إلى هذا الموضوع في القسم الأول من هذا البحث . وسوف ألقي عليه مزيداً من الضوء في مؤلفي القادم . ومن البديهي أن التكرار أو إعادة ذكر الموضوع في أكثر من مكان في البحث ، دليل على رغبة الكاتب في تحرير ما يمكن تحريره من أدمغة غسلها التقليد فاستعبدها . واسمحوا لي هنا أن أُخاطب المؤرخين العرب بكل محبة واحترام وتواضع قائلاً : إنه لمن ضحالة الوعي وضعف البصيرة أو قلة التبصّر أن يذكر المؤرخ منهم (شعب سامي) أو (لغة سامية) أو (لغة عبرية) مثلاً . إن من واجبنا أن نتدارك الأمر قبل فوات الأوان ، أي قبل أن يصبح الخطأ هو القاعدة . وإذا كان الخطأ قد أصبح هو القاعدة بالنسبة للمجتمعات الأوروبية والأميركية التي تحتضن مكتباتها عشرات الآلاف

من المجلدات والموسوعات والدوريات العلمية والتاريخية والأركيولوجية . وكلها تنطلق من مفهوم (اللغة العبرية) و (اللغات السامية) و (الشعوب السامية) . فمن الواجب علينا ـ نحن السوريين ، وبلغة أعم نحن العرب ـ أن نأخذ بالمبدأين المفروضين على المؤرخ : الأول ألّا يقول أي شيء خاطىء . والثاني أن يجرؤ على قول كل ما هو حقيقي .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما ألّفه في تاريخنا عدد من المؤرخين المشبوهين ، فشوّهوا حقيقته ، وحاولوا محو أو تشويه مآثر المساهمة السورية في الحضارة الإنسانية وفي فكرها الديني . وبينهم عدد من المؤرخين اليهود والمسيحيين المتهوّدين ، يأكلهم الحقد على دور سوريا الحضاري والفكري القديم ، فهم يحاولون التقليل من أهميته ، ويعملون على اقحام فكرهم ودورهم التاريخي ، وعلى إعطائه الأهمية بعد تهديم ما سبقه وما عاصره وما كان أساساً له يفوقه عمقاً وبعداً .

والمؤسف أن السوريين لا يعرفون تاريخ حضارتهم . ولا يدركون مدى التشويه الذي نسج وينسج حول هذه الحضارة . ولذلك فنحن نفتقر إلى المؤرخ الذي يستوحي الموضوعية في أبحاثه التاريخية . ويعرف أن التاريخ ، كالفيزياء والكيمياء والرياضيات ، علم له طرقه وفلسفته وموضوعيته . إلى المؤرخ الذي يستلهم تاريخنا الحضاري القديم لبناء حاضرنا وتصوّر مستقبلنا . فيسعى إلى كتابة تاريخ الأخلاق ، الآداب ، العلوم ، القوانين ، العمران ، والمعتقدات ، لأن القارىء لا يرى غير تواريخ الأحداث والملوك تملأ رفوف المكتبات . ويجهد في خلق صلة حضارية قوية بيننا وبين الماضي ، لأن التراث ركيزة البناء والتقدم . والأمة تنهض على تراثها ، ومنه تستمد الزخم والحيوية .

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن صيغة «البعل» كانت منذ أواسط القرن التاسع عشر على أقلام المؤرخين والباحثين بغالبيتهم «بل» Bel . وصيغة «البعلة» «بيليت» Belit . وظلت هذه الصيغ على أقلام الكثير من المؤرخين الغربيين . وعندما بدأ العرب باقتباس أو ترجمة بعض المؤلفات الغربية التي تتناول تراث الشرق المتوسطي في الربع الأخير من القرن العشرين ، لم يكن لهم أي إلمام بالتراث السوري المكدّس في جامعات ومتاحف أوروبا واميركا . فكانوا ينقلون الكلمات ذوات الأصل السوري العربي بصيغها الأجنبية . يكتب سموئيل هنري هوك مثلاً البعل بصيغة Bel والبعلة بصيغة Beltia ، فينقلها المترجم العربي (نهاد خياطة مثلاً)[٥٨٤] بل وبلطيا .

والمؤسف أن يقع في هذا الغلط واحد من المؤلفين العرب القلائل ، يمكن للباحث (بله القارىء العادي) أن يكن لهم الاحترام والتقدير ، هو قاسم الشوّاف الذي ألّف كتاباً واحداً قبل أن تختطفه فرنسا حيث ضاع . ومن المؤسف أيضاً أن يسكت قلم هذا

الكاتب . فالشوّاف يكتب «بل» بـدلاً من البعل ، ويقـول مثل الغـربيين «الإله بـل»[٥٨٥] . فيضيع القارىء ويمسخ التراث .

ومن أمثلة أغـلاط المفكرين العـرب تفسير الـدكتور فيليب حتي في كتـابـه «تـاريـخ سوريا» لمعنى «قادش» ـ (القدس) التي أسسها الكنعانيون على ساحل الأطلسي في الألف الثاني ق.م. وربما قبل هذا التاريخ . يقول صاحبنا «أسست قادس Gades (اليوم Cades) في اسبانيا . وقـد اشتق اسم قادس من كلمـة فينيقية معنـاها جـدار أو مكان مسـوّر» . وفي تفسيره لـ «بيت جبرين» ـ (بيت جبرائيل) في فلسطين يقول إن «معناها موطن الجبابرة» .

من المؤسف أن يصـدر هذا الكـلام عن مؤرخ قضى عمـره في الـولايـات المتحـدة الأميركية ، واطلع على التراث السوري المخزّن في جامعاتها ومتاحفها ومكتباتها العامة .

والمعـروف أن الكتاب الغـربيين خلطوا في أحيان كثيـرة بين الصفـة التي تـدل على «السيّـد» «العالي» وبين الاسم الـذي تدخـل هذه الصفـة في تركيبـه . وكثيـراً مـا اعتبـروا الأسماء المضافة إلى الصفة «ايل» اسماء آلهة . ووقع المؤرخون العرب في هذا الغلط عن طـريق اقتباسهم أو نقلهم عن المؤرخين الغـربيين . والمؤسف أن يسري هـذا الحكم على واحد من مفكرين قلائل ، تنـاولوا في مؤلفـاتهم جوانب من تـراثنا ، يستـطيع البـاحث (بله القـارىء العادي فهـو بشكل عـام لا يفرّق بين الغث وبين السمين ، أو بين الصحيـح وبين الغلط) أن يكن لهم الاحترام والتقدير . يقول الدكتور يـوسف الحوراني «أمـا الأسماء التي رافقتها صفة «ال» فقد بلغت الآلاف ، بحيث وجد في مكتبة أشور بنى بعـل الشهيرة قـائمة تضم أكثـر من ألفين وخمسمائـة اسم إله ، بـابلي الأصل . كمـا جمع ديمـل ثـلاثـة آلاف وثـلاثمائـة اسم بلقب إله . وعـدد تلكفيست ألفين وأربعمـائـة منهـا» . ويضيف الـدكتـور حوراني[٥٨٦] «ونستنتج من مثل هذا العدد الواسـع للكلمات التي دخلتهـا بادئـة «ال» ، أن هـذه البادئـة ، مع مـدلولهـا الذهني ، كـانت واسعة السلطة في يـوميات النـاس وعلاقـات تعاملهم وفق الذهنية اللاهوتية المبدئية . وهـذا يعني أن الإشارة التصنيفيـة هذه كـانت أكثر الإشارات التصنيفية استعمالاً في الكتابة .

أكبرْ بهذا المؤلف أن يقع في هذا الغلط على غرار الكتّاب الغـربيين . فالآلاف التي يذكرها ليست اسماء آلهة ، وإنما هي اسماء شخصية يدخل «ايل» في تركيبها . وما يسميـه «بادئة» و «لاحقة» إن هو إلاّ صفة «ايل» ـ (الله) التي تدخل في تـركيب الاسم . وقد ذكـرنا الكثير منها في مـا تقدم ، من مثـل حن ايل وايـل حن. أوس ايل وايـل أوس . يسمع ايـل وايل يسمع .

غلط آخر للدكتور حوراني هو تفسيره لـ «الإله انليل» . يقول «اسم هذا الإله مـركب

من كلمتين هما «ان» وتعني السيد أو الزعيم في لغة سومر ، وتطلق على كبار الأبطال من الملوك وقادة الجيوش ، كما تطلق على بعض النساء البارزات كما يرى سموئيل كريمر . ثم كلمة «ليل» وتعني جوّ الأرض وما فيه . وهي على الأرجح الأصل البعيد لكلمة «ليل» العربية حيث هناك لفظة «ظلام» وهي أكثر أصالة سامية . وهكذا يعني اسمه «سيد الفضاء» . وهو يختص بكل سلطة فاعلة في الجو والمناخ وما ينتج عنهما من تنظيم للطقس والفصول والأمطار والفيضانات وما يتبعها من سلطة مباشرة على يوميات الإنسان» .

لقد فعل الدكتور حوراني كما فعل قبله الكتاب الغربيون ، فجعل للإله اسماً ، ونسب له وظيفة (تنظيم الطقس والفصول) . وكان تخريجه لـ (اسم) الإله كتخريج كريمر[٥٨٧] لوجود هذا الإله ، بقوله «ان (السماء) كان الذكر ، وكي (الأرض) كانت الأنثى . ومن اتحادهما ولد إله الهواء انليل» . وأضاف الدكتور حوراني تخريجات العرب اللغوية بقوله «إن ليل تعني جو الأرض ، وهي على الأرجح الأصل البعيد لكلمة ليل العربية» .

غلط ثالث للدكتور الحوراني يتمثّل في زعمه ، كالكتاب الغربيين ، بوجود آلهة متعددة ، لها أسماؤها ومراتبها ووظائفها . فهو مثلاً يقول «يبدو أن ايل كان إله اليابسة والمرتفعات ، بينما كان داجون إله البحار» . والأدهى أن ينسب اسم الله ليعقوب . يقول «وايل الكنعاني هو الإله الأعظم ، وقد دعاه يعقوب الله» . فهذا الكلام يعني أن يعقوب هو الذي دعاه الله . من المؤسف أن يقع كاتب كبير في مثل هذا الغلط القبيح .

وقصّر الكتّاب العرب أيضاً في فهم الصفات التي اطلقتها الشعوب القديمة على القوّة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء ، أو على القوى التي تقربت من الإنسان ، أو شعر الإنسان بقربها منه . وفي فهم الأسماء المضافة إلى هذه الصفات . يكتب الغربيون مثلاً اسم «حنّي بعل» - (البعل يحن) بصيغة Hannibal . فينقلها الكتاب العرب : هانيبال أو هنيبعل أو ما شابه ذلك . ويكتب الغربيون صيغة «هدد» بالأحرف Hadad أو Adad . فينقلها الكتاب العرب «أدد» و «حدد» . ونادراً ما يكتبونها بالأحرف الأصلية «هدد» . ويكتب الغربيون اسم «اشور ناصر بعل» - (البعل ينصر أشور) بصيغة Ashurnasirpal واسم «شلم نصر» - (ناصر السلام) بصيغة Shalmaneser . فينقلها الكتاب العرب بصيغ مختلفة تدل على قلّة فهم الناقل في ما ينقل . من ذلك مثلاً الصيغ التي يدوّنها مترجمو «تاريخ الشرق الأدنى القديم» لانطون مورتغات : اشور نازيربال وزلما نصار . والطريف أن واحداً منهما يعرّف نفسه بأنه دكتور في الآثار واللغات الشرقية القديمة . والآخر ماجستير في اللغات الشرقية القديمة .

ويكتب الغربيون الصفة «عشتروت» بصيغ متعددة أشرنا إلى بعضها في ما تقدم . أما المؤلفون العرب ، أعني المتخصّصين منهم بدراسة تراث الشرق المتوسطي (بله عامة الناس فهم لا يفرقون كما قلت بين الغث وبين السمين ، أو بين الصحيح وبين الغلط) ، فينقلون عن الغربيين دون تروٍّ أو تفكير . وغالباً ما تقف في دراساتهم على أغلاط شنيعة . خذ مثلاً ما يكتبه الدكتور فاضل عبد الواحد[٥٨٨] وافي «تفيد كلمة عشتار في الأكادية معنى الإلهة . وقد اشتق من هذا الاسم الصفة اشتاريتو Ishtaritu بمعنى المقدسة ، والتي أصبحت أحد نعوت الإلهة عشتار» .

من المؤسف أن يصدر هذا الكلام عن دكتور أو بروفسور متخصّص بدراسة تراث الشرق المتوسطي . فمن البديهي أن صيغة عشتار ، أو بلغة صاحبنا كلمة عشتار ، لا تفيد معنى الإلهة كما يقول صاحبنا . وهي صفة لا اسم . فالمرأة هي عشيرة الرجل ، والرجل عشير المرأة . ولا تزال هذه الصفة في العربية حتى اليوم .

والمضحك إلى حد القهقهة أو المؤسف إلى حد البكاء أن يأخذ صاحبنا البروفسور الصيغة التي وضعها الغربيون لـ «عشتروت» وهي Ishtaritu ويضع لها رغم أنف العقل والمعرفة والتاريخ معنى «المقدسة» ويجعلها أحد نعوت (الألهة) عشتار . يا لطيف ! لقد جعل من صيغة عشتار اسماً ، وصفة تنعت هذا الاسم . ولذلك فليسمح لي أن أرثي له باحترام وأشفق عليه بمحبة .

ومثلاً آخر في أنيس فريحة الحائز على درجة الدكتوراه في العلوم السامية من جامعة شيكاغو ، والمدرس في جامعات أوربية وأميركية . يتحدث عن «عشتر» فيقول «إنه إلٰه سامي مشترك» . وفي تعريفه يقول «هو إلٰه السقي والري . والجذر (ع ث ر) أو (غ ث ر) في العربية يفيد السقي والري» .

وفي الفقرة التالية يتحدث عن «أشيرة» فيقول في تعريفها «ويجب ألاّ يقع التباس بين اسمها واسم عشتروت ، فإنهما إلاهتان مختلفتان» . ويضيف «أما اسمها فمشتق من جذر (أ ث ر) ويفيد معنى المشي والخطو المتئد» . وفي فقرة ثالثة يتحدث صاحبنا عن «عشتروت» .

المدهش أن استاذنا يتحدث عن «عشتر» وعن «أشيرة» . وعن «عشتروت» . ويضع لكل اسمه ومعناه . ويبدو أن الأستاذ المتخصّص بالعلوم السامية لا يعرف أن عشتر وأشيرة وعشتروت وعشتار و . . هي صيغ متعددة لصفة واحدة : «العشيرة» - (السيدة) التي هي بمفهوم القدماء في سوريا الطبيعية إلى جانب «السيد» دائماً .

وما لاحظه أُستاذنا من اختلاف بين عشتر وأشيرة وعشتروت مردّه إلى اقتباسه عن الكتّاب الغربيين دون أي محاولة منه لردّ الاسم إلى أصله ، وإنما ينقله كما نطق به الكاتب الغربي . ومن البديهي أن الفرق كبير بين نطق اللسانين : العربي والغربي ، وهذا ليس موضوع بحثنا الآن . وإذا كان ثمة اختلاف في نطق اللفظ الواحد في سوريا الطبيعية ، كأن يكون في بيئة عشتار وفي أُخرى عشتروت وفي ثالثة عشتر وفي رابعة عثتر ، فمردّه إلى تعدّد البيئات والألسنة .

ومثلاً ثالثاً أو رابعاً في الدكتور إحسان عباس المدرّس في الجامعة الاميركية في بيروت ، والمحاضر في أكثر من جامعة أُوروبية وأميركية . فقد طلع علينا الأُستاذ في السنوات الأخيرة (١٩٨٧) بكتاب «تاريخ دولة الأنباط» . يقول فيه «إن أرباب الأنباط هي اللات والعزّى ومناة وذو الشرى وشيع القوم . وكل هذه الأرباب كانت تناسب عيشة البداوة ، وخاصة شيع القوم فإنه كان ربّاً يكره شرب الخمر» .

دعونا نسأل أُستاذنا الباحث : ماذا تقصد بقولك إن هذه الأرباب كانت تناسب عيشة البداوة ؟ . هل يعني أن هناك أرباباً أُخرى تناسب عيشة الحضارة ؟ . والسؤال الأهم : هل هناك رب يناسب عيشة البداوة ، وآخر يناسب عيشة الحضارة ؟ . وكيف ؟ . وأين ؟ . ولا تنس يا أُستاذنا أن ما تسميه أرباباً إن هو إلاّ صفات للقوة العالية أو للقوى الطبيعية التي تقربت من الإنسان أو شعر الإنسان بقربها منه . فقد رأينا في ما تقدم من هذا البحث أن اللات (العالية) هي مؤنث ايل (العالي) ، والعزّى (القوية القادرة) مؤنث العزيز (القوي القادر) ، وشيع القوم (مخلّص القوم) هو صفة للقوة العالية المطلقة (الله بمفهومنا) . أما قولك يا دكتور بأن «شيع القوم كان رباً يكره شرب الخمر» فهو قول يثير الاستغراب والاستهجان حقاً . وهل هناك ، برأيك طبعاً ، رب يحب شرب الخمر ، وآخر يكرهه ؟ . وعلى قولك هذا يمكن للباحث أن يكتب فصلاً ، ولكني لا أود أن أجعل من كتابي جملة ردود على باحثين في الغرب والشرق ، فهذا شأن آخر . وكل ما أبغيه هو الإشارة ، الإشارة وحسب .

ويبدو أن أُستاذنا الجامعي نقل أو اقتبس تعريفه لشيع القوم عن أُستاذ جامعي آخر هو الدكتور أنور الرفاعي . أو أن الاثنين اقتبسا التعريف ذاته عن مؤرخ ثالث . يقول الرفاعي[٥٨٩] «الإله شيع القوم . . وهو الإله الذي لا يشرب الخمر . ولعله إله القوافل لأن اسمه يدل على التشييع» .

والمضحك إلى حد القهقهة والمؤسف إلى حد البكاء أن صاحبنا الرفاعي عمد إلى تخريج الصيغة لغوياً كما فعل اللغويون القدماء ، فرأى أن «شيع» يدل على التشييع ، كما

رأى الخفاجي من قبل أن ايل يسع من «يسع أو يوسع» .

وتقصيرات المؤلفين العرب في هذا الباب كثيرة ، نذكر مثلاً الدكتور سامي القصّار . يقول في «مصادر تاريخ الجزيرة العربية» الصادر عن جامعة الرياض «اربل أسسها الأشوريون لتكون مقراً لآلهتهم الأربعة . وكانوا يسمونها «أربا ايلو» أي الآلهة الأربعة» .

من المؤسف أن يصدر هذا الكلام عن أُستاذ جامعي يشرّع قلمه للكتابة في تاريخ الشرق المتوسطي القديم .

ومثلاً آخر في قسطنطين خمار[٥٩٠] الذي يقول إن «الجليل كلمة سامية تعني الدائرة» .

وفي تفسير «ايل مقه» - (ايل الرجاء) يقول كاتب في مجلة سومر «واسم الزهرة في لغة حمير يلمقه وألمق . والصلة بين تألّق وبين هذين الاسمين واضحة ، ومرد ذلك إلى شدة لمعان الزهرة وتألقها» . هذا كلام تافه وغلط شنيع .

وفي الموسوعة الفلسطينية تأخذك الدهشة من كثرة الأسماء المشرفة ، والمحرّرة ، والإستشارية . مئات الأسماء مع ألقابها وشهاداتها العالية . والمؤسف أنك لا تجد واحداً من الأسماء الكثيرة فطن إلى «بيت ايل» في فلسطين . أما «بيت جبرين» فيقول فيها محرّر المادة «بناها جبابرة العمالقة الكنعانيين ، ومعناها بيت الأقوياء الجبابرة» . لقد فعل صاحبنا المحرر كما فعل الدكتور حتي . والواقع أن بيت جبرين مخفّفة من بيت جبر ايل ، وقد ذكرنا ذلك قبلاً .

ويقول صاحبنا المحرر البروفسور في مادة «القدس» إن «أقدم اسم لها أوروسالم ، ينسبها إلى الإله شالم ، أي إله السلام لدى الكنعانيين» . جميل هذا الكلام ، فلقد جعل صاحبنا من السلام إلهاً ، ولم يترك المؤلفين الغربيين يسبقونه في ابتداع الآلهة ، وتجليلها بالأسماء والوظائف والمراتب .

والطريف هو تفسير المؤرخين العرب لاسم جبيل - المدينة العريقة في التاريخ والحضارة . فجبيل (جب ايل) تعني «بيت ايل» . ولا تزال كلمة «جب» عند اللبنانيين تعني البيت أو الأصل . فكثيراً ما نسمع في القُرى اللبنانية قولهم : فلان من جب فلان . وبفعل طبيعة البيئة واللسان كانت جب ايل على ألسنة الإغريق «باب ايل» . ثم أضافوا إليها اللاحقة اليونانية س S فصارت باب ايلوس .

أما المؤرخون العرب فقد رأوا جميعهم أن اسم بابلوس Byblos هو تحريف لاسم الورق المصري بابروس papyrus الذي كان الكنعانيون يتجرون به . وقد أطلق قدامى

الإغريق على المدينة اسم الورق الذي كان تجارها ينقلونه في مراكبهم من مصر إلى اليونان . ويضيف أحدهم «أما هيرودتس فكان أبداً يذكر Bublos عوضاً عن Papyrus تحريفاً أو خطأ ، لا ندري» .

وقال آخرون إن الكتاب المقدس Bible مشتق من Byblos لأنها أول من عرف الكتاب . وردّ آخرون زاعمين أن العكس هو الصحيح ، أي أن Byblos مشتق من الكتاب .

ويقول (مؤرخ) أو (مؤلف) آخر ، لا فرق ، لأن التاريخ كثيراً ما يكون على أقلام البعض تأليفاً . يقول صاحبنا «إن اسمها يعني مصنع الخزف . وإن معناها يأتي بمعنى الحد والتخم» . ويقول في جبيل «جبل التراب أي صب عليه الماء ودعكه طيناً» .

والأطرف هو جهل العرب لمعاني أسمائهم واسماء مدنهم وحواضرهم واسماء الشخصيات السياسية والاجتماعية والفكرية والدينية التي كان لها أبلغ الأثر في تاريخهم . في دمشق العريقة في التاريخ والحضارة قالت لي فتاة اسمها ايليسار : يا أستاذ إن زملائي في العمل يقولون لي إن اسمي يهودي . فهل هذا صحيح ؟ . ويقول آخرون ، لدى تقديم اسمي لهم : هل أنت سورية قومية ؟ . على اعتبار أن مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي انطون سعادة أطلق على ابنته اسم ايليسار .

فقلت لها : من المؤسف أو المؤلم إلى حدّ البكاء أن يصل بنا الجهل والتخلّف إلى هذا الحدّ ، والواقع أن ٩٩ بالمائة من الشعوب العربية (بله الشعوب الأخرى) يعتقدون أن اسم ايليسار يهودي . وكذلك أسماء أورشليم وبيت ايل وإسماعيل ويزرعئيل وإسرائيل هي أسماء يهودية .

يا ابنتي إن اسم ايليسار قديم ، ولا أستطيع أن أعود بك إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة ق.م. (التاريخ المدوّن) . فمنذ ترسّخ في نفوسهم مفهوم ايل (الله) أدخلوا صيغته في تركيب الكثير الكثير من أسمائهم ، ومنه ايليسار . وظل اسم ايليسار معروفاً وكثير التداول . وايليسار البطلة أبحرت من صور على رأس قوة كنعانية إلى ساحل افريقيا الشمالي وأرست مدينة قرطاجة العريقة في التاريخ والحضارة (٨١٤ ق.م.) . ومن المؤسف أو المؤلم إلى حد البكاء أن يجهل العرب تاريخ ايليسار وتاريخ قرطاجة التي نافست روما زمناً طويلاً . ولولا (ما أبشع هذه اللولا) . . لاستطاع بطل قرطاجة حنّي بعل أن يقضي على روما . ولكان خلّص البشرية في ما بعد من الاستعمار الروماني الذي قضى على حضاراتنا التي اهتدى بنورها زمناً طويلاً .

يا ابنتي إن أحبار اليهود عندما عكفوا في السبي البابلي على تدوين تاريخهم ـ كتابهم المقدس (التوراة) ، سرقوا أرضنا وآدعوها ، وسرقوا تراثنا وأدعوه ، وسرقوا إلهنا وادعوه ، وسرقوا لغتنا وادعوها . ومن الطبيعي أن الأسماء من ضمن هذا التراث .

قلت لك يا ابنتي إن العرب يجهلون معاني أسمائهم وأسماء أبطالهم وحواضرهم والشخصيات المشعّة في تاريخهم . فهم يجهلون مثلاً معنى اسم أورشليم (مدينة السلام) وبيت ايل (بيت الله) وإسماعيل (يسمع الله) ويزرعئيل (يزرع الله) والكرمل (كرم الله) والخليل (خل الله) والجليل (جل الله) وحايل (في العربية الشمالية) ـ (حي الله ـ يحيي الله) ويرحمئيل (يرحم الله) وإسرائيل (الله ييسّر) وايليسار (الله ييسّر أيضاً) و . .

إنهم يجهلون مدلول «جبيل» ـ اسم المدينة ذات المجد العريق والإشعاع الحضاري في فجر الحضارة الإنسانية . ومدلول «بابل» ـ اسم المدينة العريقة في التاريخ والحضارة . ومدلول «مرسيليا» ـ اسم المدينة ـ المرسى ـ المرفأ ، التي أسسها الكنعانيون على شاطىء المتوسط الغربي في الألف الثاني ق.م. وباختصار ، فالأمثلة كثيرة ، إن ما يجهلونه في هذا الباب أكثر مما يعرفونه .

1 - J. Hackin and others , Asiatic mythology , N .Y . (n . d .) p . 7 .

٢ ـ د . قسطنطين زريق ـ في معركة الحضارة ـ بيروت دار العلم للملايين ١٩٧٧ ط ٣ ص ١٥ .

3 - A . Toynbee , A study of history , oxford 1955 , p . 22 .

٤ ـ د . صادق جلال العظم ـ نقد الفكر الديني ـ بيروت دار الطليعة ١٩٨٢ ط ٥ ص ١٢ .

٥ ـ د . محمد النويهي ـ مجلة الآداب ـ بيروت أيار ١٩٧٠ .

٦ ـ قاسم الشواف ـ مع الكلمة الصافية ـ دمشق ١٩٦٩ ص ١٩ .

٧ ـ يوسف شلحت ـ علم الاجتماع الديني ـ حلب ١٩٤٦ ص ٩ .

٨ ـ حسن سعفان ـ الدين والمجتمع ـ القاهرة ١٩٥٨ ص ١٢ .

9 - W . Fulco , The Canaanite God Resep , N . Haven 1976 p . 23 .

10 - G . Barton , semitic and Hamitic origins , london 1934 .

11 - H . B . Philby , The back ground of Islam , Alexanderia 1947 .

12 - A . Clay , The Empire of Amorites , philadelphia 1919 .

- Amurru - The home of The northern semitic , N . Haven 1919 .

13 - G . contenau , la civilisation phénicienne , paris 1949 p . 8 , 34 .

14 - S . Moscati , Ancient simitic civilization , london 1957 p . 36 .

15 - R . Dussaud , la pénetration des Arabs en syrie avant L'Islam , paris 1955 .

١٦ ـ نسيب وهيبة الخازن ـ من الساميين إلى العرب ـ بيروت ١٩٧٩ ص ١٤ .

١٧ ـ ابن خلدون ـ المقدمة ـ بيروت ١٩٠٠ ص ٣٧١ .

١٨ ـ توينبي ـ دراسة التاريخ ص ٧٠ الهامش ٣ .

١٩ ـ موسكاتي ـ الحضارة السامية القديمة . الهامش ١٤ .

٢٠ ـ موسكاتي المرجع السابق .

21 - A . Porrot , Sumer , london 1960 , p . 69 .

22 - W . Durant , the story of civilization , N . Y . 1935 , P . 118 .

23 - S . N . Kramer , History begins at sumer , philadilphia 1981 .

٢٤ ـ موسكاتي المرجع السابق .

٢٥ ـ كلاي ـ امبراطورية الأراميين . الهامش ١٢

26 - A . Book ; p . Slasson ; H . Anderson , World history , U . S . A . 1942 , P . 35 .

27 - S . Moscati , The world of the phoenician, London 1968 P.4 .

28 - W. Keller, The Bible as history , london 1980 , P . 79 .

٢٩ ـ موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص XXI الهامش ٢٧ .

30 - Dupont Sommer , les Araméens , paris 1949 .

٣١ ـ سومير . المرجع السابق .

32 - H . Frankfort . The birth of civilization in the ancient neareast , Bloomighton 1959 .

٣٣ ـ زريق ـ في معركة الحضارة ص ٤٢ .

34 - Jacques Couvin , les premiers Villages de syrie - palestine du Ixème AU VIIème Millenaire avant j . C .

المدن الأُولى في سوريا بين الألف التاسع وبين الألف السابع ق . م . ترجمة قاسم طوير ـ دمشق ١٩٨٤ .

٣٥ ـ المرجع السابق ـ مقدمة الكتاب .

36 - A . Toynbee , Man Kind and mother earth , oxford 1976 , p . 95 .

٣٧ ـ فرانكفورت ـ ميلاد الحضارة في الشرق المتوسطي القديم ص ١٠٧ الهامش ٣٢ .

٣٨ ـ المرجع السابق . وانظر ديورانت ـ قصة الحضارة ص ١٢٤ .

39 - D . Bates and D . Garrod , the stone age of mount carmel, oxford 1937 , p . 171 .

٤٠ ـ موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص ٨٣ الهامش ٢٧ .

41 - The Iliad of Homer (trans.), by Ennis Rees , N . Y . 1963 P . 485 .

٤٢ ـ ديورانت قصة الحضارة ص ١٢٥ .

43 - Lionel Casson , The ancient mariners , N . Y . 1959 , P . 37 .

٤٤ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ٢٩١ وانظر : .

The Geography of Strabo (Trans.), by H . L . Jones , london 1966 .

٤٥ ـ موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص ٣ .

٤٦ ـ ديوارنت ـ قصة الحضارة ص ٢٩٣ .

٤٧ ـ موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص ٨٧ .

٤٨ ـ المرجع السابق ص ١٢١ .

٤٩ ـ المرجع السابق ص ٩٨ .

50 - H . G . Wells , A short history of the world , london 1930 , p . 36 .

٥١ ـ موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص ٢٣٠ .

٥٢ ـ المرجع السابق ص ٦ .

53 - Jacques pirenne , civilization antiques , paris 1951 , p . 55 .

٥٤ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ٢٩٣ .

٥٥ ـ برن ـ المرجع السابق ص ٥٧ .

56 - Diodoru Siculus , Diodorus of Cicily (trans.), C . Sherman and C . old father , Cambridge 1959 , p . 630 .

٥٧ ـ موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص ١٠١ .

58 - Herodotus , The histories (trans.), A . D . Godley , Cambridge 1963 , p . 555 .

٥٩ ـ توينبي ـ دراسة التاريخ ص ١٠٧ الهامش ٣ .

60 - H . Frankfort , The art and architecture of The ancient Orient , Harmonds Worth 1954 p . 84 .

61 - W . F . Albright , The role of The Canaanites In The history of civilization , N . Y . 1961 , P . 171 .

62 - W . F . Albright , The archaeology of palestine , london 1960 , p . 90 .

٦٣ ـ موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص ٥٢ .

٦٤ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ١٣٢ .

٦٥ ـ موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص ٤٥ .

٦٦ ـ ديورانت . المرجع السابق .

67 - Moshe Menuhin , The decadence of Judaism in our time , Beirut 1969 , p . 7 .
68 - H. G. Wells, The outline of history, N. Y. 1921, P.97 .

٦٩ ـ المرجع السابق .

٧٠ ـ توينبي ـ الإنسان والأرض الأم ص ١٠٢ الهامش ٣٦ .

68 - H . and H . A . Frankfort ; J . A . Wilson ; Th . Jacobsen , Before philosophy , london 1961 , p . 217 .

٧٢ ـ المرجع السابق ص ١٤٠ و ٢٠١ .

73 - S . N . Kramer , From The tablets of Sumer , cOlorado 1956 , p . 26 .

٧٤ ـ موسكاتي ـ الحضارة السامية القديمة ص ٧٩ الهامش ١٤ .

75 - G . Driver ; J . C . Miles , The Babylonian laws , oxford 1952 , p . 115 .
76 - J . pritchard , Ancient neareastern texts , princeton 1969 , p . 159 .

وانظر كريمر ـ من ألواح سومر ص ٩٨ .

77 - Georges Roux , Ancient Iraq , london 1980 , p . 190 .
- J . Breasted . The conquest of civilization , N . Y . 1938 P . 146 .

بريتشارد ـ نصوص الشرق المتوسطي القديم ص ١٦٣ .

فرانكفورت وآخرون ـ ما قبل الفلسفة ص ٢٠٨ .

78 - R . F . Harper , Code of Hammurabi , London 1904 , p .165 .

٧٩ ـ المرجع السابق .

٨٠ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ٢٢٠ وانظر : .

M . Jastrow , The civilization of Babylonia and Assyria , N . Y . 1980 , P . 272 .

٨١ ـ ديورانت المرجع السابق .

82 - G . Driver ; J . C . Miles , The Assyrian laws , london 1954
- A . Goetze , The laws of Eshnunna , N . Haven 1956 .
83 - Aristotle , The politics (trans.), E . Barker , oxford 1952 .
84 - Josephus . Jewish Antiquities (Trans.), H . Thackeray and R . Marcus . Cambridge 1963 .

٨٥ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ١٢٩ .

٨٦ ـ انظر ما فصّله س . كريمر في كتابه «من ألواح سومر» عن المدارس الأولى في سومر، وعن مناهج التربية والتعليم فيها .

٨٧ ـ برستد ـ انتصار الحضارة ص ١٥٠ الهامش ٧٧ .

٨٨ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ٢٥٦ .

89 - G . Childe , New light on The most ancient east , london 1952 , p . 117 .

٩٠ ـ انظر ما كتبه في هذا الموضوع :

M. Jastrow , The civilization of Babylonia and Assyria , N . Y . 1980 , P . 258 .
G . Maspero , The dawn of civilization , London 1894 , p . 778 .
G . Rawlinson , The story of The nations , london 1889 , II , P . 580 .

ديورانت ـ قصة الحضارة ص ٢٥٦ .

٩١ ـ برستد ـ انتصار الحضارة ص ١٧٩ و ١٨٠ .

٩٢ ـ المرجع السابق .

٩٣ ـ المرجع السابق .

94 - W . B . Fleming , History of Tyre , N . Y . 1915 , P . 87 .

٩٥ ـ موسكاتي ـ الحضارة السامية القديمة ص ٧٩ الهامش ١٤ .

96 - Strabo , The Geography (Trans.), by H . L . Jones , london 1966 (16 : 23) .

Herodote , Histoire , paris 1964 (7 : 36) .

٩٧ ـ بوزيدونيوس . ولد سنة ١٣٥ ق . م . في أفاميا على نهر العاصي. رحل إلى روما، وأقام زمناً في جزيرة رودس حيث أنشأ مدرسة قصده إليها كثير من مشاهير اليونان للاستماع إلى محاضراته .

98 - H . W . Van loon , The story of Mankind , U . S . A . 1921 P . 55 .

٩٩ ـ برستد ـ انتصار الحضارة ص ١٨١ الهامش ٧٧ .

١٠٠ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ٢٥٧ .

١٠١ ـ موسكاتي ـ الحضارة السامية القديمة ص ٦٣ الهامش ١٤ .

102 - H . Frankfort , studies in early pottery of The neareast , London 1924 , p . 57 .

١٠٣ ـ برستد ـ انتصار الحضارة ص ١٣٤ الهامش ٧٧ .

١٠٤ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ١٢١ .

١٠٥ ـ المرجع السابق ص ٢٧٩ .

١٠٦ ـ أندريه بارو ـ سومر ص ١١٧ الهامش ٢١ .

١٠٧ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ٢٧٩ .

108 - W . A . Ward , The role of phoenicians in The interaction of Mediterranean civilization , Beirut 1968 .

١٠٩ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ١٣٤ .

١١٠ ـ المرجع السابق ص ١٣١ .

١١١ ـ موسكاتي ـ الحضارة السامية القديمة ص ٦٦ الهامش ١٤ .

112 - E . Chiera , They wrote on clay , Chicago 1938 , p . 118 .

١١٣ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ٢٧٧ .

١١٤ ـ موسكاتي ـ الحضارة السامية القديمة ص ٧٩ .

١١٥ ـ أندريه بارو ـ سومر ص ١١٩ الهامش ٢١ .

١١٦ ـ فولكو ـ الإله الكنعاني رشف . الهامش ٩ .

١١٧ ـ توينبي ـ دراسة التاريخ ص ٧٠ الهامش ٣ .

١١٨ ـ برستد ـ انتصار الحضارة ص ١٤٣ الهامش ٧٧ .

119 - S . Moscati , An introduction to the comparative grammar of the semitic languages , Wiesbaden 1964 , p . 118 .

١٢٠ ـ توينبي ـ دراسة التاريخ . الهامش ٣ .

121 - E . Renan , Histoire générale de langues semitiques , paris 1850 .

١٢٢ ـ المسعودي ـ التنبيه والإشراف ص ٧٧ .

١٢٣ ـ د . فيليب حتي ـ اللغات السامية المحكية ـ بيروت ١٩٢٢ ص ٢١ .

١٢٤ ـ موسكاتي ـ الحضارة السامية القديمة . الهامش ١٤ .

١٢٥ ـ بارو ـ سومر ص ١٢١ الهامش ٢١ .

١٢٦ ـ موسكاتي ـ الحضارة السامية القديمة .

١٢٧ ـ إسرائيل ولفنسون ـ تاريخ اللغات السامية ـ القاهرة ١٩٢٩ ص ٣ .

128 - C . Brockelman , syrische grammatik , Berlin 1923 .

١٢٩ ـ محمود فهمي حجازي ـ علم اللغة العربية ـ الكويت ١٩٧٣ .

١٣٠ ـ الأب انستاس ماري الكرملي ـ نشوء اللغة العربية ـ القاهرة ١٩٣٨ ص ٦٧ .

131 - IZZ - al - Din Al - yasin , The lexical relation between Ugaritic and Arabic , N . Y 1952 , P . 5 .

١٣٢ ـ القس يوسف حبيقة ـ اللغة السريانية في سوريا ولبنان . لبنان ١٩٠٢ .

133 - M . Dunand , Byblia Grammata , Beyrouth 1945 .

١٣٤ ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ـ القاهرة ١٩٠١ ص ٤٧٦ .

١٣٥ ـ عبد الله النحاس ـ الفينيقيون وركائز الذهب واكتشاف أميركا ـ دمشق ١٩٥٠ .

١٣٦ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ٢٩٣ .

١٣٧ ـ موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص ٨٨ الهامش ٢٧ .

١٣٨ ـ هيرودتس ٥ : ٥٨ .

١٣٩ ـ موسكاتي ـ عالم الفينيقيين .

١٤٠ ـ توينبي ـ دراسة التاريخ .

141 - Abel Rey , la science orientale avant les Grecs , paris 1930 .

١٤٢ ـ موريس دونان . الهامش ١٣٣ .

143 - S . Segert , A Grammar of phoenition and punic , Germany 1976 , p . 3 .

١٤٤ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ٢٩٥ .

145 - G . Botsford , A history of The ancient world , N . Y. 1914 , P . 40 .

١٤٦ ـ موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص ٨٨ الهامش ٢٧ .

١٤٧ ـ المرجع السابق ص ٩٠ .

١٤٨ ـ جورج كونتينو ـ المدنية الفينيقية ص ١٥٧ الهامش ١٣ .

١٤٩ ـ التعبير لفلاسفة التاريخ المعاصرين كأرنولد توينبي وأزوالد شبنغلر .

١٥٠ ـ موسكاتي ـ الحضارة السامية القديمة ص ٣٧ .

١٥١ ـ المرجع السابق ص ٣٩ .

١٥٢ ـ موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص ١٠ و ١٥ و ١٦ و ١٨ .

١٥٣ ـ فرانكفورت ـ ميلاد الحضارة في الشرق المتوسطي القديم ـ مقدمة الكتاب . الهامش ٣٢ .

١٥٤ ـ سترابو . الهامش ٩٦ .

155 - V . Berard . les phoniciens et L'odyssée , paris 1902 .

156 - T . J . Dunbaben , The Greeks and Their eastern neighbours , london 1957 .

١٥٧ ـ د . جورج عطية ـ مباحث في المدنية الأولى ـ بيروت ١٩٥٦ ص ٢٥ .

١٥٨ ـ بيرار ـ الهامش ١٥٥ .

١٥٩ ـ بارو ـ سومر . الهامش ٢١ .

١٦٠ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ٢٦٣ .

١٦١ ـ موسكاتي ـ الحضارة السامية القديمة ص ١٠٨ .

١٦٢ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ٢١٨ .

١٦٣ ـ فان لون . الهامش ٩٨ .

١٦٤ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ١١٦ .

١٦٥ ـ تشايلد ـ ضوء جديد على حضارة الشرق القديمة ص ١٣٦ . الهامش ٨٩ .

١٦٦ ـ موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص XVII .

167 - F . C . Movers , Die phoénizier , Berlin 1841 .

١٦٨ ـ موسكاتي ـ عالم الفينيقيين .

١٦٩ ـ بوتسفورد . الهامش ١٤٥ .

١٧٠ ـ ر . بريدوود في مقدمته لكتاب كوفان . الهامش ٣٤ .

171 - R . Linton , Tree of culture , N . Y . 1955 , P . 68 .

١٧٢ ـ برستد ـ انتصار الحضارة ص ١٥١ .

173 - F . Poulsen , Der orient und die frueh grieschische Kunst , Berlin 1912 .

174 - L . Droepfeld , Alt olympia , Berlin 1935 .

١٧٥ ـ ديودورس ١ : ١٧ .

١٧٦ ـ هيرودتس ٦ : ١٣ .

177 - M . Hourse - Mlédan , Carthage , paris 1959 , p . 137 .

178 - J . Ferron , Mort - Dieu de Carthage , paris 1975 .
- J . Ferron , orants de Carthage , paris 1974 .

١٧٩ ـ سترابو ١٧ : ٣ .

١٨٠ ـ انطون مورتغات ـ تاريخ الشرق الأدنى القديم . برلين ١٩٥٠ .
(بالالمانية) ترجمة سليمان وطوير . دمشق ١٩٦٧ .

١٨١ ـ بيرار . الهامش ١٥٥ .

١٨٢ ـ جاك بيرن . الهامش ٥٣ .

١٨٣ ـ المرجع السابق .

١٨٤ ـ سترابو ٣ : ٥ .

185 - Ch . Virolleaud , légends de Bablone et de Canaan , paris 1949 , p . 183 .

١٨٦ ـ بريتشارد ـ نصوص الشرق المتوسطي القديم . الهامش ٧٦ ص ٤٢٧ .

١٨٧ ـ موسكاتي ـ الحضارة السامية القديمة . وبريتشارد ص ٤٢٥ .

188 - J . Bidez , la vie de porphyre , leipzig 1913 .

١٨٩ ـ نشير إلى دراسة د . جورج عطية في كتابه «مباحث في المدنية الأولى» بيروت ١٩٥٦ وإلى بعض أعمال لوسيان ترجمها سعد صائب ومفيد عرنوق ـ بغداد ١٩٧٩ .

١٩٠ ـ جورج عطية . المرجع السابق .

191 - P . M . Schuhl . les stoiciens , paris 1960 .

١٩٢ ـ المرجع السابق .

193 - A . Schweitzer , The philosophy of civilization , london 1960 .
- B . Russel , Religion and science , london 1960 .

١٩٤ ـ من قرار تمجيده الذي نقشه الاثينيون على عمودين رفعا في مدرستي أفلاطون وأرسطو .

195 - B . Russel , A history of western philosophy , N . Y . 1945 .

196 - Diogène laerce , Doctrine et sentences des philosophes illustres , paris 1965 .

١٩٧ ـ المرجع السابق .

198 - E . Zeller . The stoics . N . Y . 1962 .

١٩٩ ـ موسكاتي ـ عالم الفينيقيين .

٢٠٠ ـ كريمر ـ من ألواح سومر . الهامش ٧٣ .

٢٠١ ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ص ١١٨ .

202 - C . Gordon , ugaritic handbook , Rome , 1947 .

٢٠٣ ـ زريق الهامش ٦ .

٢٠٤ ـ مورتغات الهامش ١٨٠ .

٢٠٥ ـ كيلر ـ التوراة كتاريخ ص ٢٧ الهامش ٢٨ .

206 - W . F . Albright , yahweh and The Gods of Canaan , london 1968 , p . 96 .

207 - E . O . James , The ancient Gods, N.Y. 1960, P.3 .

208 - H and H. Frankfort , The intellectual adventur of ancient man , chicago 1946 , p . 7 .

٢٠٩ ـ بريتشارد ـ نصوص الشرق المتوسطي القديم ص ١٧٩ الهامش ٧٦ .

٢١٠ ـ د . يوسف الحوراني ـ البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي الأسيوي القديم ـ بيروت ١٩٧٨ ص ١٧٤ .

211 - M.Eliade, Patterns in comparative religion, London 1967, P.38.

212 - M. Eliade, Aspects du mythe, Paris 1963, P. 15 .

213 - S . N . Kramer , sumerian Mythology , philadelphia 1944 p . 40 .

213 - S . N . Karmer, History begins at sumer, philadelphia 1981 p . 82 .

214 - G . Rawlinson , The religions of The ancient world , N . Y . 1883 , P . 65 , 67 .

215 - G.R. Driver, Canaanite myths and legends, Edinburgh 1976, P.133 .
A. Heidel, The Babylonian Genesis, London 1963, P. 33 .
موسكاتي ـ الحضارة السامية القديمة ص ٧٠ الهاش ١٤ .

٢١٦ ـ كريمر ـ التاريخ يبدأ في سومر . الهامش ٢٣ .

٢١٧ ـ كريمر المرجع السابق ص ٢٥٥ والميثولوجيا السومرية ص ٥٥ .

٢١٨ ـ سموق ان «سيد الماشية» .

٢١٩ ـ هيدل ـ التكوين البابلي ص ٥٣ و٥٧ و٦٢ و٦٣ .

٢٢٠ ـ بريتشارد ـ نصوص الشرق المتوسطي القديم ص ٤٧٥ وانظر :
S.N. Kramer, The Sumerian, Chicago 1963, P. 175 .

٢٢١ ـ المرجع السابق ص ١٧٥ .

٢٢٢ ـ بريتشارد ـ نصوص الشرق المتوسطي القديم ص ٥٧٥ الهامش ٧٦ وجورج روكس ـ العراق القديم ص ٩٥ الهامش ٧٧ وكريمر ـ السومريون ص ٩٢ الهامش ٢٢٠ .

٢٢٣ ـ كريمر ـ من ألواح سومر ص ١٦١ والتاريخ يبدأ في سومر ص ١٣٣ .

٢٢٤ ـ المرجع السابق .

٢٢٥ ـ كريمر ـ التاريخ يبدأ في سومر ص ١٠٩ .

٢٢٦ ـ كريمر ـ الميثولوجيا السومرية ص ٨١ .

٢٢٧ ـ فرانكفورت وآخرون ـ ما قبل الفلسفة ص ١٦٠ الهامش ٧١ .

٢٢٨ ـ كريمر ـ التاريخ يبدأ في سومر ص ٩٣ .

٢٢٩ ـ كريمر ـ السومريون ص ١٧٧ .

٢٣٠ ـ كريمر ـ الميثولوجيا السومرية ص ٥٨ .

٢٣١ ـ كريمر ـ السومريون ص ١٧٤ .

٢٣٢ ـ المرجع السابق .

٢٣٣ ـ فرانكفورت وآخرون ـ ما قبل الفلسفة ص ١٧٤ .

٢٣٤ ـ بريتشارد ـ نصوص الشرق المتوسطي القديم ص ٦٤٧ .

٢٣٥ ـ المرجع السابق .

٢٣٦ ـ كريمر ـ الميثولوجيا السومرية ص ٤٨ .

٢٣٧ ـ المرجع السابق ص ٥٥ .

238 - S.N. Kramer, The Sacred marriage rite, Bloomington 1969, P. 52 .

٢٣٩ ـ المرجع السابق ص ٤٢ .
٢٤٠ ـ انظر ما كتبه في هذا الموضوع المفكر اللغوي الكبير الأب أ.س. مرمرجي الدومنكي في مؤلفه «المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية» . القدس ١٩٣٧ .
٢٣١ ـ ما لنا وللبحاثة والمؤرخين العرب ، فليس لأي منهم بحث في هذا الموضوع على الإطلاق . وهم يقتبسون المصطلحات والأسماء والتعاريف التي وضعها الكُتّاب الغربيون ، أو بالأحرى يقتبسون كل شيء في هذا الباب عن الغربيين ، من دون أي محاولة للتبصّر في ما يأخذون ، أو على الأقل ، التفكير في ما ينقلون .
٢٤٢ ـ لا تزال الإمالة المضمومة على ألسنة سكان مدينة طرابلس مثلاً (٥٠ ميلاً إلى الشمال من بيروت) . فألفاظ من مثل : نار جار كاتب سامر لاهب ، تسمعها على ألسنتهم : نُور جُور كُوتِب سُومِر لُوهِب .
243 - P. Matthiae, Ebla, An Empire rediscovered, London 1980 .
٢٤٤ ـ ما لنا وللبحّاثة والمؤرخين العرب ، فهم مقصّرون في هذه المواضيع كثيراً ، ولا شيء يذكر لواحد منهم في هذا الباب .
٢٤٥ ـ ولكم أتمنّى أن ينال هذا الموضوع اهتمام الباحثين المختصّين أو الذين يعدّون الأُطروحات الجامعية .
246 - Joan oates, Babylon, London 1979 .
- Morris Jastrow, Aspects of religious belief and practice in Babylonia and Assyria, London 1911 .
247 - E. Chiera, Lists of personal names from the temple school of Nippur, Philadelphia 1916 .
248 - Leroy waterman, Royal Correspondence of the Assyrian Empire, Michigan 1930 .
249 - H.B. Huffmon, Amorite personal names in the Mari texts, Baltimore 1964 .
250 - Alfonso Archi, Eblite personal names and semitic name - Giving, Roma 1988 .
251 - E. Littmann Semitic inscriptions, N.Y. 1904 .
- E. Littmann, Thamud und Safa, Leipzig 1940 .
252 - L. De vogue, Inscriptions semitiques, Paris 1868 .
253 - G.L. Harding, Some thamudic inscriptions from Jourdan, Leiden 1952 .
254 - Alb. Van Den Branden, Les inscriptions Dédanites, Beyrouth 1962 .
- Alb. Van Den Branden, Les texts Thamoudéens de philby, Lou Vain 1956 .
- Alb. Van Den Branden, Les inscriptions Thamoudéens, Louvain 1950 .
255 - R. Dussaud, Mission dans les régions désertiques de la Syrie Moyenne, Paris 1868 .
256 - F.V. Winnett and W.L. Reed, Ancient records from North Arabia, toronto 1970 .
257 - W. Caskel, Lihyan und Lihyanisch, Berlin 1953 .
258 - R.R.PP. Jaussen et savignace, Mission archéologique en Arabie, Paris 1914 .
259 - A. Jamme, Sabaean inscriptions from Mahram Bilqis (Marib) Baltimore 1962 .
260 - A. Jamme, Pièces Épigraphiques de Heid Bin "aqil la Né crople de Timna" (Hogr Kohlan) Louvain 1952 .
261 - J. Ryckmans, L'Institution monarchique en Arabie Méridionale avant L'Islam, Louvain 1951 .
- J. Rychmans, La chronologie des Rois de Saba et du-Raydan, Istanbul 1964 .
٢٦٢ ـ اغناطيوس غويدي ـ المختصر في علم العربية الجنوبية ـ القاهرة ١٩٣٠ .
263 - M. Wheeler, Southern Arabia, London 1971 .
264 - G. Ryckmans, Les names propres Sud - Semitiques, Louvain 1934 .
٢٦٥ ـ كييرا . الهامش ٢٤٧ .
266 - WM. J. Hinke, A new boundary stone of Nebuchadressar from Nippur, Philadelphia 1907 .
267 - I. Gelb; P.M. Purves; A. Machae, Nuzi personal names, Chicaho 1963 .
٢٦٨ ـ أواتس وجاسترو . الهامش ٢٤٦ .
269 - J.J.M. Roberts, The earliest semitic pantheon, London 1972 .
270 - W.F. Leemans, Legal and conomic record from the Kingdom of Larsa, Leiden 1954 .
271 - L.W. King, Letters and inscriptions of Ammurabi, London 1900 .

272 - J. Montgomery, Aramaic inscriptions texts from Nippur, Philadelphia 1913 .
273 - H. Ranke, Early Babylonian personal names, Philadelphia 1905 .
٢٧٤ ـ ووترمان ـ الهامش ٢٤٨ .
275 - M.T. Larsen, The old Assyrian city - state and its colonies, Copen Hagen 1976 .
٢٧٦ ـ هوفمون . الهامش ٢٤٩ .
٢٧٧ ـ أركي . الهامش ٢٥٠ .
278 - F. Benz, Personal names in the phoenician and punic inscriptions, Rome 1972 .
279 - J. Gibson, Text book of Syrian semitic Inscription, Oxfard 1971 .
280 - R. Dussaud, Mission dans les régions désertiques de la Syrie Moyenne, Paris 1868 .
281 - R. Dussaud et F. Macler, Voyage archéolgique au Safa, Paris 1901 .
282 - J. Cantineau, La Nabatéen, Paris 1930 .
٢٨٣ ـ براندن . الهامش ٢٥٤ .
٢٨٤ ـ دي فوغيه . الهامش ٢٥٢ .
285 - F.V. Winnett, Safaitic inscriptions from Jourdan, Toronto 1957 .
وانظر هاردنج . الهامش ٢٥٣ .
٢٨٦ ـ براندن . الهامش ٢٥٤ .
٢٨٧ ـ كاسكل . الهامش ٢٥٧ .
٢٨٨ ـ براندن . الهامش ٢٥٤ .
٢٨٩ ـ وينيت وريد. الهامش ٢٥٦ .
٢٩٠ ـ جوسين . الهامش ٢٥٨ .
٢٩١ ـ جام . الهامش ٢٥٩ .
٢٩٢ ـ جام . الهامش ٢٦٠ .
٢٩٣ ـ ركمانز . الهامش ٢٦١ .
294 - G.C. Thampson, The Tomps and moon temple of Hureidha, London 1944 .
٢٩٥ ـ ويلر . الهامش ٢٦٣ .
296 - H.B. Philby, The background of Islam, Alexandria 1947 .
297 - W.F. Albight, The bulletin of the American schools of oriental reserch, No. 119 .
- W. Phillips, Qataban and Sheba, London 1955 .
٢٩٨ ـ جام . الهامش ٢٦٠ .
٢٩٩ ـ فيلبي . الهامش ٢٩٦ .
٣٠٠ ـ لارسن . الهامش ٢٧٥ .
٣٠١ ـ أواتس . الهامش ٢٤٦ وجورج روكس . الهامش ٧٧ .
٣٠٢ ـ ووترمان ـ الهامش ٢٤٨ .
٣٠٣ ـ جيلب وآخرون . الهامش ٢٦٧ .
٣٠٤ ـ كينغ . الهامش ٢٧١ .
٣٠٥ ـ لارسن . الهامش ٢٧٥ .
٣٠٦ ـ أواتس . الهامش ٢٤٦ .
٣٠٧ ـ جيلب وآخرون . الهامش ٢٦٧ .
٣٠٨ ـ كيبرا . الهامش ٢٤٧ .

٣٠٩ ـ أواتس . الهامش ٢٤٦ وجورج روكس الهامش ٧٧ .

٣١٠ ـ رانك . الهامش ٢٧٣ .

٣١١ ـ هنك . الهامش ٢٦٦ .

٣١٢ ـ كينغ . الهامش ٢٧١ .

٣١٣ ـ ووترمان . الهامش ٢٤٨ .

٣١٤ ـ بريتشارد . الهامش ٧٦ ص ٥٧٦ .

٣١٥ ـ درايفر ـ أساطير وملاحم كنعانية ص ٩٧ الهامش ٢١٥ .

٣١٦ ـ بريتشارد ـ نصوص الشرق المتوسطي القديم ص ٥٧٥ .

317 - H. Ringgren, Religions of the ancient Near east, London 1973 P.6 .

٣١٨ ـ هذه المقتطفات من نصوص أوغاريت في كتاب درايفر «أساطير وملاحم كنعانية» . الهامش ٢١٥ .

٣١٩ ـ تجد هذه المقتطفات في كتاب درايفر ـ المرجع السابق . وفي كتاب البرايت «يهوه وآلهة كنعان» ص ١٠٧ وفي كتاب فرانكفورت وآخرون «ما قبل الفلسفة» ص ١٥٧ وفي كتاب بريتشارد «نصوص الشرق المتوسطي القديم» ص ٥٧٦ وفي كتب كريمر «ألواح من سومر» ص ٧٨ والميثولوجيا السومرية ص ٤٠ و ٥٢ والتاريخ يبدأ في سومر ص ٩١ .

٣٢٠ ـ كريمر «التاريخ يبدأ في سومر» ص ٨٢ .

٣٢١ ـ فرانكفورت وآخرون «ما قبل الفلسفة» ص ١٥٣ .

322 - M. Eliada, Aspects du Mythe, Paris 1963 P. 118 .

٣٢٣ ـ المرجع السابق .

324 - Lucian, The Syrian Goddess (Trans.) H. Strong, London 1913 P. 43 .

٣٢٥ ـ ابن الكلبي «كتاب الأصنام» القاهرة ١٩٢٤ ص ٢١ .

٣٢٦ ـ أواتس . الهامش ٢٤٦ .

٣٢٧ ـ هنك . الهامش ٢٦٦ .

٣٢٨ ـ ووترمان . الهامش ٢٤٨ .

329 - R. Harper, Assyrian and Babylonian Literature, N.Y. 1901 .

330 - British Museum, A Guide to the Babylonian and Assyrian antiquities, London 1908 .

٣٣١ ـ ووترمان . الهامش ٢٤٨ .

٣٣٢ ـ هنك . الهامش ٢٦٦ .

٣٣٣ ـ كينغ . الهامش ٢٧١ .

٣٣٤ ـ رانك . الهامش ٢٧٣ .

٣٣٥ ـ أواتس . الهامش ٢٤٦ .

٣٣٦ ـ لارسن . الهامش ٢٧٥ .

٣٣٧ ـ رانك . الهامش ٢٧٣ .

٣٣٨ ـ هوفمون . الهامش ٢٤٩ .

٣٣٩ ـ رانك . الهامش ٢٧٣ .

٢٤٠ ـ جيلب وآخرون . الهامش ٢٦٧ .

٣٤١ ـ كبيرا . الهامش ٢٤٧ .

٣٤٢ ـ ووترمان . الهامش ٢٤٨ .

٣٤٣ - كينغ . الهامش ٢٧١ .

٣٤٤ - لارسن . الهامش ٢٧٥ .

٣٤٥ - بينز . الهامش ٢٧٨ .

٣٤٦ - جام . الهامش ٢٥٩ .

٣٤٧ - ووترمان . الهامش ٢٤٨ .

٣٤٨ - جيلب وآخرون . الهامش ٢٦٧ .

٣٤٩ - بريتشارد . الهامش ٧٦ .

٣٥٠ - ووترمان . الهامش ٢٤٨ .

٣٥١ - بريتشارد . الهامش ٧٦ .

٣٥٢ - أواتس . الهامش ٢٤٦ .

٣٥٣ - جيلب وآخرون . الهامش ٢٦٧ .

٣٥٤ - جبسون . الهامش ٢٧٩ .

٣٥٥ - ووترمان . الهامش ٢٤٨ .

٣٥٦ - المرجع السابق .

٣٥٧ - رانك . الهامش ٢٧٣ .

٣٥٨ - جيلب وآخرون . الهامش ٢٦٧ .

٣٥٩ - هوفمون . الهامش ٢٤٩ .

٣٦٠ - هنك . الهامش ٢٦٦ .

٣٦١ - كينغ . الهامش ٢٧١ .

٣٦٢ - هاربر . الهامش ٣٢٩ .

363 - A.T. Olmstead, History of Palestine and Syria, London1 1931 .
- L. Fisher, Ras shamra parallels «The texts from ugarit» Vol 1 Roma 1972 .
وانظر جبسون الهامش ٢٧٩ وبينز . الهامش ٢٧٨ .

364 - J. Brian peckham, The development of the late phoenician scripts, Harvard 1968 .

365 - J. Segal, Aramaic texts from Norht Saqqara, London 1983 .

٣٦٦ - وينيت وريد . الهامش ٢٥٦ .

٣٦٧ - جبسون الهامش ٢٧٩ وبينز الهامش ٢٧٨ وسيجرت الهامش ١٤٣ .

٣٦٨ - بينز وسيجرت المرجع السابق .

٣٦٩ - كاسكل . الهامش ٢٥٧ .

٣٧٠ - كييرا . الهامش ٢٤٧ .

٣٧١ - أواتس . الهامش ٢٤٦ ورروكس . الهامش ٧٧ .

٣٧٢ - كينغ . الهامش ٢٧١ .

٣٧٣ - دي فوغيه . الهامش ٢٥٢ .

٣٧٤ - هاردنج . الهامش ٢٥٣ وبراندن . الهامش ٢٥٤ .

٣٧٥ - كانتينو . الهامش ٢٨٢ .

٣٧٦ - وينيت وريد . الهامش ٢٥٦ .

٣٧٧ - جام . الهامش ٢٥٩ .

٣٧٨ ـ براندن . الهامش ٢٥٤ .
٣٧٩ ـ كاسكل . الهامش ٢٥٧ .
٣٨٠ ـ فيلبي . الهامش ٢٩٦ .
٣٨١ ـ جام . الهامش ٢٥٩ .
٣٨٢ ـ جام . الهامش ٢٦٠ .
٣٨٣ ـ فيلبي . الهامش ٢٩٦ .
٣٨٤ ـ جبسون . الهامش ٢٧٩ .
٣٨٥ ـ بينز . الهامش ٢٧٨ .
386 - G. Barton, The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, N. Haven 1929 P. 13 .
٣٨٧ ـ المرجع السابق ص ٣٨٧ .
388 - S.N. Kramer and Diane wolkstein, Inanna, Queen of Heaven and earth, N.Y. 1983 P. 43 .
٣٨٩ ـ بريتشارد «نصوص الشرق المتوسطي القديم» ص ٦٤٢ .
390 - H. Frankfort, Kingship and the Gods . Chicago 1948 .
٣٩١ ـ كريمر ـ التاريخ يبدأ في سومر ص ٣١٠ .
٣٩٢ ـ كريمر ـ انانا ص ٤٤ والتاريخ يبدأ في سومر ص ٣١٢ .
٣٩٣ ـ المرجع السابق ص ٣٥ وص ٣١٣ .
٣٩٤ ـ كريمر ـ التاريخ يبدأ في سومر الهامش ٣١٧ .
٣٩٥ ـ كريمر ـ انانا ص ٤٦ .
٣٩٦ ـ المرجع السابق ص ٤٧ .
٣٩٧ ـ بريتشارد ـ نصوص الشرق المتوسطي القديم ص ٦٤٣ .
٣٩٨ ـ هيرودتس ١ : ١٩٩ .
٣٩٩ ـ ديورانت قصة الحضارة ص ٢٣٩ .
400 - J.G. Frazer, The golden bough, London 1976 P. 429 .
٤٠١ ـ المرجع السابق .
٤٠٢ ـ درايفر : أساطير وملاحم كنعانية ص ١٠٩ و١٠٥ و١٠٧ و ١١٥ .
٤٠٤ ـ المرجع السابق ص ١٠٩ و ١١١ و١١٣ .
٤٠٤ ـ حوراني ـ البنية الذهنية الحضارية ص ٢٢٦ .
٤٠٥ ـ درايفر ص ٩٧ و١١٣ .
٤٠٦ ـ المرجع السابق ص ٥٥ .
٤٠٧ ـ د . يوسف الحوراني «لبنان في قيم تاريخه» بيروت ١٩٧٢ ص ٢١٢ .
407* - G . Rawlinson , The ancient world , N . Y . 1883 P . 138 .
٤٠٨ ـ فريزر ـ الغصن الذهبي ص ٤٣٥ الهامش ٤٠٠ .
٤٠٩ ـ ديورانت قصة الحضارة ص ٢٤٥ .
٤١٠ ـ المرجع السابق .
٤١١ ـ موسكاتي عالم الفينيقيين ص ١١٤ .
٤١٢ ـ ابن النديم ـ الفهرست .
٤١٣ ـ فريزر الغصن الذهبي ص ٤٢٨ .

٤١٤ ـ المرجع السابق ص ٤٣٠ وموسكاتي عالم الفينيقيين ص ٣٣ .
٤١٥ ـ مورتغات ـ تاريخ الشرق الأدنى القديم . مقدمة الكتاب .
٤١٦ ـ لوسيان «الإلهة البيضاء» الهامش ٣٢٤ .
417 - J . Fonterose , white Goddess and Syrian Goddess, University of California's, publication in semitic philology Vol . 11 , 1951 .
٤١٨ ـ د . فيليب حتي «تاريخ سوريا» بيروت ١٩٨٢ ص ٣ .
٤١٩ ـ زريق في معركة الحضارة .
٤٢٠ ـ أعتقد أن من الضروري استثناء الهند والصين من هذا الحكم . فتعاليم بوذا في الهند وكونفوشيوس في الصين أشاعت مفاهيم أخلاقية، لا أستطيع الحكم عليها لأنني آسفاً لا أعرف عنها إلا القليل .
٤٢١ ـ فرانكفورت ـ ميلاد الحضارة في الشرق الأدنى القديم .
422 - M . Jastrow . The religion of Babylonia and Assyria london 1898 p . 324 .
٤٢٣ ـ المرجع السابق ص ٢٩٦ .
٤٢٤ ـ شاليم : السلام. ثم دعيت أورشليم أي مدينة السلام .
٤٢٥ ـ قاسم الشواف ـ مع الكلمة الصافية .
٤٢٦ ـ زريق المرجع السابق .
٤٢٧ ـ ديورانت قصة الحضارة ص ١٢٢ .
٤٢٨ ـ فرانكفورت وآخرون ـ ما قبل الفلسفة ص ٢٠٩ .
٤٢٩ ـ ديورانت ص ١٢٢ .
٤٣٠ ـ كريمر ـ التاريخ يبدأ في سومر ص ٥٢ .
٤٣١ ـ بريتشارد نصوص الشرق المتوسطي القديم ص ٥٨٣ .
٤٣٢ ـ ديورانت قصة الحضارة ص ١٢٠ و ١٢٦ .
٤٣٣ ـ ديورانت ص ٢١٩ وانظر :
F. Harper , Code of Hammurabi , london 1904 .
٤٣٤ ـ بريتشارد ـ نصوص الشرق المتوسطي القديم ص ٦٥٤ .
٤٣٥ ـ موسكاتي عالم الفينيقيين ص ٢٧ .
٤٣٦ ـ جيسون الهامش ٢٧٩ ص ٤٧ .
٤٣٧ ـ هاربر المرجع السابق ص ١٣٨ .
٤٣٨ ـ ديورانت ص ٢٢١ .
٤٣٩ ـ درايفر ـ أساطير وملاحم كنعانية ص ٥٣ الهامش ٢١٥ .
440 - W . R . Sorley , Moral Values and The Idea of God .
٤٤١ ـ بريتشارد ـ نصوص الشرق المتوسطي القديم ص ٥٩٧ .
٤٤٢ ـ ملحمة البعل ـ نصوص أوغاريت . انظر درايفر الهامش ٢١٥ ص ٨٧ .
٤٤٣ ـ المرجع السابق .
٤٤٤ ـ المرجع السابق .
445 - S . Langdon , Babylonian Wisdom , oxford 1921 p . 153 .
446 - H . Ringgren , Religions of The ancient Near east , london 1973 p . 84 .
٤٤٧ ـ سورلي المرجع السابق .
٤٤٨ ـ ديورانت قصة الحضارة ص ٢٣٥ .

٤٤٩ ـ بريتشارد نصوص الشرق المتوسطي القديم ص ٣٨٣ .
٤٥٠ ـ ديورانت المرجع السابق .
451 - M . Jastrow , The Civilization of Babylonia and Assyria , N . Y . 1980 P . 203 .
- The religion of Babylonia and Assyria , london 1898 p . 300 .
٤٥٢ ـ بريتشارد ص ٣٨٧ .
٤٥٣ ـ موسكاتي الحضارة السامية القديمة ص ٧٥ .
٤٥٤ ـ هيلمر رينغرين ـ ديانات الشرق الأدنى القديم ص ٥٩ .
٤٥٥ ـ بريتشارد ص ١٧٩ .
٤٥٦ ـ بريتشارد ص ٢٤٣ .
457 - Jean Bottéro , la religion Babylonienne , paris 1952 p . 121 .
٤٥٨ ـ رولنسون قصة الأمم ص ٦٠ الهامش ٩٠ وجاسترو ديانة بابل وأشور ص ٣٢١ الهامش ٤٢٢ .
٤٥٩ ـ بريتشارد ص ٣٩٢ وديورانت ص ٢٤٢ وجاسترو حضارة بابل وأشور ص ٤٧٣ .
٤٦٠ ـ بريتشارد ص ٣٩١ .
٤٦١ ـ بريتشارد ص ٣٨٨ .
٤٦٢ ـ بريتشارد ص ٣٨٥ .
٤٦٣ ـ لانغدن ـ الحكمة البابلية ص ١٤٢ .
٤٦٤ ـ لانغدن ص ١٤٣ وجاسترو ـ ديانة بابل وأشور ص ٣٢٣ .
٤٦٥ ـ لانغدن ص ١٤٣ .
٤٦٦ ـ جاسترو حضارة بابل وأشور ص ٤٦٦ وديورانت ص ١٢٩ .
467 - M . Jastrow , Aspects of religious belief and practice in Babylonia and Assyria , N . Y . 1911 .
٤٦٨ ـ المرجع السابق .
٤٦٩ ـ انظر مثلاً «ترنيمة إلى انليل» في كتاب بريتشارد «نصوص الشرق المتوسطي القديم» ص ٥٧٦ .
٤٧٠ ـ أرجو أن تراجع ردود فعل أبي مالك امام إبراهيم واسحٰق في حكاية ادعاء كل منهما بأن زوجته هي أخته . فهي خير شاهد على مناقبية الكنعاني الذي يخاف الله خوفه على القيم .
٤٧١ ـ جاسترو ـ ديانة بابل وأشور ص ٢٩٧ .
٤٧٢ ـ المرجع السابق ص ٣١٣ .
٤٧٣ ـ بريتشارد ص ٣٣٣ .
٤٧٤ ـ المرجع السابق ص ٣٣٥ .
٤٧٥ ـ جاسترو ـ ديانة بابل وأشور ص ٣١٨ وديورانت ص ٢٤١ .
٤٧٦ ـ بريتشارد ص ٣٣١ و ٣٣٢ .
٤٧٧ ـ كريمر ـ السومريون ص ١٢٤ ومن ألواح سومر، ص ١٠٠ والتاريخ يبدأ في سومر ص ١٠٤ .
٤٧٨ ـ بريتشارد ـ نصوص الشرق المتوسطي القديم ص ٦٥٥ .
٤٧٩ ـ المرجع السابق ص ٤٨ .
٤٨٠ ـ جان بوتيرو ـ الديانة البابلية ص ١١٩ .
٤٨١ ـ فرانكفورت وآخرون ـ ما قبل الفلسفة ص ٢٢١ .
٤٨٢ ـ جاسترو ـ ديانة بابل وأشور ص ٣٢٧ و ٢٩٥ .
٤٨٣ ـ المرجع السابق ص ٢٩٤ .

٤٨٤ ـ جاسترو ـ حضارة بابل وأشور ص ٢٢٤ .
٤٨٥ ـ جاسترو ـ ديانة بابل وأشور ص ٣٢٦ .
٤٨٦ ـ براندن ـ النقوش الثمودية . الهامش ٢٥٤ .
٤٨٧ ـ بعثة آثارية في العربية . الهامش ٢٥٨ .
٤٨٨ ـ ليتمان ـ ثمود وصفا . الهامش ٢٥١ .
٤٨٩ ـ وينيت ـ النقوش الصفوية من الاردن . الهامش ٢٨٥ .
٤٩٠ ـ المرجع السابق .
٤٩١ ـ جبسون ـ كتاب النقوش السورية ص ٩٥ .
٤٩٢ ـ المرجع السابق .
٤٩٣ ـ موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص ٢٧ و ٣٢ .
٤٩٤ ـ بريتشارد ص ٣٣٣ .
٤٩٥ ـ ابن منظور ـ لسان العرب .
٤٩٦ ـ ركمانز . الهامش ٢٦٤ .
٤٩٧ ـ الهامش ٢٨٥ و ٢٥٣ .
٤٩٨ ـ كانتينو ـ الانباط . الهامش ٢٨٢ .
٤٩٩ ـ ليتمان ـ ثمود وصفا . الهامش ٢٥١ .
٥٠٠ ـ وينيت وريد ـ المدوّنات القديمة من العربية الشمالية .
٥٠١ ـ الهامش ٢٥٨ .
٥٠٢ ـ كاسكل الهامش ٢٥٧ وبراندن الهامش ٢٥٤ .
503 - S . H . Hooke , Babylonian and Assyrian religion , oklahoma 1975 .
504 - Middle eastern Mythology , london 1978 .
٥٠٥ ـ رينغرين الهامش ٣١٧ .
٥٠٦ ـ رولنسون الهامش ٢١٤ .
٥٠٧ ـ جاسترو الهامش ٤٢٢ .
508 - L . Spence , Myths and legends of Babylonia and Assyria , london 1916 .
٥٠٩ ـ بارتون . الهامش ٣٨٦ .
٥١٠ ـ كلاي الهامش ١٢ .
٥١١ ـ ايلياد الهامش ٢١١ .
٥١٢ ـ البرايت الهامش ٢٠٦ .
513 - D . Harden , The phoenicians , London 1971 .
٥١٤ ـ غوردون . الهامش ٢٠٢ .
٥١٥ ـ جاسترد الهامش ٤٢٢ .
٥١٦ ـ كريمر التاريخ يبدأ في سومر .
٥١٧ ـ لانغدن الهامش ٤٤٥ .
٥١٨ ـ رينغرين الهامش ٣١٧ .
٥١٩ ـ بوتيرو الهامش ٤٥٧ .
٥٢٠ ـ رولنسون الهامش ٢١٤ .

521 - S . Moscati , the face of the ancient orient , london 1960 .

٥٢٢ ـ سبينس الهامش ٥٠٨ .

٥٢٣ ـ البرايت الهامش ٢٠٦ .

٥٢٤ ـ رولنسون الهامش ٢١٤ .

525 - W . F . Albright , Archaealogy and The religion of Israel . Baltimore , 1956

526 - A . Kaperlud , The Ras shamra discoveres and The old Testament , london 1962 .

527 - S . Langdon , The Babylonian epic of creation , oxford 1923 .

٥٢٨ ـ بوتيرو الهامش ٤٥٧ .

529 - W . Lambert , Babylonian Wisdom literature , oxford 1960 .

٥٣٠ ـ بارتون الهامش ٣٨٦ .

٥٣١ ـ البرايت الهامش ٥٢٥ .

٥٣٢ ـ هوفمون الهامش ٢٤٩ .

533 - W . F . Albright , From The stone age to christianity , N . Y . 1957 .

٥٣٤ ـ هوك الهامش ٥٠٣ .

٥٣٥ ـ رينغرين الهامش ٣١٧ .

٥٣٦ ـ ديورانت قصة الحضارة .

٥٣٧ ـ بينز الهامش ٢٧٨ .

J . Gray , The KRT text in The literature of Ras shamra , leiden 1964 .

C . Gordon , Ugaritic handbook , Rome 1947 .

٥٣٨ ـ جبسون الهامش ٢٧٩ .

٥٣٩ ـ لانغدن الهامش ٥٢٧ .

٥٤٠ ـ لامبرت الهامش ٥٢٩ .

٥٤١ ـ درايفر الهامش ٢١٥ .

٥٤٢ ـ جام الهامش ٢٥٩ .

٥٤٣ ـ كابرلود الهامش ٥٢٦ .

٥٤٤ ـ دي فوغيه الهامش ٢٥٢ .

٥٤٥ ـ البرايت الهامش ٢٠٦ .

٥٤٦ ـ رينغرين الهامش ٣١٧ .

٥٤٧ ـ رولنسون الهامش ٢١٤ .

٥٤٨ ـ جاسترو الهامش ٩٠ .

549 - R . Dussaud , la religions de phóéniciens , paris 1945 .

٥٥٠ ـ أركي الهامش ٢٥٠ .

٥٥١ ـ سبينس الهامش ٥٠٨ .

552 - J . pritchard , Archaeology and The old testament , princeton 1958 .

٥٥٣ ـ رينغرين الهامش ٣١٧ .

٥٥٤ ـ بارتون الهامش ٣٨٦ .

٥٥٥ ـ غراي الهامش ٥٣٧ .

٥٥٦ ـ جاسترو الهامش ٤٢٢ .

٥٥٧ ـ البرايت الهامش ٢٠٦ .
٥٥٨ ـ موسكاتي الهامش ٥٢١ .
٥٥٨ ـ البرايت الهامش ٥٢٥ .
559 - O . Eissfeldt , .El and Yahweh , Journal of semitic studies , Vol . 1 , 1956 .
٥٦٠ ـ جان بوتيرو الهامش ٤٥٧ .
561 - S . H . Langdon , The Mythology of all races , oxford 1931 .
562 - R . P . Dougherty , The sealand of ancient Arabia , N . Haven 1932 .
563 - G . Barton , The religions of The world , Chicago 1919 .
564 - M . Eliade, (Ed.), The Encyclopedia of religions , London 1987 .
٥٦٥ ـ ليتمان الهامش ٢٥١ .
٥٦٦ ـ براندن الهامش ٢٥٤ .
٥٦٧ ـ جيلب وآخرون الهامش ٢٦٧ .
٥٦٨ ـ كيرا الهامش ٥٤٧ .
٥٦٩ ـ أركي الهامش ٢٥٠ .
٥٧٠ ـ ووترمان الهامش ٢٤٨ .
٥٧١ ـ البرايت الهامش ٢٠٦ .
572 - J . Roberts , The earliest semitic pantheon , london 1972 .
٥٧٣ ـ بينز الهامش ٢٧٨ .
٥٧٤ ـ غراي الهامش ٥٣٧ .
٥٧٥ ـ جبسون الهامش ٢٧٩ .
٥٧٦ ـ أولمستد الهامش ٣٦٣ .
٥٧٧ ـ وينيت وريد الهامش ٢٥٦ .
٥٧٨ ـ جبسون الهامش ٢٧٩ .
٥٧٩ ـ مونتغمري الهامش ٢٧٢ .
580 - Burkhart Kienast , Sumer No . 35 , 1979 .
٥٨١ ـ ابن منظور «لسان العرب» .
٥٨٢ ـ الطبري «تاريخ الرسل والملوك» ليدن ١٨٨٤ ص ١١٧ .
٥٨٣ ـ الجواليقي «المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم» القاهرة ١٣٦٠ هـ ص ٢٩٩ .
584 - S . H . Hooke , Babylonian and Assyrian religion , oklahoma 1975 .
ترجمة نهاد خياطة ـ دمشق ١٩٨٧ .
٥٨٥ ـ قاسم الشواف ـ مع الكلمة الصافية ـ دمشق ١٩٦٩ .
٥٨٦ ـ د . يوسف الحوراني «نظرية التكوين الفينيقية» بيروت ١٩٧٠ .
٥٨٧ ـ كريمر ـ التاريخ يبدأ في سومر .
٥٨٨ ـ د . فاضل عبد الواحد وافي «عشتار ومأساة تموز» بغداد ١٩٧٣ .
٥٨٩ ـ د . أنور الرفاعي «الإنسان العربي والحضارة» بيروت ١٩٧٠ .
٥٩٠ ـ قسطنطين خمار «موسوعة فلسطين الجغرافية» بيروت ١٩٦٩ .

فهرست


$ 8,00